تصوير ابو عبدالرحمن الكردي

مختصر
كتاب الروضتين
في
أخبار الدولتين
النورية والصلاحية

للإمام أبي شامة
عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي الشافعي
رحمه الله تعالى (ت ٦٦٥)

اختصار وتعليق وفهرسة موضوعية
الدكتور محمد بن حسن بن عقيل موسى

دار الأندلس الخضراء
للنشر والتوزيع
جدة

مُخْتَصَرُ

كِتَابِ الرَّوْضَتَيْنِ فِي أَخْبَارِ الدَّوْلَتَيْنِ

«النّوريّة والصّلاحيّة»

للإمام أبي شامة

عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي الشافعي

رحمه الله تعالى (ت ٦٦٥)

تصنيف

د. محمد بن حسن بن عقيل موسى الشريف

دار الأندلس الخضراء
للنشر والتوزيع
جدة

حُقوقُ الطّبْع مَحفُوظَة

الطّبعَة الثانية

١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م

دار الأندلس الخضراء

الإدارة: حي الشفا - شارع بلخشب - سوق الجامعة التجاري
هاتف: ٦٨١٠٥٧٧ - فاكس: ٦٨١٠٥٧٨
فرع السلامة - شارع عبد الرحمن السديري - مركز الزومان التجاري
هاتف وفاكس: ٦٨٢٥٢٠٩ - ص.ب: ٤٢٣٤٠ - جدة ٢١٥٤١

تقديم

بقلم الأستاذ الدكتور: عبدالستار فتح الله سعيد

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد:

فإن التاريخ هو معرض الحياة البشرية بأنواعها، وهو مستودع العظات والعبر لمن تبصّر وتفكّر، وصدق الله: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ﴾ [سورة يوسف: آية ١١١]، ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ [الحشر: آية ٢].

ومن لا يعتبر تمضي فيه سنن الله الغالبة، ويصير عبرة يرويها التاريخ كما قال تعالى في أمثالهم: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ﴾ [سبأ: آية ١٩] ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمۡ سَلَفٗا وَمَثَلٗا لِّلۡأٓخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الزخرف: آية ٥٦].

وقد أحسن الإمام أبو شامة ـ رحمه الله ـ حين جمع لنا هذه الصفحات المشرقة من تاريخنا، وسجل سيرة هذين الحاكمين المؤمنين (نور الدين زنكي، وصلاح الدين الأيوبي) لتكون عظة ممدودة، وعبرة معروضة لمن أراد لنفسه وأمته خير الدنيا والآخرة.

إن سيرة الرجلين الجليلين تتلخص في صدق عبوديتهما لله تعالى، والانقياد لدينه والشعور بالمسئولية الدينية شعوراً غامراً، لذلك تأسست سياستهما على العدل والإحسان، فالتفت حولهما القلوب بالحب والولاء، والأيدي بالجهاد والفداء، وحينئذ تنزل نصر الله والفتح، ورد الله تعالى بيت المقدس للأمة المسلمة، وهزم أعداءه، ونصر جنده نصراً مبيناً.

والقصة الآن تتكرر في الأرض المقدسة.

اليهود يعربدون ويفجرون في الأرض، وهم أشد عداوة للذين آمنوا، لذلك جاوزوا الصليبيين طغياناً وكفراً.

والأمة مشتتة مفككة، حائرة خائرة، مع أنها تملك وسائل النصر.

والطريق واضح لكل ذي عينين، فلا صلاح، ولا إصلاح، ولا مخرج إلا بالإسلام العظيم، «ومهما ابتغينا العز في غيره أذلنا الله» كما قال عمر رضي الله عنه، والمسلمون مستعدون للجهاد والبذل والتضحية لو وجدوا رجالاً كباراً من هذا الطراز المؤمن، يقودونهم بكتاب الله تعالى في أخطر معارك الوجود والمصير، وإنهم لقادمون بإذن الله.

جزى الله الإمام أبا شامة خير الجزاء على كتابه الجليل الذي أطلعنا فيه على أسرار تنزل النصر الإلهي العظيم على أمتنا في عهد هذين الملكين الصالحين.

وجزى الله أخانا الدكتور محمد بن حسن موسى الشريف على هذا المختصر المفيد، الذي أحسن فيه الاختيار والانتقاء، ونشره على هذه الهيئة الميسرة ليكون نداءً جهيراً للمسلمين في كل مكان، ليعرفوا الطريق الصحيح، وليأخذوا السبيل المتفرد إلى النصر المبين، وليقيموا دين الله في صدورهم وفي واقع حياتهم، وليعظموا شعائر الله حتى يكونوا أهلاً لمدد الله الذي لا يتخلف عن عباده المؤمنين.

وإننا لنبتهل إلى الله عز وجل - مع ألوف المسلمين - في هذا الشهر المبارك، وعند بيته المعظم أن يبرم لأمتنا أمر رشد، وأن يجعل لها مرداً جميلاً إلى دينه وكتابه، وأن يقيض لها أئمة إيمان وصدق يقودونها بكتاب الله عز وجل إلى خير الدنيا والآخرة، ليسعدوا جميعاً - حكاماً ومحكومين - برضوان الله ونصره، وليستعيدوا بيت المقدس، أولى القبلتين، وثاني المسجدين، وثالث الحرمين من أيدي أعداء الله اليهود، كما استعدناه من قبل مرتين تحت راية الإسلام العظيم: في عهد عمر وفي عهد صلاح الدين رضي الله عنهما وعن أئمتنا الصالحين أجمعين.

اللهم تقبّل دعاءنا، واستجب لنا بفضلك ورحمتك.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

٢٥ من رمضان المبارك ١٤١٩ (الحرم المكي الشريف)
أ.د. عبدالستار فتح الله سعيد

الإهداء

* إلى العاملين للإصلاح في كل زمان ومكان.

* إلى والديَّ الحبيبين، عسى أن أُوفق لرضاهما.

* إلى زوجي العزيزة، جزاءَ صبرها وجَلَدها.

* إلى أطفالي الأحبّاء، عسى أن يكونوا من الصالحين الفائزين.

مقدمة الناشر

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

صفحات التاريخ مليئة بالدروس، زاخرة بالعبر، وأمة الإسلام اليوم في حاجة ماسة لقراءة تاريخها لتعرف أسباب الضعف والقوة، وتقف على عوامل الانهيار والازدهار، والأمة التي لا تتقن الاستفادة من ماضيها، لا تحسن قيادة حاضرها أو صياغة مستقبلها.

وقد عمل أعداء الإسلام على تشويه حقائق التاريخ الإسلامي، وعملوا على إبراز السلبيات وتضخيمها وإخفاء الإيجابيات وتقليلها، كما سعوا إلى الفصل بين الأجيال المعاصرة وتاريخ الأمة، ودأبوا على ربطهم تاريخياً بعيداً عن الإسلام، ومن ثم كان من أهدافنا «إبراز معالم التاريخ الإسلامي وتقديم القدوات من أعلام المسلمين»، وشرعنا في إصدار سلسلة «التاريخ والأعلام» التي حرصنا من خلالها على تقريب صفحات التاريخ واختصارها، وإبراز الجوانب المشرقة فيها، والدلالة على مواضع العظمة والعبرة منها، والإشارة إلى أسباب الضعف، وربط ذلك كله بالواقع، وصدر من هذه السلسلة لتحقيق تلك الغايات الكتب التالية:

١ ـ نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء.

٢ ـ المختار المصون من أعلام القرون.

٣ ـ التاريخ الإسلامي مواقف وعبر.

٤ ـ سفراء النبي ﷺ.

٥ ـ الشيشان صقور الجبال البيضاء.

٦ ـ استجابات إسلامية لصرخات أندلسية.

٧ ـ الصفويون والدولة العثمانية.

وسيراً على هذا النهج، ومواصلة لإدخال التاريخ في صميم ثقافة ومطالعة جيل الصحوة نقدم اليوم «كتاب مختصر الروضتين في أخبار الدولتين» الذي اختص بأخبار دولة نور الدين زنكي، ودولة صلاح الدين الأيوبي، وعرض الكتاب لهذه الفترة العصيبة من تاريخ الأمة مبرزاً جوانب كثيرة من وجوه العظمة في مجالات الحياة المختلفة، فهناك الصفحات الجهادية التي سطرت أروع البطولات، وهناك أيضاً الصفحات العلمية التي بينت مآثر العلم ومعالم الحضارة، إضافة إلى صفحات اجتماعية وسياسية ومدنية ترسم ملامح تلك الدولتين.

وكتاب الروضتين مطبوع طبعة قديمة غير متوفرة، وفيها استطرادات لا يتعلق بها اهتمام المسلم اليوم، ومن ثم فإن هذا المختصر الذي يحافظ على هيكل الأصل، وخلاصة مضمونه، إضافة إلى تقديمه للفوائد والدروس من خلال الفهرس الموضوعي، مع إخراجه في طباعة رائعة وحلّة زاهية نحسب أنه خدمة علمية جليلة تسهم في كشف هذه الصفحات الوضيئة من تاريخ أمتنا الإسلامية المجيدة.

وفي الختام نعدكم أننا على الطريق سائرون، وأننا سنعمل جاهدين على إصدار المزيد من الكتب والمختصرات والفهارس التي تصل بيننا وبين تاريخنا وأعلامنا، ولنا لقاء بكم مع إصدار جديد في وقت غير بعيد إن شاء الله تعالى.

مقدمة المختصر

الحمد لله الذي رفع منار هذا الدين برجال صالحين، وأعلى شأنه بجهاد المخلصين، فكانوا نجوماً في سماء المعالي، وبدوراً في ظلمة الليالي.

وأشهد ألا إله إلا الله العظيم، وأن محمداً عبده ورسوله الأمين، سيدُ الخلق أجمعين، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإن تاريخ المسلمين المجيد فخر للأمم، وشَحْذ للهمم، فقد أضاؤوا العالمين بعد طول ظلام، وأنشأوا حضارة ومجداً لا يُضام، وصاروا المنقذين من الضلال، الموصلين إلى ذي العزة والجلال، ازدانت بهم الأرض، وتزينت لشهدائهم السماء، وضربوا أعظم المثل في التجرد والإخلاص والصفاء.

لكن فئة من الكافرين كانت قد أصرت على كفرها وعنادها، وتمادت في زخرفها وباطلها وضلالها، وأصمّت آذانها، وسكّرت أبصارها، فأخذت تكيد للحزب المنصور بباطلها المرذول، واجتمعت عليهم بجيشها المخذول، فكان للمسلمين معهم وقَعات، وصولات وجولات، وكان مِن سنة الله التي لا تتبدل، وطريقته التي لا تتغير ولا تتحول أنه كلما ضاقت على المسلمين المسالك، واجتمعت عليهم من دول الكفر الممالك، وناوشهم كل مُبطل هالك أمدهم الله ـ تبارك وتعالى ـ بنفحة من عُلاه، وبدر من سناه يكون للمسلمين فرجاً وتنفيساً، وعلى الكافرين شدة وتيئيساً.

والمتصفح لأوراق التاريخ يجد هذا الأمر جلياً واضحاً في هجمات الكافرين على ديار المسلمين، في كل زمان ومكان، منذ أن استنارت الدنيا ببعثة سيد المرسلين حتى يومنا هذا وإلى يوم الدين، ملحمةً كتبها الله ـ

تعالى - على من اختارهم من العالمين، واصطفاهم من العاملين، ورضيهم لدينه القويم: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢﴾(١).

فكان حقاً على المسلمين - اليوم - أن يبرزوا تلك الأحداث لما فيها من العظات والعبر، ولتكرر أمثالها دهراً بعد دهر، وعصراً بعد عصر، ولما فيها - أيضاً - من كرامات إلهية، ونفحات عُلوية، ومعونات صَمَدية، تفرح بها أفئدة المؤمنين، ويستبشرون بأن النصر لا بد قادم، وأن الله كما أكرم السابقين فمن واسع فضله المأمول أن ينجد اللاحقين، وأن النصر لنا ولو بعد حين، ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾(٢).

هذا وإني لم أطّلع في العصور المتأخرة على أحداث مشابهة لما نحن فيه اليوم أقربَ من الأحداث الواقعة في عهد السلطانين العظيمين والملِكَيْن الملَكَين: نور الدين الشهيد، وصلاح الدين الأيوبي، رحمهما الله تعالى ورضي عنهما، فرأيت أن أُبرز سيرتهما، وأحيطَ القارئ علماً بأحداث عصرهما.

وقد كنت اعتزمت أن أنشئ لهما سيرةً وأبتدئ لهما كتاباً جامعاً حتى وفقني الله - تعالى - للاطلاع على «كتاب الروضتين في أخبار الدولتين»، دولة نور الدين، ودولة صلاح الدين، للإمام العالم أبي شامة - رحمه الله تعالى - فسررت والله لما رأيته وتصفحته، حيث هو روضة كما سماه، فاتخذته إلفاً وصاحباً، ومنفساً كرباً وحزناً فادحاً، ومن ثَمّ عزمت على اختصاره وإخراجه للناس في حلة بهية، وروضة زهيّة، وصرفت النظر عن ابتداء كتابة من قِبَلي، وإنشاء كتاب من تصنيف قاصر مثلي، وذلك لما أورده الإمام أبو شامة في كتابه من أحداث مسرودة بأسلوب سلس رصين،

---

(١) سورة العنكبوت.

(٢) سورة الروم.

وإحاطة تاريخية جيدة، وطريقة قويمة مشوّقة، وفي مثل هذا الكتاب غناء عن غيره.

أهمية كتاب الإمام أبي شامة

جوانب أهمية الكتاب تتضح في الآتي:

أولاً: الإحاطة في سرد الأحداث التاريخية، وذكرُ دقائق في مواقف يحتاج إلى الوقوف عليها المتعظ والمعتبر.

ثانياً: التوسع في ذكر مناقب الليثين: نور الدين وصلاح الدين، وهذا من الأهمية بمكان؛ إذ سيرتهما عطرة عطرة، وأخص منهما سيرة نور الدين الذي بهرني جهده وشدني زهده، وحسن صلته بالله تعالى، مما سيطالعه القارىء ـ إن شاء الله تعالى ـ واضحاً، في ثنايا الكتاب مفصلاً، وأعتقد أنهما ـ نور الدين وصلاح الدين ـ أعظم الملوك المتأخرين، وحجة لله تعالى على الرؤساء والسلاطين، سيرتهما تكتب بأحرف من نور على صفحات الدهور، أحسبهما كذلك والله حسيبهما، فلمّا كانا كذلك كان من المناسب الإطناب في ذكر أخبارهما، والاستقصاء والإحاطة بمناقبهما، وهذا ما صنعه الإمام أبو شامةَ، رحمه الله تعالى.

ثالثاً: الأحداث الواردة في الكتاب متشابهة مع الأحداث التي نعيشها اليوم؛ فقد سيطر الصليبيون ـ لعنهم الله ـ على الأرض المقدسة وسواحل الشام زمناً طويلاً قبل أن يبعث الله نور الدين في جهاد طويل مرير ضد أعداء الدين، يُختم بخاتمة الحسنى، وفتح المسجد الأقصى، على يد واليه وخليفته من بعده صلاح الدين.

وهكذا هي الحال اليوم، حيث اليهود ـ عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة ـ يدنسون البقعة الطاهرة، والأرض المقدسة منذ أمد طويل، وبشائر الصحوة تترى، وظهور القائد المجاهد الذي ستلتف حوله رايات المؤمنين قريب، وما ذلك على الله بعزيز.

رابعاً: في الكتاب عشرات من قصص البطولات العظيمة التي تُذكي الحماسة وتبعث الأمل في نفوس المؤمنين، وفي الكتاب ـ كذلك ـ صور

عظيمة على حسن الصلة بالله ـ تعالى ـ والثقة به، وفيه صور من تلاحم العلماء مع السلاطين لإنجاح الجهاد في سبيل الله ـ تبارك وتعالى ـ.

خامساً: في الكتاب سيَرٌ لعلماء ووزراء وأمراء ـ مضافة لسيرتي نور الدين وصلاح الدين ـ تثري مادة الكتاب وتُعظم مباحثه، وفي الكتاب ـ أيضاً ـ فوائد تاريخية وعلمية مفيدة ومهمة.

وقد ورد كل ذلك المذكور في الجوانب الخمسة السابقة في نَمَطَ قصصي بلاغي مشوّق، تفتقر إليه الكتب الحديثة المصنفة عن تلك الحقبة المباركة، ولئن صَعُب الكتاب على الناشىء المبتدئ من حيث الأسلوب والصياغة ففيه فائدة عظمى من حيث التعود على قراءة مثل هذه الأساليب البلاغية المثرية، وإصلاح الألفاظ والتراكيب اللغوية.

ولا يفوتني أن أنوه بذكر القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني ـ مستشار صلاح الدين ـ رحمهما الله تعالى، فقد كان له شأن عظيم في تثبيت صلاح الدين على طريق الجهاد وشدِّ أزره فيه، ولا جَرَم إذاً أن قال صلاح الدين مخاطباً قواده: «لا تظنوا أني فتحت البلاد بسيوفكم بل بقلم القاضي الفاضل»، ولعلي أفرد له دراسة خاصة، إن شاء الله تعالى.

عملي في الكتاب

كتاب الروضتين كبير الحجم، طبع في مصر قديماً طبعة حجرية دقيقة صعبة القراءة، وذلك سنة ١٢٨٧، وسنة ١٢٨٨، ولو حُقق الكتاب كما ينبغي لظهر في قرابة خمس مجلدات ضخام أو أكثر، وقد عثرت على جزء منه محقق تحقيقاً لا بأس به لكنه غير مكتمل ـ فيما أعلم ـ وتاريخ نشره سنة ١٣٨٢ في مجلد واحد يقارب ربع حجم الكتاب الأصل، لكن هذا الجزء يندر وجوده اليوم في المكتبات التجارية والخاصة.

ثم إن الإمام أبا شامة نفسه اختصر هذا الكتاب بعنوان «عيون الروضتين في أخبار الدولتين» وطُبع هذا المختصر في مجلدين بتحقيق

الأستاذ أحمد البيسوميّ، لكن فات هذا المختصر أخبار مهمة ودقائق كثيرة فيها عبر وعظات أهدرها الاختصار وغيّبها، فصحّ العزم مني لهذا السبب ولِما قدمته من أسباب أن أختصر هذا الكتاب، لِما ينطوي عليه من أخبار هي في غاية الأهمية، وكان عملي في الكتاب على النحو الآتي:

أولاً: خلّصت الكتاب من كل حدث وخبر ليس فيه عظة وعبرة لعموم القراء، نحو الاستطرادات والتفصيلات التي يمكن إغفالها لتقليل حجم المختصر؛ إذ أني متيقن أن الكتاب ذا الحجم الكبير لا يقرؤه من الناس إلا أقل القليل، فكان تقريب مثل هذا الكتاب للقراء من الأمور المهمة النافعة.

ثانياً: كان من طريقة المؤلف أبي شامةَ إيراد الحدث مكرراً مرتين غالباً، مرةً برواية مسجوعة - وهي رواية عماد الدين الأصفهاني - ومرة خالية من السجع برواية القاضي ابن شداد أو ابن أبي طيء(١) وغيرهما، فعمدت - غالباً - إلى الرواية الخالية من السَجع فاتخذتها أصلاً في هذا الكتاب المختصر، وقد أجمع بينهما إن كان في رواية الأصفهاني فائدةٌ لم ترد في غيرها أو أقتصر على الرواية المسجوعة.

ثالثاً: تصرفت في أغلب النصوص والرسائل بالقدر الذي لا يخل بالسياق ولا يضر المعنى.

رابعاً: خرّجت الآيات والأحاديث والآثار مع الحكم على ما يحتاج إلى الحكم من ذلك.

خامساً: ترجمت لغالب الأعلام ترجمة مختصرة، وضبطت الغريب، وشرحت الكلمات والمصطلحات التي قد تغمض على غير المتخصصين؛ إذ في الكتاب جملة من المصطلحات الغامضة التي اضطرتني للرجوع إلى عدد

---

(١) ستأتي ترجمة هؤلاء الأعلام في صُلب الكتاب، إن شاء الله تعالى.

من قواميس المصطلحات الفارسية والتركية الأصل، وإلى تعليقات الأساتذة المتخصصين على عدد من كتب التاريخ الأيوبي والمملوكيّ.

سادساً: صنعت فهرساً للفوائد، حيث وقر في نفسي أهمية هذا الفهرس لكل كتاب فيه عبر وعظات كثيرة تحتاج إلى تقسيم وترتيب.

هذا وإني لأظن أنّ هذا العمل سيضيف للمكتبة الإسلامية كتاباً فريداً مهماً بإذن الله تبارك وتعالى.

ولا يسعني في نهاية هذه المقدمة إلا أن أسأل الله تعالى: «جداً مقروناً بالتوفيق، وعلماً بريئاً من الجهل، وعملاً عَرِيّاً عن الرياء، وقولاً موشحاً بالصواب، وحالاً دائرة مع الحق، وفطنة عَقل في سلامة صدر، وراحة جسم راجعة إلى رَوْح بال، وسكون نفس موصولاً بثبات يقين، وصحة حجة بعيدة من مرض شبهة... فلا تخيب رجاءَ من هو منوط بك، ولا تُصغِّر كفاً هي ممدودة إليك، ولا تذل نفساً هي عزيزة بمعرفتك، ولا تسلب عقلاً هو مستضيء بنور هدايتك، ولا تُعْم عيناً فتحتها بنعمتك، ولا تحبس لساناً عوّدته الثناء عليك، وكما أنت أولى بالتفضل فكن أحرى بالإحسان: الناصية بيدك، والوجه عان لك، والخير متوقَّع منك، والمصير على كل حال إليك، ألبسنا في هذه الحياة البائدة ثوب العصمة، وحَلِّنا في تلك الدار الباقية بزينة الأمن، وافطم نفوسنا عن طلب العاجلة الزائلة، ولا تجعلنا ممن سها عن باطن ما لك عليه بظاهر ما لك عنده، فالشقيّ من لم تأخذ بيده، ولم تؤمِّنه من غده، والسعيد من آويته إلى كنف نعمتك، ونقلته حميداً إلى منازل رحمتك، غيرَ مناقِش له في الحساب، ولا سائقٍ له إلى العذاب، فإنك على ذلك قدير»(١).

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) من دعاء أبي حيان التوحيدي في كتابه «البصائر والذخائر»: ١/١ - ٢ بتصرف يسير.

ترجمة المصنف

هو الإمام الكبير، العلامة ذو الفنون، شهاب الدين أبو القاسم، المقدسيّ الأصل الدمشقيّ الشافعيّ، الفقيه، المقرئ، النحوي.

اسمه ولقبه:

عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم، أبو شامة، عرف بذلك لشامة كبيرة كانت فوق حاجبه الأيسر.

مولده ونشأته وعلمه:

ولد سنة تسع وتسعين وخمس مائة بدمشق، وقرأ القرآن وله دون العشر، وقرأ القراءات وعمره سبعة عشر عاماً، وسمع الحديث، وكتب الكثير من العلوم، وأتقن الفقه، ودرّس، وأفتى، وبرع في العربية، وولي مشيخة الإقراء، ومشيخة دار الحديث الأشرفية.

مصنفاته:

صنف شرحاً نفيساً للقصيدة الشاطبية في القراءات، واختصر تاريخ دمشق لابن عساكر مختصرين: كبيراً وصغيراً، وصنف كتاب «الروضتين في أخبار الدولتين: النورية والصلاحية»، وكتاب «ذيل الروضتين»، وكتاب «كشف حال بني عُبيد» وهم الذين أسسوا الدولة الفاطمية التي أفسدت في الدين بما لم تفسده دولة أخرى ولا دول الصليبية، وكتاب «الباعث على إنكار البدع والحوادث» وهو مطبوع، وغيرها من الكتب الكثيرة المفيدة.

صفاته:

كان طارحاً للتكلف، متواضعاً، لا يزاحم على المناصب، محباً

للعزلة والانفراد، لا يتردد إلى أهل الدنيا، رأى منامات حسنةً في شأنه وحاله، ورؤيت له أيضاً رؤى باهرة، رحمه الله تعالى، وكان مواظباً على طلب العلم، حُبب إليه منذ صغره حتى فارق الدنيا، رحمه الله تعالى.

وفاته:

دخل عليه رجلان جبليان - ولعلهما من فرقة الباطنية(١) التي اشتهرت بقتل العلماء والصالحين - في صورة مستفتين، وكان بيته في طرف البلد عند الطواحين، فضرباه ضرباً مبرحاً حتى كاد يتلف، ولم يَدْر به أحد ولا أغاثه، ثم توفي بعد ذلك تاسع عشر رمضان سنة ٦٦٥ بعد صبر جميل، وتفويض إلى الله تعالى، رحمه الله ورضي عنه(٢).

---

(١) انظر فقرة [٨٢].

(٢) انظر «الوافي بالوفيات» ١١ : ١٨/ ١١٣ - ١١٦، وانظر «الذيل على الروضتين»: ٣٧ - ٤٥، فقد ترجم لنفسه فيه ترجمة حسنة.

النصّ المختصر

مقدمة المصنف

الحمد لله الذي بلطفه تصلح الأعمال، وبكرمه وجوده تُدرك الآمال، وعلى وفق مشيئته تتصرف الأفعال، وبإرادته تتغير الأحوال، وإليه المصير والمرجع والمآل، سبحانه هو الباقي بلا زوال، عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال، ذو العرش والمعارج والطَّول والإكرام والجلال، نحمده على ما أسبغ من الإنعام والإفضال، ومنَّ به من الإحسان والنَّوال، حمداً لا توازنه الجبال، ملء السموات والأرض وعلى كل حال.

ونصلي على رسوله ونبيه، وخيرته من خلقه وصفيه، وخليله ووليه، وحبيبه المفْضال، سيدنا أبي القاسم محمد بن عبد الله ذي الشرف الباذخ، والفضل الشامخ، والعلم الراسخ، والجمال والكمال، صلى الله عليه وعلى الملائكة المقربين، والأنبياء والمرسلين، وعِتْرتهم الطيبين، ما أفل كوكب وطلع هلال، وعلى آل محمد وصحبه خير صحب وأكرم آل، وعفا عن المقصرين من أمَّته أُولي الكسل والملال، وحشرنا في زمرته، متمسكين بشريعته، مقتدين بسنَّته، مزدحمين تحت لوائه، في جملة أوليائه، يوم لا بيع فيه ولا خلال.

أما بعد:

[١] فإنه بعد أن صرفتُ جلَّ عمري، ومعظم فكري، في اقتباس الفوائد الشرعية، واقتناص الفرائد الأدبية، عنَّ لي أن أصرف إلى علم التاريخ بعضه، فأحوز بذلك سنة العلم وفَرضَه، اقتداءً بسيرة مَن مضى، من كل عالم مرتضى، فقلَّ إمام من الأئمة إلا ويحكى عنه من أخبار من سلف

فوائد جمة، منهم إمامنا أبو عبد الله الشافعيّ - رضي الله عنه - قال مصعب الزبيريّ:

«ما رأيت أحداً أعلم بأيام الناس من الشافعيّ».

ويروى عنه أنه أقام على تعلم أيام الناس والأدب عشرين سنة، وقال: ما أردت بذلك إلا الاستعانة على الفقه.

قلت: وذلك عظيم الفائدة، جليل العائدة، وفي كتاب الله - تعالى - وسنة رسوله - ﷺ - من أخبار الأمم السالفة وأنباء القرون الخالفة، ما فيه عِبر لذوي البصائر، واستعداد ليوم تبلى السرائر، قال الله - عز وجل - وهو أصدق القائلين: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾⁽¹⁾.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾﴾⁽²⁾.

وحدَّث النبي ﷺ بحديث أم زرع⁽³⁾ وغيره مما جرى في الجاهلية، والأيام الإسرائيلية، وحكى عجائب ما رآه ليلة أُسري به وعَرج، وقال: «حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج»⁽⁴⁾.

[٢] قلت: ولم تزل الصحابة والتابعون فمَن بعدهم يتفاوضون في حديث مَن مضى، ويتذاكرون ما سبقهم من الأخبار وانقضى، ويستنشدون الأشعار، ويتطلبون الآثار والأخبار، وذلك بيِّن من أفعالهم، لمن اطلع على

---

(١) سورة هود: آية ١٢٠.

(٢) سورة القمر: آية ٤ - ٥.

(٣) انظر الحديث في صحيح الإمام البخاري: كتاب النكاح، باب حسن المعاشرة مع الأهل: ٧/ ٣٤.

(٤) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه: كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل: ٤/ ٢٠٧.

أحوالهم، وهم السادة القدوة، فلنا بهم أسوة، فاعتنيت بذلك وتصفحته، وبحثت عنه مدة وتطلبته، فوقفت ـ والحمد لله ـ على جملة كبيرة من أحوال المتقدمين والمتأخرين، من الأنبياء والمرسلين، والصحابة والتابعين، والخلفاء والسلاطين، والفقهاء والمحدثين، والأولياء والصالحين، والشعراء والنحويين، وأصناف الخلق الباقين، ورأيت أن المطلع على أخبار المتقدمين، كأنه قد عاصرهم أجمعين، وأنه عندما تفكر في أحوالهم أو تذكرهم، كأنه كان مشاهدهم ومحاضرهم، فهو قائم له مقام طول الحياة، وإن كان متعجل الوفاة.

وقد أنشدت لبعض الفضلاء:

كتاب أطالعه مؤنس أحبُّ إليَّ من الآنسة
وأدرسه فيريني القرو ن حضوراً وأعظُمهم دارسة(١)

وقد اختار الله ـ سبحانه ـ لنا أن نكون آخر الأمم، وأطلعنا على أنباء من تقدم لنتعظ بما جرى على القرون الخالية، وتعيَها أذن واعية، فهل ترى لهم من باقية، ولنقتدي بمن تقدمنا من الأنبياء، والأئمة الصلحاء، ونرجو بتوفيق الله ـ عز وجل ـ أن نجتمع بمن يدخل الجنة منهم، ونذاكرهم بما نقل إلينا عنهم، والمرء مع من أحب.

[٣] هذا وإن الجاهل بعلم التاريخ راكبُ ظهرَ عمياء خابطٌ خبطَ عَشْواء(٢)، ينسب إلى من تقدم أخبار من تأخر، ويعكس ذلك ولا يتدبر، وإن رُدَّ عليه وَهْمه لا يتأثر، وإن ذُكِّر فلجهله لا يتذكر، لا يفرق بين صحابي وتابعيّ، وحنفي ومالكي وشافعي، ولا بين خليفة وأمير، وسلطان

---

(١) أي بالية، انظر «لسان العرب»: درس.

(٢) فلان خابطٌ خبطَ عشواء: وأصله من الناقة العشواء، لأنها لا تبصر ما أمامها فهي تخبط بيديها، وذلك أنها ترفع رأسها فلا تتعهد مواضع أخفافها. . . ومن أمثالهم السائرة: هو يخبط خَبْط عشواء، يُضرب مثلاً للسادر الذي يركب رأسه ولا يهتم لعاقبته كالناقة العشواء التي لا تبصر فهي تخبط بيديها كل ما مرّت به: «لسان العرب»: عشا.

ووزير، ولا يعرف من سيرة نبيه ﷺ أكثر من أنه نبي مرسل، فكيف له بمعرفة أصحابه وذلك الصدر الأول، الذين بذكرهم ترتاح النفوس، ويذهب البُوس.

[٤] ولقد رأيت مجلساً، جُمع فيه ثلاثة عشر مدرِّساً، وفيهم قاضي قضاة ذلك الزمان، وغيره من الأعيان، فجرى بينهم وأنا أسمع ذكر من تحرم عليه الصدقة وهم: ذوو القربى المذكورون في القرآن، فقال جميعهم: بنو هاشم وبنو عبد المطلب، وعدلوا بأجمعهم في ذلك عما يجب، فتعجبت من جهلهم حيث لم يفرقوا بين عبد المطلب والمطلب، ولم يهتدوا إلى أن المطلب هو عم عبد المطلب، وأن عبد المطلب هو ابن هاشم، فما أحقهم بلوم كل لائم.

إن هذا أصل من أصول الشريعة قد أهملوه، وباب من أبواب العلم جهلوه، ولزم من قولهم إخراج بني المطلب من هذه الفضيلة، فابتغيت إلى الله - تعالى - الوسيلة، وأنفْتُ لنفسي من ذلك المقام، فأخذتها بعلم أخبار الأنام، وتصحيح نسبَتها، وإيضاح محجتها، فإن كثيراً ممن يحفظ شيئاً من الوقائع يفوته معرفة نسبتها إلى أربابها، وإنْ نسبها خلط فيها وصرفها عن أصحابها، وهو باب واسع غزير الفوائد، صعب المصادر والموارد، زلت فيه قدم كثير من نقلة الأخبار، ورواة الآثار.

[٥] ثم أردت أن أجمع من هذا العلم كتاباً يكون حاوياً لما حصلته، وأتقن فيه ما خَبَرْتُه، فعمدت إلى أكبر كتاب وُضع في هذا الفن على طريقة المحدثين وهو تاريخ مدينة دمشق - حماها الله عز وجل - الذي صنفه الحافظ الثقة أبو القاسم علي بن الحسن العساكري⁽¹⁾ - رحمه الله - وهو ثمانمائة جزء في ثمانين مجلداً فاختصرته وهذّبته، وزدته فوائد من كتب أخر

---

(١) هو حافظ الشام ابن عساكر - رحمه الله تعالى - (ت٥٧١): انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٥٥٤ - ٥٧١.

جليلة وأتقنته، ووقف عليه العلماء، وسمعه الشيوخ والفضلاء، ومرَّ بي فيه من الملوك المتأخرين، ترجمة الملك العادل نور الدين، فأطربني ما رأيت من آثاره، وسمعت من أخباره، مع تأخر زمانه، وتغير خلَّانه، ثم وقفت بعد ذلك في غير هذا الكتاب على سيرة سيد الملوك بعده الملك الناصر صلاح الدين فوجدتهما في المتأخرين، كالعُمَرَين(١) - رضي الله عنهما - في المتقدمين، فإن كل ثانٍ من الفريقين حذا حذو مَن تقدمه في العدل والجهاد، واجتهد في إعزاز دين الله أي اجتهاد، وهما ملكا بلدتنا، وسلطانا خطتنا، خصنا الله - تعالى - بهما، فوجب علينا القيام بذكر فضلهما.

[٦] فعزمت على إفراد ذكر دولتيهما بتصنيف، يتضمن التقريظ لهما والتعريف، فلعله يقف عليه من الملوك، من يسلك في ولايته ذلك السلوك، فلا يبعد أنهما حجة من الله على الملوك المتأخرين، وذكرى منه - سبحانه - فإن الذكرى تنفع المؤمنين، فإنهم(٢) قد يستبعدون من أنفسهم طريقة الخلفاء الراشدين، ومَن حذا حذوهم من الأئمة السابقين، ويقولون نحن في الزمن الأخير، وما لأولئك من نظير، فكان لما قدَّر الله - سبحانه - من سيرة هذين الملكين إلزام الحجة عليهم بمن هو في عصرهم، من بعض ملوك دهرهم، فلن يَعجز عن التشبه بهما أحد، إن وفق الله - الكريم - وسدد، وأخذت ذلك من قول أبي صالح شعيب بن حرب المدائنيّ(٣) - قول
رحمه الله - وكان أحدَ السادة الأكابر في الحفظ والدين قال:

«إني لأحسب يُجاء بسفيان الثوري يوم القيامة حجة من الله على هذا الخلق يقال لهم: إن لم تدركوا نبيكم فقد رأيتم سفيان: ألا اقتديتم به».

[٧] وهكذا أقول: هذان الملِكان حجة على المتأخرين، من الملوك

---

(١) أي أبو بكر وعمر - رضي الله عنهما - وإنما قال: «العُمَرين» على سبيل التغليب.

(٢) أي الملوك المتأخرين.

(٣) شيخ الإسلام، إمام، قدوة، توفي بمكة المكرمة سنة ١٩٦. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٩/١٨٨ - ١٩١.

والسلاطين، فلله درّهما من مِلكين تعاقبا على حسن السيرة، وجميل السريرة، وهما حنفي وشافعي، شفى الله بهما كل عَيّ(١)، وظهرت بهما من خالقهما العناية، فتقاربا حتى في العمر ومدة الولاية، وهذه نكتة قلَّ من تفطن لها ونبّه عليها، ولطيفة هداني الله بتوفيقه إليها، وذلك أن نور الدين ـ رحمه الله ـ ولد سنة إحدى عشرة وخمس مئة وتوفي سنة تسع وستين، وولد صلاح الدين ـ رحمه الله ـ سنة اثنتين وثلاثين وخمس مئة وتوفي سنة تسع وثمانين، فكان نور الدين أسنّ من صلاح الدين بسنة واحدة وبعضِ أخرى وكلاهما لم يستكمل ستين سنة، فانظر كيف اتفق أن بين وفاتيهما عشرين سنة وبين مولديهما إحدى وعشرين سنة.

وملك نور الدين دمشق سنة تسع وأربعين، وملكها صلاح الدين سنة سبعين، فبقيت دمشق في المملكة النورية عشرين سنة، وفي المملكة الصلاحية تسع عشرة سنة، تُمحى فيها السيّئة وتكتب الحسنة، وهذا من عجيب ما اتفق في العمر ومدّة الولاية ببلدة معينة لملكين متعاقبين مع قرب الشبه بينهما في سيرتهما، والفضل للمتقدم، فكانت زيادة مدة نور الدين كالتنبيه على زيادة فضله، والإرشاد إلى عظم محله، فإنه أصل ذلك الخير كله، مهد الأمور بعدله وجهاده، وهيبته في جميع بلاده، مع شدة الفتق، واتساع الخرق، وفتح من البلاد، ما استُعين به على مداومة الجهاد، فهان على من بعده على الحقيقة، سلوك تلك الطريقة، لكن صلاح الدين أكثر جهاداً، وأعمُّ بلاداً، صبر وصابر، ورابط وثابر، وذخر الله له من الفتوح أنفَسَهُ، وهو الذي فتح الأرض المقدسة، فرضي الله عنهما فما أحقهما بقول الشاعر:

وألبس الله هاتيك العظامَ وإن ... بَلين تحت الثرى عفواً وغفراناً
بسقي ثرى أو دعوة رحمة ملأت ... مثوى قبورهم رَوْحاً وريحاناً

[٨] وقد سبقني إلى تدوين مآثرهما جماعة من العلماء، والأكابر

---

(١) أي: عاجز أو من لا يهتدي للصواب: انظر «لسان العرب»: ع ي ي.

الفضلاء، فذكر الحافظ الثقة أبو القاسم علي بن الحسن الدمشقي في تاريخه ترجمة حسنة لنور الدين محمود بن زَنْكي ـ رحمه الله ـ ولأجله تمم ذلك الكتاب وذكر اسمه في خطبته.

وذكر الرئيس أبو يعلى حمزة بن أسد التميمي⁽¹⁾ في مُذَيّل التاريخ الدمشقي قطعة صالحة من أوائل الدولة النورية إلى سنة خمس وخمسين وخمسمائة.

وصنف الشيخ الفاضل عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الجزري ـ عُرف بابن الأثير⁽٢⁾ ـ مجلدة في الأيام الأتابكية⁽٣⁾ كلها وما جرى فيها، وفيه شيء من أخبار الدولة الصلاحية لتعلق إحدى الدولتين بالأخرى لكونها متفرعة عنها.

وصنف القاضي بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم الموصلي ـ عُرف بابن شداد⁽٤⁾ ـ قاضي حلب مجلدة في الأيام الصلاحية وسياق ما تيسر فيها من الفتوح، واستفتح كتابه بشرح مناقب صلاح الدين ـ رحمه الله تعالى ـ.

وصنف الإمام العالم عماد الدين الكاتب أبو حامد محمد بن محمد بن حامد الأصفهاني⁽٥⁾ كتابين كلاهما مسجوع متقن بالألفاظ الفصيحة والمعاني الصحيحة، أحدهما: «الفتح القدسيّ» اقتصر فيه على فتوح صلاح الدين وسيرته فاستفتحه بسنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، والثاني «البرق الشامي» ذكر فيه الوقائع والحوادث من الغزوات والفتوحات وغيرهما مما وقع من سنة وروده دمشق وهي سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة إلى وفاة

---

(١) توفي سنة ٥٥٥، انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٢٠/٣٨٨ ـ ٣٨٩.

(٢) توفي سنة ٦٣٠، انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٢٢/٣٥٣ ـ ٣٥٦.

(٣) سوف تتكرر كلمة «الأتابك» كثيراً في هذا الكتاب، ويطلق «الأتابك» على مدير المملكة وأمير أمراء الجيوش: انظر «تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل»: ١٢.

(٤) توفي سنة ٦٣٢، انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٢٢/٣٨٣ ـ ٣٨٧.

(٥) توفي سنة ٥٩٧، انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٢١/٣٤٥ ـ ٣٥٠.

صلاح الدين وهي سنة تسع وثمانين، فاشتمل على قطعة كبيرة من أخبار أواخر الدولة النورية.

إلا أن العماد في كتابيه طويل النفس في السجع والوصف، يمل الناظر فيه، ويذهل طالب معرفة الوقائع عما سبق من القول ويُنَسِّيه، فحذفت تلك الأسجاعَ إلا قليلاً منها استحسنتها في مواضعها، ولم تك خارجة عن الغرض المقصود من التعريف بالحوادث والوقائع نحو ما ستراه في أخبار فتح البيت المقدس ـ شرفه الله تعالى ـ وانتزعت المقصود من الأخبار من بين تلك الرسائل الطوال، والأسجاع المفضية إلى الملال، وأردت أن يفهم الكلامَ الخاصُّ والعام، واخترت من تلك الأشعار الكثيرة قليلاً مما يتعلق بالقصص وشرح الحال، وما فيه من نكتة غريبة وفائدة لطيفة.

ووقفت على مجلدات من الرسائل الفاضلية(١)، وعلى جملة من الأشعار العمادية(٢)، وعلى كتب أخرى من دواوينَ وغيرها فالتقطت منها أشياء مما يتعلق بالدولتين أو بإحداهما، وبعضه سمعته من أفواه الرجال الثقات، ومن المدركين لتلك الأوقات، فاختصرت جميع ما في ذلك من أخبار الدولتين وما حدث في مدَّتيهما من وفاة خليفة أو وزير، أو أمير كبير، أو ذي قدر خطير، وغير ذلك، فجاء مجموعاً لطيفاً، وكتاباً ظريفاً، يصلح لمطالعة الملوك والأكابر، من ذوي المآثر والمفاخر، وسميته «كتاب الروضتين في أخبار الدولتين».

ولله در حبيب بن أوس(٣) حيث يقول:

ثم انقضت تلك السنون وأهلها ... فكأنها وكأنهم أحلام

---

(١) نسبة إلى القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني (ت٥٩٦): انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٢١/٣٣٨ ـ ٣٤٤.

(٢) نسبة إلى عماد الدين الأصبهاني الذي سلف ذكره.

(٣) هو أبو تمام الطائي الشاعر المشهور (ت٢٣١): انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ١١/٦٣ ـ ٦٩.

فصل

أما الدولة النورية فسلطانها الملك العادل نور الدين أبو القاسم محمود بن عماد الدين أتابك ـ وهو أبو سعيد زَنْكي ـ بن قَسيم الدولة آق سُنْقرُ التركيّ، ويُلقب زَنْكي أيضاً بلقب والده قَسيم الدولة، ويقال لنور الدين «ابن القسيم». وستكلم على أخبار أسلافه عند بسط أوصافه.

[٩] ذكر الحافظ أبو القاسم(١) في تاريخه أنه ولد سنة إحدى عشرة وخمسمائة، وأن جدَّه آق سنقر وَلي حلب وغيرها من بلاد الشام، ونشأ أبوه زَنْكي بالعراق، ثم وَليَ ديار الموصل والبلاد الشامية، وظهرت كفايته في مقابلة العدوّ عند نزوله على شَيْزر(٢) حتى رجع خائباً، وفتح الرُّها والمعَرَّة وكفر طاب وغيرها من الحصون الشامية واستنقذها من أيدي الكفار.

فلما انقضى أجله قام ابنه نور الدين مقامه وذلك سنة إحدى وأربعين وخمسمائة، ثم قصد نور الدين حلب فملكها وخرج غازياً فافتتح حصوناً كثيرة، وأظهر بحلب السنة وغيّر البدعة التي كانت لهم في التأذين، وقمع بها الرافضة، وبنى بها المدارس ووقف الأوقاف وأظهر العدل، وحاصر دمشق مرتين وفتحها في الثالثة، فضبط أمورها، وحصن سورها، وبنى بها المدارس والمساجد وأصلح طرقها، ووسع أسواقها، ومنع من أخذ ما كان يؤخذ منهم من المغارم، وعاقب على شرب الخمر، واستنقَذ من العدوّ ثغر بانياس والمنيطرة وغيرهما.

[١٠] وكان في الحرب ثابتَ القدم، حسنَ الرمي، صليبَ الضرب، يَقدُم أصحابه، ويتعرّض للشهادة، وكان يسأل الله ـ تعالى ـ أن يحشره من بطون السباع وحواصل الطير.

---

(١) هو ابن عساكر، رحمه الله تعالى.

(٢) بلدة قرب حماة.

[١١] ووقف ـ رحمه الله ـ وقوفاً على المرضى، ومعلمي الخط والقرآن، وساكني الحرمين، وأقطع أمراء العرب لئلا يتعرضوا للحاج، وأمر بإكمال سور المدينة واستخراج العين التي بأحد، وبنى الربط والجسور والخانات، وجدّد كثيراً من قِنى⁽¹⁾ السبيل، وكذا صنع في غير دمشق من البلاد التي ملكها، ووقف كتباً كثيرة.

[١٢] وحصل في أسره جماعة من أمراء الفرنج، وكسر الروم والأرمن والفِرَنج على حارِم⁽²⁾ وكان عدّتهم ثلاثين ألفاً، ثم فتح حارم وأخذ أكثر قرى أنطاكية.

[١٣] ثم فتح الديار المصرية وكان العدوّ قد أشرف على أخذها، ثم أظهر بها السنة وانقمعت البدعة.

[١٤] وكان حسنَ الخط، كثير المطالعة للكتب الدينية، متبعاً للآثار النبوية، مواظباً على الصلوات في الجماعات، عاكفاً على تلاوة القرآن، حريصاً على فعل الخير، عفيف البطن والفرج، مقتصداً في الإنفاق، متحرياً في المطاعم والملابس، لم تُسمع منه كلمة فحش في رضاه ولا في ضَجَره، وأشهى ما إليه كلمة حق يسمعها، أو إرشاد إلى سنة يتبعها.

[١٥] وقال أبو الحسن بن الأثير:

قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الإسلام وفيه إلى يومنا هذا فلم أر بعد الخلفاء الراشدين وعمرَ بن عبد العزيز أحسنَ سيرة من الملك العادل نور الدين ولا أكثر تحرياً للعدل والإنصاف منه، قد قصر ليله ونهاره على عدل ينشره، وجهاد يتجهز له، ومظلمة يزيلها، وعبادة يقوم بها، وإحسان يُوليه، وإنعام يُسْديه، ونحن نذكر ما نعلم به محله في أمر دنياه وأخراه.

[١٦] أما زهده وعبادته وعلمه فإنه كان مع سعة ملكه وكثرة ذخائر

---

(١) قنى جمع قناة.

(٢) حصن من أعمال حلب: انظر «معجم البلدان»: ٢/ ٢٠٥.

بلاده وأموالها لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف فيما يخصه إلا من مِلْك كان له قد اشتراه من سهمه من الغنيمة، ومن الأموال المرصدة لمصالح المسلمين، أحضر الفقهاء، واستفتاهم في أخذ ما يحل له من ذلك فأخذ ما أفتوه بحلّه ولم يتعدّه إلى غيره ألبتة، ولم يلبس قطّ ما حرمه الشرع من حرير أو ذهب أو فضة.

[١٧] ومنع من شرب الخمر وبيعها في جميع بلاده ومن إدخالها إلى بلدٍ ما، وكان يحد شاربها الحد الشرعي كل الناس عنده فيه سوَاء.

[١٨] حدثني صديق لنا بدمشق كان رضيعَ ابنة معين الدين زوجة نور الدين ووزيرَها، قال: كان نور الدين إذا جاء إليها يجلس في المكان المختص به وتقوم في خدمته لا تتقدم إليه إلا أن يأذن في أخذ ثيابه عنه، ثم تعتزل عنه إلى المكان الذي يختص بها، وينفرد هو تارة يطالع رقاع أصحاب الأشغال، أو في مطالعة كتاب أتاه، ويجيب عنهما، وكان يصلي فيطيل الصلاة، وله أوراد في النهار، فإذا جاء الليل وصلى العشاء ونام يستيقظ نصف الليل ويقوم إلى الوضوء والصلاة إلى بكرة فيظهر الركوب ويشتغل بمهام الدولة، قال: وإنها قلّت عليها النفقة ولم يكفها ما كان قرَّره لها فأرسلتني إليه أطلب منه زيادة في وظيفتها فلما قلت له ذلك تنكّر واحمر وجهه، ثم قال: من أين أعطيها؟ أما يكفيها مالها؟ والله لا أخوض نار جهنم في هواها، إن كانت تظن أن الذي بيدي من الأموال لي فبئس الظن إنما هي أموال المسلمين مرصدة لمصالحهم، ومعدة لفَتْقٍ إن كان من عدوّ الإسلام، وأنا خازنهم عليها فلا أخونهم فيها، ثم قال: لي بمدينة حمص ثلاثة دكاكين ملكاً وقد وهبتها إياها فلتأخذها، قال: وكان يحصل منها قدر قليل.

[١٩] قال ابن الأثير: وكان ـ رحمه الله ـ لا يفعل فعلاً إلا بنية حسنة، كان بالجزيرة رجل من الصالحين كثير العبادة والورع، شديد الانقطاع عن الناس، وكان نور الدين يكاتبه ويراسله، ويرجع إلى قوله

ويعتقد فيه اعتقاداً حسناً، فبلغه أن نور الدين يُدمن اللعب بالكُرة(١) فكتب إليه يقول: ما كنت أظنك تلهو وتلعب وتعذب الخيل لغير فائدة دينية، فكتب إليه نور الدين بخط يده يقول: والله ما يحملني على اللعب بالكرة اللهوُ والبطر، وإنما نحن في ثغر، العدو قريب منا، وبينما نحن جلوس إذ يقع صوت فنركب في الطلب، ولا يمكننا أيضاً ملازمة الجهاد ليلاً ونهاراً شتاءً وصيفاً إذ لا بد من الراحة للجند، ومتى تركنا الخيل على مرابطها صارت جَماماً(٢) لا قدرة لها على إدمان السير في الطلب، ولا معرفة لها أيضاً بسرعة الانعطاف والطاعة لراكبها في الحرب، فهذا والله الذي بعثني على اللعب بالكرة.

١٧ أ/هـ

قال ابن الأثير: فانظر إلى هذا الملك المعدوم النظير الذي يقل في أصحاب الزوايا المنقطعين إلى العبادة مثله، فإن من يجيء إلى اللعب يفعله بنية صالحة حتى يصير من أعظم العبادات وأكبر القربات يقل في العالم مثله، وفيه دليل على أنه كان لا يفعل شيئاً إلا بنية صالحة، وهذه أفعال العلماء الصالحين العاملين.

[٢٠] وحكي عنه أنه حُمل إليه من مصر عمامة من القصب الرفيع مذهبة فلم يُحضرها عنده، فوصفت له فلم يلتفت إليها، وبينا هم معه في حديثها وإذا قد جاءه رجل صوفي فأمر بها له فقيل: إنها لا تصلح لهذا الرجل ولو أُعطي غيرها كان أنفعَ له، فقال: أعطوها له فإني أرجو أن أعوَّض عنها في الآخرة، فسُلمت إليه فسار بها إلى بغداد فباعها بستمائة دينار أو سبعمائة دينار.

[٢١] قال ابن الأثير: وحكى لنا الأمير بهاء الدين علي بن السكريّ - وكان خِصيصاً بخدمة نور الدين قد صحبه من الصبا وأنِس به، وله معه

---

(١) وهي التي يقال لها اليوم: البولو، وهي تلعب من فوق الحصان بعصا طويلة.

(٢) الفرس الجمام هو المتروك فلا يُركب: انظر «لسان العرب»: جمم.

انبساط ـ قال: كنت معه يوماً في الميدان بالرُّها، والشمس في ظهورنا فكلما سرنا تقدّمنا الظل، فلما عدنا صار ظلنا وراء ظهورنا فأجرى فرسه وهو يلتفت وراءه وقال لي: أتدري لأي شيء أجري فرسي وألتفت ورائي؟ قلت: لا، قال: قد شبهت ما نحن فيه بالدنيا تهرب ممن يطلبها، وتطلب من يهرب منها.

قلت: رضي الله عن ملك يفكر في مثل هذا، وقد أنشدت بيتين في هذا المعنى:

مثل الرزق الذي تطلبه   مثل الظل الذي يمشي معك
أنت لا تدركه متبعاً   فإذا وليت عنه تبعك

[٢٢] قال ابن الأثير: وكان نور الدين ـ رحمه الله ـ يصلي كثيراً من الليل ويدعو ويستغفر ويقرأ.

[٢٣] قال: وكان عارفاً بالفقه على مذهب الإمام أبي حنيفة ـ رضي الله عنه ـ ليس عنده تعصب بل الإنصاف سجيته في كل شيء، وسمع الحديث وأسمعه طلباً للأجر.

[٢٤] وعلى الحقيقة فهو الذي جدَّد للملوك اتبّاع سنة العدل والإنصاف، وترك المحرمات من المأكل والمشرب والملبس وغير ذلك، فإنهم كانوا قبل ذلك كالجاهلية همة أحدهم بطنه وفرجه لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً حتى جاء الله بدولته فوقف مع أوامر الشرع ونواهيه، وألزم بذلك أتباعه وذويه، فاقتدى به غيره منهم، واستحبوا أن يظهر عنهم ما كانوا يفعلونه، ومن سن سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة.

[٢٥] قال: فإن قال قائل: كيف يوصف بالزهد من له الممالك الفسيحة، وتُجبى إليه الأموال الكثيرة؟ فليذكر نبيّ الله سليمان بن داود ـ عليهما السلام ـ مع ملكه وهو سيد الزاهدين في زمانه، ونبينا ﷺ قد حكم

على حضرموت واليمن والحجاز وجميع جزيرة العرب من حدود الشام إلى العراق وهو على الحقيقة سيد الزاهدين، قال: وإنما الزهد خلوُّ القلب من محبة الدنيا لا خلوّ اليد عنها.

[٢٦] قال: وأما عدله فإنه كان أحسنَ الملوك سيرة وأعدلهم حكماً، فمن عدله أنه لم يترك في بلد من بلاده ضريبة ولا مَكساً(١) بل أطلقها ـ رحمه الله ـ جميعها في بلاد الشام والجزيرة جميعها والموصل وأعمالها وديار مصر وغيرها مما حكم عليه، وكان المَكْس في مصر يؤخذ من كل مئة دينار خمسة وأربعون ديناراً وهذا لم تتسع له نفس غيره، وكان يتحرى العدل وينصف المظلوم من الظالم كائناً من كان، القوي والضعيف عنده في الحق سواء، وكان يسمع شكوى المظلوم ويتولى كشف حاله بنفسه ولا يَكِلُ ذلك إلى حاجب ولا أمير، فلا جرَمَ سار ذكره في شرق الأرض وغربها.

[٢٧] قال: ومن عدله أنه كان يعظم الشريعة المطهرة ويقف عند أحكامها، ويقول: نحن سُخُر لها نُمضي أوامرها، فمن اتّباعه أحكامها أنه كان يلعب بدمشق بالكرة فرأى إنساناً يحدِّث آخر ويومئ بيده إليه فأرسل إليه يسأله عن حاله فقال: لي مع الملك العادل حكومة وهذا غلام القاضي ليحضره إلى مجلس الحكم يحاكمني على المِلْك الفلاني فعاد إليه ولم يتجاسر أن يعرّفه ما قال ذلك الرجل وعاد يكتمه فلم يقبل منه غير الحق، فذكر له قوله فألقى الجوكان(٢) من يده وخرج من الميدان وسار إلى القاضي وهو حينئذ كمال الدين ابن الشهرزوريّ(٣)، وأرسل إلى القاضي يقول له: إنني قد جئت محاكَماً فاسلك معي مثل ما تسلكه مع غيري، فلما حضر ساوى خصمَه، وحاكمه فلم يثبت عليه حق، وثبت المِلك لنور

---

(١) المكس من أنواع الضرائب.

(٢) العصا التي تُلعب بها الكرة.

(٣) محمد بن عبد الله بن القاسم (ت٥٧٢): انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ٥٧ ـ ٦٠.

الدين، فقال نور الدين حينئذ للقاضي ولمن حضر: هل ثبت له عندي حق، قالوا: لا، فقال: اشهدوا أنني قد وهبت له هذا المِلْك الذي قد حاكمني عليه وهو له دوني، وقد كنت أعلم أنه لا حق له عندي وإنما حضرت معه لئلا يظن أني ظلمته، فحيث ظهر أن الحق لي وهبته له.

قال ابن الأثير: وهذا غاية العدل والإنصاف بل غاية الإحسان وهي درجة وراء العدل، فرحم الله هذه النفسَ الزكية الطاهرة المنقادة للحق الموافقة معه.

قلت: وهذا مستكثر من ملك متأخر بعد فساد الأزمنة وتفرّق الكلمة، وإلا فقد انقاد إلى المضيّ إلى مجلس الحكم جماعةٌ من المتقدمين مثل عمر وعليّ - رضي الله عنهما - ثم حُكي نحو ذلك عن أبي جعفر المنصور.

[٢٨] قال ابن الأثير: ومن عدله أنه لم يكن يعاقب العقوبة التي يعاقب بها الملوك في هذه الأعصار على الظِّنة والتهمة بل يطلب الشهود على المتهم، فإن قامت البيِّنة الشرعية عاقبه العقوبة الشرعية من غير تعدٍّ، فدفع الله بهذا الفعل عن الناس من الشرّ ما يوجد في غير ولايته مع شدّة السياسة والمبالغة في العقوبة والأخذ بالظِّنة، وأمنت بلاده مع سعتها، وقلّ المفسدون ببركة العدل واتّباع الشرع المطهر.

[illegible]

[٢٩] قال: وحكى لي من أثق به أنه دخل يوماً إلى خزانة المال فرأى فيها مالاً أنكره فسأل عنه فقيل: إن القاضي كمال الدين أرسله وهو من جهة كذا فقال: إن هذا المال ليس لنا ولا لبيت المال في هذه الجهة شيء، وأمر بردّه وإعادته إلى كمال الدين ليردّه على صاحبه، فأرسله متولي الخزانة إلى كمال الدين فردّه إلى الخزانة وقال: إذا سأل الملك العادل عنه فقولوا له عني إنه له، فدخل نور الدين الخزانة مرة أخرى فرآه فأنكر على النوّاب وقال: ألم أقل لكم يعاد هذا المال على أصحابه، فذكروا له قول كمال الدين فردّه إليه وقال للرسول: قل لكمال الدين: أنت تقدر على

حمل هذا المال، وأما أنا فرقبتي دقيقة لا أطيق حمله والمخاصمة عليه بين يدي الله ـ تعالى ـ يعاد قولاً واحداً.

[٣٠] قال: ومن عدله أيضاً بعد موته ـ وهو من أعجب ما يُحكى ـ أن إنساناً كان بدمشق غريباً استوطنها وأقام بها لِمَا رأى من عدل نور الدين ـ رحمه الله ـ فلما توفي تعدّى بعض الأجناد على هذا الرجل فشكاه فلم يُنصَف، فنزل من القلعة وهو يستغيث ويبكي وقد شق ثوبه وهو يقول: يا نور الدين لو رأيتنا وما نحن فيه من الظلم لرحمتنا، أين عدلك؟ وقصد تربة نور الدين ومعه من الخلق ما لا يُحصى وكلهم يبكي ويصيح فوصل الخبر إلى صلاح الدين فقيل له: احفظ البلد والرعية وإلا خرج عن يدك، فأرسل إلى ذلك الرجل وهو عند تربة نور الدين يبكي والناس معه وطيب قلبه ووهبه شيئاً وأنصفه، فبكى أشدّ من الأوّل فقال له صلاح الدين: لمَ تبكي؟ قال: أبكي على سلطان عدل فينا بعد موته، فقال صلاح الدين: هذا هو الحق، وكل ما ترى فينا من عدل فمنه تعلمناه.

[٣١] قلت: ومن عدله أن بنى دار العدل، قال ابن الأثير:

كان نور الدين ـ رحمه الله ـ أول من بنى داراً للكشف وسماها دار العدل، وكان سبب بنائها أنه لما طال مقامه بدمشق وأقام بها أمراؤه وفيهم أسد الدين شِيركُوه(١) وهو أكبر أمير معه وقد عظم شأنه وعلا مكانه حتى صار كأنه شريك في الملك، واقتنوا الأملاك وأكثروا، تعدّى كل واحد منهم على من يجاوره في قرية أو غيرها فكثرت الشكاوى إلى كمال الدين فأنصف بعضهم من بعض ولم يُقْدم على الإنصاف من أسد الدين شيركُوه فأنهى الحال إلى نور الدين فأمر حينئذ ببناء دار العدل، فلما سمع أسدَ الدين بذلك أحضر نُوابه جميعهم وقال لهم: اعلموا أن نور الدين ما أمر ببناء هذه الدار إلا بسببي وحدي وإلا فمن هو الذي يمتنع على كمال

---

(١) ستأتي أخباره متفرقة في هذا الكتاب، وكان من أكابر الشجعان، وهو عم صلاح الدين. توفي سنة ٥٦٤. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٥٨٧ ـ ٥٨٩.

الدين، ووالله لئن أُحضرت إلى دار العدل بسبب أحدكم لأصلبنه فامضوا إلى كل مَن بينكم وبينه منازعة في مِلْك فافصلوا الحال معه وأرضوه بأي شيء أمكن ولو أتى ذلك على جميع ما بيدي، فقالوا له: إن الناس إذا علموا هذا اشتطوا في الطلب، فقال: خروج أملاكي عن يدي أسهل عليَّ من أن يراني نور الدين بعين أبيِّ ظالم، أو يساوي بيني وبين آحاد العامة في الحكومة، فخرج أصحابه من عنده وفعلوا ما أمرهم وأرضوا خصماءهم وأشهدوا عليهم، فلما فرغت دار العدل جلس نور الدين فيها لفصل الحكومات، وكان يجلس في الأسبوع يومين وعنده القاضي والفقهاء وبقي كذلك مدّة فلم يحضر عنده أحد يشكو من أسد الدين، فقال نور الدين لكمال الدين: ما أرى أحداً يشكو من شيركوه، فعرَّفه الحال فسجد شكراً لله ـ تعالى ـ وقال: الحمد لله الذي جعل أصحابنا يُنصفون من أنفسهم قبل حضورهم عندنا.

قال ابن الأثير: فانظر إلى هذه المعدلة ما أحسنها، وإلى هذه الهيبة ما أعظمها، وإلى هذه السياسة ما أسدَّها، هذا مع أنه كان لا يريق دماً ولا يبالغ في عقوبة، وإنما كان يفعل هذا صدقه في عدله وحُسن نيّته.

[٣٢] قال: وأما شجاعته وحُسن رأيه فقد كانت النهاية إليه فيهما فإنه أصبر الناس في الحرب، وأحسنُهم مكيدةً ورأياً وأجودهم معرفة بأمور الأجناد وأحوالهم، وبه كان يضرب المثل في ذلك.

[٣٣] سمعت جماً كثيراً من الناس لا أحصيهم يقولون: إنهم لم يروا على ظهر الفرس أحسنَ منه كأنما خلق عليه لا يتحرّك ولا يتزلزل، وكان من أحسن الناس لعباً بالكرة وأقدرهم عليها، وكان ربما ضرب الكرة ويُجري الفرس ويتناولها بيده من الهواء ويرميها إلى آخر الميدان.

[٣٤] وكان إذا حضر الحربَ باشر القتال بنفسه، وكان يقول: طالما تعرَّضت للشهادة فلم أدركها، سمعه يوماً الإمام قطب الدين النيسابوريّ الفقيه الشافعيّ وهو يقول ذلك، فقال له: بالله لا تخاطر بنفسك وبالإسلام والمسلمين فإنك عمادهم، ولئن أصبت والعياذ بالله في معركة لا يبقى من

المسلمين أحدٌ إلا أخذه السيف وأُخذت البلاد، فقال: يا قطب الدين، ومن محمود حتى يقال له هذا؟ قبلي من حفظ البلاد والإسلام ذلك الله الذي لا إله إلا هو.

[٣٥] قال: وكان - رحمه الله - يكثر أعمال الحيل والمكر والخداع مع الفِرَنْج خذلهم - الله تعالى - وأكثر ما ملكه من بلادهم به.

ومن جيد الرأي ما سَلكه مع مليح بن ليون ملك الأرمن صاحب الدروب فإنه ما زال يخدعه ويستميله حتى جعله في خدمته سفراً وحضراً، وكان يقاتل به الإفرنج، وكان يقول إنما حملني على استمالته أن بلاده حصينة وعرة المسالك، وقلاعه منيعة وليس لنا إليها طريق وهو يخرج منها إذا أراد فينال من بلاد الإسلام فإذا طُلب انحجز فيها فلا يُقدر عليه، فلما رأيت الحال هكذا بذلت له شيئاً من الإقطاع على سبيل التألّف حتى أجاب إلى طاعتنا وخدمتنا وساعدنا على الفرنج.

قال: وحيث تُوفي نور الدين - رحمه الله - وسلك غيره غير هذا الطريق ملك المتولي الأرمن بعد مليح كثيراً من بلاد الإسلام وحصونهم وصار منه ضرر عظيم وخرق واسع لا يمكن رقعه.

[٣٦] قال: ومن أحسن الآراء ما كان يفعله مع أجناده فإنه كان إذا تُوفي أحدهم وخلف ولداً أقرَّ الإقطاع عليه، فإن كان الولد كبيراً استبدَّ بنفسه، وإن كان صغيراً رتب معه رجلاً عاقلاً يثق إليه فيتولى أمره إلى أن يكبر فكان الأجناد يقولون: هذه أملاكنا يرثها الولد عن الوالد فنحن نقاتل عليها، وكان ذلك سبباً عظيماً من الأسباب الموجبة للصبر في المشاهد والحروب.

[٣٧] وكان أيضاً يثبت أسماء أجناد كل أمير في ديوانه وسلاحهم خوفاً من حرص بعض الأمراء وشحه أن يحمله على أن يقتصر على بعض ما هو مقرّر عليه من العدد ويقول: نحن كل وقت في النفير فإذا لم يكن أجناد كافة الأمراء كاملي العَدد والعُدد دخل الوهن على الإسلام، قال:

ولقد صدق ـ رضي الله عنه ـ فيما قال: وأصاب فيما فعل، فلقد رأينا ما خافه عياناً.

[٣٨] قال: وأما فعله في بلاد الإسلام من المصالح مما يعود إلى حفظها وحفظ المسلمين فكثير عظيم، من ذلك أنه بنى أسوار مدن الشام جميعها وقلاعها فمنها حلب وحماة وحمص ودمشق وبارين وشَيْزر ومَنْبج وغيرها من القلاع والحصون، وحصَّنها، وأحكم بناءها، وأخرج عليها من الأموال ما لا تسمح به النفوس.

[٣٩] وبنى أيضاً المدارس بحلب وحماة ودمشق وغيرها الشافعية والحنفية، وبنى الجوامع في جميع البلاد، فجامعُه في الموصل إليه النهاية في الحسن والإتقان، ومن أحسن ما عمل فيه أنه فوَّض أمر عمارته والخروج عليه إلى الشيخ عمر المَلاّ ـ رحمه الله ـ وهو رجل من الصالحين فقيل له: إن هذا لا يصلح لمثل هذا العمل، فقال: إذا وليت العمل بعض أصحابي من الأجناد والكتَّاب أعلم أنه يظلم في بعض الأوقات ولا يفي الجامع بظلم رجل مسلم، وإذا وليت هذا الشيخ غلب على ظني أنه لا يظلم، فإذا ظلم كان الإثم عليه لا عليَّ. قال: وهذا هو الفقه في الخلاص من الظلم.

[٤٠] وبنى أيضاً بمدينة حماة جامعاً على نهر العاصي من أحسن الجوامع وأنزهها، وجدَّد في غيرها من عمارة الجوامع ما كان قد تهدَّم إما بزلزلة أو غيرها.

[٤١] وبنى البيمارستانات(١) في البلاد، ومن أعظمها البيمارستان الذي بناه بدمشق فإنه عظيم كثير الخرج جداً، بلغني أنه لم يجعله وقفاً على الفقراء حَسْبُ بل على كافة المسلمين من غنيٍّ وفقير.

قلت: وقد وقفت على كتاب وَقْفه فلم أره مشعراً بذلك، وإنما هذا كلام شاع على ألسنة العامة لنفع ما قدَّره الله ـ تعالى ـ من مزاحمة الأغنياء للفقراء فيه، والله المستعان، وإنما صرح بأن ما يعزّ وجوده من الأدوية

---

(١) أي المستشفيات، انظر «الألفاظ الفارسية المعربة»: ٣٣.

الكبار وغيرها لا يُمنع منه من احتاج إليه من الأغنياء والفقراء، فخص ذلك بذلك فلا ينبغي أن يُتعدَّى إلى غيره، لا سيما وقد صرح قبل ذلك بأنه وقف على الفقراء والمنقطعين وقال بعد ذلك: من جاء إليه مستوصفاً لمرضه أعطي، وروي أن نور الدين ـ رحمه الله ـ شرب من شراب البيمارستان فيه وذلك موافق لقوله في كتاب الوقف: من جاء إليه مستوصفاً لمرضه أعطي، والله أعلم.

[٤٢] وبلغني في أصل بنائه نادرة وهي أن نور الدين ـ رحمه الله ـ وقع في أسره بعض أكابر ملوك الفِرَنج خذلهم الله ـ تعالى ـ فقطع على نفسه في فدائه مالاً عظيماً، فشاور نورَ الدين أمراءه فكلٌ أشار بعدم إطلاقه لما كان فيه من الضرر على المسلمين، ومال نور الدين إلى الفداء بعدما استخار الله ـ تعالى ـ فأطلقه ليلاً لئلا يعلم أصحابه وتسلم المال، فلما بلغ الفرنجيُّ مأمنه مات، وبلغ نور الدين خبره فأعلم أصحابه فتعجبوا من لطف الله تعالى بالمسلمين حيث جمع لهم الحَسَنَتين وهما الفداء وموت ذلك اللعين، فبنى نور الدين ـ رحمه الله ـ بذلك المال هذا البيمارستان ومنع المال الأمراء لأنه لم يكن عن إرادتهم.

[٤٣] قال ابن الأثير: وبنى أيضاً الخانات في الطرق فأمن الناس وحُفظت أموالهم وباتوا في الشتاء في كنٍّ(١) من البرد والمطر.

[٤٤] وبنى أيضاً الأبراج على الطرق بين المسلمين والفرنج، وجعل فيها من يحفظها ومعهم الطيور الهوادي، فإذا رأوا من العدوّ أحداً أرسلوا الطيور فأخذ الناس حذرهم واحتاطوا لأنفسهم فلم يبلغ العدوّ منهم غرضاً، وكان هذا من ألطف الفِكَر وأكثرها نفعاً.

[٤٥] قال: وبنى الربط والخانْقاهات(٢) في جميع البلاد للصوفية،

---

(١) الكنّ: وقاء كل شيء وستره، انظر «لسان العرب»: ك ن ن.

(٢) الخانقاه: دار يعيش فيها الزهاد والصوفية، انظر «معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي»: ٦٦.

ووقف عليها الوقوف الكثيرة، وأدرَّ عليهم الإدرارات الصالحة، وكان يُحضر مشايخهم عنده ويقرّبهم ويدنيهم ويبسطهم ويتواضع لهم، فإذا أقبل أحدهم إليه يقوم له مذ تقع عينه عليه ويعتنقه ويجلس معه على سجادته ويقبل عليه بحديثه، وكذلك كان أيضاً يفعل بالعلماء من التعظيم والتوقير والاحترام، ويجمعهم عند البحث والنظر، فقصدوه من البلاد الشاسعة من خراسان وغيرها.

[٤٦] وبالجملة كان أهل الدين عنده في أعلى محل وأعظمه، وكان أمراؤه يحسدونهم على ذلك، وكانوا يقعون عنده فيهم فينهاهم، وإذا نقلوا عن إنسان عيباً يقول: ومن المعصوم؟ وإنما الكامل من تُعدّ ذنوبه.

قال: وبلغني أن بعض أكابر الأمراء حسد قطب الدين النيسابوري الفقيه الشافعي وكان قد استقدمه من خراسان وبالغ في إكرامه والإحسان إليه فحسده ذلك الأمير فنال منه يوماً عند نور الدين فقال له:

يا هذا إن صحَّ ما تقول فله حسنة تغفر كل زلة تذكرها وهي العلم والدين، وأمّا أنت وأصحابك ففيكم أضعاف ما ذكرت وليست لكم حسنة تغفرها، ولو عقلت لشغلك عيبك عن غيرك وأنا أحتمل سيئاتكم مع عدم حسناتكم، أفلا أحمل سيئة هذا - إن صحت - مع وجود حسنته، على أنني والله لا أصدّقك فيما تقول، وإن عدت ذكرته أو غيره بسوء لأؤدِّبنّك فكف عنه.

قال ابن الأثير: هذا والله هو الإحسان والفعل الذي ينبغي أن يكتب على العيون بماء الذهب.

[٤٧] وبنى بدمشق أيضاً دارَ الحديث، ووقف عليها وعلى مَن بها من المشتغلين بعلم الحديث وقوفاً كبيرة، وهو أول من بنى داراً للحديث فيما عَلمْناه.

أول [illegible]

[٤٨] وبنى أيضاً في كثير من بلاده مكاتب للأيتام وأجرى عليهم وعلى معلميهم الجرايات الوافرة.

[٤٩] وبنى أيضاً مساجد كثيرة، ووقف عليها وعلى مَن يقرأ بها القرآن، قال: وهذا فِعلٌ لم يُسبق إليه، بلغني من عارف بأعمال الشام أن وقوف نور الدين في وقتنا هذا ـ وهو سنة ثمان وستمائة ـ كل شهر تسعة آلاف دينار صُوْرية(١) ليس فيها غير ملك صحيح شرعي ظاهراً وباطناً فإنه وقف ما انتقل إليه فوزن ثمنه أو ما غلب عليه من بلاد الفرنج وصار سهمه.

[٥٠] قال: وأمّا هيبته ووقاره فإليه النهاية فيهما، ولقد كان ـ كما قيل ـ شديداً في غير عنف رقيقاً في غير ضعف، واجتمع له ما لم يجتمع لغيره فإنه ضبط ناموس الملك مع أجناده وأصحابه إلى غاية لا مزيد عليها، وكان يلزمهم بوظائف الخدمة الصغير منهم والكبير، ولم يجلس عنده أمير من غير أن يأمره بالجلوس إلا نجم الدين أيوب والد صلاح الدين يوسف، وأما من عداه كأسد الدين شيركُوه ومجد الدين بن الداية وغيرهما فإنهم كانوا إذا حضروا عنده يقفون قياماً إلى أن يأمرهم بالقعود، وكان مع هذه العظمة إذا دخل عليه الفقيه أو الصوفي أو الفقير يقوم له ويمشي بين يديه ويجلسه إلى جانبه كأنه أقرب الناس إليه، وكان إذا أعطى أحدهم شيئاً يقول: إن هؤلاء لهم في بيت المال حق فإذا أُقنعوا منا ببعضه فلهم المنة علينا.

[٥١] وكان مجلسه ـ كما رُوي في صفة مجلس رسول الله ﷺ ـ مجلسَ حكم وحياء لا تُؤْبَن فيه الحُرم(٢)، وهكذا كان مجلسه لا يذكر فيه إلا العلم والدين وأحوال الصالحين والمشاورة في أمر الجهاد وقصد بلاد العدوّ ولا يتعدّى هذا.

بلغني أن الحافظ ابن عساكر الدمشقيّ ـ رضي الله عنه ـ حضر مجلس صلاح الدين يوسف لما ملك دمشق، فرأى فيه من اللغَط وسوء الأدب من الجلوس فيه ما لا حدّ عليه، فشرع يحدِّث صلاح الدين كما كان يحدّث

---

(١) نسبة إلى مدينة صور.

(٢) أي لا تُذكر فيه النساء بقبيح، ويصان مجلسه عن الرفث وما يقبح ذكره: انظر «لسان العرب»: ابن.

نور الدين فلم يتمكن من القول لكثرة الاختلاف من المتحدّثين وقلة استماعهم فقام، وبقي مدّة لا يحضر المجلس الصلاحي، وتكرّر من صلاح الدين الطلب له فحضر فعاتبه صلاح الدين يوسف على انقطاعه فقال: نزهت نفسي عن مجلسك؛ فإنني رأيته كبعض مجالس السُّوقة لا يُستمع فيه إلى قائل ولا يرد جواب متكلم، وقد كنا بالأمس نحضر مجلس نور الدين فكنا كما قيل: كأنما على رؤوسنا الطير، تعلونا الهيبة والوقار، فإذا تكلم أنصتنا وإذا تكلمنا استمع لنا، فتقدّم صلاح الدين إلى أصحابه أنه لا يكون منهم ما جرت به عادتهم إذا حضر الحافظ.

قال ابن الأثير: فهكذا كانت أحواله جميعها ـ رحمه الله ـ مضبوطة محفوظة.

[٥٢] وأما حفظ أصول الديانات فإنه كان مراعياً لها لا يهملها ولا يمكن أحداً من الناس من إظهار ما يخالف الحق، ومتى أقدم مقدم على ذلك أدّبه بما يناسب بدعته، وكان يبالغ في ذلك ويقول: نحن نحفظ الطرق من لص وقاطع طريق، والأذى الحاصل منهما قريب، أفلا نحفظ الدين ونمنع عنه ما يناقضه وهو الأصل.

قلت: وذكر العماد الكاتب في أوّل كتابه «البرق الشامي» أنه قدم دمشق في شعبان سنة اثنتين وستين وخمسمائة في دولة الملك العادل نور الدين محمود بن زَنْكي، ثم ذكر العماد في أثناء حوادث سنة تسع وستين وهي السنة التي توفي فيها نور الدين قال:

[٥٣] وفي هذه السنة أكثر نور الدين من الأوقاف والصدقات وعمارة المساجد المهجورة، وتعفية(١) آثار الآثام، وإسقاط كل ما يدخل في شبهة الحرام، فما أبقى سوى الجزية والخراج، وما يحصل من قسمة الغلات على قويم المنهاج، قال: وأمرني بكتب مناشير لجميع أهل البلاد فكُتب

---

(١) التعفية: الإزالة: انظر «لسان العرب»: عفا.

أكثر من ألف منشور، وحسبنا ما تصدَّق به على الفقراء في تلك الأشهر فزاد على ثلاثين ألف دينار، وكانت عادته في الصدقة أنه يُحضر جماعة من أماثل البلد من كل مَحَلة ويسألهم عمن يعرفون في جوارهم من أهل الحاجة ثم يصرف إليهم صدقاتهم.

[٥٤] وأما ما كان يُهدى إليه من هدايا الملوك وغيرهم فإنه كان لا يتصرف في شيء منه لا قليل ولا كثير، بل إذا اجتمع يخرجه إلى مجلس القاضي ويحصل ثمنه ويُصرف في عمارة المساجد المهجورة. وتقدّم بإحصاء ما في محال دمشق فأناف على مئة مسجد فأمر بعمارة ذلك كله وعين له وقوفاً، قال: ولو اشتغلت بذكر وقوفه وصدقاته في كل بلد لطال الكتاب ولم أبلغ إلى أمد، ومشاهدة أبنيته الدالة على خلوص نيَّته يغني عن خبرها بالعَيان، وفي شرح طوله طول، وعمله لله مبرور مقبول، وواظب على عقد مجالس الوعاظ ونصب الكراسي لهم في القلعة للإنذار والاتعاظ، وأكبرهم الفقيه قطب الدين النيسابوريّ، وهو مشغوف ببركة أنفاسه واغتنام كلامه واقتباسه.

وكانت دولته نافذة الأوامر، منتظمة الأمور.

[٥٥] قلت: وحكى الشيخ أبو البركات الحسن بن محمد بن هبة الله أنه حضر مع عمه الحافظ أبي القاسم - رحمه الله - مجلس نور الدين لسماع شيء من حديث، فمرَّ في أثناء الحديث أن النبيّ ﷺ خرج متقلِّداً سيفاً فاستفاد نور الدين أمراً لم يكن يعرفه وقال: كان رسول الله ﷺ يتقلد السيف(١)؟ يشير إلى التعجب من عادة الجند إذ هم على خلاف ذلك لأنهم يربطونه بأوساطهم.

قال: فلما كان من الغد مررنا تحت القلعة والناس يجتمعون ينتظرون ركوب السلطان فوقفنا ننظر إليه معهم فخرج نور الدين - رحمة الله - من

---

(١) أي يجعل السيف في العنق كالقلادة: انظر «لسان العرب»: ق ل د.

القلعة وهو متقلد للسيف وجميع عسكره كذلك، فرحمة الله على هذا الملك الذي لم يفرِّط في الاقتداء بالنبي ﷺ بمثل هذه الحالة لما بلغته رجع بنفسه ورد جنده عن عوائدهم اتِّباعاً لما بلغه عن نبيه ﷺ، فما الظنّ بغير ذلك من السنن؟

[٥٦] ولقد بلغني أنه أمر بإسقاط ألقابه في الدعاء له على المنابر.

[٥٧] ورأى له وزيره موفق الدين خالد بن القيسرانيّ الشاعر في منامه أنه يغسل ثيابه وقص ذلك عليه، ففكر ساعة ثم أمر بكتابة إسقاط المكوس وقال: هذا تفسير منامك.

[٥٨] وكان في تهجده يقول: ارحم العَشَّار⁽¹⁾ المكّاس. وبعد أن أبطل ذلك استُجعل من الناس في حلّ، وقال: والله ما أخرجناها إلا في جهاد عدوّ الإسلام، يعتذر بذلك إليهم عَن أخذها منهم.

[٥٩] وعلى الجملة كان نور الدين ـ رحمه الله ـ فرداً في زمانه من بين سائر الملوك، ولو لم يكن إلا استماعه للموعظة وانقياده لها وإن اشتملت على ألفاظ قد أُغْلظ له فيها.

قرأت في «تاريخ إربل»⁽²⁾ لشرف الدين ابن المستوفي ـ رحمه الله ـ قال: يسمى الآن أربيل

المنتخب الواعظ: هو أبو عثمان المنتخب بن أبي محمد بن البحتري الواسطي ورد إربل ووعظ بها، وكان له قبول عظيم، وسافر إلى نور الدين محمود بن زنكي بن آق سنقر إلى الشام لسبب الغزاة، وأنفذ له نور الدين جملة من مال فلم يقبلها ثم ردَّها عليه.

أنشدني له يحيى بن محمد بن صدقة قصيدة عملها في نور الدين وحلف أنه سمعها من لفظه:

---

(١) أي الذي يأخذ عشر المال ضريبة: انظر المصدر السابق: ع ش ر.

(٢) مدينة للأكراد في العراق.

مَثِّل وقوفك أيها المغرور ... يوم القيامة والسماء تمور
إن قيل نور الدين رحت مسلماً ... فاحذر بأن تبقى وما لك نور
أنهيت عن شرب الخمور وأنت من ... كأس المظالم طافح مخمور
عطلت كاسات المُدام[1] تعففاً ... وعليك كاسات الحرام تدور
ماذا تقول إذا نقلت إلى البِلى ... فرداً وجاءك منكرٌ ونكير
وتعلقت فيك الخصوم وأنت في ... يوم الحساب مُسَحَّبٌ مجرور
وتفرّقت عنك الجنود وأنت في ... ضيق اللحود مُوسَّد مقبور
ووددت أنك ما ولِيت ولاية ... يوماً ولا قال الأنام: أمير
وبقيت بعد العزّ رهن حُفيرة ... في عالم الموتى وأنت حقير
وحُشرت عرياناً حزيناً باكياً ... قلقاً وما لك في الأنام مجير
أرضيت أن تحيا وقلبك دارس[2] ... عافي الخراب وجسمك المعمور
أرضيت أن يحظى سواك بقربه ... أبداً وأنت مُبَعَّدٌ مهجور
مهد لنفسك حجة تنجو بِها ... يوم المعاد لعلك المعذور

قلت: ولعل هذه الأبيات من أقوى الأسباب المحرّكة للسلطان في إبطال تلك المظالم والخلاص من تلك المآثم، رضي الله عن الواعظ والمتعظ بسببه، ووفق من رام الاقتداء به.

ونقلت من خط الصاحب العالم كمال الدين أبي القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة في كتاب «تاريخ حلب» الذي صنفه، قال:

[٦٠] وقفت على رقعة بخط الوزير خالد بن محمد بن نصر بن صغير القيسرانيّ كتبها إلى نور الدين، وجوابها من نور الدين على رأس الورقة وبين السطور فنقلت جميع ما فيهما، قال: وكان رحمه الله كتب رقعة يطلب من ابن القيسرانيّ أن يكتب له صورة ما يُدعى له به على المنابر

---

(١) أي الخمر: انظر «لسان العرب»: د و م.

(٢) أي خَرِب: انظر «المصدر السابق»: د ر س.

حتى لا يقول الخطيب ما ليس فيه، ويصونَه عن الكذب وعمّا هو مخالف لحاله، ونسخة الورقة بخط خالد:

أعلى الله قدر المولى في الدارين، وبلّغه آماله في نفسه وذريّته، وختم له بالخير في العاجلة والآجلة بمنّه وجوده وفضله وحمده، وقف المملوك(١) على الرقعة وتضاعف دعاؤه وابتهاله إلى الله ـ تعالى ـ بأن يرضى عنه وعن والديه، وأن يسهل له السلوك إلى رضاه، والقربَ منه والفوز عنده، إنه على كل شيء قدير، رأى المملوك(١) أن يذكر الخطيب على المنبر إذا أراد الدعاء للمولى:

«اللهم أصلح عبدك الفقيرَ إلى رحمتك، الخاضعَ لهيبتك، المعتصم بقوتك، المجاهد في سبيلك، المرابط لأعداء دينك، أبا القاسم محمود بن زَنْكي بن آق سنقر، ناصر أمير المؤمنين»(٢)، فإن هذا جميعه لا يدخله كذب ولا زيادة، والرأي أعلى وأسمى إن شاء الله تعالى.

فكتب نور الدين على رأس الرقعة بخطه: مقصودي أن لا يُكذب على المنبر، أنا بخلاف كل ما يقال، لا أفرح بما لا أعمل، الذي كُتب جيدٌ، اكتب به نسخاً حتى نسيره إلى جميع البلاد، وكتب(٣) في آخر الرقعة ثم نبدأ بالدعاء: اللهم أره الحق، اللهم أسعده، اللهم انصره، اللهم وفّقه.

[٦١] وقال: قال لي والدي: دخل في أيام نور الدين إلى حلب تاجر موسر فمات بها وخلف ولداً صغيراً ومالاً كثيراً، فكتب بعض مَن بحلب إلى نور الدين يذكر له أنه قد مات ها هنا رجل تاجر موسر وخلف عشرين ألف دينار أو فوقها، وله ولد عمره عشر سنين، وحسّن له أن يرفع المال إلى الخزانة إلى أن يكبر الصغير يرضى منه بشيء ويمسك الباقي للخزانة،

---

(١) أي الوزير خالد القيسرانيّ، وكانوا يقولون (المملوك) زيادة في التقرب وطلب الخدمة.

(٢) أي الخليفة العباسيّ ببغداد، إذ كان نور الدين سلطاناً في دولة الخليفة.

(٣) أي نور الدين.

فكتب على رقعته: أما الميت فرحمه الله، وأما الولد فأنشأه الله، وأما المال فثمّره الله، وأما الساعي فلعنه الله.

[٦٢] وحدّثني الحاج عمر بن سنقر عتيق شاذ بخت النوري قال: سمعت الطواشي شاذ بخت الخادم يحكي لنا قال: كنت يوماً أنا وسنقرجا واقفين على رأس نور الدين وقد صلى المغرب وجلس وهو مفكر فكراً عظيماً وجعل ينكت بإصبعه في الأرض، فتعجبنا من فكره وقلنا: ترى في أي شيء يفكر؟ في عائلته، أو في وفاء دَينه؟ فكأنه فطن بنا، فرفع رأسه وقال: ما تقولان، فقلنا: عجبنا من إفراط مولانا في الفكر وقلنا يفكر في عائلته أو في نفسه، فقال: والله إنني أفكر في وال ولّيته أمراً من أمور المسلمين فلم يعدل فيهم، أو فيمن يظلم المسلمين من أصحابي وأعواني، وأخاف المطالبة بذلك، فبالله عليكم - وإلا فخُبزي عليكم حرام - لا تريان قصة تُرفع إليَّ، أو تعلمان مظلمة إلا وأعلماني بها وارفعاها إليّ.

[٦٣] وسمعت⁽¹⁾ قاضي القضاة بهاء الدين أبا المحاسن يوسف بن رافع بن تميم⁽²⁾ قال: كان نور الدين يُنفذ كل سنة في شهر رمضان يطلب من الشيخ عمر المَلاّ⁽³⁾ شيئاً يُفطر عليه، فكان يُنفذ إليه الأكياس فيها الفتيت والرقاق وغير ذلك، فكان نور الدين يفطر عليه، وكان إذا قدم الموصل لا يأكل إلا من طعام الشيخ عمر المَلاّ.

[٦٤] قال: وكان نور الدين لما صارت له الموصل قد أمر كمشتكين شِحْنة⁽⁴⁾ الموصل أن لا يعمل شيئاً إلا بالشرع إذا أمره القاضي به، وأن لا يَعمل القاضي والنوّاب كلهم شيئاً إلا بأمر الشيخ عمر المَلاّ، قال: وكان لا

---

(١) هو ابن جرادة السالف الذكر.

(٢) هو القاضي يوسف بن شداد، وقد سلفت ترجمته.

(٣) انظر ترجمته في فقرة [٢١٩].

(٤) أي الوالي، وكمشتكين هذا هو خادم لنور الدين.

يعمل بالسياسة(١)، وقالوا لكمشتكين قد كثر الدُّعَّار وأرباب الفساد ولا يجيء من هذا شيء إلا بالقتل والصلب، فلو كتبت إلى نور الدين وقلت له في ذلك، فقال لهم: أنا لا أكتب إليه في هذا المعنى ولا أجسر على ذلك، فقالوا للشيخ عمر يكتب إليه، فحضروا عنده وذكروا له ذلك، فكتب إلى نور الدين وقال له: إن الدُّعَّار والمفسدين وقطاع الطريق قد كثروا، ويُحتاج إلى نوع سياسة فمثل هذا لا يجيء إلا بقتل وصلب وضرب، وإذا أُخذ مال إنسان في البرية من يجيء يشهد له؟

قال: فقلب نور الدين كتابه وكتب على ظهره: إن الله ـ تعالى ـ خلق الخلق وهو أعلم بمصلحتهم، وشرع لهم شريعة وهو أعلم بما يُصلحهم، وإن مصلحتهم تحصل فيما شرعه على وجه الكمال فيها، ولو علم أن على الشريعة زيادةً في المصلحة لشرعه، فما لنا حاجة إلى زيادة على ما شرعه الله تعالى. فجمع الشيخ عمر الملا أهل الموصل وأقرأهم الكتاب وقال: انظروا في كتاب الزاهد إلى الملك وكتاب الملك إلى الزاهد.

[٥٦] قال: وعلقت أيضاً من خط فقيه كان معيداً بالنظامية يقال له أبو الفتح بنجة بن أبي الحسن بن بنجة الأشتريّ، وكان ممن ورد دمشق وجمع لنور الدين سيرة مختصرة. قال: كان نور الدين يقعد في الأسبوع أربعة أيام أو خمسة أيام في دار العدل للنظر في أمور الرعية وكشف الظلامة، لا يطلب بذلك درهماً ولا ديناراً ولا زيادة ترجع إلى خزانته وإنما يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله وطلباً للثواب والزُّلفى في الآخرة، ويأمر بحضور العلماء والفقهاء ويأمر بإزالة الحاجب والبواب حتى يصل إليه الضعيف والقويّ، والفقير والغني، ويكلمهم بأحسن الكلام، ويستفهم منهم بأبلغ النظام حتى لا يطمع الغني في دفع الفقير بالمال، ولا القوي في دفع الضعيف بالقال، ويحضر في مجلسه العجوز الضعيفة التي لا تقدر على الوصول إلى خصمها

---

(١) أي لا يطبق سوى الشرع، ولا يعمل بالأحكام القاسية الرادعة من القتل والصلب الذي لم يأذن به الشرع، ويُسمى سياسة.

ولا المكالمة معه، فيأمر بمساواته لها فتغلب خصمها طمعاً في عدله ويعجز الخصم عن دفعها خوفاً من عدله، فيظهر الحق عنده فيجري الله ـ تعالى ـ على لسانه ما هو موافق الشريعة، ويسأل العلماء والفقهاء عما يشكل عليه من الأمور الغامضة، فلا يجري في مجلسه إلا محض الشريعة.

[٦٦] قال: وأما زمانه فهو مصروف إلى مصالح الناس والنظر في أمور الرعية والشفقة عليهم، وأما فكره ففي إظهار شعار الإسلام، وتأسيس قاعدة الدين من بناء المدارس والرُبط والمساجد، حتى أن بلاد الشام كانت خالية من العلم وأهله، وفي زمانه صارت مقراً للعلماء والفقهاء والصوفية لصرف همته إلى بناء المدارس والربط وترتيب أمورهم، والناس آمنون على أموالهم وأنفسهم، ولو لم يكن من هذه الخصال إلا ما عُلم منه وشاع أنه إذا وعد وفى، وإذ أوعد عفا، وإذا تحدّث بشيء وقف عليه، ولا يخالف قوله، ولا يرجع عن لفظه ومنطقه لكفى.

[٦٧] ولا يجري في مجلسه الفسق والفجور، والشتم والغيبة، والقدح في الناس، والكلام في أعراضهم كما يجري في مجالس سائر الملوك، ولا يطمع في أخذ أموال الناس، ولا يرضى بأن يأخذ أحد من أموال الشريعة شيئاً بغير حق.

[٦٨] قال: وبلغنا بأخبار التواتر عن جماعة يُعتمد على قولهم أنه أكثر الليالي يصلي ويناجي ربه مقبلاً بوجهه عليه، ويؤدي الصلوات الخمس في أوقاتها بتمائم شرائطها وأركانها وركوعها وسجودها.

[٦٩] قال: وبلغنا عن جماعة من الصوفية الذين يُعتمد على أقوالهم ممن دخلوا ديار القدس للزيارة حكاية عن الكفار أنهم يقولون: ابن القسيم(١) له مع الله سر؛ فإنه ما يظفر علينا بكثرة جنده وعسكره وإنما يظفر علينا بالدعاء وصلاة الليل، فإنه يصلي بالليل ويرفع يده إلى الله

---

(١) سبق بيان أن هذه كنيةٌ لنور الدين رحمه الله تعالى.

ويدعو، فالله ـ سبحانه وتعالى ـ يستجيب له دعاءه ويعطيه سؤله وما يرد يده خائبة فيظفر علينا، قال فهذا كلام الكفار في حقه.

[٧٠] قال: وحدّثنا الشيخ داود المقدسي قال:

حضرت في دار العدل في شهر ربيع الأول سنة ثمان وخمسين فقام رجل وادّعى على الملك العادل أن أباه أخذ من ماله شيئاً بغير حق، قال: وأنا مطالب لك بذلك، فقال نور الدين: أنا ما أعلم ذلك، فإن كان لك بيِّنة تشهد بذلك فهاتها وأنا أرد إليك ما يخصني، فإني ما ورثت جميع ماله، كان هناك وارث غيري، فمضى الرجل ليحضر البينة فقلت في نفسي: هذا هو العدل.

[٧١] قال: وحضر رجل زاهد فيه سمة الخير معروف بالصلاح والسداد فسألت عنه فقالوا: أخو الشيخ أبي البيان وكان قد أودع عند أخيه أبي البيان وديعة وقد توفي فادعى المودع على هذا الشيخ أنه يعلم بالوديعة وطالبه بالردّ عليه، فأنكر هذا الرجل علمه بالوديعة فأوجب عليه القاضي كمال الدين حكم الشرع أن يحلف أنه لا علم له بهذه الوديعة، فحلف على ذلك، فجعل المودع يشنع عليه ويقول: إنه حلف كاذباً، ويتكلم في عرضه، فحضر عند الملك العادل شاكياً منه وذاكراً سيرته وطريقته، ويتعرض بالتماسه من الملك العادل والتقدّم بإحضاره والإنكار عليه فيما يقول في حقه، فلما فرغ من الكلام قال الملك العادل: أليس أن الله ـ تعالى ـ يقول في كتابه: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾(١)، فإذا كان هو يجهل عليك ويقول في حقك بالجهل ما لا يجوز فيجب عليك أن لا تعمل معه مثل معاملته فتكون مثله، فكأنك قابلت الإساءة بالإساءة ومن حقك أن تقابل الإساءة بالإحسان، فقلت في نفسي: الحق ما قال الملك العادل، إمّا قرأ هذا في كتب التفاسير فثبت في قلبه، أو أجراه الله على لسانه وأنطقه به.

---

(١) سورة الفرقان: آية ٦٣.

[٧٢] قال: وحضر صبيّ وبكى عند الملك العادل، وذكر أن أباه محبوس على أجرة حجرة من حُجَر الوقف، فسأل عن حاله فقالوا: هذا الصبي ابن الشيخ أبي سعد الصوفيّ، وهو رجل زاهد قاعد في حجرة للوقف وليس له قدرة على الأجرة، وقد حبسه وكيل الوقف لأنه اجتمع عليه أجرة سنة، فسأل الملك العادل: كم أجرة السنة، فقالوا: مئة وخمسون، وذكروا سيرته وطريقته وفقره فرقَّ له وأنعم عليه وقال: نحن نعطيه كل سنة هذا القدر ليصرفه إلى الأجرة ويقعد فيها، وتَقَدّم بذلك وبإخراجه من الحبس، فوصل إلى قلب كل واحد من الحاضرين الفرح حتى كأن الإنعام كان في حقه.

[٧٣] أخبرنا افتخار الدين عبد المطلب الهاشميّ قال: كان عند القاضي تاج الدين عبد الغفور بن لقمان الكردريّ قاضي حلب غلامٌ قد جعله لمجلس الحكم يُدعى سويداً يُحضر الخصوم إلى مجلس الحكم، فحضر بعض التجار وادّعى أنَّ له على نور الدين دعوى، فقال الكردري لسويد المذكور: امض إلى نور الدين وادعُه إلى مجلس الحكم، وعرّفه أنه حضر شخص يطلب حضوره، وكان نور الدين في الميدان، فجاء سويد إلى باب الميدان فخرج إسماعيل الخزندار فقال سويد: سيرني تاج الدين - يعني القاضي - وذكر أنه حضر تاجر وذكر أن له دعوى على المولى نور الدين وقد أنفذني تاج الدين وقال لي كذا وكذا، فضحك إسماعيل الخزندار ودخل على نور الدين ضاحكاً وقال له مستهزئاً: يقوم المولى، فقال: إلى أين؟ فقال: حضر سويد غلام تاج الدين الكردري، وقال: إنَّ تاج الدين أرسله يطلب المولى إلى مجلس الحكم، فأنكر نور الدين على إسماعيل استهزاءه وقال: تستهزئ بطلبي إلى مجلس الحكم! وقال نور الدين: يُحضَر فرسي حتى نركب إليه، السمع والطاعة: قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ ﴾(١).

---

(١) سورة النور: الآية ٥١.

ثم نهض وركب حتى دخل باب المدينة، فاستدعى سويداً وقال له: امض إلى القاضي تاج الدين وسلم عليه وقل له: إنني جئت إلى ها هنا امتثالاً لأمر الشرع، وأحتاج في الحضور إلى مجلسه إلى سلوك هذه الأزقة وفيها الأطيان، وهذا وكيلي يسمع الدعوى وإن توجهت عليَّ يمين أحضر إن شاء الله تعالى قال: فحضر الوكيل وسمع الدعوى وتوجهت اليمين فقال الكردريّ: قد توجهت اليمين فليحضر، فلما بلغ نور الدين ذلك وعلم أنه لا مندوحة عن حضور مجلسه لليمين استدعى ذلك التاجر وأصلح الأمر فيما بينه وبينه وأرضاه.

[٧٤] وسمعت قاضي القضاة بهاء الدين يقول: حكى لي السلطان الملك الناصر صلاح الدين قال: أرسلني الملك العادل نور الدين إلى عمي أسد الدين شيركُوه ـ وكان لا يفعل شيئاً إلا بمشورته ـ فقال: امض وقل لأسد الدين: قد خَطر في بالي أن أبطل هذه الضمانات بأسرها والمؤن والمكوس، قال: فجئت إليه وأنهيت ما قال لي، فقال: امض وقل له: يا مولانا إذا فعلت ذلك فالأجناد الذين أرزاقهم على الجهات من أين تعطيهم؟ وتحتاج إليهم للغزاة وخروج العساكر.

قال السلطان صلاح الدين: فقلت لعمي: هذا أمر قد ألهمه الله إياه فساعده عليه، فصاح فيَّ وقال: امض إليه وقل له ما أقول لك، قال: فعدت إلى نور الدين فأنهيت إليه ما قال عمي، فقال: امض إليه وقل له: إذا كنا نغزو من هذه الجهات نتركها، نقعد ولا نخرج، قال: فعدت إلى عمي وقلت ما قال، فقال: قل له إن تركوك تقعد فجيد هو، فراجعته في أن لا يثبطه عن ذلك فصاح فيَّ وقال: امض إليه وقل له ما أقول لك، فجئت إليه وقلت له ذلك، فترك ذلك مدَّة ثم أمضى ما كان عزم عليه.

[٧٥] سمعت خليفة بن سليمان بن خليفة الفقيه يقول: سمعت أبي يقول: لما كُسر نور الدين ـ يعني كسرة البقيعة ـ تكلم البرهان البلخيّ

فقال: أتريدون أن تُنصَروا وفي عسكركم الخمور والطبول والزمور؟ كلا، وكلاماً مع هذا، فلما سمعه نور الدين قام ونزع عنه ثيابه تلك وعاهد الله تعالى على التوبة وشرع في إبطال المكوس.

فصل

وقد مُدح نور الدين ـ رحمه الله تعالى ـ بأشعار كثيرة، وأوصافه فوق ما مدح به، وكان في أول دولته شاعرا زمانهما أبو عبد الله محمد بن نصر بن صغير، وأبو الحسن أحمد بن منير ولهما فيه أشعار فائقة سيأتي جملة منها في مواضعها، وقد رأيت أن أقدم منها شيئاً هنا: قرأت في ديوان محمد بن نصر القيسرانيّ:

ذو الجهادين من عدوّ ونفس   فهو طول الحياة في هيجاء
فهو المالك الذي ألزم الناس   سلوك المحجة البيضاء
قد هَديتَ الملوك للعدل لما   سِرت في الناس سيرة الخلفاء
قاسماً ما ملكت في الناس حتى   لقسمت التقى على الأتقياء

وله فيه:

ضحكت تباشير الصباح كأنها   قسمات نور الدين خيرِ الناس
المشتري العقبى بأنفس قيمة   والبائع الدنيا بغير مكاس
وسرى دعاء الخلق يحرس نفسه   إنّ الدعاء يعد في الحرّاس
راض الخطوبَ الصُمَّ بعد جماحها   وألان من قلب الزمان القاسي
وأعاد نور الحق في مشكاته   وأقام وزن العدل بالقسطاس

وممادح نور الدين رحمه الله كثيرة، وذكر الحافظ أبو القاسم أنه كان قليل الابتهاج بالشعر.

مات حادي عشر شوال سنة تسع وستين وخمس مئة، ودفن بقلعة دمشق، ثم نقل إلى قبته بمدرسته بجوار الخواصين.

وهذا ذكر طرف من مناقبه جملة، ونحن بعد ذلك نأتي بأخباره

وأخبار سلفه مفصّلة مرتبة وما جرى في زمانهم على سبيل الاختصار، إن شاء الله تعالى.

فصل

أصل البيت الأتابكيّ هو قسيم الدولة آق سنقر جدّ نور الدين فنذكره وما تم في أيامه، ثم نذكر ولده زَنْكي وما تم في أيامه، ثم نذكر ولده محمود بن زَنْكي، ثم نذكر ما بعده وهي الدولة الصلاحية الأيوبية وما تم في أيامها، فنقول:

[٧٦] كان آق سنقر تركياً من أصحاب السلطان ركن الدين مَلِكْشاه بن ألب أرسلان، وكان السلطان مَلكْشاه من جملة الملوك السلجوقية المتغلبين على البلاد بعد بني بُوَيه⁽¹⁾ بالعرَاق، فكان قسيمُ الدولة من أصحابه وأترابه وممن رُبي معه في صغره واستمرّ في صحبته إلى حين كبره، فلما أفضت السلطنة بعد أبيه إليه جعله من أعيان أمرائه، وأخصّ أوليائه، واعتمد عليه في مهماته وزاد قدره علواً إلى أن صار يتقيه.

ثم إن نظام الملك أشار على السلطان بتسليم قلعة حلب وأعمالها وحماة ومَنْبج واللاذقية وما معها إلى قسيم الدولة آق سنقر فأقطعه الجميع، وبقيت بيده إلى أن قتل سنة سبع وثمانين وأربعمائة.

ولما استقرّ قسيم الدولة في الشام ظهرت كفايته وحمايته وهيبته في جميع بلاده.

فلما مات السلطان مَلِكْشاه سيَّر قسيم الدولة جيشاً إلى تكريت فملكها.

وفي سنة إحدى وثمانين قصد قسيم الدولة شَيزْر⁽²⁾ فنهبها وعاد إلى حلب.

---

(١) كانوا من الشيعة المتغلبين على مقاليد الأمور في العراق.

(٢) بلدة قرب حماة في سورية.

وفي سنة ثلاث وثمانين اجتمع قسيم الدولة وبزان وحصروا مدينة حمص فملكوها.

وفي سنة أربع وثمانين ملك قسيم الدولة حصن فامية من الشام، وملك الرَّحْبَة(١).

[٧٧] ومات السلطان ملكشاه سنة خمس وثمانين، وعمل من الخيرات وأبواب البر كثيراً، وبعد موته تنازع ابناه تكياروق ومحمد، ودامت الحروب بينهما نحو اثنتي عشرة سنة إلى أن توفي تكياروق، واستقرت السلطنة لمحمد.

وكان السلطان قد أقطع أخاه تاج الدولة مدينة دمشق وأعمالها وما جاورها كطبرية، والبيت المقدس، فلما توفي ملكشاه طمع تاج الدولة في السلطنة، [فجرت حروب]، وانهزم جيش قسيم الدولة(٢)، وأُخذ أسيراً، فقتله تاج الدولة.

[٧٨] وكان قسيم الدولة أحسن الناس سياسة لرعيته، وكانت بلاده بين عدل عام، ورخص شامل، وأمن واسع، وكان قد شرط على أهل كل قرية في بلاده متى أخذ عند أحدهم قفل(٣)، أو أحد من الناس غرم أهلها جميع ما يؤخذ من الأموال من قليل أو كثير، فكانت السيّارة إذا بلغت بلاده ألقوا رحالهم وناموا آمنين، وقام أهل القرية يحرسونهم إلى أن يرحلوا، فأمنت الطرق، وتحدث الركبان بحسن سيرته.

---

(١) قرية من قرى دمشق، انظر «معجم البلدان»: ٣/ ٣٣.

(٢) جد نور الدين، رحمه الله تعالى.

(٣) أي قافلة.

ذكر أخبار زَنْكي

والد نور الدين ـ رحمهما الله تعالى ـ على سبيل الاختصار:

[٧٩] لما قُتل قسيم الدولة آق سنقر لم يخلف من الأولاد غير واحد وهو عماد الدين زَنْكي والد نور الدين، وكان حينئذ صبياً له من العمر نحو عشر سنين، فاجتمع عليه مماليك والده وأصحابه، ثم إن الأمير كربوقا⁽¹⁾ خلص من السجن بعد قتل تاج الدولة سنة سبع وثمانين وأربعمائة، وتوجه إلى حرّان⁽²⁾ وقد اجتمع معه عسكر صالح فملكها، ثم صار إلى نَصِيبين فملكها، ثم إلى الموصل فملكها وأزال عنها علي بن شرف الدولة العقيلي وسار نحو ماردين فملكها، وعظم شأنه وهو في طاعة ركن الدولة تكياروق، فلما ملك البلاد أحضر مماليك قسيم الدولة آق سنقر وأمرهم بإحضار عماد الدين زَنْكي وقال: هو ابن أخي وأنا أولى الناس بتربيته، فأحضروه عنده فأقطعهم الإقطاعات السنية، وجمعهم على عماد الدين زَنْكي واستعان بهم في حروبه، وكانوا من الشجاعة في أعلى درجاتها.

[٨٠] ولم يزل كربوقا إلى أن توفي سنة أربع وتسعين وأربعمائة وملك بعده موسى التركماني فلم تطل مدته وقُتل، وملك الموصل شمس الدولة جكرمش ـ وهو أيضاً من مماليك السلطان مَلِكْشاه ـ فأخذ زنكي فقربه وأحبه واتخذه ولداً لمعرفته بمكانة والده، فبقي معه إلى أن قتل سنة خمسمائة، فلا جرم أن زَنْكي رعى هذا لجكرمش لما ملك الموصل وغيرها

---

(١) أمير المَوْصل من قِبَل السلطان السلجوقي تكياروق.

(٢) بلدة بالشام.

من البلاد، فإنه أخذ ولده ناصر الدين كوري فأكرمه وقدمه وأقطعه إقطاعاً كثيراً، وجعل منزلته أعلى المنازل عنده واتخذه صهراً، ثم ملك الموصل بعد جكرمش جاولي سقاؤه، فاتصل به عماد الدين زَنْكي وقد كبر وظهرت عليه أمارات السعادة والشهامة، ولم يزل معه حتى عصى على السلطان محمد، وكان جاولي قد عبر إلى الشام ليملكه من الملك فخر الملك رضوان فأرسل السلطان إلى الموصل الأمير مَوْدود وأقطعه إياها سنة اثنتين وخمسمائة، فلما اتصل الخبر بجاولي فارقه زَنْكي وغيره من الأمراء.

[٨١] لما استقر مَوْدود بالموصل واتصل به زَنْكي أكرمه وشهد معه حروبه، فسار مَوْدود إلى الغزاة بالشام ففتح في طريقه قلاعاً لهم كانت للفرنج وقتل من كان بها منهم، ثم سار إلى الرُّها(١) فحصرها ولم يفتحها، فرحل وعبر الفرات فحصر تل باشر(٢) خمسة وأربعين يوماً، ثم سار إلى معرة النعمان فحصرها، ثم حضر عنده أتابك طُغْتِكين صاحب دمشق فسارا إلى طبرية وحاصروها وقاتلوها قتالاً شديداً، وظهر من أتابك زَنْكي شجاعة لم يُسمع بمثلها.

[٨٢] ثم التقى الجمعان فهُزم الفرنج ـ لعنهم الله ـ فأذن الأمير مَوْدود للعسكر في الرجوع إلى بلادهم والاجتماع إليه في الربيع، فلما تفرقوا دخل دمشق وأقام بها، فخرج يوماً يصلي الجمعة فلما صلاها وخرج إلى صحن الجامع ويده بيد طُغْتكين وثب عليه إنسان فضربه بسكين معه فجرحه أربع جراحات وكان صائماً فحُمل إلى دار طُغْتكين واجتهد به ليفطر فلم يفعل، وقال: لا لقيت الله إلا صائماً فإنني ميت لا محالة سواء أفطرت أو صمت، وتوفي في بقية يومه ـ رحمه الله ـ، فقيل: إن الباطنية(٣) بالشام خافوه فقتلوه

---

(١) الرُّها: هي ـ اليوم ـ مدينة أورفة في تركيا.

(٢) قلعة شمال حلب.

(٣) فرقة كافرة كانت تتولى قتل العلماء والصلحاء من الولاة وغيرهم غيلةً وغدراً، وتسمى بـ «الحشاشين»، انظر في تفصيل أخبارها والمراجع التي تحدثت عنها «الموسوعة الميسرة»: ٢٠٣ ـ ٢٠٨.

وقيل بل خافه طُغتكين فوضع عليه من يقتله، وكان خيراً عادلاً حسن السيرة.

[٨٣] قال ابن الأثير: حدثني والدي ـ رحمه الله ـ، قال: كتب ملك الفرنج إلى طُغتِكين: إن أمة قتلت عميدها يوم عيدها في بيت معبودها لحقيق على الله أن يبيدها.

[٨٤] فلما قتل الأمير مودود أقطع السلطان بلاد الموصل وغيرها للأمير حبوش بك وسيَّر معه ولده(١) الملك مسعود إلى الموصل، ثم إنه جهز آق سنقر البرسقي في العساكر وسيره إلى قتال الفرنج وكتب إلى عساكر الموصل وغيرها يأمرهم بالمسير معه فساروا وفيهم عماد الدين زنكي ـ وكان يُعرف في عساكر العجم بزنكي الشامي ـ.

فسار البرسقي إلى الرها(٢) في خمسة عشر ألف فارس فحصرها وقتل من بها من الفرنج والأرمن، وضاقت الميرة عن العسكر فرحل إلى سُمَيْساط وهي أيضاً للفرنج فأخرب بلدها وبلد سروج وعاد إلى بلد شبختان فأخرب ما فيه للفرنج، وأبلى زنكي في هذه المواقف كلها بلاءً حسناً، ثم عادت العساكر تتحدث بما فعله، وعاد البرسقي إلى بغداد، وأقام زنكي بالموصل مع الملك مسعود والأمير حبوش بك إلى سنة أربع وعشرين وخمسمائة وقد علا قدره وظهر اسمه.

فصل

وفي سنة إحدى عشرة وخمسمائة ولد الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي ـ رحمه الله ـ.

[٨٥] وفيها غرقت سنجار(٣) من سيل المطر وهلك منها خلق كثير، ومن أعجب ما يُحكى أن السيل حمل مهداً فيه طفل فتعلق المهد في شجرة

---

(١) أي ولد السلطان السلجوقي الذي يسيّر الأمور ببغداد.

(٢) بلدة في تركيا تسمى أورفة.

(٣) بلدة بالقرب من الموصل، انظر «معجم البلدان»: ٣/ ٢٦٢.

ونقص الماء فسلم ذلك الطفل وغرق غيره من الماهرين بالسباحة.

[٨٦] وفيها أيضاً زلزلت إربل(١) وغيرها من البلاد المجاورة لها زلزلة عظيمة.

[٨٧] وفيها في الرابع والعشرين من ذي الحجة توفي السلطان غياث الدين محمد بن ملكشاه وعمره سبع وثلاثون سنة وأربعة أشهر وستة أيام، وأول ما خُطب له ببغداد في ذي الحجة سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة وقطعت خطبته عدة مرار، ولقي من المشاق والأخطار ما لم يلقه أحد إلى أن توفي أخوه تكياروق فحينئذ استقرت له السلطنة وصفت له ودانت البلاد لطاعته، وكان اجتماع الناس عليه بعد موت أخيه اثنتي عشرة سنة وستة أشهر.

[٨٨] وكان عادلاً حسن السيرة، شجاعاً، وأطلق المكوس والضرائب في جميع البلاد، ومن عدله أنه اشترى عدة مماليك من بعض التجار، وأمر أن يُوفَى الثمن من عامل خوزستان فأوصل إليه البعض ومطل بالباقي، فحضر التاجر مجلس الحكم وأخذ غلام الحاكم ووقف بطريق السلطان واستغاث إليه فأمر من يستعلم حاله فعاد الحاجب وأعلم السلطان حاله، فعظم عليه وضاق صدره وأمر في الحال أن يُحضر عامل خوزستان ويُلزم بمال التاجر، ثم إنه ندم على تأخره عن مجلس الحكم وكان يقول كثيراً: لقد ندمت على تركي حضور مجلس الحكم ولو فعلته لاقتدى بي غيري ولم يمتنع أحد عن أداء الحق.

[٨٩] قال ابن الأثير: وهذه الفضيلة ذخرها الله - تعالى - للبيت الأتابكيّ، فإن الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي فعل ما ندم السلطان محمد على تركه - وقد تقدم ذلك - ولما علم الأمراء وغيرهم من خُلق السلطان محبة العدل وأداء الحق وكراهية الظلم ومعاقبة من يفعله اقتدوا به فأمن الناس وظهر العدل.

---

(١) بلدة للأكراد في شمال العراق.

[٩٠] وولي بعد السلطان محمد ابنه محمود وعمره يومئذ أربع عشرة سنة فقام بالسلطنة، وجرى بينه وبين عمه سنجر حرب انهزم فيها محمود وعاد إلى عمه بغير عهد فأكرمه.

فصل

[٩١] لما ولي السلطان محمود السلطنة أقرّ أخاه مسعوداً على الموصل مع أتابكه حبوش بك فبقي مطيعاً لأخيه إلى سنة أربع عشرة وخمسمائة، فحسَّن له الخروج عن طاعته وطلب السلطنة فأظهر العصيان وخطب للملك مسعود بالسلطنة، وكان زَنْكي يشير بطاعة السلطان وترك الخلاف عليه ويحذرهم عاقبة العصيان فلم ينفع، فالتقى الأخوان في عسكريهما فهُزم عسكر مسعود وأسر جماعة من الأمراء والأعيان.

[٩٢] ثم استأمن مسعود وأتابكه حبوش بك فأمنهما السلطان وأخذ الموصل منهما، فأقطعها آق سنقر البرسقي مع أعمالها كالجزيرة وسنجار ونَصِيبين وغيرهما في صفر سنة خمس عشرة، وسيره إليها وأمره بحفظ عماد الدين زنكي وتقديمه والوقوف عند إشارته ففعل البرسقي ذلك وزاد عليه لمكان زنكي من العقل والشجاعة، وتَقَدُّمِ والده.

[٩٣] وفي سنة عشرين وخمسمائة قُتل آق سنقر البرسقي بالجامع العتيق بالموصل بعد الصلاة يوم الجمعة، ثار به من الباطنية ما يزيد على عشرة أنفس فقتل بيده منهم ثلاثة وقتل ـ رحمه الله ـ.

قُتل
بر

وكان عادلاً لين الأخلاق حسنَ العشرة، وكان يصلي كل ليلة صلاة كثيرة ولا يستعين في وضوئه بأحد، فقرر السلطان ولده عز الدين مسعوداً على ما كان لأبيه من الأعمال وهي الموصل وديار الجزيرة وحلب وحماة وجزيرة ابن عمر وغيرها، وكان شاباً عاقلاً فضبط البلاد فلم تطل أيامه وتوفي سنة إحدى وعشرين، وولي الأمر بعده أخوه الصغير وقام بتدبير دولتيهما الأمير جاولي وهو مملوك تركي من مماليك أبيهما، فجرت الأمور على أحسن نظام.

فصل

في ولاية زنكي على الموصل وغيرها من البلاد التي كانت بيد البرسقي وذلك في شهر رمضان من سنة إحدى وعشرين

[٩٤] وسبب ذلك أن عزالدين البرسقي لما توفي وقام بالبلاد بعده أخوه الصغير، وتولى أمره جاولي أرسل إلى السلطان محمود يطلب أن يقرّ البلاد عليه، وكان المرسَل بذلك القاضي بهاء الدين أبو الحسن علي بن الشهرزوري وصلاح الدين محمد الياغبساني، فحضرا بغداد ليخاطبا السلطان في ذلك، وكانا يخافان جاولي ولا يرضيان بطاعته والتصرف بحكمه، وقالا للوزير: قد علمت أنت والسلطان أن بلاد الجزيرة والشام قد استولى الفِرَنج على أكثرها وتمكنوا منها وقويت شوكتهم، وكان البرسقي يكف بعض عاديتهم فمذ قتل ازداد طمعهم، وهذاولده طفل صغير، ولا بدّ للبلاد من شهم شجاع يذب عنها ويحمي حوزتها، وقد انهينا الحال إليكم لئلا يجري خلل أو وهن على الإسلام والمسلمين فنحصل نحن بالإثم من الله - تعالى - واللوم من السلطان، فأنهى الوزير ذلك إلى السلطان فأعجبه وقال: من تريان يصلح لهذه البلاد، فذكرا جماعةً فيهم عماد الدين زنكي وعظّما محله أكثر من غيره، فأجاب السلطان إلى توليته لما علم من شهامته وكفايته فوُلِّيَ البلاد جميعاً وكتب منشوره بها، وسار من بغداد إلى الموصل، فخرج جاولي إلى لقائه وعاد في خدمته إلى الموصل فسيّره إلى الرحبة وأعمالها وأقام هو بالموصل يُصلح أمورها ويقرّر قواعدها، ورتب الأمور على أحسن نظام وأحكم قاعدة.

[٩٥] وكانت الفرنج قد اتسعت بلادهم، وكثرت أجنادهم، وعظمت هيبتهم، وزادت صولتهم، وامتدّت إلى بلاد المسلمين أيديهم، وضعف أهلها عن كف عاديهم، وتتابعت غزواتهم، وساموا المسلمين سوء العذاب، واستطار في البلاد شرر شرّهم، وامتدّت مملكتهم من ناحية ماردين إلى عريش مصر لم يتخلله من ولاية المسلمين غير حلب وحماة وحمص ودمشق، وكانت سراياهم من ديار بكر إلى آمد، ومن ديار الجزيرة إلى نِصيبين ورأس عين، وأما أهل الرَّقّة وحران فقد كانوا معهم في ذلّ وهوان،

وانقطعت الطرق إلى دمشق إلا على الرَّحبْة(١) والبر، ثم زاد الأمر وعظم الشرّ حتى جعلوا على أهل كل بلد جاورهم خراجاً وإتاوة يأخذونها منهم ليكفوا أذيتهم عنهم، ثم لم يقنعوا بذلك حتى أرسلوا إلى مدينة دمشق واستعرضوا الرقيق ممن أخذ من الروم والأرمن وسائر بلاد النصرانية وخيروهم بين المقام عند أربابهم والعود إلى أوطانهم، فمن اختار المقام تركوه ومن آثر العود إلى أهله أخذوه، وناهيك بهذه الحالة ذلة للمسلمين وصغاراً، وأما أهل حلب فإن الفرنج أخذوا منها مناصفة أعمالها، وأما باقي بلاد الشام فكان حال أهلها أشدّ من حال أهل هذين البلدين.

فلما نظر الله ـ سبحانه وتعالى ـ إلى بلاد المسلمين ولاها عماد الدين زنكي فغزا الفرنج في عقر ديارهم، وأخذ للموحدين منهم بثأرهم، واستنقذ منهم حصوناً ومعاقل، وسيأتي تفصيل ذلك وما فتحه من البلاد الإسلامية هو وابنه من بعده، إن شاء الله ـ تعالى ـ.

فصل

[٩٦] ثم شرع زنكي ـ رحمه الله ـ في أخذ البلاد فافتتح جزيرة ابن عمر(٢)، ثم مدينة إربل(٣) في رمضان سنة اثنتين وعشرين، ثم عاد إلى الموصل وسار في جمادى الأولى سنة ثلاث وعشرين إلى سنجار فتسلمها وسير منها الشحن إلى الخابور فملكه ثم قصد الرّحْبة فملكت قسراً، ثم افتتح نصيبين، وسار إلى حران.

[illegible]

وكانت الرُّها(٤) وسَرُوج(٥) وغيرهما من ديار الجزيرة للفرنج

---

(١) قرية من قرى دمشق: انظر «معجم البلدان»: ٣/ ٣٣.

(٢) بلدة في العراق قرب الموصل: انظر المصدر السابق: ٢/١٣٨.

(٣) بلدة في العراق، من أعمال الموصل: انظر المصدر السابق: ١/ ١٣٧.

(٤) مدينة بين الموصل والشام: انظر المصدر السابق: ٣/١٠٦.

(٥) مدينة قريبة من حرّان: انظر المصدر السابق: ٣/٢١٦.

ـ لعنهم الله ـ وأهل حرّان معهم في ضيق عظيم فراسلوا زَنْكي بالطاعة، واستحثوه على الوصول إليهم ففعل، وهادن الفرنج مدّة يسيرة يعلم أنه يفرغ فيها من الاستيلاء على ما بقي له من البلاد الشامية والجزرية، وكان أهم الأشياء عنده عبور الفرات وملك مدينة حلب وغيرها من البلاد الشامية.

فلما عبر الفرات حاصر حلب ثم فتحت له فرتب أمورها، وسار عنها إلى حماة فملكها وقبض على صاحب حمص وحصرها، وذلك سنة ثلاث وعشرين.

وفي سنة أربع وعشرين اتفق صاحب آمد مع صاحب حصن كَيْفا وغيرهم من الملوك وجمعوا عساكر نحو عشرين ألفاً وقصدوا زنكي فلقيهم فهزمهم، ثم صمم على الجهاد فنازل حصن الأثارب وكان أضر شيء على أهل حلب، فجمع الفرنج جمعاً عظيماً فهزمهم وقتلهم مقتلة عظيمة بقيت عظام القتلى بتلك الأرض مدّة طويلة، ثم رجع إلى الحصن فملكه عنوة، فأخربه ومحا أثره، وأزال من تلك الأرض ضرره، ثم رحل إلى حصن حارم فأنفذ(١) من لم يحضر المعركة من الفِرَنج ومَن نجا منها يسألون الصلح ويبذلون له المناصفة على ولاية حارم فأجابهم إلى ذلك، لأن عسكره كان قد كثرت فيهم الجراحات والقتل فأراد أن يستريحوا فهادنهم وعاد عنهم وقد أيقن المسلمون بالشام بالأمن وحلول النصر، وسُيرت البشائر إلى البلاد بذلك. وفيها(٢) استولى زنكي على مدينة حماة وما فيها.

[٩٧] فصل في جهاد زَنْكي لِلفرَنج

كان في سنة اثنتين وثلاثين خرج ملك الروم من القسطنطينية ومعه خلق عظيم لا يحصون كثرة من الروم والفرنج وغيرهم من أنواع النصارى، فقصد الشام فخافه الناس خوفاً عظيماً، وكان زَنْكي مشغولاً بما تقدَّم ذكره لا يمكنه مفارقة الموصل، فقصد ملك الروم مدينة بزاعة وحصرها وهي

---

(١) أي أرسل: انظر «لسان العرب»: ن ف ذ.

(٢) أي في سنة أربع وعشرين وخمسمائة.

على مرحلة من حلب وفتحها عنوة وقتل المقاتلة وسبى الذرّية في شعبان، ثم سار عنها إلى شَيْزر - وهي حصن منيع على مرحلة من مدينة حماة - فحصرها منتصف شعبان ونصب عليها ثمانية عشر منجنيقاً، وأرسل صاحبها أبو العساكر سلطان بن منقذ إلى زَنْكي يستنجده.

فنزل على حماة، فكان يركب كل يوم في عساكره ويسير إلى شَيزر بحيث يراه ملك الروم، ويرسل السرايا يتخطف من يخرج من عساكرهم للميرة والنهب ثم يعود آخر النهار.

وكان الروم والفِرنج قد نزلوا على شرقي شَيْزر فأرسل إليهم زنكي يقول لهم: إنكم قد تحصنتم بهذه الجبال فاخرجوا عنها إلى الصحراء حتى نلتقي فإن ظفرتم أخذتم شَيْزر وغيرها، وإن ظفرت بكم أرحت المسلمين من شركم، ولم يكن له بهم قوّة لكثرتهم، وإنما كان يفعل هذا ترهيباً لهم، فأشار الفِرَنج على ملك الروم بلقائه وقتاله وهونوا أمره فقال لهم الملك: أتظنون أن معه من العساكر ما ترون وله البلاد الكثيرة، وإنما هو يريكم قلة من معه لتطمعوا وتصحروا⁽١⁾ له فحينئذ ترون من كثرة عسكره ما يعجزكم.

وكان أتابك زَنْكي مع هذا يراسل فرنج الشام ويحذرهم ملك الروم ويعلمهم أنه إن ملك بالشام حصناً واحداً أخذ البلاد التي بأيديهم منهم، وكان يراسل ملك الروم يتهدّده ويوهمه أن الفرنج معه، فاستشعر كل واحد من الفِرَنج والروم من صاحبه، فرحل ملك الروم عنها في رمضان وكان مقامه عَليها أربعة وعشرين يوماً وترك المجانيق وآلات الحصار بحالها، فسار زنكي خلفهم وظفر بطائفة منهم في ساقة العسكر فغنم منهم وقتل وأسر وأخذ جميع ما خلفوه، ورفعه إلى قلعة حلب، وكفى الله المؤمنين القتال.

---

(١) أي تخرجوا إلى الصحراء للقائه.

فصل

[٩٨] ثم سار أتابك الشهيد في هذه السنة وهي سنة أربع وثلاثين إلى بلاد الفِرَنج فأغار عليها واجتمع ملوك الفِرنج وساروا إليه، فلقيهم بالقرب من حصن بارين - وهو للفرنج - فصبر الفريقان صبراً لم يسمع بمثله ونصر الله المسلمين وهرب ملوك الفِرَنج وفرسانهم فدخلوا حصن بارين وفيهم ملك القدس لأنه كان أقرب حصونهم وأسلموا عدّتهم وعتادهم وكثر فيهم الجراح، ثم سار الشهيد إلى حصن بارين فحصره حصراً شديداً فراسلوه في طلب الأمان ليسلموا ويسلموا الحصن فأبى إلا أخذهم قهراً، فبلغه أن مَن بالساحل منَ الفرنج قد ساروا إلى الروم والفِرَنج يستنجدونهم وينهون إليهم ما فيه ملوكهم من الحصر، فجمعوا وحشَدوا وأقبلوا إلى الساحل ومَن بالحصن لا يعلمون بشيء من ذلك لقوّة الحصر عليهم، فأعادوا مراسلته في طلب الأمان فأجابهم وتسلم الحصن وساروا، فلقيتهم أمداد النصرانية فسألوهم عن حالهم فأخبروهم بتسليم الحصن فلاموهم وقالوا: عجزتم عن حفظه يوماً أو يومين، فحلفوا لهم أنا لم نعلم بوصولكم ولم يبلغنا عنكم خبر منذ حصرنا وإلى الآن، فلما عميت الأخبار عنا ظننا أنكم قد أهملتم أمرنا فحقّنّا دماءنا بتسليم الحصن.

قال ابن الأثير: وكان حصن بارين من أضر بلاد الفرنج على المسلمين فإن أهله كانوا قد خربوا ما بين حماة وحلب من البلاد ونهبوها وتقطعت السبل، فأزال الله تعالى بالشهيد - رحمه الله - هذا الضرر العظيم.

[٩٩] قال ابن الأثير: ولما وصل الروم والفِرَنج إلى الشام ورأوا الأمر قد فات أرادوا جبر مصيبتهم بمنازلة بعض بلاد المسلمين فنازلوا حلب وحصروها، فلم ير الشهيد أن يخاطر بالمسلمين ويلقاهم؛ لأنهم كانوا في جمع عظيم فانحاز عنهم ونزل قريباً منهم يمنع عنهم الميرة، ويحفظ أطراف البلاد من انتشار العدوّ فيها والإغارة عليها.

وأرسل القاضي كمال الدين بن الشهرزوري إلى السلطان مسعود يُنهي

إليه الحال بأمر البلاد وكثرة العدوّ ويطلب منه النجدة وإرسال العساكر، فقال له كمال الدين: أخاف أن تخرج البلاد من أيدينا ويجعل السلطان هذا حجة ويُنفذ(١) العساكر، فإذا توسطوا البلاد ملكوها، فقال الشهيد: إن هذا العدوّ قد طمع فيّ وإن أخذ حلب لم يبق بالشام إسلام، وعلى كل حال فالمسلمون أولى بها من الكفار(٢).

قال: فلما وصلتُ إلى بغداد وأدّيت الرسالة وعدني السلطان بإنفاذ العساكر ثم أهمل ذلك ولم يتحرّك فيه بشيء، وكتب الشهيد إليّ كتباً متصلة يحثني على المبادرة بإنفاذ العساكر وأنا أخاطب فلا أُزاد على الوعد.

قال: فلما رأيت عدم اهتمام السلطان بهذا الأمر العظيم أحضرنا فلاناً وهو فقيه كان ينوب عنه في القضاء فقلت: خذ هذه الدنانير، وفرّقها في جماعة من أوباش بغداد والأعاجم، وإذا كان يوم الجمعة وصعد الخطيب المنبر بجامع القصر قاموا وأنت معهم واستغاثوا بصوت واحد وإسلاماه، وادين محمداه، ويخرجون من الجامع ويقصدون دار السلطنة مستغيثين، ثم وضعت إنساناً آخر يفعل مثل ذلك في جامع السلطان، فلما كانت صلاة الجمعة وصعد الخطيب المنبر قام ذلك الفقيه وشق ثوبه وألقى عمامته عن رأسه وصاح وتبعه أولئك النفر بالصياح والبكاء فلم يبق بالجامع إلا من قام يبكي، وبطلت الجمعة، وسار الناس كلهم إلى دار السلطان، وقد فعل أولئك الذين بجامع السلطان مثلهم، فاجتمع أهل بغداد وكل من بالعسكر عند دار السلطان يبكون ويصرخون ويستغيثون، وخرج الأمراء عن الضبط، وخاف السلطان في داره وقال: ما الخبر؟

فقيل له: إن الناس قد ثاروا حيث لم ترسل العساكر إلى الغزاة، فقال: أحضروا ابن الشهرزوريّ، قال: فحضرت عنده وأنا خائف منه إلا

---

(١) أي: يرسل: انظر: «لسان العرب»: ن ف ذ.

(٢) هذا دليل على قوة الولاء والبراء عنده، رحمه الله تعالى.

أنني قد عزمت على صدقه وقول الحق، فلما دخلت عليه قال: يا قاضي، ما هذه الفتنة؟

فقلت: إن الناس قد فعلوا هذا خوفاً من الفتنة والشرّ، ولا شك أن السلطان ما يعلم كم بينه وبين العدوّ، وإنما بينكم نحو أسبوع، ولئن أخذوا حلباً انحدروا إليك في الفرات وفي البر وليس بينكم بلد يمنعهم عن بغداد، وعظَّمتُ الأمر عليه حتى جعلته كأنه ينظر إليهم، فقال: اردد هؤلاء العامة عنا، وخذ من العساكر ما شئت وسر بهم والأمداد تلحقك.

قال: فخرجت إلى العامة ومن انضم إليهم فأخبرتهم وعرَّفتهم الحال وأمرتهم بالعود فعادوا وتفرّقوا، وانتخبت من عسكره عشرة آلاف فارس وكتبت إلى الشهيد أعرّفه الخبر وأنه لم يبق غير المسير وأجدّد استئذانه في ذلك فأمرني بتسييرهم والحث على ذلك، فعبرت العساكر الجانب الغربيّ، فبينما نحن نتجهز للحركة وإذا قد وصل نجّاب(١) من الشهيد يخبر بأن الروم والفرنج قد رحلوا عن حلب خائبين لم ينالوا منهم غرضاً ويأمرني بترك استصحاب العساكر، فلما خوطب السلطان في ذلك أصرَّ على إنفاذ العساكر إلى الجهاد وقصد بلاد الفرنج وأخذها، وكان قصده أن تطأ عساكره البلاد بهذه الحجة فيملكها، فلم أزل أتوصل مع الوزير وأكابر الدولة حتى أعدت العساكر إلى الجانب الشرقيّ وسرت إلى الشهيد.

قال ابن الأثير: فانظروا إلى هذا الرجل الذي هو خير من عشرة آلاف فارس ـ يعني كمال الدين ـ رحم الله الشهيد فلقد كان ذا همّة عالية ورغبة في الرجال ذوي الرأي والعقل يرغبهم ويخطبهم من البلاد ويوفر لهم العطاء.

حكى لي والدي قال: قيل للشهيد: إن هذا كمال الدين يحصل له في كل سنة منك ما يزيد على عشرة آلاف دينار أميرية وغيره يقنع منك

---

(١) هو الرسول الراكبُ السريعَ من الدواب.

بخمسمائة دينار، فقال لهم: بهذا العقل والرأي تدبرون دولتي؟ إن كمال الدين يقلّ له هذا القدر وغيره يكثر له خمسمائة دينار، فإن شغلاً واحداً يقوم فيه كمال الدين خير من مائة ألف دينار، وكان كما قال ـ رحمه الله تعالى ـ.

[١٠٠] فصل في فتح الشهيد الرُّها[١] في جمادى الآخرة من سنة تسع وثلاثين وخمس مئة

وكانت لجوسلين وهو عاتي الفرنج وشيطانهم، والمقدم على رجالهم وفرسانهم، وكانت مدّة حصاره لها ثمانية وعشرين يوماً، وأعادها إلى حكم الإسلام، وهذه الرُّها من أشرف المدن عند النصارى وأعظمها محلاً، وهي إحدى الكراسي عندهم فأشرفها البيت المقدّس، ثم أنطاكية، ثم رومية، ثم قسطنطينية، والرها، وكان على المسلمين من الفرنج الذين بالرُّها شرّ عظيم، وملكوا من نواحي ماردين إلى الفرات عدّة حصون، وكانت غاراتهم تبلغ مدينة آمد من ديار بكر وماردين ورأس عين والرقة.

وأما حرّان فكانت معهم في الخزي كل يوم قد صبحوها بالغارة، فلما رأى الشهيد الحال هكذا أنف منهم وعلم أنه لا ينال منها غرضاً ما دام جوسلين بها، فأخذ في إعمال الحيل والخداع لعل جوسلين يخرج منها إلى بعض البقاع، فتشاغل عنها بقصد ما جاورها من ديار بكر فكان يقاتل من بها قتالاً فيه إبقاء، وهو يُسرّ حسْواً في ارتغاء[٢]، فهو يخطبها وعلى غيرها يحوم، ويطلبها وسواها يَروم، ووكل بها من يخبره بخلو عرينها من آساده، وفراغ حصنها من أنصاره وأجناده.

فلما رأى جوسلين اشتغال الشهيد بحرب أهل ديار بكر ظنَّ أنه لا فراغ له إليه، وأنه لا يمكنه الإقدام عليه، ففارق الرُّها إلى بلاده الشامية

---

(١) تقدم أنها مدينة أورفة في تركيا اليوم.

(٢) هذا مثل يُضرب لمن يظهر أمراً وهو يريد غيره، والارتغاء: رَغوة اللبن، والحسو: الشرب على مهل: انظر «لسان العرب»: رغا، حسا.

ليلاحظ أعماله، ويتعهد ذخائره وأمواله، فأقبل الشهيد مسرعاً بعساكره إلى الرُها، وألح الشهيد في حصارها فملكها عنوة فاستباحها ونكس صلبانها، وأباد قساوسها ورهبانها، وقتل شجعانها وفرسانها، وملأ الناس أيديهم من النهب والسبي، ثم إنه دخل البلد فراقه، فأنف لمثله من الخراب فأمر بإعادة ما أُخذ من أثاث ومال وسبي ورجال وجوار وأطفال، فردوا عن آخرهم لم يفقد منهم إلا الشاذ والنادر، فعاد البلدُ عامراً بعد أن كان داثراً، ثم رتب البلد وأصلح من شأنه وسار عنه فاستولى على ما كان بيد الفِرَنج من المدن والحصون، وأخلى الديار الجزرية من معرّة الفرنج وشرّهم، وأصبح أهلها بعد الخوف آمنين، وكان فتحاً عظيماً طار في الآفاق ذكره، وشهده خلق كثير من الصالحين والأولياء.

[١٠١] قال ابن الأثير:

حكى لي جماعة أعرف صلاحهم أنهم رأوا يوم فتح الرُها الشيخ أبا عبد الله بن علي بن مهران الفقيه الشافعي - وكان من العلماء العاملين والزاهدين في الدنيا المنقطعين عنها، وله الكرامات الظاهرة - ذكروا عنه أنه غاب عنهم في زاويته يومه ذلك ثم خرج عليهم وهو مستبشر مسرور، عنده من الارتياح ما لم يروه أبداً، فلما قعد معهم قال: حدّثني بعض إخواننا أن أتابك زَنكي فتح مدينة الرها وأنه شهد معه فتحها يومنا هذا، ثم قال: ما يضرّك يا زنكي ما فعلت بعد اليوم، يردد هذا القول مراراً، فضبطوا ذلك اليوم فكان يوم الفتح، ثم إن نفراً من الأجناد حضروا عند هذا الشيخ وقالوا له: منذ رأيناك على السور تكبر أيقنّا بالفتح، وهو ينكر حضوره وهم يقسمون أنهم رأوه عياناً.

[١٠٢] قال: وحكى لي بعض العلماء بالأخبار والأنساب قال:

كان ملك جزيرة صقلية من الفِرَنج لما فتحت الرُها، وكان بها بعض الصالحين من المغاربة المسلمين، وكان الملك يحضره ويكرمه ويرجع إلى قوله ويقدمه على من عنده من الرهبان والقسيسين، فلما كان الوقت الذي

فتحت فيه الرها سيَّر ملك الفرنج هذا جيشاً في البحر إلى إفريقية فنهبوا وغاروا وأسروا، وجاءت الأخبار إلى الملك وهو جالس وعنده هذا العالم المغربي وقد نعس وهو شبيه النائم، فأيقظه الملك وقال: يا فقيه قد فعل أصحابنا بالمسلمين كيت وكيت أين كان محمد عن نصرتهم؟

فقال له: كان قد حضر فتح الرها، فتضاحك من عنده من الفِرَنج، فقال لهم الملك: لا تضحكوا فوالله ما قال عن غير علم، واشتدَّ هذا [على] الملك، فلم يمض غير قليل حتى أتاهم الخبر بفتحها على المسلمين، فأنساهم شدة هذا الوهن رخاء ذلك الخبر لعلوِّ منزلة الرُها عند النصرانية.

[١٠٣] قال: وحكى لي أيضاً غير واحد ممن أثق إليهم أن رجلاً من الصالحين قال: رأيت الشهيد بعد قتله في المنام في أحسن حال فقلت له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي، قلت: بماذا؟ قال: بفتح الرُها.

[١٠٤] فصل في وفاة زنكي ــ رحمه الله ــ

قال ابن الأثير:

كانت قلعة جَعْبر(١) قد سلمها السلطان مَلَكْشاه إلى الأمير سالم بن ملك العقيلي لما ملك قسيم الدولة مدينة حلب، فلَم تزل بيده ويد أولاده إلى سنة إحدى وأربعين، فسار الشهيد إليها فحصرها لئلا يبقى في وسط بلاده ما هو لغيره وإن قَلّ، للحزم الذي كان عنده والاحتياط، وأقام عليه يحصره بنفسه إلى أن مضى من شهر ربيع خمس ليال، فبينا هو نائم دخل عليه نفر من مماليكه فقتلوه ولم يجهزوا عليه وهربوا من ليلتهم إلى القلعة ولم يشعر أصحابه بقتله، فلما صعد أولئك النفر إلى القلعة صاح من بها إلى العسكر يعلمهم بقتله فبادر أصحابه إليه فأدركه أوائلهم وبه رمق، ثم ختم الله له بالشهادة أعماله.

[illegible]

---

(١) قلعة على نهر الفرات: انظر «معجم البلدان»: ٢/ ١٤٢.

لاقى الحِمام(١) ولم أكن مستيقناً أنّ الحِمام سيُبتلى بحِمام

فأضحى وقد خانه الأمل، وأدركه الأجل، وتخلى عنه العبيد والخَوَل(٢) فأيّ نجم للإسلام أفل، وأيّ ناصر للإيمان رحل، وأيّ بحر ندي نضب، وأيّ بدر مكارم غرب، وأيّ أسد افترس.

قال ابن الأثير:

وخلف من الأولاد سيف الدين غازياً وهو الذي وَلي بعده، ونور الدين محموداً الملك العادل، وقطب الدين مودوداً وهو أبو الملوك بالموصل، ونصرة الدين أمير أميران وبنتاً، فانقرض عقب سيف الدين من الذكور والإناث، ونور الدين من الذكور، ولم يبق الملك إلا في عقب قطب الدين، ولقد أنجب ـ رحمه الله ـ فإن أولاده الملوك لم يكن مثلهم.

[١٠٥] قلت: ومن عجيب ما حكي أنه لما اشتدّ حصار قلعة جَعْبر جاء في الليل ابن حسان المنبجيّ ووقف تحت القلعة ونادى صاحبها فأجابه، فقال له: هذا المولى أتابك صاحب البلاد وقد نزل عليك بعساكر الدنيا، وأنت بلا وزير ولا معين، وأنا أرى أن أدخل في قضيتك وآخذ لك من المولى أتابك مكاناً عوض هذا المكان، وإن لم يفعل فأيّ شيء تنتظر؟

فقال له صاحب القلعة: أنتظر الذي انتظر أبوك، وكان بلك بن بهرام صاحب حلب قد نزل على أبيه حسان وحاصره في مَنْبج(٣) أشدّ حصار ونصب عليه عدّة مجانيق، وقال يوماً لحسان وقد أحرقه بحجارة المنجنيق: أيّ شيء تنتظر؟ أما تسلم الحصن؟ فقال له حسان: أنتظر سهماً من سهام الله، فلما كان من الغد بينا بلك يرتب المنجنيق إذ أصابه سهم غَرْبٌ

---

(١) أي الموت: انظر «لسان العرب»: حمم.

(٢) الخَوَل: عطية الله من النعم، والعبيد والإماء، وغيرهم من الأتباع والحشم، انظر «لسان العرب»: خ و ل.

(٣) بلدة قريبة من حلب: انظر «معجم البلدان»: ٥/ ٢٠٥.

وقع في لَبّته(١) فخر ميتاً، ولم يكن من جسده شيء ظاهر إلا ذلك المكان لأنه كان قد لبس الدرع ولم يزرَّها على صدره، فلما سمع ابن حسان ذلك من مقالة صاحب قلعة جعبر رجع عنه، وفي تلك الليلة قتل أتابك فكان هذا من الاتفاقات العجيبة، والعِبر الغريبة.

[١٠٦] فصل في بعض سيرة الشهيد أتابك زنكي

وكانت من أحسن سِيرَ الملوك، وكانت رعيته في أمن شامل يعجز القوي عن التعدّي على الضعيف.

[١٠٧] قال ابن الأثير: حدثني والدي قال:

قدم الشهيد إلينا بجزيرة ابن عمر في بعض السنين وكان زمن الشتاء، فنزل بالقلعة ونزل العسكر في الخيام، وكان في جملة أمرائه الأمير عزالدين أبو بكر الدبيسي ـ وهو من أكابر أمرائه ومن ذوي الرأي عنده ـ فدخل الدبيسي البلد ونزل بدار إنسان يهودي وأخرجه منها، فاستغاث اليهوديّ إلى الشهيد وهو راكب فسأل عن حاله فأخبره، وكان الشهيد واقفاً والدبيسي إلى جانبه، فلما سمع أتابك الخبر نظر إلى الدبيسي نظر مغضب ولم يكلمه كلمة واحدة، فتأخر القهقرى ودخل البلد وأخرج خيامه وأمر بنصبها خارج البلد، ولم تكن الأرض تحتمل وضع الخيام عليها لكثرة الوحل والطين، قال: فلقد رأيت الفرّاشين وهم ينقلون الطين لينصبوا خيمته فلما رأوا كثرته جعلوا على الأرض تبناً ليقيموها ونصبوا الخيام وخرج إليها من ساعته.

قال: وكان ينهى أصحابه عن اقتناء الأملاك ويقول: مهما كانت البلاد لنا فأي حاجة لكم إلى الأملاك فإن الإقطاعات تغني عنها، وإن خرجت البلاد عن أيدينا فإن الأملاك تذهب معها، ومتى صارت الأملاك لأصحاب السلطان ظلموا الرعية وتعدَّوا عليهم وغصبوهم أملاكهم.

---

(١) اللبة: موضع القلادة من العنق: انظر «لسان العرب»: ل ب ب.

[١٠٨] قال: ومن صائب رأيه وجيده أن سيَّر طائفة من التركمان إلى الشام، وأسكنهم بولاية حلب، وأمر بجهاد الفِرَنج ومَلّكهم كلما استنقذوه من البلاد للفِرنَج وجعله ملْكاً لهم، فكانوا يغادون الفِرنَج بالقتال ويراوحونهم(١)، وأخذوا كثيراً من السَّواد(٢) وسدّوا ذلك الثغر العظيم، ولم يزل جميع ما فتحوه في أيديهم إلى نحو سنة ستمائة.

قال: وأما شجاعته وإقدامه فإليه النهاية فيهما، وبه كانت تضرب الأمثال.

[١٠٩] قال: وأمّا غَيرته فكانت شديدة، ولا سيما على نساء الأجناد فإن التعرّض إليهنّ كان من الذنوب التي لا يغفرها، وكان يقول: إن جندي لا يفارقوني في أسفاري، وقلما يقيمون عند أهلهم، فإن نحنُ لم نمنع من التعرّض إلى حرمهم هَلَكْن وفسدن.

[١١٠] قال ابن الأثير:

وكان قد أقام بقلعة الجزيرة دُزْداراً(٣) اسمه نور الدين حسن البربطيّ، وكان من خواصه وأقرب الناس إليه، وكان غيرَ مرضيّ السيرة، فبلغه عنه أنه يتعرّض للحُرم، فأمر حاجبه صلاح الدين الياغبساني أنه يسير مجدّاً ويدخل الجزيرة، فإذا دخلها أخذ البربطيّ وقطع ذكره وقلع عينيه عقوبة لنظره بهما إلى الحريم ثم يصلبه(٤)، فسار الصلاح مجداً فلم يشعر البربطي إلا وقد وصل إلى البلد فخرج إلى لقائه فأكرمه ودخل معه البلد وقال: المولى أتابك يسلم عليك ويريد أن يعلي قدرك، ويرفع منزلتك، ويسلم

---

(١) الغُدُوّ: ما بين الفجر وطلوع الشمس، والروَاح: وقت العَشي، والمعنى يغزونهم في الصبح والمساء.

(٢) السّواد لكل بلد هو قُراه والريف المحيط به: انظر «لسان العرب»: سود.

(٣) الدُزدار هو حافظ القلعة: انظر «وفيات الأعيان»: ٧/ ١٤٢.

(٤) لا يجوز مجاوزة العقوبة الشرعية ولو في مثل هذه الأحوال، لكن كثيراً من أمراء ذلك الزمن ابتُلوا بهذه السياسة ظناً منهم أنها تردع أكثر مما يردع الشرع.

إليك قلعة حلب، ويوليك جميع البلاد الشامية إلى الموصل وتسير إلى خدمته، ففرح ذلك المسكين فلم يترك له قليلاً ولا كثيراً إلا نقله إلى السفن ليُحدرها إلى الموصل في دجلة(١)، فحين فرغ من جميع ذلك أخذه الصلاح وأمضى فيه ما أمر به، وأخذ جميع ماله فلم يتجاسر بعده أحد على سلوك شيء من أفعاله.

[١١١] قال: وأما صدقاته فقد كان يتصدّق كل جمعة بمائة دينار أميري ظاهراً، ويتصدّق فيما عداه من الأيام سراً مع من يثق به، وركب يوماً فعثرت به دابته فكاد يسقط عنها، فاستدعى أميراً كان معه فقال له كلاماً لم يفهمه ولم يتجاسر على أن يستفهمه منه، فعاد عنه إلى بيته وودَّع أهله عازماً على الهرب، فقالت له زوجته: ما ذنبك؟ وما حملَك على هذا الهرب، فذكر لها الحال فقالت له: إنّ نصير الدين(٢) له بك عناية فاذكر له قصتك وافعل ما يأمرك به، فقال: أخاف أن يمنعني من الهرب فأهلك، فلم تزل زوجته تراجعه وتقوّي عزمه فعرّف النصير حاله، فضحك منه وقال له: خذ هذه الصرّة الدنانير واحملها إليه فهي التي أراد، فقال: الله الله في دمي ونفسي، فقال: لا بأس عليك فإنه ما أراد غير هذه الصرّة، فحملها إليه فحين رآه قال: أمعك شيء؟ قال: نعم، فأمره أن يتصدق به، فلما فرغ من الصدقة قصد النصير وشكره، وقال: من أين علمت أنه أراد الصرة؟ فقال له: إنه يتصدّق في هذا اليوم بمثل هذا القدر يرسل إليَّ من يأخذه من الليل، وفي يومنا هذا لم يأخذه، ثم بلغني أنّ دابته عثرت به حتى كاد يسقط إلى الأرض، وأرسلك إليَّ فعلمت أنه ذكر الصدقة(٣).

[١١٢] قال: وحكى لي من شدّة هيبته ما هو أشدّ من هذا، قال

---

(١) إنما صنع الحاجب ذلك به كي لا يخفي شيئاً من ماله إن علم بالعقوبة النازلة به.

(٢) هو وزير عماد الدين زَنْكي.

(٣) وإنما صنع زَنكي ذلك لأنه ظن أن دابته إنما عثرت به لأنه لم يتصدق ذلك اليوم، وهذا فهم جيد منه، رحمه الله تعالى.

والدي: خرج يوماً الشهيد من القلعة وملّاح له نائم، فأيقظه بعض الجاندارية⁽¹⁾ وقال له: اقعد، فحين رأى الشهيد سقط إلى الأرض فحرّكوه فوجدوه ميتاً.

[١١٣] قال: وكان الشهيد قليلَ التلوّن والتنقل، بطيء الملل والتغير، شديد العزم، لم يتغير على أحد من أصحابه مذ ملك إلى أن قُتل إلا بذنب يوجب التغير، فلهذا كانوا ينصحونه ويبذلون نفوسهم له، وكان الإنسان إذا قدم عسكره لم يكن غريباً، إن كان جندياً اشتمل عليه الأجناد وأضافوه، وإن كان صاحب ديوان قصد أهل الديوان، وإن كان عالماً قصد القضاة بني الشهرزوريّ فيحسنون إليه ويؤنسون غربته فيعود كأنه أهل، وسبب ذلك جميعه أنه كان يخطب الرجال ذوي الهمم العلية، والآراء الصائبة، والأنفس الأبية، ويوسع عليهم في الأرزاق فيسهل عليهم فعل الجميل واصطناع المعروف.

[١١٤] فصل فيما جرى بعد قتل زنكي من تفرق أصحابه وتملك ولديه غازي ومحمود

قال الرئيس أبو يعلى:

توجه الملك ولد السلطان⁽²⁾ فيمن صحبه وانضم إليه إلى ناحية الموصل ومعه سيف الدين غازي بن عماد الدين أتابك، وامتنع عليهم الوالي بالموصل علي كوجك أياماً إلى حين تقرّرت الحال بينهم، ثم فتح الباب ودخل ولده⁽³⁾ واستقام له الأمر، وانتصب منصبه، وعاد الأمير سيف الدولة سوار وصلاح الدين يعني محمد بن أيوب الياغبساني في تلك الحال إلى ناحية حلب ومعهما الأمير نور الدين محمود بن زنكي وحصل بها،

---

(١) هم حرّاس الأمير: انظر «الألفاظ الفارسية المعربة»: ٤٦.

(٢) هو ألب أرسلان ابن السلطان مسعود السلجوقي.

(٣) أي ولد زنكي سيف الدين غازي.

وشرع في جمع العساكر، وإنفاق المال فيها، واستقام له الأمر، وسكنت الدهماء.

قال ابن أبي طي الحلبيّ:

لما اتصل قتل أتابك بأسد الدين شيركُوه ركب من ساعته وقصد خيمة نور الدين وقال له: اعلم أن الوزير جمال الدين قد أخذ عسكر الموصل وعوَّل على تقديم أخيك سيف الدين وقصده إلى الموصل وقد انضوى إليه جلُّ العسكر، وقد رأيت أن أصيرك إلى حلب وتجعلها كرسيّ ملكك وتجتمع في خدمتك عساكر الشام، وأنا أعلم أنّ الأمر يصير جميعه إليك لأن ملك الشام يحصل بحلب ومن ملك حلب استظهر على بلاد الشرق، فركب وأمر أن يُنادى في الليل في عساكر الشام بالاجتماع فاجتمعوا وساروا في خدمة نور الدين إلى حلب ودخلوها سابع ربيع الأول، ولما دخلوا حلب جاء أسد الدين إلى تحت القلعة ونادى واليها، وأصعد نور الدين إليها وقرر أمره ومشّى أحواله، فكان نور الدين يرى له ذلك، وأسد الدين يَمُنّ بأنه كان السبب في توليته.

قال ابن الأثير:

ولما فرغ سيف الدين من إصلاح أمر السلطنة وتحليفه وتقرير أمر البلاد عبر إلى الشام لينظر في تلك النواحي ويقرر القاعدة بينه وبين أخيه نور الدين وهو بحلب وقد تأخر عن الحضور عند أخيه وخافه، فلم يزل يراسله ويستميله فكلما طلب نور الدين شيئاً أجابه إليه استمالةً لقلبه، واستقرت الحال بينهما على أن يجتمعا خارج العسكر السيفي ومع كل واحد خمسمائة فارس، فلما كان يوم الميعاد بينهما سار نور الدين من حلب في خمس مئة فارس، وسار سيف الدين من معسكره في خمسة فوارس، فلم يعرف نور الدين أخاه سيف الدين حتى قرب منه فحين رآه عرفه، فترجل له وقبل الأرض بين يديه، وأمر أصحابه بالعود عنه فعادوا وقعد سيف الدين ونور الدين بعد أن اعتنقا وبكيا.

فقال له سيف الدين: لَمَ امتنعت من المجيء إليّ؟ أكنتَ تخافني على نفسك؟ والله ما خطر ببالي ما تكره، فلمن أريد البلاد ومع من أعيش وبمن أعتضد إذا فعلت السوء مع أخي وأحب الناس إليّ، فاطمأن نور الدين وسكن روعه، وعاد إلى حلب، فتجهز وعاد بعسكره إلى خدمة أخيه سيف الدين، فأمره سيف الدين بالعود وترك عسكره عنده وقال: لا غرض لي في مقامك عندي وإنما غرضي أن يعلم الملوك والفرنج اتفاقنا فمن يريد السوء بنا يكف عنه، وعاد كل منهما إلى بلده.

[١١٥] وقال ابن الأثير:

لما قُتل زَنكي كان جوسلين الفرَنجيّ الذي كان صاحب الرُها في ولايته غرب الفرات في تلّ باشر(١) وما جاورها، فراسل أهل الرها ـ وكان عامتهم من الأرمن ـ وواعدهم يوماً يصل إليهم فيه فأجابوه إلى ذلك فسار في عساكره إليها وملكها، وامتنعت عليه القلعة بمن فيها من المسلمين، فقاتلهم وجدّ في قتالهم فبلغ الخبر نور الدين وهو يومئذ بحلب فسار إليها بعسكره فهرب جوسلين، ودخل نور الدين مدينة الرها ونهبها وسبى أهلها، وفي هذه الدفعة نهبت وخربت وخلت من أهلها ولم يبقَ منهم بها إلا القليل، ووصل خبر الفرنج إلى سيف الدين غازي بالموصل فجهز العساكر إلى الرها فوصل العسكر وقد ملكها نور الدين، فبقيت بيده ولم يعارضه فيها أخوه سيف الدين.

[١١٦] قال: ومن عجيب ما جرى أن نور الدين أرسل من غنائمها إلى الأمراء، وأرسل إلى زين الدين عليٍّ جملة من الجواري فحُملن إلى داره ودخل لينظر إليهنّ فخرج وقد اغتَسل وهو يضحك، فسُئل عن ذلك فقال: لما فتحنا الرها مع الشهيد كان في جملة ما غنمت جارية مالت نفسي إليها فعزمت على أن أبيتَ معها، فسمعت منادي الشهيد وهو يأمر بإعادة السبي

---

(١) قلعة حصينة شمال حلب: انظر «معجم البلدان»: ٢/ ٤٠.

والغنائم، وكان مهيباً مخوفاً فلم أجسر على إتيانها وأطلقتها، فلما كان الآن أرسل إليَّ نور الدين سهمي من الغنيمة وفيه تلك الجارية فوطئتها خوفاً من العَوْد.

[١١٧] فصل في نزول الفرنج على دمشق ورجوعهم وقد خذلهم الله عنها

قال الرئيس أبو يعلى:

وفي هذه السنة تواصلت الأخبار من ناحية القسطنطينية وبلاد الفِرَنج والروم وما والاها بظهور ملوك الإفرنج من بلادهم، منهم جماعة من كبارهم في العدد الذي لا يحصر لقصد بلاد الإسلام بعد أن نادوا في سائر بلادهم ومعاقلهم: النفيرَ النفيرَ إليها، والإسراعَ نحوها، وخلوا بلادهم وأعمالهم خالية شاغرة من حماتها والحفظة لها، ثم استصحبوا من ذخائرهم وأموالهم وعُددهم الشيءَ الكثير الذي لا يُحصى بحيث يقال إن عدّتهم ألف ألف من الرجالة والفرسان ويقال أكثر من ذلك، وغلبوا على أعمال قسطنطينية، واحتاج ملكها إلى الدخول في مداراتهم ومسالمتهم والنزول على أحكامهم، وحين شاع خبرهم واشتهر أمرهم شرعت الأطراف الإسلامية القريبة منهم في التأهب للمدافعة والاحتشاد على المجاهدة فيهم، وقصدوا منافذهم ودروب معابرهم لكي يمنعوهم من العبور والنفوذ إلى بلاد الإسلام، وواصلوا شنَّ الغارات على أطرافهم، واستحرّ القتل فيهم والفتك بهم إلى أن هلك منهم العدد الكثير وحلَّ بهم من عدم القوت وغلاء السعر ما أفنى الكثير منهم بالجوع والمرض، ولم تزل أخبارهم تتواصل بهلاكهم وفناء أعدادهم إلى أواخر سنة اثنتين وأربعين بحيث سكنت النفوس بعض السكون.

ودخلت سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة

وتواترت الأخبار بوصول مراكب الفرنج وحصولهم على سواحل الثغور الساحلية صور وعكا واجتماعهم مع مَن بها من الفِرَنج، ويقال: إنهم بعدما فني منهم بالقتل والمرض والجوع وصل [تقديرهم] ثمان مئة ألف،

وقصدوا البيت المقدّس وقضوا حجهم، وعاد من عاد منهم إلى بلادهم في البحر، وقد هلك منهم بالموت والمرض الخلق العظيم، وهلك من ملوكهم من هلك، واختلفت الآراء بينهم فيما يقصدون منازلته من البلاد الإسلامية إلى أن استقرت الحال على منازلتهم دمشق.

وقال ابن الأثير: خرج ملك الألمان من بلاد الإفرنج في جيوش عظيمة لا تُحصى كثرة من الفرنج إلى بلاد الشام، فاتفق هو ومن بساحل الشام من الفِرَنج فاجتمعوا وقصدوا مدينة دمشق ونازلوها ولا يشك ملك الألمان إلا أنه يملكها وغيرها لكثرة جموعه وعساكره، قال: وهذا النوع من الفِرَنج هو أكثرهم عدداً، وأوسعهم بلاداً، وملكهم أكثر عدداً وعُدداً، وإن كان غير مَلكهم أشرف منه عندهم وأعظم محلاً، فلما حاصروا دمشق وبها صاحبها مجير الدين أرتق بن محمد بن بُوري ابن طُغْتِكِين وليس له من الأمر شيء وإنما كان الأمر إلى مملوك جده طُغْتكين وهو معين الدين أنر فهو كان الحاكم والمدبر للبلد والعسكر، وكان عاقلاً دَيِّناً خيراً، أحسن السيرة فجمع العسكر وحفظ البلد، وحصرهم الفرنج وزحفوا إليهم سادس ربيع الأول فخرج العسكر وأهل البلد لمنعهم.

[١١٨] وكان فيمن خرج الشيخ الفقيه حجة الدين أبو الحجاج يوسف بن دوناس المغربيّ الفندلاويّ شيخ المالكية بدمشق، وكان شيخاً كبيراً زاهداً عابداً خرج راجلاً فرأى معين الدين فقصده وسلم عليه وقال له: يا شيخ أنت معذور ونحن نكفيك وليس بك قوّة على القتال، قال: قد بعت واشترى فلا نقيله ولا نستقيله يعني قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ الآية⁽¹⁾، وتقدم فقاتل حتى قتل ـ رحمه الله ـ شهيداً.

وقوي أمر الفرنج وتقدّموا فنزلوا بالميدان الأخضر، وضعف أهل البلد

---

(١) سورة التوبة: الآية ١١١.

عن ردّهم عنه، وكان معين الدين قد أرسل إلى سيف الدين يستغيث به ويستنجده ويسأله القدوم عليه ويعلمه شدّة الأمر، فجمع سيف الدين عساكره وسار مجداً إلى مدينة حمص وأرسل إلى معين الدين يقول له: قد حضرت ومعي كل من يطيق حمل السلاح من بلادي، فإن أنا جئت إليك ولقينا الفِرَنج وليست دمشق بيد نوّابي وأصحابي وكانت الهزيمة ـ والعياذ بالله ـ علينا لا يسلم منا أحد لبعد بلادنا عنا وحينئذ تملك الفِرَنج دمشق وغيرها، فإن أردتم أن ألقاهم وأقاتلهم فتسلم البلد إلى من أثق إليه وأنا أحلف لك إن كانت النصرة لنا على الفرنج أنني لا آخذ دمشق ولا أقيم بها إلا مقدار ما يرحل العدوّ عنها وأعود إلى بلادي، فماطله معين الدين لينظر ما يكون من الفرنج، فأرسل سيف الدين إلى الفرنج الغرباء يتهدّدهم ويعلمهم أنه على قصدهم إن لم يرحلوا، وأرسل معين الدين إليهم أيضاً يقول لهم: قد حضر ملك الشرق ومعه من العساكر ما لا طاقة لكم به، فإن أنتم رحلتم عنا وإلا سلمت البلد إليه وحينئذ لا تطمعون في السلامة منه، وأرسل إلى فرنج الشام يخوّفهم من أولئك الفرنج الخارجين إلى بلادهم ويقول لهم: أنتم بين أمرين مذمومين إن ملك هؤلاء الفرنج الغرباء دمشق لا يُبقون عليكم ما بأيديكم من البلاد، وإن سلمت أنا دمشق إلى سيف الدين فأنتم تعلمون أنكم لا تقدرون على منعه من البيت المقدّس، وبذل لهم أن يسلم إليهم بانياس إن رحّلوا ملك الألمان عن دمشق، فأجابوا إلى ذلك وعلموا صدقه، واجتمعوا بملك الألمان وخوّفوه من سيف الدين وكثرة عساكره وتتابع أمداده وأنه ربما ملك دمشق فلا يبقى لهم معه مقام بالساحل، فأجابهم إلى الرحيل عن دمشق فرحل ورحل فرنج الساحل، وتسلموا حصن بانياس من معين الدين، وبقي معهم حتى فتحه نور الدين محمود ـ رحمه الله ـ كما سنذكره.

فصل

[١١٩] قلت: وذكر الحافظ أبو القاسم بن عساكر ـ رحمه الله ـ في تاريخه أن الفقيه الفندلاويّ رؤي في المنام فقيل له: أين أنت؟ قال: في جنات عدن على سرر متقابلين، وقبره الآن يُزار بمقابر «باب الصغير» من

ناحية حائط المصلى وعليه بلاطة كبيرة منقورة فيها شرح حاله.

فصل

[١٢٠] قال أبو يعلى التميميّ: وفي رجب من هذه السنة ورد الخبر من ناحية حلب بأن صاحبها نور الدين بن أتابك أمر بإبطال حي على خير العمل في أواخر تأذين الغداة(١)، والتظاهر بسب الصحابة، وأنكر ذلك إنكاراً شديداً، وساعده على ذلك جماعة من أهل السنّة بحلب، وعظم هذا الأمر على الإسماعيلية وأهل التشيع، وضاقت له صدورهم، وهاجوا وماجوا، ثم سكنوا وأحجموا للخوف من السطوة النورية المشهورة، والهيبة المحذورة.

[١٢١] قال أبو يعلى: وفي رجب أُذن لمن يتعاطى الوعظ بالتكلم في الجامع المعمور بدمشق على جاري العادة، فبدا من اختلافهم في أحوالهم وأغراضهم، والخوض في قضايا لا حاجة إليها من المذاهب ما أوجب صرفهم عن هذه الحال وإبطال الوعظ لما يتوجه معه من الفساد، وطمعِ سفهاء الأوغاد(٢).

ودخلت سنة أربع وأربعين وخمسمائة

[١٢٢] قال ابن الأثير:

وفيها سار نور الدين إلى حصن فامية ـ وهو للفرنج ـ وبينه وبين مدينة حماة مائة مرحلة، وهو حصن منيع على تلّ مرتفع عال من أحصن القلاع وأمنعها، وكان مَن به من الفرنج يغيرون على أعمال حماة وشَيْزر وينهبونها، فأهل تلك الأعمال معهم تحت الذل والصغار، فسار نور الدين

---

(١) أي الفجر.

(٢) هذه علة مستعصية، وداء سرى من قديم الزمان، وهو لا زال إلى اليوم سارياً في نفوس كثير من العلماء وطلبة العلم والدعاة، فالله المستعان، إذ لا علاج له إلا التقوى والخشية.

إليه وحصره وضيَّق عليه ومنع مَن به القرار ليلاً ونهاراً، وتابع عليهم القتال ومنعهم الاستراحة، فاجتمعت الفرنج من سائر بلادهم وساروا نحوه ليزحزحوه عنها فلم يصلوا إليه إلا وقد ملك الحصن وملأه ذخائر من طعام ومال وسلاح ورجال وجميع ما يحتاج إليه، فلما بلغه قرب الفِرَنج سار نحوهم، فحين رأوا جدَّه في لقائهم رجعوا واجتمعوا ببلادهم، وكان قصاراهم أن صالحوه على ما أخذ.

[١٢٣] فصل في وفاة سيف الدين غازي بن زنكي صاحب الموصل وهو أخو نور الدين الأكبر

قال ابن الأثير:

كان أتابك الشهيد - يعني زنكي - ملك دارا⁽¹⁾ وبقيت بيده إلى أن قتل، فأخذها صاحب ماردين، ثم سار إليها سيف الدين ابن الشهيد في سنة أربع وأربعين فحاصرها وملكها واستولى على كثير من بلد ماردين بسببها، ثم حصر ماردين عازماً على أن يدخل ديار بكر ويستعيد ما أخذ من البلاد بعد قتل والده، فتفرق العسكر في بلدها ينهبون ويخربون، فقال صاحب ماردين: كنا نشكو من أتابك وأين أيامه فلقد كانت أعياداً، قد حصرنا غير مرة فلم يتعدَّ هو وعسكره حاصل السلطان، ولا أخذوا كفاً من التبن بغير ثمن:

رب دهر بكيت منه فلما   صرت في غيره بكيت عليه

ثم إنه راسل سيف الدين وصالحه على ما أراد وزوجه ابنته الخاتون⁽²⁾، ورحل سيف الدين عن ماردين وعاد إلى الموصل، وجهزت الخاتون وسيرت إليه، فوصلت إلى الموصل وهو مريض فتوفي ولم يدخل بها وذلك في أواخر جمادى الآخرة وكان عمره نحو أربعين سنة، وكان من

---

(١) بلدة بين نَصِيبين ومارِدين، من بلاد الجزيرة الفراتية، انظر «معجم البلدان»: ٢/ ٤١٨.

(٢) هي المرأة المتصرفة في بيتها وصاحبة الكلمة فيه: انظر «الألفاظ الفارسية المعربة»: ٥١.

أحسن الناس صورة، ودفن بالمدرسة التي أنشأها بباطن الموصل، وخلف ولداً ذكراً أخذه نور الدين محمود عمه فرباه فأحسن تربيته وزوّجه ابنة عمه قطب الدين مودود، فلم تطل أيامه وأدركه أجله في عنفوان شبابه فتوفي وانقرض عقب سيف الدين.

وكان كريماً شجاعاً ذا عزم وحزم، وبنى بالموصل المدرسة الأتابكية العتيقة، وهي من أحسن المدارس وأوسعها، وجعلها وقفاً على الفقهاء الشافعية والحنفية، وبنى رباط الصوفية بالموصل أيضاً ووقف عليهما الوقوف الكثيرة.

فصل

قال ابن الأثير:

لما توفي سيف الدين غازي كان أخوه قطب الدين مودود بالموصل، فاتفقت كلمة جمال الدين وزين الدين(١) على توليته وتمليكه طلباً للسلامة منه فإنه كان ليِّن الجانب حسن الأخلاق، كثير الحلم كريم الطباع، فأحضروه من داره وحلفوه لهم وحلفوا له، ونزل بدار المملكة، وحلف له الأمراء والأجناد، واستقر في الملك، وأطاعه جميع ما كان لأخيه سيف الدين؛ لأن المرجع كان في جميع المملكة إلى جمال الدين وزين الدين.

[١٢٤] ولما ملك واستقر في الملك تزوَّج امرأة أخيه التي مات ولم يدخل بها الخاتون ابنة حسام الدين تمرتاش صاحب ماردين فولدت لقطب الدين أولاده الذين ملكوا الموصل بعده، ولم يملكها من أولاد قطب الدين أحد غير أولادها.

قال: وكانت هذه الخاتون يحل لها أن تضع خمارها عند خمسة عشر ملكاً من آبائها وأجدادها وإخوتها وبني إخوتها وأزواجها وأولادها وأولاد

---

(١) وهما وزيرا سيف الدين غازي.

أولادها، ثم ذكرهم ابن الأثير في كتابه وسماهم، وذكر أنها أشبهت في ذلك فاطمة بنت عبد الملك بن مروان زوج عمر بن عبد العزيز - رضي الله عنه - كان لها أن تضع خمارها عند ثلاثة عشر خليفة وهم من معاوية - رضي الله عنه - إلى آخر خلفاء بني أمية سوى آخرهم وهو مروان بن محمد فإنه ابن عم لها ليس بمحرم والباقون محارم لها، وما تم له ذلك إلا بعد ذكره أن أمها عاتكة بنت يزيد بن معاوية، فمعاوية جدّ أمها، ويزيد جدّها لأمها، ومعاوية بن يزيد خالها، ومروان جدها لأبيها، وعبد الملك أبوها، والوليد وسليمان وهشام ويزيد إخوتها، وعمر بن عبد العزيز زوجها، والوليد بن يزيد بن الوليد أولاد إخوتها، وهؤلاء كلهم خلفاء وعدّتهم ثلاثة عشر.

قلت: وهذا كله مبني على أصل فيه خلل وهو أن فاطمة بنت عبد الملك ليست أمها عاتكة بنت يزيد بن معاوية بل أمها امرأة مخزومية، ولكن الصواب في ذلك أن يقال: كان لفاطمة أن تضع خمارها عند عشرة من الخلفاء وهم مروان بن الحكم ونسله سوى مروان بن محمد، وأما عاتكة فالجميع محرم لها سوى عمر بن عبد العزيز ومروان بن محمد، بقي اثنا عشر خليفة كلهم محارم لها.

وما ذكره ابن الأثير من أمر بنت حسام الدين فستُّ الشام بنت أيوب أكثر منها محارم من الملوك، يجتمع لها من ذلك أكثر من ثلاثين ملكاً من إخوتها الأربعة: المعظم وصلاح الدين والعادل وسيف الإسلام، ومن أولادهم وأولاد أولادهم وأولاد أخيها الأكبر شاهنشاه بن أيوب تقي الدين وذرّيته أصحاب حماة، وفَرُّخْشاه وابنه الأمجد صاحب بعلبك.

[١٢٥] فصل

قال الرئيس أبو يعلى: اتصل الخبر بنور الدين بإفساد الفرنج في الأعمال الحورانية بالنهب والسبي، فعزم على التأهب لقصدهم، وكتب إلى مَن بدمشق يعلمهم بما عزم عليه من الجهاد ويستدعي المعونة على ذلك

بألف فارس تصل إليه مع مقدّم يعول عليه، وقد كانوا عاهدوا الفرنج على أن يكونوا يداً واحدةً على من يقصدهم من عساكر المسلمين، فلما قرب من دمشق وعرف مَن بها خبره ولم يعلموا أين قصده وقد كانوا راسلوا الإفرنج بخبره وقرّروا معهم الإنجاد عليه، وعرف نور الدين خبرهم فلم يحفل بهم وقال: لا أنحرف عن جهادهم، وهو مع ذلك كاف أيدي أصحابه عن العبث والإفساد في الضياع، وأمر بإحسان الرأي في الفلاحين والتخفيف عنهم، والدعاء له مع ذلك متواصل من أهل دمشق وأعمالها وسائر البلاد وأطرافها.

وكان الغيث قد انحبس عن حوران والمرج والغوطة، ونزح أكثر أهل حوران عنها للمَحْل(١) واشتداد الأمر، فلما وصل نور الدين إلى بعلبك اتفق نزول المطر يوم الثلاثاء ثالث ذي الحجة وأقام إلى مثله وجرت الأودية، وزادت الأنهار، وامتلأت برك حوران، وحشد الناس بالدعاء لنور الدين وقالوا: هذا ببركته وحسن معدلته وسيرته.

ثم رحل من منزله ونزل بجسر الخشب المعروف بمنازل العساكر في السادس والعشرين من ذي الحجة، وأرسل إلى مجير الدين والرئيس وقال: إنني ما قصدت بنزول هذا المنزل طلباً لمحاربتكم ولا منازلتكم وإنما دعاني إلى هذا الأمر كثرة شكاية المسلمين من أهل حوران والعربان بأن الفلاحين أخذت أموالهم وسُبيت نساؤهم وأطفالهم بيد الإفرنج وعَدم الناصر لهم، ولا يسعني مع ما أعطاني الله ـ وله الحمد ـ من الاقتدار على نصرة المسلمين وجهاد المشركين وكثرة المال والرجال أن أقعد عنهم ولا أنتصر لهم، مع معرفتي بعجزكم عن حفظ أعمالكم والتقصير الذي دعاكم إلى الاستصراخ بالإفرنج على محاربتي، وبذلكم لهم أموال الضعفاء والمساكين من الرعية ظلماً لهم وتعدياً عليهم، وهذا ما لا يرضي الله ـ تعالى ـ ولا

---

(١) أي الجَدْب: انظر «لسان العرب»: محل.

أحداً من المسلمين، ولا بدّ من المعونة من ألف فارس تُجرَّد مع من يوثق بشجاعته من المقدّمين لتخليص ثغر عسقلان وغزة.

قال: فكان الجواب عن هذه الرسالة، ليس بيننا وبينك إلا السيف وسيوافينا من الإفرنج ما يعيننا على دفعك إن قصدتنا ونزلت إلينا، فلما عاد الرسول بهذا الجواب ووقف عليه أكثر التعجب منه والإنكار له، وعزم على الزحف إلى البلد ومحاربته في غد ذلك اليوم، فأرسل الله من الأمطار وتداركها ودوامها ما منعه من ذلك.

ثم دخلت سنة خمس وأربعين وخمسمائة

ففي مستهل المحرّم تقرر الصلح بين نور الدين وأرباب دمشق، والسبب في ذلك أن نور الدين أشفق من سفك دماء المسلمين إن أقام على حربها والمضايقة لها بعد ما اتصل به من أجناد دعته إلى ذلك، واتفق أنهم بذلوا له الطاعة، وإقامة الخطبة له على منبر دمشق بعد الخليفة والسلطان، وكذا السِّكة(١)، ووقعت الأيمان على ذلك.

[١٣٦] فصل في فتح عزاز(٢)

قال أبو يعلى:

وورد الخبر في الخامس من المحرّم من ناحية حلب بأن عسكرها من التركمان ظفر بابن جوسلين صاحب عَزاز وأصحابه وحصلوا في قبضة الأسر في قلعة حلب، فسرّ هذا الفتحُ كافةَ الناس وتوجه نور الدين في عسكره إلى عزاز ونزل عليها وضايقها وواظب قتالها إلى أن سهل الله ـ تعالى ـ ملكها بالأمان وهي على غاية من المنَعة والحصانة والرفعة، فلما تسلمها رتب فيها من ثقاته من وثق به، ورحل عنها ظافراً مسروراً عائداً إلى حلب في أيام من شهر ربيع الأول.

---

(١) أي الأموال المعدنية، وكانوا يكتبون عليها أسماء الخلفاء والسلاطين.

(٢) بلدة قريبة من حلب.

[١٢٧] فصل في صفة أسر جوسلين

قال ابن الأثير:

سار نور الدين إلى بلاد جوسلين وهي القلاع التي شمالي حلب منها تل باشر وعين تاب وعزاز وغيرها من الحصون، فجمع جوسلين الفرنج ولقوا نور الدين، وكان بينهم حرب شديدة انجلت عن انهزام المسلمين وظفر الفرنج، فعظمت الحادثة على نور الدين، وأعمل الحيلة على جوسلين وعلم إن هو جمع العساكر الإسلامية لقصده جمع جوسلين الفرنج وحذر وامتنع، فأحضر نور الدين جماعة من التركمان وبذل لهم الرغائب من الإقطاع والأموال إن هم ظفروا بجوسلين إما قتلاً وإما أسراً.

فاتفق أن جوسلين خرج في عسكره وأغار على طائفة من التركمان فنهب وسبى فاستحسن من السبي امرأة منهم خلا معها تحت شجرة، فعاجله التركمان فركب فرسه ليقاتلهم فأخذوه أسيراً فصانعهم على مال بذله لهم فرغبوا فيه وأجابوه إلى ذلك، وأخفوا أمره عن نور الدين، فأرسل جوسلين في إحضار المال فأتى بعض التركمان إلى نائب نور الدين بحلب فأعلمه الحال فسيَّر معه عسكراً أخذوا جوسلين من التركمان قهراً، وكان نور الدين حينئذ بحمص، وكان أسره من أعظم الفتوح على المسلمين فإنه كان شيطاناً عاتياً من شياطين الفِرَنج، شديد العداوة للمسلمين، وكان هو يتقدّم على الفرنج في حروبهم لما يعلمون من شجاعته وجودة رأيه وشدّة عداوته للملة الإسلامية وقسوة قلبه على أهلها، وأصيبت النصرانية كافة بأسره، وعظمت المصيبة عليهم بفقده، وخلت بلادهم من حاميها وثغورهم من حافظها، وسهل أمرهم على المسلمين بعده.

وكان كثيرَ الغدر والمكر، لا يقف على يمين ولا يفي بعهد، طالما صالحه نور الدين وهادنه فإذا أمن جانبه بالعهود والمواثيق نكث وغدر فلقيه غدره وحاق به مكره، ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله، فلما أسر تيسر فتح كثير من بلادهم وقلاعهم فمنها عين تاب، وعَزاز، وحصن البارة وتلّ خالد، وكفر لاثا، ومرعش.

قال: وكان نور الدين ـ رحمه الله ـ إذا فتح حصناً لا يرحل عنه حتى يملأه رجالاً وذخائر تكفيه عشر سنين خوفاً من نصر يتجدّد لِلفِرَنج على المسلمين فتكون الحصون مستعدة غيرَ محتاجة إلى شيء.

[١٢٨] قال أبو يعلى: وفي أيام من المحرم وصل جماعة من حجاج العراق وخراسان المأخوذين في طريق الحج عند عودهم بجماعة من كفار العربان، وحكوا مصيبة ما نزل مثلها بأحد في السنين الخالية، ولا يكون أبشع منها، وذكر أنه كان في هذا الحاج من وجوه خراسان وأعيانها وفقهائها وعلمائها وقضاتها والحُرَم العدد الكثير والأموال الجمَّة والأمتعة الوافرة، فأخذ جميع ذلك، وقتل الأكثر وسلم الأقل، وهُتكت النساء وسُلبن، وهلك من هلك بالجوع والعطش، فضاقت الصدور لهذه النازلة، فكسا العاري منهم، وأطلق لهم ما استعانوا به على عودهم إلى أوطانهم من أصحاب المروءة بدمشق.

ودخلت سنة ست وأربعين وخمسمائة

[١٢٩] ففيها حاصر نور الدين دمشق لمعاضدة أهلها الفِرَنج واستنصارهم بهم، ووقع التأهب للحصار، ووافت رسل نور الدين إلى ولاة البلد يقول: أنا ما أوثر إلا صلاح أمر المسلمين وجهاد المشركين وخلاصَ مَن في أيديهم من الأسارى فإن ظهرتم معي في عسكر دمشق وتعاضدنا على الجهاد فذلك المراد، فلم يعد الجواب إليه بما يرضاه، فنزل في أرض مسجد القدم وما والاه من الشرق والغرب، وأهمل الزحف إلى البلد إشفاقاً من قتل النفوس.

ووصلت الأخبار باحتشاد الفرَنج واجتماعهم لإنجاد أهل دمشق، فضاقت صدور أهل الصلاح، وزاد إنكارهم لمثل هذه الأحوال المنكرة، والمناوشات في كل يوم متصلة من غير مزاحمة ولا محاربة، وصار العسكر النوري في عدد لا يُحصى، وفي كل يوم يزداد بما يتواصل من الجهات وطوائف التركمان، ونور الدين مع هذه الحال لا يأذن لأحد من عسكره في

التسرع والظهور، واقتضى رأيه الرحيل إلى جهة الزبداني استجراراً لهم وأفرق من عسكره فريقاً يناهز أربعين ألف فارس مع جماعة من المقدَّمين ليكونوا في أعمال حوران مع العرب لقصد الإفرنج ولقائهم وترقباً لوصولهم.

وكان الإفرنج حين اجتمعوا مع المعسكر الدمشقي قد قصدوا بُصرى لمضايقتها ومحاربتها فلم يتهيأ ذلك لهم، وظهر إليهم واليها في رجاله وعادوا عنها خاسرين، وانكفأ عسكر الإفرنج إلى أعماله وراسلوا مجير الدين ومؤيد الدين يلتمسون باقي القطيعة المبذولة لهم على ترحيل نور الدين عن دمشق وقالوا: لولا نحن ندفعه ما رحل عنكم.

[١٣٠] قال أبو يعلى:

وفي هذه الأيام ورد الخبر بوصول الأسطول المصريّ إلى ثغور الساحل في غاية من القوّة وكثرة من العدّة، وذُكر أن عدّة مراكبه سبعون مركباً حربية مُشْحَنة بالرجال، ولم يخرج مثله في السنين الخالية، وقد أنفق عليه فيما حكي ثلاثمائة ألف دينار، وقرب من يافا من ثغور الفرنج فقتلوا وأسروا وأحرقوا ما ظفروا به واستولوا على عدّة وافرة من مراكب الروم والإفرنج، ثم قصدوا ثغر عكا ففعلوا فيه مثل ذلك، وحصل في أيديهم عدة وافرة من المراكب الحربية الفِرَنجية، وقتلوا من حجاجهم وغيرهم خلقاً عظيماً، وقصدوا ثغر صيدا وبَيروت وطرابلس، وفعلوا في الكل مثل ذلك، ووعد نور الدين بمسيره إلى ناحية الأسطول المذكور لإعانته على تدويخ الفرنجية، فاتفق اشتغاله بأمر دمشق وعوده إليها لمضايقتها، وحدّث نفسه بملكها لعلمه بضعفها وميل الأجناد والرعية إليه، وإشارتهم لولايته وعدله.

قال: وذُكر أن نور الدين أمر بعرض عسكره فبلغ كمال ثلاثين ألفاً مقاتلة، ثم رحل ونزل بأرض داريّا إلى جسر الخشب(١)، ونُودي في البلد

---

(١) أي قرب دمشق.

بخروج الأجناد والأحداث إليه فلم يظهر منهم إلا اليسير بحيث قرب من البلد ووقعت المناوشة بين الفريقين من غير زحف ولا شدّ في محاربة تحرجاً من قتل المسلمين، وقال: لا حاجة إلى قتل المسلمين بأيدي بعضهم بعضاً، وأنا أوفرهم ليكون بذل نفوسهم في مجاهدة المشركين.

وترددت المراسلات في عقد الصلح مع أهل دمشق على شروط واقتراحات، وتردّد فيها الفقيه برهان الدين علي البلخي، والأمير أسد الدين شِيركُوه، وأخوه نجم الدين أيوب، وتقارب الأمر في ذلك إلى أن استقرّ الحال على قبول الشروط المقترحة، ووقعت الأيمان من الجهتين على ذلك والرضى به في عاشر ربيع الآخر.

ثم رحل نور الدين من الغد طالباً ناحية بُصرى للنزول عليها، والتمس من دمشق ما تدعو إليه الحاجة من آلات الحرب؛ لأن واليها⁽¹⁾ سرخاك كان قد شاع عصيانه وخلافه ومال إلى الإفرنج فاعتضد بهم، فأنكر نور الدين ذلك عليه وأنهض إليه فريقاً وافراً من عسكره.

فصل في باقي حوادث هذه السنة

[١٣١] قال أبو يعلى:

وورد الخبر من ناحية ديار مصر بأن أهل دمياط حدث فيهم فناء ما عهد مثله في حديث ولا قديم، بحيث أحصي المفقود منهم في سنة خمس وأربعين فبلغ سبعة آلاف شخص، وفي سنة ست وأربعين مثلهم فصار الجميع أربعة عشر ألفاً، وخلت دور كثيرة من أهلها، وبقيت مغلقة لا ساكن فيها ولا طالب لها.

قال: وفي ثاني عشر رجب توجه مجير الدين صاحب دمشق إلى حلب في خواصه، ووصل إليها ودخل على نور الدين صاحبها، فأكرمه

---

(١) أي والي بُصرى.

وبالغ في الفعل الجميل في حقه، وقرر معه تقريرات اقترحها عليه بعد أن بذل له الطاعة وحسن النيابة عنه في دمشق، ورجع إلى دمشق مسروراً في سادس شعبان.

[١٣٢] قال ابن أبي طيّ:

في سنة ست وأربعين أغار التركمان على بانياس، فخرج أهل بانياس من الفِرَنج فاستنقذوا ما أخذوه، فعاد التركمان عليهم فكسروهم، واتصل ذلك بصاحب دمشق فأغضبه فعل التركمان لمكان الهدنة المنعقدة بينه وبين الفِرَنج، فأنفذ عسكراً إلى التركمان استعاد منهم ما أخذوه، واتصل خبر التركمان بالفِرَنج فجيَّشوا وخرجوا في جيش عظيم وشنوا الغارة على البقاع والناس غافلون فامتلأت أيديهم من الغنائم والأسارى، واتصل خبر غارة الفِرَنج بنجم الدين أيوب(١) وهو في بعلبك وعنده جماعة من عسكر دمشق وأصحابه فقدم عليهم ولده شمس الدولة فخرج وأوقع بالفرنج، واتفق أنه كان قد أصاب الفِرَنج ثلج عظيم فهلك أكثرهم، وجاء شمس الدولة وهم متورطون فقتل فيهم مقتلة عظيمة وخلّص من كان عند الفِرَنج من الأسارى.

[١٣٣] قال: وفي هذه السنة فارق صلاح الدين والده وصار إلى خدمة عمه أسد الدين بحلب فقدمه بين يدي نور الدين فقبله وأقطعه إقطاعاً حسناً.

ثم دخلت سنة سبع وأربعين وخمسمائة

[١٣٤] قال أبو يعلى:

وورد الخبر في المحرم بنزول نور الدين على حصن أنطرسوس في عسكره وافتتاحه له، وقتل من كان فيه من الإفرنج، وطلب الباقون الأمان على النفوس فأجيبوا إلى ذلك، ورتب فيه الحفظة وعاد عنه.

---

(١) والد صلاح الدين، وستأتي أخباره مفصلة إن شاء الله تعالى.

وملك عدّة من الحصون بالسبي والسيف والإخراب والإحراق والأمان.

قال: وورد أيضاً ظفر رجال عسقلان بالإفرنج المجاورين لهم بغزة بحيث هلك منهم العدد الكثير وانهزم الباقون.

ثم دخلت سنة تسع وأربعين وخمسمائة

[١٣٥] قال ابن الأثير:

ففيها ملك نور الدين دمشق وأخذها من صاحبها مجير الدين آنق بن محمد، وكان الذي حمل نور الدين على الجدّ في ملكها أن الفِرَنج ملكوا في السنة الخالية[^١] عسقلان، وهي مدينة فلسطين حسناً وحصانة، ولما كانوا يحصرونها كان نور الدين يتلهف ولا يقدِر على إزعاجهم عنها لأن دمشق في طريقه وليس له على غيرها معبر لاعتراض بلاد الفِرَنج في الوسط، وقوي الفِرَنج بمُلكها حتى طمعوا في دمشق واستضعفوا مجير الدين، وتابعوا الغارة على أعماله، وأكثروا الفتك بها والنهب والسبي، وزاد الأمر بالمسلمين بها إلى أن جعل الفرنج على أهل المدينة قطيعة كل سنة، وكان رسولهم يجيء إلى دمشق ويجبيها من أهل البلد، ثم اشتد البلاء على أهلها حين أرسل الفِرَنج واستعرضوا عبيدهم وإماءهم الذين نُهبوا من سائر بلاد النصرانية وخيروهم بين المقام عند مواليهم والعود إلى أوطانهم، فمن أحب المقام تركوه ومن أحب وطنه سار إليه، وزالت طاعة مجير الدين عن أهل البلد إلى أن حصروه في القلعة.

فلما كانت الأمور بها هكذا خاف أهلها وأشفقوا من العدوّ فلجأوا إلى الله ـ تعالى ـ ودعوه أن يكشف ما بهم من الخوف فاستجاب لهم وأذن في خلاصهم مما هم فيه على يد أحب عباده إليه وأحسنهم طريقةً وأمثلهم سيرةً، وهو الملك العادل حقاً نور الدين محمود، فحسَّن له السعي في ملك البلدة وألقاه في رُوعه، فلما خطر له ذلك أفكر فيه فعلم أنه إن رام

---

(١) أي الماضية.

ملكه بالقوة والحصار تعذر عليه؛ لأن صاحبه متى رأى شيئاً من ذلك راسل الفِرَنج واستعان بهم واستمالهم.

[١٣٦] قال ابن الأثير:

وكان أبغض الأشياء إلى الفِرَنج أن يملك نور الدين دمشق؛ لأنه كان يأخذ حصونهم ومعاقلهم وليست له دمشق فكيف إذا أخذها وقوي بها، وانضاف إلى ذلك كراهيته لسفك دماء المسلمين فإن الدم كان عنده عظيماً لما كان قد جُبل عليه من الرأفة والرحمة والعدل.

فلما رأى الحال هكذا عمد إلى إعمال الحيلة فراسل مجير الدين صاحبها واستماله وواصله بالهدايا وأظهر له المودة حتى وثق إليه، ثم صار يكاتبه في بعض الأوقات ويقول له: إن فلاناً ـ وذكر بعض الأمراء الذين لمجير الدين ـ قد كاتبني في المخامرة(١) عليك فاحذره، فتارة يأخذ إقطاع أحدهم، وتارة يقبض عليه، فلما خلت دمشق من الأمراء قدم أميراً كان عنده يسمى عطاء بن حفاظ السلمي الخادم، وكان شهماً شجاعاً يفوض إليه أمر دولته، وكان نور الدين لا يتمكن من دمشق معه، فقبض عليه مجير الدين وقتله، فقال له عند قتله: إن الحيلة قد تمت عليك فلا تقتلني فإنه سيظهر لك ما أقول، فلم يصغ إلى قوله وقتله.

قال ابن الأثير:

فلما قُتل عطاء قوي طمعُ نور الدين في دمشق فراسل أحداث البلد واستمالهم فأجابوه إلى تسليم البلد، فسار إليهم وحاصرهم عشرة أيام فكاتب مجير الدين الفِرَنج وبذل لهم الأموال وقلعة بعلبك إن رحّلوا نور الدين عنه فإلى أن جمعوا وجاؤا بلغهم أخذ نور الدين دمشق فعادوا بخفّي حنين، وأما نور الدين فإنه لما حاصرهم وضيق عليهم ثار الأحداث الذين كاتبهم نور الدين وسلموا إليه البلد من الباب الشرقي فدخله بالأمان عاشر

---

(١) المخامرة: قلب الدولة والثورة عليها.

صفر، وحصر مجير الدين في القلعة وراسله وبذل له الإقطاع الكثير من جملته مدينة حمص فأجاب إلى تسليم القلعة وصار إلى حمص.

ويقال: إن امرأة كانت على السور فدلت حبلاً فصعدوا فيه، وصار على السور جماعة ونصبوا السلالم وصعد جماعة أخرى ونصبوا علماً وصاحوا بشعار نور الدين، فوقع على أهل البلد الخذلان، وكُسر باب البلد ودخلت الخيالة منه، وملك نور الدين دمشق. وكان لأسد الدين(١) اليد الطولى في فتحها فولاه نور الدين أمرها ورد إليه جميع أحوالها، وفي هذه السنة أقطعه نور الدين الرّحْبة(٢).

[١٣٧] وقال ابن الأثير:

لما استقل نور الدين في البلد عمل مع أهله مكرمة عظيمة، وأظهر فيهم عدلاً عاماً، وألقى الإسلام جِرانه(٣) بدمشق، وثبتت أوتاده، وأيقن الكفار بالبوار، ووهنوا واستكانوا، وصار جميع ما بالشام من البلاد الإسلامية بيد نور الدين، وأما مجير الدين فإنه أقام بحمص وراسل أهل دمشق في إثارة الفتنة، فانتهى الأمر إلى نور الدين فخاف أن يحدث ما يشق تلافيه بل ربما تعذر لا سيما مع مجاورة الإفرنج، فأخذ حمص من مجير الدين وعوَّضه عنها مدينة بالس فلم يرضها، وسار عن الشام إلى العراق فأقام ببغداد وابتنى داراً تجاور المدرسة النظامية وتوفي بها.

قال: ولما ملك نور الدين دمشق خافه الفرنج، وعلموا أنه لا يقعد عنهم وعن غزو بلادهم والمبادرة إلى قتالهم، فراسله كل كِنْد وقُمّص(٤) وتقرّبوا إليه.

---

(١) هو أسد الدين شيرْكُوه، عم صلاح الدين، وقد تقدم ذكره، وستأتي أخباره مفصلة.

(٢) بلدة قريبة من دمشق.

(٣) أي ثبت واستقر: انظر «لسان العرب»: جرن.

(٤) القومص، والقُمّص، والقُمّس سواء، وهي مرتبة في الكنيسة فوق مرتبة القس، وهو الأمير والمتولي تدبير الأمور أيضاً، انظر «المعجم الوسيط»: ق م ص.
أما الكند فلعلها: الكُونت: وهو لقب تشريف أيضاً مقارب معناه معنى القُمّص، وانظر «تفسير الألفاظ الدخيلة في اللغة العربية»: ٦٥، وقيل إن الكند معرّب كِنج، وهو الملك.

[١٣٨] قال ابن أبي طيّ:

واستخص نور الدين صلاح الدين، وألحقه بخواصه، فكان لا يفارقه في سفر ولا حضر، وكان يفوق الناس جميعاً في لعب الكرة، وكان نور الدين يحب لعب الكرة.

ثم دخلت سنة إحدى وخمسين وخمسمائة

[١٣٩] قلت: وفي هذه السنة والتي بعدها كثرت الزلازل بالشام، قال أبو يعلى:

في ليلة الثاني والعشرين من ربيع الأوّل وافت زلزلة هائلة، وجاءت قبلها وبعدها مثلها في النهار وفي الليل، ثم جاء بعد ذلك ثلاث دونهنّ بحيث أحصين ست مرات، وفي ليلة الخامس والعشرين منه جاءت زلزلة ارتاع الناس منها في أوّل النهار وآخره، وتواصلت الأخبار من ناحية حلب وحماة بانهدام مواضعَ كثيرة بهذه الزلازل، وذكر أن الذي أحصي عدده منها تقدير الأربعين، وما عُرف مثل ذلك في السنين الماضية والأعصار الخالية.

وفي التاسع والعشرين من الشهر بعينه وافت زلزلة آخر النهار وبالليل ثانية في آخره، وفي أول شهر رمضان زلزلة مروعة وثانية وثالثة، وفي ثالث رمضان ثلاث زلازل، وأخرى وقت الظهر، وأخرى هائلة أيقظت النيام وروَّعت القلوب انتصاف الليل، وفي ليلة نصف رمضان زلزلة هائلة أعظم مما سبق، وعند الصباح أخرى، وفي الليلة التي يليها زلزلتان أوّلها وآخرها، وفي اليوم الذي بعد يومها، وفي ليلة الثالث والعشرين زلزلة مزعجة، وفي ثاني شوّال زلزلة أعظم مما تقدم، وفي سابعه وسادس عشره، وفي اليوم الذي جاء بعده أربع زلازل، وليلة الثاني والعشرين منه، ودفع الله ـ تعالى ـ عن دمشق وضواحيها ما خاف أهلها من توالي ذلك وتتابعه برأفته بهم ورحمته لهم فله الحمد والشكر، لكن وردت الأخبار من ناحية حلب بكثرة ذلك فيها وانهدام مساكنها، وأمّا شَيْزر فإن الكثير من

مساكنها انهدم على سكانه بحيث قتل منهم العدد الكثير، وأما كفرطاب فهرب أهلها منها خوفاً على أرواحهم، وأمّا حماة فكانت كذلك، وأمّا باقي الأعمال الشامية فما عرف ما حدث فيها من هذه القدرة الباهرة، والله أعلم.

ثم دخلت سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة

[١٤٠] ففي ليلة تاسع عشر صفر وافت زلزلة عظيمة وتلاها أخرى، وكذا في ليلة العشرين واليوم بعدها، وتواصلت الأخبار من الشام بعظيم تأثير هذه الزلازل، وفي ليلة الخامس والعشرين من جمادى الأولى وافت أربع زلازل وضج الناس بالتهليل والتسبيح والتقديس، وفي ليلة رابع جمادى الآخرة وافت زلزلتان، وترادفت الأخبار من ناحية الشمال بأن هذه الزلازلَ أثرت في حلب تأثيراً أزعج أهلها وأقلقهم، وكذا في حمص، وهدمت مواضع فيها، وفي حماة وكفر طاب وفامية، وهدمت ما كان بني من مهدوم الزلازل.

وفي رابع رجب نهاراً وافت بدمشق زلزلة عظيمة لم يُرَ مثلها فيما تقدم، ودامت رجفاتها حتى خاف الناس على أنفسهم ومنازلهم وهربوا من الدور والسقائف وانزعجوا، وأثرت في مواضع كثيرة ورمت من فص الجامع الشيء الكثير الذي يعجز عن إعادته، ثم وافت عقيبها زلزلة في الحال ثم سكنتا بقدرة من حركهما، ثم تبع ذلك في أول ليلة اليوم المذكور زلزلة وفي وسطه زلزلة وفي آخره زلزلة، وفي ليلة الجمعة ثامن رجب زلزلة مهولة أزعجت الناس، وتلاها في النصف منها ثانية وعند انبلاج الصبح ثالثة، وكذلك في ليلة السبت وليلة الأحد وليلة الاثنين، وتتابعت بعد ذلك بما يطول به الشرح، ووردت الأخبار من ناحية الشمال بما يسوء سماعه، ويُرعب النفوس ذكره بحيث انهدمت حماة وقلعتها وسائر دورها ومنازلها على أهلها من الشيوخ والشبان والأطفال والنسوان وهم العدد الكثير والجم الغفير بحيث لم يسلم منهم إلا القليل اليسير.

وأما شَيْزَر فإن حصنها المشهور انهدم على واليها تاج الدولة بن أبي العساكر بن منقذ ومن تبعه إلا اليسير ممن كان خارجاً، وأما حمص فإن أهلها كانوا قد اختلفوا منها إلى ظاهرها فسلموا وتلفت مساكنهم وتلفت قلعتها، وأما حلب فهدمت بعض دورها وخرج أهلها منها إلى ظاهر البلد، ولو لم يدرك العباد والبلاد رحمة الله ـ تعالى ـ ولطفه ورأفته لكان الخطب أفظع.

[١٤١] قال: وأما أهل دمشق فلما وافتهم الزلزلة في ليلة الاثنين التاسع والعشرين من رجب ارتاع الناس من هولها وأجفلوا من منازلهم والأماكن المسقفة إلى الجامع والأماكن الخالية من البنيان خوفاً على أنفسهم، ووافت بعد ذلك أخرى ففتح البلد وخرج الناس إلى ظاهره والبساتين والصحراء وأقاموا عدّة ليال وأيام على الخوف والجزع يسبحون ويهللون، ويرغبون إلى خالقهم ورازقهم في اللطف بهم والعفو عنهم.

[١٤٢] قال: وفي الرابع والعشرين من رمضان وافت دمشق زلزلة عظيمة روعت الناس وأزعجتهم لما وقع في نفوسهم مما قد جرى على بلاد الشام من تتابع الزلازل فيها، ووافت الأخبار من ناحية حلب بأنّ هذه الزلزلة جاءت فيها هائلة فقلقلت من دورها وجدرانها العدد الكثير، وأنها كانت بحماة أعظم مما كانت في غيرها، وأنها دامت فيها أياماً كثيرة في كل يوم عدّة وافرة من الرجفات الهائلة يتبعها صيحات مختلفات تُوفي(١) على أصوات الرعود القاصفة المزعجة، فسبحان من له الحكم والأمر، وتلا ذلك رَدَفات متوالية أخف من غيرهنّ، فلما كان ليلة السبت العاشر من شوّال وافت زلزلة هائلة بعد صلاة العشاء الآخرة أزعجت وأقلقت، وتلاها في إثرها هزة خفيفة وكذا في ليلة العاشر من ذي القعدة وفي غدها زلازل، وليلة الثالث والعشرين والخامس والعشرين منه أيضاً زلازل نفر الناس من

---

(١) أي تزيد.

هولها إلى الجامع والأماكن المنكشفة، وضجوا بالتكبير والتهليل والتسبيح والدعاء والتضرُّع إلى الله ـ تعالى ـ.

وفي يوم الجمعة انسلاخ ذي القعدة وافت زلزلة رجفت لها الأرض وانزعج لها الناس.

[١٤٣] وقال ابن الأثير:

في سنة اثنتين وخمسين كان بالشام زلزلة شديدة ذات رجفات عظيمة متتابعة أخربت البلاد وأهلكت العباد، وكان أشدّها بمدينة حماة وحصن شَيْزَر فإنهما خربا بالمرة، وكذا ما جاورهما كحصن بارين والمعَرَّة وغيرهما من البلاد والقرايا، وهلك تحت الهدم من الخلق ما لا يحصيه إلا الله تعالى، وتهدّمت الأسوار والدور والقلاع، ولولا أنّ الله تعالى منّ على المسلمين بنور الدين جمع وحفظ البلاد وإلا كان دخلها الإفرنج بغير حصار ولا قتال.

[١٤٤] قال: ولقد بلغني من كثرة الهلكى أنّ بعض المعلمين بحماة ذكر أنه فارق المكتب لمهمّ فجاءت الزلزلة فأخربت الدور وسقط المكتب على الصبيان جميعهم، قال المعلم: فلم يأت أحد يسأل عن صبي كان له في المكتب.

[١٤٥] قلت: وقرأت في ديوان الأمير الفاضل أسامة بن منقذ(١):

نمنا عن الموت والمعاد وأصبحنا   نظن اليقين أحلاما
فحركتنا هذي الزلازل أي   تيقظوا كم ينام من ناما

وقال أيضاً:

أيها الغافلون عن سكرة المو   ت وإذ لا يسوغ في الحلق ريقُ
كم إلى كم هذا التشاغل والغفـ   ـلة حار الساري وضل الطريقُ

---

(١) سيأتي ـ قريباً ـ ذكر بعض أخباره وأخبار آل منقذ.

إنما هزت الزلازل هذي الأ   رض بالغافلين كي يستفيقوا

وقال يرثي أهله الذين هلكوا بالزلازل بحصن شَيْزر قصيدة منها:

ما استدرج الموت قومي في هلاكهم   ولا تخرمهم مَثْنى ووحدانا
فكنت أصبر عنهم صبر محتسب   وأحمد الخطب فيهم عَزَّ وهانا
وأقتدي بالورى قبلي فكم فقدوا   أخاً وكم فارقوا أهلاً وجيرانا
لكن سقيت المنايا وسط جميعهم   رغا فخروا على الأذقان إذعانا(١)
وفاجأتهم من الأيام قارعة   سقتهم بكؤوس الموت ذيفانا(٢)
ماتوا جميعاً كَرَجْع الطَّرف وانقرضوا   هل ما ترى تارك للحَيْن إنسانا(٣)
فلو رأوني لقالوا مات أسعدنا   وعاش للهم والأحزان أشقانا
لم يترك الموت منهم من يخبرني   عنهم فيوضح ما قالوه تبيانا
بادوا جميعاً وما شادوا فواعجباً   للخطب أهلك عُماراً وعمرانا
هذي قصورهم أمست قبورهم   كذاك كانوا بها من قبل سكانا
ويح الزلازل أفنت معشري فإذا   ذكرتهم خلتني في القوم سكرانا
لا ألتقي الدهر من بعد الزلازل ما   حييت إلا كسير القلب حيرانا

وكتب إليه الصالح بن رُزّيك(٤) قصيدة يعزيه عن أهله منها:

بأبي شخصك الذي لا يغيب   عن عياني فهو البعيد القريب
يا أخلاي بالشام إن غبـ   ـتم فشوقي إليكم لا يغيب
غصبتنا الأيام قربكم منـ   ـا ولا بد أن ترد الغصوب
كره الشام أهله فهو محقو   ق بأن لا يقيم فيه لبيب
إن تجلت عنه الحروب قليلاً   خلفتها زلازل وخطوب

---

(١) كأن معنى رغا ـ هنا ـ الذل والقهر، انظر «لسان العرب»: رغا.

(٢) الذيفان: السم القاتل: انظر «لسان العرب»: ذ ي ف.

(٣) الحَيْن: الموت.

(٤) طلائع بن رُزّيك الأرمني المصري الرافضيّ، توفي سنة ٥٥٦: انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٣٩٧ ـ ٣٩٩.

رقصت أرضه عشية غنى الـ رعد في الجوّ والكريم طَروب
وتثنت حيطانه إذ أمالتـ ـها شمال بزَمْرها وجنوب(١)
لا هبوب لنائم من أمانيـ ـه وللعاصفات فيها هبوب
وأرى البرق شامتاً ضاحك السـ ـن وللجوّ بالغمام قطوب
ذكروا أنه يَذوب به السحـ ـب فما للصخور أيضاً تذوب
أبذنب أصابها قدر اللـ ـه فللأرض كالأنام ذنوب
إن ظني والظن مثل سهام الـ رمي منها المخطئ ومنها المصيب
إن هذا لأن غدت ساحة القد س وما للإسلام فيها نصيب
منزل الوحي قبل بعث رسول الـ ـله فهو المحجوج والمحجوب
نزلته وسطه الخنازير والخمر وبارى الناقوس فيه الصليب
لو رآه المسيح لم يرض فعلاً ذكروا أنه له منسوب
لهف نفسي على ديار من السكـ ـان أقوَتْ فليس فيها مجيب(٢)

فصل

[١٤٦] قال الرئيس أبو يعلى:

في ثالث عشر ربيع الأول توجه نور الدين إلى ناحية بعلبك لتفقد أحوالها وتقرير أمر المستحفظين لها، وتواصلت الأخبار من ناحية حمص وحماة بإغارة الفرنج الملاعين على تلك الأعمال، وفي خامس عشر ربيع الأوّل ورد المبشر من العسكر المنصور برأس الماء بأن ناصر الدين أمير أميران(٣) لما انتهى إليه خبر الِفرَنج أنهم قد أنهضوا سرية وافرة العدد إلى ناحية بانياس لتقويتها أسرع النهضة إليهم وعدتهم سبعمائة فارس سوى الرجالة فأدركهم قبل الوصول إلى بانياس وقد خرج إليهم من كان فيها من حماتها، فأوقع بهم وقد كان كَمُن لهم في مواضع كمناء من شجعان

---

(١) الزَّمْر هنا صوت الريح «انظر لسان العرب»: زمر.

(٢) أقوت: خلت: انظر «المصدر السابق»: قوى.

(٣) أخا نور الدين.

الأتراك، واندفع المسلمون بين أيديهم في أوّل المجال وظهر عليهم الكمناء فأنزل الله نصره على المسلمين بحيث لم ينج منهم إلا القليل، وصاروا بأجمعهم بين قتيل وجريح ومسلوب وأسير، وحصل في أيدي المسلمين من خيولهم وسلاحهم وأموالهم وأسراهم ورؤوس قتلاهم ما لا يُحد كثرة، ومحقت السيوف عامة رجالتهم من الإفرنج، ووصلت الأسرى ورؤوس القتلى والعُدد إلى دمشق وطيف بهم، وقد اجتمع لمشاهدتهم الخلق وكان يوماً مشهوداً، وأنفذ نور الدين إلى بعلبك جماعة من أسرى المشركين فأمر بضرب أعناقهم.

[١٤٧] قال: وتبع هذا الفتح ورود البشرى الثانية من أسد الدين باجتماع العدد الكثير إليه من شجعان التركمان، وأنه قد ظفر من المشركين بسرية وافرة ظهرت في معاقلهم من ناحية الشمال فانهزمت، وتخطف التركمان منهم من ظفروا به.

[١٤٨] قال: ووصل أسد الدين إلى بعلبك في العسكر من مقدمي التركمان وأبطالهم للجهاد وهم في العدد الكثير والجم الغفير، واجتمعوا بنور الدين وتقرّرت الحال على قصد بلاد المشركين لتدويخها والابتداء بالنزول على بانياس، وقدم نور الدين دمشق في إخراج آلات الحروب وتجهيزها إلى العسكر بحيث يقيم أياماً يسيرة ويتوجه، وأمر بالنداء بدمشق في الغزاة والمجاهدين فتبعه من الأحداث والمطوّعة والفقهاء والصوفية والمتدينين خلق كثير، وخرج يوم السبت انسلاخ شهر ربيع الأوّل.

وفي سابع ربيع الآخر عقيب نزول نور الدين على بانياس ومضايقته لها بالمنجنيقات والحرب سقط بدمشق الطائر من العسكر المنصور بظاهر بانياس يتضمن كتابه الإعلام بورود المبشر من معسكر أسد الدين بناحية هونين في التركمان والعرب بأنّ الإفرنج ـ خذلهم الله تعالى ـ أنهضوا سَرية من أعيان مقدّميهم وأبطالهم تزيد على مائة فارس سوى أتباعهم لكبس المذكورين ظناً منهم بأنهم في قُلّ ولم يعلموا أنهم في ألوف، فلما دنوا

منهم وثبوا إليهم كالليوث إلى فرائسها، فأطبقوا عليهم بالقتل والأسر والسلب، ولم يبق منهم إلا اليسير ووصلت الأسرى ورؤوس القتلى وعُددهم إلى دمشق وطيف بهم فيه يوم الاثنين تالي اليوم المذكور.

قال: وتلا هذه الموهبة المتجدِّدة سقوط الطائر من المعسكر المحروس ببانياس في يوم الثلاثاء تلو المذكور يذكر افتتاح مدينة بانياس بالسيف قهراً على مضي أربع ساعات من يوم الثلاثاء المذكور وبذل السيف في قتل مَن فيه ونهب ما حواه، وانهزام مَن سلم إلى القلعة وانحصارهم بها، وأن أخذهم بمشيئة الله - تعالى - لا يبطئ والله يسهله ويعجله.

قال: واتفق بعد ذلك أن الفرنج تجمعوا من معاقلهم عازمين على استنقاذ الهنفري صاحب بانياس ومن معه من أصحابه المحصورين بقلعة بانياس وقد أشرفوا على الهلاك، وبادروا وبالغوا فى السؤال لنور الدين الأمان ويسلمون ما في أيديهم من القلعة وما حوله لينجوا سالمين فلم يجبهم إلى ما سألوه ورغبوا فيه، فلما وصل ملك الإفرنج في جمعه من الفارس والراجل من ناحية الجبل على حين غفلة من العسكر النازل على بانياس لحصارها والنازل على الطريق لمنع الواصل إليها اقتضت السياسة الاندفاع عنها بحيث وصلوا(١) إليها واستخلصوا من كان فيها، وحين شاهدوا ما عم بانياس من إخراب سورها ومنازل سكانها يئسوا من عمارتها بعد خرابها.

[١٤٩] فلما مضت أيام من شهر رمضان عرض لنور الدين ابتداء مرض حاد فلما اشتدَّ به وخاف منه على نفسه استدعى أخاه نصرة الدين أمير أميران وأسد الدين شيركوه وأعيان الأمراء المقدَّمين وأوصى إليهم بما اقتضاه رأيه واستصوبه، وقرَّر معهم كون أخيه نصرة الدين القائم في منصبه من بعده والساد لثلمة فقده لاشتهاره بالشهامة ولشدة البأس يكون مقيماً بحلب،

---

(١) أي الفِرَنج.

ويكون أسد الدين في دمشق في نيابة نصرة الدين، واستحلف الجماعة على هذه القاعدة.

فلما تقرَّرت اشتدَّ به المرض فتوجه إلى حلب وحصل في قلعتها، وتوجه أسد الدين إلى دمشق لحفظ أعمالها من فساد الإفرنج وتواصلت الأراجيف بنور الدين فقلقت النفوس، وأزعجت القلوب، فتفرّقت جموع المسلمين، واضطربت الأعمال وطمع الِفرَنج فقصدوا مدينة شَيْزر وهجموها وحصلوا فيها فقتلوا وأسروا ونهبوا، وتجمع من عدّة جهات خلق كثير من رجال الإسماعيلية وغيرهم وظهروا عليهم فقتلوا منهم وأخرجوهم من شَيْزر.

واتفق وصول نصرة الدين إلى حلب فأغلق والي القلعة مجد الدين في وجهه الأبواب وعصى عليه، فثارت أحداث حلب وقالوا: هذا صاحبنا وملكنا بعد أخيه فزحفوا في السلاح إلى باب البلد وكسروا أغلاقه ودخل نصرة الدين في أصحابه، وحصل في البلد وقامت الأحداث على والي القلعة باللوم والإنكار والوعيد، واقترحوا على نصرة الدين اقتراحات من جملتها إعادة رسمهم في التأذين بحي على خير العمل، محمد وعلي خير البشر(١) فأجابهم إلى ما رغبوا فيه وأحسن القول لهم والوعد، ونزل في داره وأنفذ والي القلعة إليه وإلى الحلبيين يقول: مولانا نور الدين حي في نفسه وما كان إلى ما فعل حاجة، فقيل: الذنب في ذلك للوالي، وصعد إلى القلعة مَن شاهد نور الدين حياً يفهم ما يقول وما يقال له، فأنكر ما جرى وقال: أنا أصفح للأحداث ولا أؤاخذهم بالزلل، وما طلبوا إلا صلاح حال أخي وولي عهدي من بعدي، وشاعت الأخبار وانتشرت البشائر في الأقطار بعافيته، فأنست القلوب بعد الاستيحاش، وابتهجت النفوس بعد القلق والانزعاج، وتزايدت العافية، وصُرفت الهمم إلى مكاتبات المقدمين بالعود إلى جهاد الملاعين.

---

(١) وهذا الأذان المبتدع كان قد أبطله نور الدين لمّا دخل حلباً، كما تقدم.

[١٥٠] فصل في ذكر حصن شَيزر وولاية بني منقذ

قال ابن الأثير:

وهو حصن قريب من حماة بينهما نحو من نصف نهار، وهو من أمنع القلاع وأحصنها، على حجر عال له طريق منقور في طرف الجبل، وقد قطع الطريق في وسطه وجعل عليه جسر من خشب فإذا قطع ذلك الجسر تعذر الصعود إليه، وكان لآل منقذ يتوارثونه من أيام صالح بن مرداس إلى أن انتهى الأمر إلى الأمير أبي المرهف نصر بن علي بن المقلد بن نصر بن منقذ بن نصر بن هاشم بعد أبيه أبي الحسن علي، فبقي به مدّة طويلة إلى أن مات بشيزر سنة إحدى وتسعين وأربعمائة.

وكان شجاعاً كريماً صواماً قواماً، فلما حضره الموت استخلف أخاه الأمير أبا سلامة مرشد بن علي وهو والد أسامة، فقال: والله لا وليتها ولأخرجن من الدنيا كما دخلتها، وكان عالماً بالقرآن والأدب، كثير الصلاح، فولاها أخاه أبا العساكر سلطان بن علي وكان أصغر منه فاصطحبا أجمل صحبة مدّة من الزمان، فولد أبو سلامة مرشد عدّة أولاد ذكور فكبروا وسادوا منهم عز الدولة أبو الحسن علي، ومؤيد الدولة أسامة بن مرشد وغيرهما ولم يولد لأخيه سلطان ولد ذكر إلى أن كبر فجاءه أولاد فحسد أخاه على ذلك، فكان كلما رأى صغر أولاده وكبر أولاد أخيه وسيادتهم ساءه ذلك وخافهم على أولاده وسعى المفسدون بينهما فغيروا كلاً منهما على أخيه، فكتب الأمير سلطان إلى أخيه شعراً يعاتبه على أشياء بلغته عنه، فأجابه بأبيات جيدة في معناها، وكلهم كان أديباً شاعراً.

[١٥١] قال: وكان الأمر فيه في حياة الأمير بعضُ الستر فلما مات سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة قلب أخوه لأولاده ظهر المجَن[١] وباداهم بما يسوؤهم، وتمادت الأيام بينهم إلى أن قَوي عليهم فأخرجهم من شَيْزر،

---

(١) المجن: الترس، أي تغير وانقلب شأنه وأمره إلى الضد.

وكان أعظم الأسباب في إخراجهم ما حُدّثت به عن مؤيد الدولة أسامة بن مرشد قال:

كنت من الشجاعة والإقدام على ما علمه الناس، فبينا أنا بشيزر وإذا قد أتاني إنسان أخبرني أن بدجلة(١) أسداً ضارياً فركبت فرسي وأخذت سيفي وسرت إليه لأقتله، ولم أعلم أحداً من الناس لئلا أُمنع من ذلك، فلما قربت من الأسد نزلت عن فرسي وربطته ومشيت نحوه فلما رآني قصدني ووثب فضربته بالسيف على رأسه فانفلق، ثم أجهزت عليه وأخذت رأسه في مخلاة فرسي وعدت إلى شَيْزر، ودخلت على والدتي وألقيت الرأس بين يديها وحدثتها الحال، فقالت: يا بني تجهز للخروج من شَيْزر، فوَالله لا يمكنك عمك من المقام ولا أحداً من إخوتك وأنتم على هذه الحال من الإقدام والجرأة.

فلما كان الغد أمر عمي بإخراجنا من عنده وألزمنا به إلزاماً لا مهلة فيه، فتفرَّقنا في البلاد، فقصدوا الملك العادل نور الدين وشكوا إليه ما لقوا من عمهم فلم يمكنه قصده ولا الأخذ بثأرهم وإعادتهم إلى أوطانهم لاشتغاله بجهاد الفِرَنج ولخوفه من أن تُسلم شيزر إلى الفرنج، وتوفي الأمير سلطان وولي بعده أولاده فبلغ نور الدين عنهم مراسلة الفرنج فاشتد ما في نفسه وهو ينتظر الفرصة، فلما خربت القلعة بالزلزلة ولم يسلم منها أحد كان بالحصن فبادر إليها وملكها وأضافها إلى بلاده، وعمرها وأسوارها وأعادها كأن لم تخرب، وكذلك أيضاً فعل بمدينة حماة وكل ما خرب بالشام بهذه الزلزلة فعادت البلاد كأحسن ما كانت.

فصل

[١٥٢] وورد الخبر من العسكر المنصور بأن الفرَنج تجمعوا وزحفوا إلى العسكر وأن المولى نور الدين نهض في الحال في العسكر والتقى الجمعان، واتفق أن عسكر الإسلام حصل فيه فشل لبعض المقدمين

---

(١) في الأصل ـ بعد «دجلة» ـ كلمة غير واضحة.

فاندفعوا وتفرقوا بعد الاجتماع، وبقي نور الدين ثابتاً مكانه في عدَّة يسيرة من شجعان غلمانه وأبطال خواصه في وجوه الفرنج، وأطلقوا فيهم السهام، فقتلوا منهم ومن خيولهم العدد الكثير، ثم ولوا منهزمين خوفاً من كمين يظهر عليهم من عسكر الإسلام، ونجى الله ـ وله الحمدُ ـ نور الدين من بأسهم بمعونة الله ـ تعالى ـ وشدَّة بأسه(١) وثبات جأشه ومشهور شجاعته، وعاد إلى مخيمه سالماً في جماعته ولام من كان السبب في اندفاعه بين يدي الفرنج، وتفرق جمع الفرَنج إلى أعمالهم، وراسل ملكهم نور الدين في طلب الصلح والمهادنة وحرص على ذلك، وتردَّدت بين الفريقين مراسلات ولم يستقر بينهما حال، وعاد نور الدين إلى دمشق سالماً.

[١٥٣] قلت: وذكر أبو الفتح بن أبي الحسن بن الأشتري قال: وبلغنا أن نور الدين خرج إلى الجهاد في سنة ست وخمسين وخمسمائة فقضى الله بانهزام عسكر المسلمين، وبقي الملك العادل مع شرذمة قليلة وطائفة يسيرة واقفاً على تل، وقد قرب عسكر الكفار بحيث اختلط رجالة المسلمين مع رجالة الكفار فوقف الملك العادل بحذائهم مولياً وجهه إلى قبلة الدعاء حاضراً بجميع قلبه مناجياً ربه يقول: يا رب العباد، أنا العبد الضعيف ملكتني هذه الولاية، وأعطيتني هذه النيابة، عمرتُ بلادك، ونصحتُ عبادك، وأمرتهم بما أمرتني به، ونهيتهم عما نهيتني عنه، فرفعت المنكرات من بينهم، وأظهرت شعار دينك في بلادهم، وقد انهزم المسلمون وأنا لا أقدر على دفع هؤلاء الكفار أعداء دينك ونبيك محمد ﷺ، ولا أملك إلا نفسي هذه وقد سلمتها إليهم ذاباً عن دينك وناصراً لنبيك، فاستجاب الله ـ تعالى ـ دعاءه وأوقع في قلوبهم الرعب وأرسل عليهم الخذلان فوقفوا مواضعهم وما جسروا على الإقدام عليه، وظنوا أن الملك العَادل عمل عليهم الحيلة وأن عسكر المسلمين في الكمين، فإن أقدموا عليه يخرج

---

(١) أي وشدة بأس نور الدين، رحمه الله تعالى.

عساكر المسلمين من الكمين فلا ينفلت منهم أحد فوقفوا وما قدموا عليه.

قال: ولولا أن ذلك إلهام من الله - تعالى - لكانوا قد استأسروا المسلمين وما كان ينفلت واحد من المسلمين، فوقف عسكر الكفار وبرز اثنان منهم يجولان بين الصفين يطلبان البراز من المسلمين فأمر الملك العادل لخطلخ الزاهد مولى الشهيد⁽¹⁾ بالخروج إليهما فخرج وجال بينهما ساعة وحمل على واحد منهما فقتله، ثم جال ساعة وعمل حيلة وخدعة ورجع إلى قريب صف الكفار وحمل على الآخر فقتله ورجع إلى الصف.

قال: وحدّثنا الشيخ داود المقدسي قال:

كان أعطاني ملك القدس بغلة كنت عليها - يعني في ذلك اليوم - واقفاً مع الملك العادل، فلما وصل الكفار وقربوا منا شمت بغلتي رائحة خيل الكفار فصهلت تطلب خيلهم فسمعوا صهيل بغلتي فقالوا: هذا داود راكب على البغلة مع نور الدين واقف، ولولا الحيلة والكمين من المسلمين لما وقفوا مع هذه الشرذمة القليلة والطائفة اليسيرة فتحقق ذلك في قلوبهم فوقفوا وما جسروا على الإقدام عليه.

قال: فترجل كل من كان مع الملك العادل وتشفعوا إليه وباسوا الأرض بين يديه وقالوا: أيها الملك أنت بجميع المسلمين في هذا الموضع، وفي هذا الإقليم، فإن جرى - والعياذ بالله - وهن وضعف من استيلاء الكفار على المسلمين فمن الذي يقدر على تداركه، قال: وحلف الشيخ داود أنهم أخذوا بعنان فرسه كرهاً ورحلوا من ذلك الموضع، وما كان في عزم الملك العادل أن يرحل من ذلك الموضع، فلما عرف الكفار ذلك وأنه ما كان عليهم حيلة ولا كمين ندموا على ذلك ندامة عظيمة.

---

(١) أي مولى عماد الدين زنكي والد نور الدين.

ثم دخلت سنة ثمان وخمسين وخمسمائة

[١٥٤] قال ابن الأثير:

فيها جمع نور الدين عساكره ودخل بلاد الفِرَنج فنزل تحت حصن الأكراد وهو للفرنج عازماً على دخول بلادهم ومنازلة طرابلس، فبينما الناس في بعض الأيام في خيامهم في وسط النهار لم يَرُعْهم إلا ظهور صلبان الفرنج من وراء الجبل الذي عليه الحصن فكبسوهم، فأراد المسلمون دفعهم فلم يطيقوا فانهزموا، ووضع الفرنج السيف وأكثروا القتل والأسر، وقصدوا خيمة الملك العادل فخرج عن ظهر خيمته عجلاً فركب فرساً ولسرعته ركبه وفي رجليه شبحة(١) فنزل إنسان من الأكراد فقطعها فنجا نور الدين وقُتل الكرديّ، فسأل نور الدين عن مخلفي ذلك الكردي فأحسن إليهم جزاء لفعله، وكان أكثر القتل في السُّوْقة والغلمان.

وسار نور الدين إلى مدينة حمص فأقام بظاهرها وأحضر منها ما فيها من الخيام ونصبها على فرسخ من حمص وبينها وبين مكان الواقعة أربعة فراسخ، وكان الناس يظنون أنه لا يقف دون حلب، وكان - رحمه الله - أشجعَ من ذلك وأقوى عزماً.

ولما نزل اجتمع إليه كل من نجا من المعركة، فقال له بعض أصحابه: ليس من الرأي أن نقيم هاهنا فإن الفرنج ربما حملهم الطمع على المجيء إلينا ونحن على هذه الحال، فوبخه وأسكته وقال: إذا كان معي ألف فارس فلا أبالي بهم قلّوا أو كثروا، ووالله لا أستظل بجدار حتى آخذ بثأر الإسلام وثأري، ثم أنه أرسل إلى حلب ودمشق وأحضر الأموال والدواب والأسلحة والخيام وسائر ما يحتاج إليه الجند، وفرق ذلك جميعه على من سَلِم، وأما من قتل فإنه أقرّ إقطاعه على أولاده، فإن لم يكن له ولد فعلى بعض أهله، فعاد العسكر كأنه لم يُفقد منه أحد.

---

(١) الحبل الذي يُربط به الفرس.

وأما الفرنج فكأنهم كانوا عازمين على قصد حمص بعد الهزيمة لأنها أقرب البلاد إليهم، فلما بلغهم مقام نور الدين عندها قالوا: إنه لم يفعل هذا إلا وعنده من القوَّة أن يمنعنا.

[١٥٥] وكان نور الدين ـ رحمه الله ـ قد أكثر الخرج إلى أن قسم في يوم واحد مائتي ألف دينار سوى غيرها من الدواب والخيام والسلاح وغير ذلك، وتقدَّم إلى ديوانه أن يحضروا الجند ويسألوا كل واحد منهم عن الذي أُخذ منه، فكل من ذكر شيئاً أعطوه عوضه، فحضر بعض الجند وادَّعى شيئاً كثيراً علم بعض النواب كذبه فيما ادَّعاه لمعرفتهم بحاله، فأرسلوا إلى نور الدين يُنهون إليه القضية ويستأذنونه في تحليف الجندي على ما ادعاه فأعاد الجواب: لا تكدِّروا عطانا فإني أرجو الثواب والأجر على قليله وكثيره.

[١٥٦] وقال له أصحابه: إن لك في بلادك إدرارات كثيرة وصلات عظيمة للفقهاء والفقراء والصوفية والقراء فلو استعنت بها الآن لكان أمثل، فغضب من هذا وقال: والله إني لأرجو بأولئك النصر، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم، كيف أقطع صلات قوم يقاتلون عني وأنا نائم في فراشي بسهام لا تخطئ وأصرفها إلى من يقاتل عني إذا رآني بسهام قد تخطئ وتصيب، ثم هؤلاء القوم لهم نصيب في بيت المال أصرفه إليهم كيف أعطيه غيرهم فسكتوا، ثم إن الفرنج أرسلوا إلى نور الدين في المهادنة فلم يجبهم إليها، فتركوا عند الحصن من يحميه وعادوا إلى بلادهم وتفرَّقوا.

[١٥٧] ثم دخلت سنة تسع وخمسين وخمسمائة

ففيها سار أسد الدين شيركُوه بن شاذي إلى مصر المرة الأولى، وهو من أكابر الأمراء الذين في الخدمة النورية عازماً على ملك الديار المصرية واستضافتها إلى المملكة النورية. وكان أسد الدين وأخوه نجم الدين أيوب وهو أكبر أبناء شاذي من الأكراد، وقدما العراق وخدما مجاهد الدين بهروز

الخادم وهو شحنة العراق(١)، فرأى في نجم الدين عقلاً ورأياً وحسن سيرة فجعله دُزداراً بتكريت(٢) فسار إليها ومعه أخوه أسد الدين، فلما انهزم أتابك زَنكي الشهيد والد نور الدين بالعراق سنة ست وعشرين وخمسمائة وصل إلى تكريت، فخدمه نجم الدين أيوب وأقام له السفن فعبر دجلة وتبعه أصحابه، فأحسن نجم الدين صحبتهم وسيّرهم.

ثم إن أسد الدين قتل إنساناً نصرانياً بتكريت لملاحاة جرت بينهما فأرسل مجاهد الدين إليه وإلى أخيه نجم الدين فأخرجهما من تكريت، وقيل إن أيوب كان يحسن الرماية فرمى شخصاً من مماليك بهروز بسهم فقتله فخشي على نفسه فتوجه نحو الشام وخدم مع زنكي.

وقيل: لما قتل أسد الدين شيركوه النصرانيّ وكان عزيزاً عند بهروز هرب إلى الموصل والتحق أيوب به، ثم إن أيوب وشيركُوه قصدا أتابك الشهيد فأحسن إليهما وعرف لهما خدمتهما، وأقطعهما إقطاعاً حسناً وصارا من جملة جنده، فلما فتح حصن بعلبك جعل نجم الدين دُزداراً فيه، فلما قتل الشهيد حصر عسكر دمشق نجم الدين فأرسل إلى سيف الدين غازي وقد قام بالملك بعد والده يُنهي الحال إليه، فلم يتفرغ لبعلبك وضاق الأمر على من بها وخاف نجم الدين أن تؤخذ عنوة ويناله أذى، فأرسل في تسليم القلعة وطلب إقطاعاً ذكره فأجيب إلى ذلك وحلف له صاحب دمشق عليه، وسلم القلعة ووفى له بما حلف عليه من الإقطاع والتقّدم، وصار عنده من أكابر الأمراء.

واتصل أخوه أسد الدين شيركوه بالخدمة النورية بعد قتل الشهيد وكان يخدمه في أيام والده، فقرّبه نور الدين وأقطعه ورأى منه في حروبه ومشاهده آثاراً يعجز عنها غيره لشجاعته وجرأته فزاده إقطاعاً وقرباً حتى

---

(١) الشحنة: الوالي.

(٢) بلدة في العراق، بين بغداد والمَوْصل: انظر «معجم البلدان»: ٢/٣٨، وسبق تعريف الدزدار بأنه الوالي.

صارت له حمص والرحبة وغيرهما، وجعله مقدّم عسكره، فلما تعلقت الهمة النورية بملك دمشق أمر أسد الدين فراسل أخاه نجم الدين وهو بها في ذلك فطلب منه المساعدة على فتحها فأجاب إلى ما يراد منه وطلب هو وأسد الدين من نور الدين كثيراً من الإقطاع والأملاك ببلد دمشق وغيرها فبذل لهما ما طلبا منه وحلف لهما عليه، فوفى لهما لما ملكها، وصارا عنده في أعلى المنازل لا سيما نجم الدين فإن جميع الأمراء كانوا لا يقعدون عند نور الدين إلا أن يأمرهم بذلك إلا نجم الدين فإنه كان إذا دخل إليه قعد من غير أن يؤمر بذلك.

[١٥٨] فلما كان سنة تسع وخمسين عزم نور الدين على إرسال العساكر إلى مصر ولم ير لهذا الأمر الكبير أقومَ ولا أشجع من أسد الدين فسيره، وكان سبب ذلك أن شاوَر بن مجير أبا شجاع السعدي وهو الملقب أمير الجيوش الذي يقول فيه عمارة من قصيدة:

ضجر الحديد من الحديد وشاوَر   في نصر آل محمد لم يضجر
حلف الزمان ليأتين بمثله   حنثت يمينك يا زمان فكفر

وهو وزير الملقب بالعاضد لدين الله آخر المستخلفين(١) بمصر، كان قد وصل إلى دمشق في سنة ثمان وخمسين سادس ربيع الأوّل إلى نور الدين مستنجداً به على مَن أخذ منه منصبه قهراً، وكانت عادة المصريين أنه إذا غلب شخص صاحب المنصب وعجز صاحب المنصب عن دفعه وعرفوا عجزه وقعوا للقاهر منهم ورتبوه ومكّنوه، فإن قوّتهم إنما كانت تكون بعسكر وزيرهم وهو الملقب عندهم بالسلطان، وما كانوا يرون المكاشفة(٢) وأغراضهم مستقيمة وقواعدهم مستقرة ومن أوّل زمانهم على هذا المثال.

---

(١) أي من الخلفاء المسمين زوراً بالفاطميين.

(٢) معنى المكاشفة ـ هنا ـ كشف الحال المستور، والانقضاض على الوضع القائم.

وكان شاور قد غلب على الوزارة وانتزعها من بني رُزِّيك، وقتل العادل ابن الصلاح بن رُزِّيك الذي وزر بعد أبيه واسمه رُزِّيك، ويلقب بالناصر أيضاً، وهو الذي استحضر القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي(١) من الإسكندرية، واستخدمه بحضرته وبين يديه في ديوان الجيوش المصرية، ثم خرج على شاور نائب الباب وهو أمير يقال له: ضرغام بن سواد ويلقب بالمنصور، فجمع له جموعاً كثيرة لم يكن له بها قِبَل، فغلبه وأخرجه من القاهرة وولده طيّاً واستولى على الوزارة، فرحل شاوَر إلى الشام قاصداً خدمة نور الدين مستصرخاً به ومستنصراً فأحسن لقاءه وأكرم مثواه، فطلب منه إرسال العساكر إلى مصر ليعود إليها ويكون له فيها حصة ذكرها له ويتصرف على أمره ونهيه واختياره، ونور الدين يقُدّم في ذلك رجلاً ويؤخر أخرى، تارة تحمله رعاية قصد شاوَر وطلب الزيادة في الملك والتقوي على الفرنج، وتارة يمنعه خطر الطريق وكون الفرنج فيه إلا أن يوغلوا في البر فيتعرضوا لخطر آخر مع الخوف من الفرنج أيضاً.

ثم استخار الله ـ تعالى ـ وأمر أسد الدين بالتجهز للمسير معه قضاء لحقّ الوافد المستصرخ وحبساً للبلاد وتطلعاً على أحوالها وكان هوى أسد الدين في ذلك، وكان عنده من الشجاعة وقوّة النفس ما لا يبالي معه بمخافة.

فتجهز وسار مع شاور في جمادى الآخرة من سنة تسع وخمسين، وأمر نور الدين أسد الدين بإعادة شاور إلى منصبه والانتقام ممن نازعه في الوزارة، وساروا جميعاً وسار معهم نور الدين إلى أطراف بلاد الإسلام مما يلي الفرنج بعساكره ليشغلهم عن التعرض لأسد الدين، فكان قصارى الفرنج حفظ بلادهم من نور الدين، ووصل أسد الدين سالماً إلى مصر هو

---

(١) وهو وزير صلاح الدين فيما بعد، وسيأتي الكثير من أخباره في ثنايا الكتاب، إن شاء الله.

ومن معه فهرب المنازع لشاور في الوزارة وقتل وطيف برأسه، وعاد شاور وزيراً وتمكن من منصبه.

[١٥٩] قال ابن الأثير:

وأقام أسد الدين بظاهر القاهرة وغدر به شاوَر وعاد عما كان قرره لنور الدين من البلاد المصرية ولأسد الدين أيضاً، فأرسل إليه[١] يأمره بالعود إلى الشام فأنف أسد الدين من هذه الحال، وأعاد الجواب يطلب ما كان استقر فلم يجبه شاوَر إليه.

فلما رأى ذلك أرسل نوّابه فتسلموا مدينة بِلْبيس وحكم على البلاد الشرقية، فأرسل شاوَر إلى الفرنج يستمدّهم ويخوّفهم من نور الدين إن ملك مصر، وكان الفرنج قد أيقنوا بالهلاك إن ملكها نور الدين فهم خائفون، فلما أرسل شاور إليهم يستنجدهم ويطلب منهم أن يساعدوه على إخراج أسد الدين من البلاد جاءهم فرج لم يحتسبوه وسارعوا إلى تلبية دعوته والمبادرة إلى نصرته وطمعوا في ملك ديار مصر، وكان قد بذل لهم مالاً على المسير إليه فتجهزوا وساروا.

فلما بلغ نور الدين خبر تجهيزهم للمسير سار بعساكره في أطراف بلاده مما يلي الإفرنج ليمتنعوا من المسير فلم يمتنعوا لعلمهم أن الخطر في مقامهم إذا ملك أسد الدين مصر أشد من الخطر في مسيرهم، فتركوا في بلادهم من يحفظها، وسار ملك القدس في الباقين إلى مصر، وكان قد وصل إلى الساحل جمع كبير من الفرنج في البحر لزيارة البيت المقدّس فاستعان بهم ملك الفرنج فأعانوه وسار بعضهم معه وأقام بعضٌ في البلاد لحفظها.

فلما قارب الفرنج مصر فارقها أسد الدين وقصد مدينة بلبيس وأقام

---

(١) أي أرسل نور الدين إلى أسد الدين.

بها هو وعسكره وجعلها ظهراً يتحصن به، فاجتمعت العساكر المصرية والفرنجية ونازلوا أسد الدين بمدينة بلبيس وحصروه بها ثلاثة أشهر وقد امتنع أسد الدين بها وسورها من طين قصير جداً وليس له خندق ولا معقل يحميها، وهو يغاديهم القتال ويراوحهم فلم يبلغوا منه غرضاً ولا نالوا منه شيئاً، فبينما هم كذلك إذ أتاهم الخبر بهزيمة الفرنج بحارم وملك نور الدين الحصن ومسيره إلى بانياس، فحينئذ سُقِط في أيديهم، وأرادوا العود إلى البلاد ليحفظوها ولعلهم يدركون بانياس قبل أخذها، فلم يدركوها إلا وقد ملكها على ما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

وراسلوا أسد الدين في الصلح والعود إلى الشام ومفارقة مصر وتسليم ما بيده منها إلى المصريين، فأجابهم إلى ذلك لأنه لم يعلم بما فعله نور الدين بالفرنج في الساحل.

[١٦٠] قال ابن الأثير:

فحدّثني من رأى أسد الدين حين خرج من بلبيس قال: رأيته وقد أخرج أصحابه بين يديه وبقي في آخرهم يحمي ساقتهم(١) والمسلمون والفرنج ينظرون، قال: فأتاه فرنجيّ من الفرنج الغرباء فقال له: أما تخاف أن يغدر بك هؤلاء المسلمون والفرنج قد أحاطوا بك وبأصحابك فلا يبقى لك معهم بقية، فقال شيركوه: يا ليتهم فعلوا حتى كنت ترى ما لم تر مثله، كنت والله أضع فيهم السيف فلا أُقتل حتى أقتل رجالاً، وحينئذ يقصدهم الملك العادل نور الدين وقد ضعفوا وفني أبطالهم فيملك بلادهم ويُفني من بقي منهم، ووالله لو أطاعني هؤلاء - يعني أصحابه - لخرجت إليكم أوّل يوم لكنهم امتنعوا، فصلّب الفرنجي على وجهه(٢) وقال: كنا نعجب من فرنج هذه الديار ومبالغتهم في صفتك وخوفهم منك والآن فقد عذرناهم، ثم رجع عنه وسار شيركوه إلى الشام وعاد سالماً.

---

(١) الساقة من الجيش: مؤخرته: انظر «لسان العرب»: س و ق.

(٢) أي أشار إليه بعلامة الصليب.

[١٦١] فصل في فتح حارم

قال العماد الكاتب: وفي تلك السنة يعني سنة تسع وخمسين اغتنم نور الدين خلوّ الشام من الفرنج وقصدهم، واجتمعوا على حارم فضرب معهم المصاف فرزقه الله ـ تعالى ـ الانتقام منهم فأسرهم وقتلهم، ووقع في الإسار إبرنس أنطاكية وقومص طرابلس(١)، وابن لجوسلين، ودُوك الروم(٢) وذلك في رمضان.

[١٦٢] قال ابن الأثير:

والسبب في هذا الفتح أن نور الدين لما عاد منهزماً ـ على ما سبق ـ من غزوة ناحية حصن الأكراد أقبل على الجدّ والاجتهاد والاستعداد للجهاد والأخذ بثأره وغزو العدّو في عقر داره، فراسل أخاه قطب الدين بالموصل، وفخر الدين قرا أرسلان بالحصن، ونجم الدين ألبي بماردين وغيرهم من أصحاب الأطراف.

أما قطب الدين أتابك فإنه جمع عساكره وسار مجداً وعلى مقدّمة عسكره زين الدين نائبه، وأما فخر الدين قرا أرسلان فإنه بلغني عنه أنه قال له خواصه: على أي شيء عزمت؟ فقال: على القعود، فإن نور الدين قد تحشف من كثرة الصوم والصلاة فهو يلقي نفسه والناس معه في المهالك وكلهم وافقه على ذلك، فلما كان الغد أمر بالنداء في العسكر بالتجهز للغزاة فقال له أولئك: فارقناك بالأمس على حال ونرى الآن ضدّها، فقال: إن نور الدين قد سلك معي طريقاً إن لم أنجده خرج أهل بلادي عن طاعتي وأخرجوا البلاد عن يدي؛ فإنه كاتب زهادها وعبادها [والمنقطعين] عن الدنيا يذكر لها ما لقي المسلمون من الفرنج وما نالهم من القتل والأسر

---

(١) القُوْمص والقُمّص والقُمّس سواء، وهي مرتبة في الكنيسة فوق مرتبة القَسّ، وهو الأمير المتولي تدبير الأمور أيضاً. انظر «المعجم الموسيط»: ق م ص.

(٢) الدُوك والدُوق أول مرتبة من مراتب الشرف عند الإفرنج: «انظر المعجم الوسيط»: دوق.

والنهب، ويستهدي منهم الدعاء، ويطلب منهم أن يحثوا المسلمين على الغزاة، فقد قعد كل واحد من أولئك ومعه أتباعه وأصحابه وهم يقرأون كتب نور الدين ويبكون ويلعنوني ويدعون عليّ، فلا بدّ من إجابة دعوته، ثم تجهز أيضاً وسار إلى نور الدين بنفسه.

وأما نجم الدين ألبي فإنه سير عسكراً، فلما اجتمعت العساكر سار نحو حارم فنزل عليها وحصرها، وبلغ الخبر إلى من بقي من الفرنج بالساحل أنه لم يسر إلى مصر فحشدوا، وجاء مقدم الفرنج البرنس صاحب أنطاكية، والقمص صاحب طرابلس وأعمالها، وابن جوسلين وهو من مشاهير الفرنج وأبطالها، والدوك وهو رئيس الروم ومقدّمها، قد ملأوا الأرض. فحرض نور الدين أصحابه، وفرق نفائس الأموال على شجعان الرجال، فلما قاربه الفرَنج رحل عن حارم إلى أرتاح وهو إلى لقائهم مرتاح، وإنما رحل طمعاً أن يتبعوه ويتمكن منهم إذا لقوه، فساروا حتى نزلوا على عم - وهو على الحقيقة تصحيف ما لقوه من الغمّ - ثم تيقنوا أنه لا طاقة لهم بقتاله ولا قدرة لهم على نزاله فعادوا إلى حارم وقد حرمتهم كل خير، وتبعهم نور الدين.

فلما تقاربوا اصطفوا للقتال وبدأت الفرنج بالحملة على ميمنة المسلمين وبها عسكر حلب فبدّدوا نظامهم وزلزلوا أقدامهم وولوا الأدبار وتبعهم الفرنج، وكانت تلك الفِرّة من الميمنة عن اتفاق ورأي دبروه ومكر بالعدّو مكروه، وهو أن يبعدوا عن راجلهم فيميل عليهم من بقي من المسلمين ويضعوا فيهم السيوف ويرغموا منهم الأنوف، فإذا عاد فرسانهم من أثر المنهزمين لم يلقوا راجلاً يلجأون إليه ويعود المنهزمون في آثارهم وتأخذهم سيوف الله من بين أيديهم ومن خلفهم، فكان الأمر على ما دبروا.

فإن الفرنج لما تبعوا المنهزمين عطف زين الدين في عسكر الموصل على راجلهم فأفناهم قتلاً وأسراً وعادت خيالتهم ولم يمعنوا في الطلب

خوفاً على راجلهم من العطب، فصادفوا راجلهم على الصعيد معفرين وبدمائهم مضرجين فسُقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا وخضعت رقابهم وذلوا، فلما رجعوا عطف المنهزمون أعنتهم وعادوا فبقي العدو في الوسط وقد أحدق بهم المسلمون من كل جانب، فحينئذ حمي الوطيس وباشر الحربَ المرؤوس والرئيس، وقاتلوا الفرنج قتال من يرجو بإقدامه النجاة، وحاربوا حرب من أيس من الحياة، وانقضّت العساكر الإسلامية عليهم انقضاض الصقور على بغاث الطيور فمزقوهم بدداً، وجعلوهم قدداً، فألقى الفرنج بأيديهم إلى الإسار وعجزوا عن الهزيمة والفرار، وأكثر المسلمون فيهم القتل وزادت عدة القتلى على عشرة آلاف، وأما الأسرى فلم يحصوا كثرة، ويكفيك دليلاً عل كثرتهم أن ملوكهم أُسروا، وهم الذين من قبل ذُكروا.

وسار نور الدين بعد الكسرة إلى حارم فملكها في الحادي والعشرين من شهر رمضان، وأشار أصحابه عليه بالمسير إلى أنطاكية ليملكها لخلوّها ممن يحميها ويدفع عنها فلم يفعل وقال: أما المدينة فأمرها سهل، وأما القلعة التي لها فهي منيعة لا تؤخذ إلا بعد طول حصار، وإذا ضيقنا عليهم أرسلوا إلى صاحب القسطنطينية وسلموها إليه، ومجاورة بيمند(١) أحب إليَّ من مجاورة ملك الروم، وبثّ سراياه في تلك الأعمال والولايات فنهبوا وسبوا وأوغلوا في البلاد حتى بلغوا اللاذقية والسويداء وغير ذلك وعادوا سالمين.

ثم إن نور الدين أطلق بيمند صاحب أنطاكية بمال جزيل أخذه منه وأسرى كثيرة.

[١٦٣] وقال الحافظ أبو القاسم: كسر نور الدين الروم والأرمن والفرنج على حارم، وكان عدّتهم ثلاثين ألفاً، قال: ووقع بيمَند في أسره في نوبة حارم وباعه نفسه بمال عظيم أنفقه في الجهاد.

---

(١) هو صاحب إنطاكية الفرَنجّي.

[١٦٤] قلت: وبلغني أن نور الدين ـ رحمه الله ـ لما التقى الجمعان أو قُبَيله انفرد تحت تل حارم وسجد لربه ـ عز وجل ـ ومرّغ وجهه وتضرّع وقال: يا رب هؤلاء عبيدك وهم أولياؤك، وهؤلاء عبيدك وهم أعداؤك، فانصر أوليائك على أعدائك، أيش فضول محمود في الوسط، يشير إلى أنك يا رب إن نصرت المسلمين فدينك نصرت، فلا تمنعهم النصر بسبب محمود إن كان غير مستحق للنصر.

[١٦٥] وبلغني أنه قال: اللهم انصر دينك ولا تنصر محموداً، من هو محمود الكلب حتى يُنصر، وجرى بسبب ذلك منام حسن نذكره في أخبار سنة خمس وستين عند رحيل الفرنج عن دمياط بعد نزولهم عليها(١)، وهذا فتح عظيم ونصر عزيز أنعم الله به على نور الدين والمسلمين مع أن جيشه عامئذ كان منه طائفة كبيرة بمصر مع شِيرْكُوه كما سبق، وهذا من عجيب ما وقع واتفق.

[١٦٦] قال ابن الأثير:

وفيها في شعبان من هذه السنة وهي سنة تسع وخمسين وخمس مئة تُوفي الوزير جمال الدين محمد بن علي بن أبي منصور الأصفهانيّ، كان قد خدم الشهيد(٢) فولاه نَصِيبين وظهرت كفايته فأضاف إليه الرَّحْبةَ فأبان عن كفاية وعفة، وكان من خواصه فجعله مشرف مملكته كلها وحكمه تحكيماً لا مزيد عليه، ولم يزل كذلك إلى أن قُتل الشهيد، ثم وَزَر لولدي الشهيد سيف الدين ثم قطب الدين.

[١٦٧] وكانت الموصل في أيامه ملجأ لكل ملهوف ومأمناً لكل خائف، فسعى به الحساد إلى قطب الدين حتى أوغروا صدره عليه وقالوا

---

(١) انظر الفقرتين: [٢٠٥]، [٢٠٦].

(٢) أي خدم زَنكي والد نور الدين.

له: إنه يأخذ أموالك فيتصدّق بها فقبض عليه قطب الدين وحبسه بقلعة المُوْصل، فبقي جمال الدين في الحبس نحواً من سنة ثم مرض ومضى لسبيله عظيمَ القدر والخطر عديمَ النظير، في سعة نَفْس لم يُرْوَ في كتب الأولين أن أحداً من الوزراء اتسعت نفسه ومروءته لما اتسعت له نفس جمال الدين، فلقد كان عظيم الفتوّة كامل المروّة.

[١٦٨] قال ابن الأثير:

حكى لي جماعة عن الشيخ أبي القاسم الصوفيّ ـ وهو رجل من الصالحين كان يتولى خدمة جمال الدين في محبسه ـ قال: لم يزل الجمال مشغولاً بأمر آخرته مدّة حبسه وكان يقول: كنت أخشى أن أنقل من الدَسْت(١) إلى القبر، قال: فلما مرض قال لي بعضَ الأيام: يا أبا القاسم: إذا جاء طائر أبيض إلى الدار فعرفني، فقلت في نفسي: قد اختلط الرجل، فلما كان الغداة أكثر السؤال عن ذلك الطائر، وإذا طائر أبيض لم يُر مثله قد سقط، فقلت له: قد جاء الطائر فاستبشر، ثم قال: جاء الحق، وأقبل على الشهادة وذكر الله ـ تعالى ـ وتوفي، فلما توفي طار ذلك الطائر، قال: فعلمت أنه رأى شيئاً في معناه.

ودفن بالموصل نحو سنة، وكان قد قال للشيخ أبي القاسم: إن بيني وبين أسد الدين شِيرْكُوه عهداً من مات منا قبل صاحبه حمله الحيّ إلى المدينة النبوية ـ على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ـ فدفنه بها في التربة التي عملها فإن أنا متُّ فامض إليه وذكره، فلما توفي سار الشيخ أبو القاسم إلى أسد الدين في هذا المعنى فأعطاه مالاً صالحاً ليحمله به إلى مكة والمدينة، وأمر أن يحج معه جماعة من الصوفية، ومن يقرأ بين يدي تابوته عند النزول والرحيل وقدوم مدينة تكون في الطريق، وينادون في البلاد بالصلاة على فلان، ففعلوا ذلك فكان يُصلّي عليه في كل مدينة خلق كثير،

---

(١) كرسيّ الوزارة، وصدر الوظائف. انظر «الألفاظ الفارسية المعربة»: ٦٣.

فلما كان في الحلّة(١) اجتمع الناس للصلاة عليه فإذا شاب قد ارتفع على موضع عال ونادى بأعلى صوته:

سرى نعشه فوق الرقاب وطالما سرى بره فوق الركاب ونائله
يمر على الوادي فتثني رماله عليه وفي النادي فتبكي أرامله(٢)

فلم يُرَ باكياً أكثر من ذلك اليوم، ثم وصلوا به إلى مكة فطافوا به حول الكعبة وصلوا عليه بالحرم، وحملوه إلى المدينة فصلوا عليه أيضاً، ودفنوه بالرباط الذي أنشأه بها وبينه وبين قبر النبي ﷺ خمسة عشر ذراعاً.

قلت: كذا قال ابن الأثير: ولقد رأيت المكان، ولعله أراد الحائط الشرقي من مسجد النبي ﷺ لا نفس القبر الشريف زاده الله شرفاً وصلى على ساكنه.

[١٦٩] ثم قال: كان جمال الدين - رحمه الله - أسخى الناس، وأكثرهم عطاءً وبذلاً للمال، رحيماً بالناس متعطفاً عليهم، عادلاً فيهم، فمن أعماله الحسنة أنه جدد بناء مسجد الخَيْف بمنى، وغرم عليه أموالاً عظيمة، وبنى الحِجر بجانب الكعبة، ورأيت اسمه عليه، وزخرف الكعبة بالذهب، ولما أراد ذلك أرسل إلى الإمام المقتفي لأمر الله(٣) هدية جليلة حتى أذن فيه، وأرسل إلى أمير مكة عيسى بن هاشم خلعاً سنية وهدية كثيرة حتى مكّنه منه، وعمّر أيضاً المسجد الذي على جبل عرفات، وعمل الدرج الذي يصعد فيها إليه، وكان الناس يلقون شدّة في صعودهم وعمل بعرفات مصانع(٤) للماء وأجرى الماء إليها من نَعْمان(٥) في طريق معمولة

---

(١) مدينة في العراق بين الكوفة وبغداد. انظر «معجم البلدان»: ٢/ ٢٩٤ - ٢٩٥.

(٢) النادي: مجتمع القوم، ونادي الرجل أهله وعشيرته: انظر «المعجم الوسيط»: ندو.

(٣) هو الخليفة العباسي محمد بن أحمد، توفي سنة ٥٥٥. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٣٩٩ - ٤١٢.

(٤) المصانع: الأحواض التي يجتمع فيها الماء؛ انظر «المعجم الوسيط»: صنع.

(٥) بلد بين مكة والطائف. انظر «معجم البلدان»: ٥/ ٢٩٣.

تحت الجبل مبنية بالكِلْس، فغرم على ذلك مالاً كثيراً، وكان يعطي أهل نَعْمان كل سنة مالاً كثيراً ليتركوا الماء يجري إلى المصانع أيام مقام الحجاج بعرفات، فكان الناس يجدون به راحة عظيمة.

[١٧٠] قال: ومن أعظم الأعمال التي عملها نفعاً أنه بني سوراً على مدينة النبيّ ﷺ فإنها كانت بغير سور ينهبها الأعراب، وكان أهلها في ضنك وضر معهم.

رأيت بالمدينة إنساناً يصلي الجمعة فلما فرغ ترحم على جمال الدين ودعا له، فسألناه عن سبب ذلك فقال: يجب على كل مَن بالمدينة أن يدعو له لأننا كنا في ضر وضيق ونكد عيش مع العرب لا يتركون لأحد منا ما يواريه ويُشبع جوعته، فبنى علينا سوراً احتمينا به ممن يريدنا بسوء فاستغنينا فكيف لا ندعو له!

قال: وكان الخطيب بالمدينة يقول في خطبته: اللهم صن حريم من صان حرم نبيك بالسور: محمد بن علي بن أبي منصور، قال: فلو لم يكن له إلا هذه المكرمة لكفاه فخراً، فكيف وقد كانت صدقاته تجوب شرق الأرض وغربها، وسمعت عن متولي ديوان صدقاته التي يخرجها على باب داره للفقراء سوى الإدرارات(١) والتعهدات، قال: كان له كل يوم مائة دينار أميرية يتصدق بها على باب داره.

قال: ومن أبنيته العجيبة التي لم ير الناس مثلها الجسر الذي بناه على دجلة عند جزيرة ابن عمر بالحجر المنحوت والحديد والرصاص والكلْس إلا أنه لم يفرغ لأنه قُبض قبل فراغه، وبنى الرُبُط بالموصل وسنْجار(٢) ونَصيبين وغيرها، وقصده الناس من أقطار الأرض، من الصدور والعلماء ومشايخ الصوفية، وصارت المَوْصل في أيامه مقصداً وملجأ.

---

(١) الأرزاق الدائمة التي لا تنقطع: انظر «لسان العرب»: درر.

(٢) بلدة قريبة من الموصل. انظر «معجم البلدان»: ٣/ ٢٦٢.

[١٧١] وكان أحب الأشياء إليه إخراج المال في الصدقات، وكان يضيق على نفسه وبيته ليتصدّق، حكى لي والدي قال: كنت يوماً عنده وقد أُحضر بين يديه قُنْدُز(١) ليعمل على وبر ليلبسه بخمسة دنانير فقال: هذا الثمن كثير، اشتروا لي قندزاً بدينارين وتصدّقوا بثلاثة دنانير، قال: فراجعناه غير مرّة فلم يفعل.

[١٧٢] قال: وحكى لي من أثق إليه من العدول بالموصل أن الأقوات تعذرت في بعض السنين بها، وغلت الأسعار، وكان بالموصل رجل من الصالحين يقال له الشيخ عمر المَلاّ، فأحضره جمال الدين وسلم إليه مالاً وقال له: تُخرج هذا على مستحقيه، وكلما فرغ أرسل إلي لأنفذ(٢) غيره، فلما يمض إلا أيام يسيرة حتى فرغ ذلك المال لكثرة المحتاجين، فأنفذ له شيئاً آخر ففني، ثم أرسل يطلب ما يخرجه فقال جمال الدين للرسول: والله ما عندي شيء ولكن خذوا هذه المحافر(٣) التي في داري فبيعوها وتصدّقوا بثمنها إلى أن يأتيني شيء آخر فنرسله إلى الشيخ عمر، فبيعت المحافر وتصدقوا بثمنها، وعرّفوه ذلك، فلم يكن عنده ما يرسله فأعطاه ثيابه التي كان يلبسها مع العمامة التي كانت على رأسه وأرسل الجميع، وقال للرسول: قل للشيخ لا يمتنع من الطلب فهذه أيام مواساة، فلما وصلت الثياب إلى الشيخ عمر بكى وباعها وتصدّق بثمنها.

[١٧٣] وقال: وحكى لي بعض الصوفية ممن كان يصحب الشيخ عمر النسائيّ شيخ الشيوخ بالموصل قال: أحضرني الشيخ فقال لي: انطلق إلى مسجد الوزير وهو بظاهر الموصل واقعد هناك فإذا أتاك شيء فاحفظه إلى أن أحضر عندك، ففعلت، وإذا قد أقبل جمع من الحمالين يحملون أحمالاً، وإذا قد جاء نائب جمال الدين مع الشيخ ومعهما قماش كثير

---

(١) حيوان قارض، كثّ الفروة، انظر «المعجم الوسيط» ق ن د س.

(٢) أي أرسل: انظر «لسان العرب»: ن ف ذ.

(٣) لم يظهر لي معنى مناسب لها، فالله أعلم.

وثمانية عشر ألف دينار وعدة كثير من الجمال، فقال لي: تأخذ هذه الأحمال وتسير إلى الرّحْبة فتوصل هذه الرزمة وهذا الكتاب إلى متوليها فلان، فإذا أحضر لك فلاناً العربيّ فتوصل إليه هذه الرزمة الأخرى وهذا الكتاب وتسير معه، فإذا أوصلك إلى فلان العربيّ فتوصل إليه هذه الرزمة وهذا الكتاب، وهكذا إلى المدينة - على ساكنها أفضل الصلاة والسلام - توصل إلى وكيلي فلان هذه الأحمال وهذه الكسوات والمال الذي عليه اسم المدينة ليخرجها بمقتضى هذه الجريدة[1]، ثم يأخذ الباقي الذي عليه اسم مكة ويسير إليها فيتصدّق به وكيلي بها بموجب الجريدة الأخرى.

قال: فسرنا كذلك إلى وادي القرى[2] فرأينا به نحو مائة جمل تحمل الطعام إلى المدينة وقد منعهم خوف الطريق فلما رأونا ساروا معنا إليها، فوصلناها والحنطة بها كل صاعين بدينار مصريّ، والصاع خمسة عشر رطلاً بالبغداديّ، فلما رأوا الطعام والمال اشتروا كل سبعة آصع بدينار، فانقلبت المدينة بالدعاء له، ثم سرنا إلى مكة ففعلنا ما أمرنا.

[١٧٤] قال: وحكى لي والدي قال: رأيت جمال الدين وقد حضر عنده رجل فقيه قبل أن يصير وزيراً فطلب منه شيئاً وتردّد إليه عدة أيام ثم انقطع، فسأل عنه فقيل: إنه سافر، فشق ذلك عليه ثم قال: هكذا تنصرف الأحرار عن دور الكلاب، وردد ذلك غير مرة، ثم سأل عنه فقيل: إنه سار نحو ماردين، فأرسل إليه خِلْعة[3] ونفقةً إلى ماردِين.

قال: ولو رمت شرح مفردات أعماله لأطلت وأضجرت، وهي ظاهرة لا تحتاج إلى بيان فلهذا تركنا أكثرها.

[١٧٥] وقد ذكره الأمير مؤيد الدولة أسامة بن منقذ في كتاب

---

[1] هي القائمة التي يُكتب فيها نظام معين لتوزيع المال.

[2] واد بين تيماء وخيبر، فيه قرى وبساتين، قيل كان مسكناً لثمود قديماً. انظر «معجم البلدان»: ٤/٣٣٨.

[3] الخلْعة: الملابس: وانظر «لسان العرب»: خ ل ع.

«الاعتبار» فقال: اجتمعت بجمال الدين الموصلي سنة خمس وخمسين وخمسمائة وأنا متوجه إلى الحج، وكانت بيني وبينه مودّة قديمة وعشرة ومؤانسة فعرض عليّ الدخول إلى داره في المَوْصل فامتنعت ونزلت بخيمتي على الشط، فكان مدّة مقامي كل يوم يركب يجوز على الجسر نحو نِيْنَوى⁽¹⁾، وينُفذ إليّ يقول: اركب فأنا واقف أنتظرك، فأركب فأسير أنا وهو فنتحدث، فوجدت يوماً منه خلوة من أصحابي، فقلت: في نفسي شيء يتردّد من حيث اجتمعنا أشتهي أن أقوله لك وما يتفق لي خلوة وقد خلونا الساعة، قال: قل، قلت: أقول ما قاله الشريف الرضي⁽²⁾:

ما ناصحتك خفايا الودّ من أحد ... ما لم يصبك بمكروه من العَذْلِ⁽³⁾
مودتي لك تأبى أن تسامحني ... بأن أراك على شيء من الزلل

وقد بسطت يدك في إنفاق المال في الصدقات ووجوه البرّ والمعروف، والسلاطين ما يحتملون إخراج المال ولا تصبر نفوسهم عليه ولو أن الإنسان يخرجه من ميراثه، وهذا الذي أهلك البرامكة، فانظر لنفسك كيف المخرج مما قد دخلت فيه، فأطرق ساعة وقال: جزاك الله خيراً لكن الأمر قد عبر عما تخافه، ففارقته وسرت إلى الحجاز وعدت من مكة على طريق الشام، ونكب جمال الدين ومات في الحبس.

[١٧٦] قال ابن الأثير: قال والدي:

كنت أرى من الوزير جمال الدين في الأيام الشهيدية⁽⁴⁾ من الكفاية، والنظر في صغير الأمور وكبيرها ما يدل على تمكنه من الكفاية، فلما وصل

---

(1) بلدة بالعراق قرب الموصل. انظر «معجم البلدان»: ٥/ ٣٣٩.

(2) محمد بن الحسين بن موسى البغدادي الشاعر، وكان شيعياً، توفي سنة ٤٠٦، انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٧/ ٢٨٥ ـ ٢٨٦.

(3) اللوم: انظر «لسان العرب»: ع ذ ل.

(4) أي في أيام الشهيد عماد الدين زنكي.

الأمر إلى الملك قطب الدين مودود بن أتابك الشهيد ـ وجمال الدين وزيره حينئذ ـ وتقدّم عند قطب الدين جماعة من أصحابه، فكان جمال الدين مع تمكنه وعلوّ محله يهمل بعض الأمور، قال: فقلت له يوماً: أين تلك الكفاية التي كنا نراها منك في الأيام الشهيدية ما أرى الآن منها شيئاً؟

فقال لي: والآن ما عندي كفاية؟ فقلت: ما هذا العمل من ذلك بشيء، فقال: أنت صبي غِرّ[1]، ليست الكفاية عبارة عن فعل واحد في كل زمان، إنما الكفاية أن يسلك الإنسان في كل زمان ما يناسبه، ذلك الوقت كان لنا صاحب متمكن قوي العزم لا يتجاسر أحد على الاعتراض عليه ولا يتلوّن بأقوال أصحابه فحفظناه فكان ما أفعله هو الكفاية، وأما الآن فلنا سلطان غير متمكن وهو محكوم عليه فهذا الذي أفعله هو الكفاية.

ثم دخلت سنة ستين وخمسمائة

[١٧٧] قال ابن الأثير:

فيها فتح نور الدين قلعة بانياس من الفرنج، وكان قد سار إليها بعد عوده من فتح حارم وأذن لعسكر المَوْصل وديار بكر بالعود إلى بلادهم، وأظهر أنه يريد طبرية، فجعل من بقي من الفِرَنج همهم حفظها وتقويتها، فسار نور الدين مجداً إلى بانياس لعلمه بقلة مَن فيها من الحماة الممانعين عنها، ونازلها وضيق عليها وقاتلها.

[١٧٨] وكان في جملة عسكره أخوه نصرة الدين أمير أميران فأصابه سهم أذهب إحدى عينيه فلما رآه نور الدين قال له: لو كُشف لك عن الأجر الذي أعدّ لك لتمنيت أن تذهب الأخرى.

[١٧٩] وجدّ في حصارها وسمع الفرنج بذلك، فجمعوا فلم تتكامل عدّتهم حتى فتحه الله ـ تعالى ـ على أن الفرنج كانوا قد ضعفوا بقتل

---

(١) الغر: من ينخدع إذا خُدع: «المعجم الوسيط»: غ ر ر.

رجالهم بحارم وأسرهم فملك القلعة وملأها ذخائر وعدة، ورجالاً عدة، وعاد نور الدين إلى دمشق وفي يده خاتم بفص ياقوت من أحسن الجوهر فسقط من يده في شَعْراء(١) بانياس، وهي كثيرة الأشجار ملتفة الأغصان، فلما أبعد من المكان الذي ضاع فيه الفص علم به فأعاد بعض أصحابه في طلبه ودلهم على مكانه وقال: أظنه هناك ضاع فعادوا إليه فوجدوه.

[١٨٠] ومما يناسب هذه السعادة في وجدان الخاتم بعد وقوعه في مظنة الهلاك والضياع ما بلغني أن موسى الهادي لما وَلي الخلافة سأل عن خاتم عظيم القيمة كان لأبيه المهدي، فبلغه أن أخاه الرشيد أخذه، فطلبه منه فامتنع، فألح عليه فيه فحنق الرشيد ومرّ على جسر بغداد فرماه في دجلة، فلما مات الهادي ووَلي الرشيد الخلافة أتى ذلك المكان بعينه ومعه خاتم من رصاص فرماه ثم أمر الغطاسين أن يلتمسوه ففعلوا فاستخرجوا الخاتم الأوّل، فعُد ذلك من سعادة الرشيد وبقاء ملكه.

[١٨١] قال ابن الأثير: ولما فتح نور الدين حصن بانياس كان ولد معين الدين أنر الذي سلم بانياس إلى الإفرنج قائماً على رأسه فالتفت إليه وقال له: للناس بهذا الفتح فرحة واحدة ولك فرحتان، فقال: كيف ذلك؟ قال: لأن الله ـ تعالى ـ اليوم برّد جلدة والدك من جهنم، وقد تقدم أنه كان صانع بها(٢) عن دمشق لما نزل الفرنج عليها.

ثم دخلت سنة إحدى وستين وخمسمائة

وفيها سار نور الدين أيضاً إلى حصن المُنَيْطرة(٣) وهو للفرنج ولم يحشد له ولا جمع عساكره إنما سار إليه على غرة من الفرنج، وعلم أنه إن جمع العساكر حذروا وجمعوا، فانتهز الفرصة وسار إلى المُنَيْطرة

---

(١) الشَعْراء: الأرض الكثيرة الشجر: «المعجم الوسيط»: ش ع ر.

(٢) صانع: لاين وخادع: «المعجم الوسيط»: ص ن ع.

(٣) حصن بالشام قرب طرابلس. انظر «معجم البلدان» ٥: ٢١٧.

وحصرها وجدّ في قتالها وأخذها عُنوة وقهراً، وقتل مَن بها وسبى وغنم غنيمة كثيرة لأمن مَن به، فأخذتهم خيل الله بغتة وهم لا يشعرون، ولم يقدر الفرنج على أن يجتمعوا لدفعه إلا وقد ملكه، ولو علموا أنه جرد جريدة⁽¹⁾ لأسرعوا وإنما ظنوا أن نور الدين في جمع كثير، فلما ملكه تفرقوا وأيسوا منه.

ثم دخلت سنة اثنتين وستين وخمسمائة

[١٨٣] ففيها عاد أسد الدين إلى مصر تاسع ربيع الآخر، وقد كان بعد رجوعه من مصر لا يزال يحدث نفسه بقصدها ومعاودتها حريصاً على الدخول إليها يتحدث به مع كل من يثق إليه، وكان مما يهيجه على العود زيادة حقده على شاوَر ومما عمل معه. فلما كان هذه السنة تجهز وسار إليها وسير نور الدين معه جماعة من الأمراء وابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب.

[١٨٤] ثم إن أسد الدين جدّ في السير على البر، وترك بلاد الإفرنج عن يمينه فوصل إلى الديار المصرية، ونزل بالجيزة مقابل مصر، وأقام بها أربعة وخمسين يوماً، وكان شاوَر لما بلغه مجيء أسد الدين قد راسل الفرنج يستغيث بهم ويستصرخهم فأتوه على الصعب والذلول⁽²⁾، فتارة يحثهم طمعهم في ملك مصر على الجد والتشمير، وتارة يحدوهم خوفهم من أن يملكها العسكر النوريّ على الإسراع في المسير، فالرجاء يقودهم والخوف يسوقهم.

[١٨٥] فلما وصلوا إلى مصر عبروا إلى الجانب الغربيّ وكان أسد الدين والعسكر النوريّ قد ساروا إلى الصعيد فبلغوا مكاناً يعرف بالبانين، وسارت العساكر المصرية والفرنج من ورائهم، فأدركوهم به في

---

(١) الجريدة: الخيل التي لا رجّالة فيها: «المعجم الوسيط»: ج ر د.

(٢) الذلول: السهل الانقياد، ويقال: ركبوا الصعب والذلول: اتخذوا كل سبيل: انظر «المعجم الوسيط»: ذ ل ل.

الخامس والعشرين من جمادى الأولى، وكان قد أرسل إليهم جواسيس فعادوا وأخبروه بكثرة عددهم وعُدَدهم وجدِّهم في طلبه، فعزم على قتالهم ولقائهم وأن تحكم السيوف بينه وبينهم إلا أنه خاف من أصحابه أن تضعف نفوسهم عن الثبات في هذا المقام الخطير الذي عطبهم فيه أقرب من السلامة لقلة عددهم وبعدهم عن بلادهم، فاستشارهم فكلهم أشار عليه بعبور النيل إلى الجانب الشرقي والعود إلى الشام، وقالوا له: إن نحن انهزمنا ـ وهو الذي لا شك فيه ـ فإلى أين نلتجئ وبمن نحتمي؟ وكل من في هذه الديار من جنديّ وعاميّ وفلاح عدوّ لنا ويودون لو شربوا دماءنا، وحُقّ لعسكر عدّتهم ألفا فارس قد بعدوا عن ديارهم وقَلّ ناصرهم أن ترتاع من لقاء عشرات الألوف، مع أن كل أهل البلاد عدوّ لهم.

فلما قالوا ذلك قام إنسان من المماليك النورية يقال له شرف الدين برغش، وكان من الشجاعة بالمكان المشهور، وقال: من يخاف القتل والجراح والأسر فلا يخدم الملوك بل يكون فلاحاً أو مع النساء في بيته، والله لئن عدتم إلى الملك العادل من غير غلبة وبلاء تعذرون فيه ليأخذن إقطاعاتكم وليعودن عليكم بجميع ما أخذتموه إلى يومنا هذا، ويقول لكم: أتأخذون أموال المسلمين وتفرّون عن عدوهم وتسلمون مثل هذه الديار المصرية يتصرف فيها الكفار؟

قال أسد الدين: هذا رأيي وبه أعمل، ووافقهما صلاح الدين يوسف بن أيوب، ثم كثر الموافقون لهم على القتال فاجتمعت الكلمة على اللقاء، فأقام بمكانه حتى أدركه المصريون والفرنج وقد جعل الأثقال في القلب يتكثر بها، ولأنه لم يمكنه أن يتركها بمكان آخر فينهبها أهل البلاد، ثم إنه جعل صلاح الدين ابن أخيه في القلب وقال له ولمن معه: إن الفرنج والمصريين يظنون أنني في القلب فهم يجعلون جمرتهم⁽¹⁾ بإزائه

---

(١) أي شدتهم وقوتهم.

وحملتهم عليه، فإذا حملوا عليكم فلا تَصْدُقُوهم القتال، ولا تهلكوا نفوسكم واندفعوا بين أيديهم فإذا عادوا عنكم فارجعوا في أعقابهم، واختار من شجعان أصحابه جمعاً يثق إليهم ويعرف صبرهم وشجاعتهم ووقف بهم في الميمنة.

فلما تقابل الطائفتان فعل الفرنج ما ذكره أسد الدين وحملوا على القلب ظناً منهم أنه فيه فقاتلهم مَن به قتالاً يسيراً ثم انهزموا بين أيديهم فتبعوهم فحينئذ حمل أسد الدين فيمن معه على مَن تخلف عن الفرنج الذين حملوا على القلب من المسلمين فهزموهم، ووضع السيف فيهم فأثخن وأكثر القتل والأسر وانهزم الباقون، فلما عاد الفرنج من أثر المنهزمين الذين كانوا في القلب رأوا مكان المعركة من أصحابهم بَلقعاً⁽¹⁾ ليس بها منهم ديّار فانهزموا أيضاً، وكان هذا من أعجب ما يؤرخ أن ألفي فارس تهزم عساكر مصر وفرنج الساحل.

ثم سار أسد الدين إلى ثغر الإسكندرية وجبى ما في طريقها من القرايا⁽²⁾ والسَّواد⁽³⁾ من الأموال، ووصل إلى الإسكندرية فتسلمها من غير قتال، سلمها إليه أهلها، فاستناب بها صلاح الدين ابن أخيه، وعاد إلى الصعيد وتملكه وجبى أمواله، وأقام بها حتى صام رمضان.

[١٨٦] وأما المصريون والفرنج فإنهم عادوا إلى القاهرة وجمعوا أصحابهم وأقاموا عوض من قُتل منهم، واستكثروا وحشدوا، وساروا إلى الإسكندرية وبها صلاح الدين في عسكر يمنعونها منهم وقد أعانهم أهلها خوفاً من الفرنج، فاشتدّ الحصار وقلّ الطعام بالبلد فصبر أهله على ذلك، ثم إن أسد الدين سار من الصعيد نحوهم، ووصله رسول المصريين والفرنج يطلبون الصلح وبذلوا له خمسين ألف دينار سوى ما أخذه من

---

(١) أي خالياً: انظر «لسان العرب»: ب ل ق ع.

(٢) أي القرى.

(٣) السواد لكل مدينة هو ما حولها من القرى والريف: انظر «لسان العرب»: س و د.

البلاد فأجابهم إلى ذلك وشرط أن الفرنج لا يقيمون بمصر ولا يتسلمون منها قرية واحدة، وأن الإسكندرية تعاد إلى المصريين فأجابوا إلى ذلك واصطلحوا وعاد إلى الشام، فوصل دمشق ثامن عشر ذي القعدة وتسلم المصريون الإسكندرية في النصف من شوال.

[١٨٧] وأما الفرنج فإنهم استقر بينهم وبين المصريين أن يكون لهم بالقاهرة شحنة(١)، ويكون أبوابها بيد فرسانهم ليمتنع الملك العادل من إنفاذ عسكر إليهم، ويكون للفرنج من دَخْل مصر كل سنة مائة ألف دينار، هذا كله يجري بين الفرنج وشاوَر.

وأما العاضد(٢) صاحب مصر فليس إليه من الأمر شيء ولا يعلم بشيء من ذلك؛ قد حكم عليه شاوَر وحجبه، وعاد الفرنج إلى بلادهم وتركوا جماعة من فرسانهم ومشاهيرهم وأعيانهم بمصر والقاهرة على القاعدة المذكورة، ثم إن الكامل شجاع بن شاوَر راسل نور الدين يُنهي محبته وولاءه، ويسأله أن يأمر بإصلاح الحال وجمع الكلمة بمصر على طاعته، ويجمع كلمة الإسلام، وبذل مالاً يحمله كل سنة فأجابه إلى ذلك، وحملوا إلى نور الدين مالاً جزيلاً فبقي الأمر على ذلك إلى أن قصد الفرنج مصر لتملكها فكان ما نذكره - إن شاء الله تعالى - في أخبار سنة أربع وستين.

ثم دخلت سنة أربع وستين وخمسمائة

[١٨٨] فصل وفي هذه السنة فتحت الديار المصرية

سار إليها أسد الدين مرة ثالثة فهزم العدوّ وقتل شاوَراً، وولي الوزارة مكانه ثم مات، فوليها صلاح الدين.

وسبب ذلك أن الفرنج كانوا في النوبتين الأوْلَيَيْن اللتين استعان بهم

---

(١) أي نائب.

(٢) هو الخليفة المسمّى زوراً بالفاطمي، وهو آخر خلفائهم.

شاوَر فيهما على أسد الدين شِيْركُوه قد خبروا الديار المصرية واطّلعوا على عوراتها فطمعوا فيها، ونقضوا ما كان استقر بينهم وبين المصريين وأسد الدين من القواعد، فجمعوا وحشدوا وقالوا: ما بمصر من يصدنا، وإذا أردناها فمن يردّنا، ثم قالوا: نور الدين في البلاد الشمالية والجهة الفراتية وعسكر الشام متفرق كل منهم في بلده، حافظاً لما في يده، ونحن ننهض إلى مصر ولا نطيل بها الحصر، فإنه ليس لها معقل ولا لأهلها منا مَوْئل، وإلى أن تجتمع عساكر الشام نكون قد حصلنا على المرام، وقَوِينا بتلك الديار المصرية على سائر بلاد الإسلام، فتوجهوا إليها سائرين، ونحوها ثائرين، وأظهروا أنهم على قصد حمص، وشايعهم على قصد مصرَ جماعةٌ من أهلها من أعداء شاوَر.

[١٨٩] وكان الفرنج قد جعلوا لهم شحنة(١) بمصرَ والقاهرة، وأسكنوا فرسانهم أبواب البلدين والمفاتيح معهم - على ما سبق ذكره - وتحكموا تحكماً كبيراً، فطمعوا في البلاد وأرسلوا إلى ملكهم «مري» - ولم يكن ملك للفرنج مذ خرجوا إلى الشام مثله شجاعة ومكراً ودهاء - يستدعونه لتملك البلاد، وأعلموه خلوها من ممانع عنها وسهلوا أمرها عليه، فلم يُجبْهم إلى المسير، واجتمع فرسان الفرنج وذوو الرأي والتقدّم وأشاروا عليه بالمسير إليها، والاستيلاء عليها، فقال لهم: الرأيُ عندي أن لا نقصدها فإنها طُعْمَة لنا، وأموالها تساق إلينا نتقوى بها على نور الدين، وإن نحن قصدناها لنملكها فإن صاحبها وعساكره وعامة أهل بلاده وفلّاحيه لا يسلمونها إلينا ويقاتلوننا دونها، ويحملهم الخوف منا على تسليمها إلى نور الدين، وإن أخذها وصار له فيها مثل أسد الدين فهو هلاك الفرنج وإجلاؤهم من أرض الشام.

فلم يصغوا إلى قوله، وقالوا: إن مصر لا مانع لها ولا حافظ، وإلى أن يصل الخبر إلى نور الدين يجهز العساكر ويسيرهم إلينا نكون نحن قد

---

(١) نائباً.

ملكناها وفرغنا من أمرها، وحينئذ يتمنى نور الدين منا السلامة فلا يقدر عليها، وكانوا قد عرفوا البلاد وانكشف لهم أمرها فأجابهم إلى ذلك على كره شديد، وتجهزوا وأظهروا أنهم على قصد الشام وخاصة مدينة حمص، وتوجهوا من عسقلان في النصف من المحرم ووصلوا أول يوم من صفر إلى بِلْبِيس ونازلوها وحصروها فملكوها قهراً، ونهبوها وسبوا أهلها، وأقاموا بها خمسة أيام، ثم أناخوا على القاهرة وحصروها عاشر صفر، فخاف الناس منهم أن يفعلوا بهم مثل فعلهم بأهل بِلْبِيس فحملهم الخوف منهم على الامتناع فحفظوا البلد وقاتلوا دونه وبذلوا جهدهم في حفظه، ولو أن الفرنج أحسنوا السيرة مع أهل بلبيس لملكوا مصر والقاهرة ولكن الله ـ تعالى ـ حسن لهم ذلك ليقضي الله أمراً كان مفعولاً.

[١٩٠] وكان شَاوَر أمر بإحراق مدينة مصر تاسع صفر قبل نزول الفرنج عليهم بيوم واحد خوفاً عليها من الفرنج، فبقيت النار فيها تحرقها أربعة وخمسين يوماً إلى خامس ربيع الآخر، ثم ضاق الحصار وخيف البوار، وعرف شاوَر أنه يضعف عن الحماية فشرع في تمحّل الحيل وأرسلَ إلى ملك الإفرنج يذكر له مودته ومحبته القديمة، وأن هواه معه وتخوفه من نور الدين والعاضد، وإنما المسلمون لا يوافقونه على التسليم إليه ويشير بالصلح وأخذ مال لئلا يسلم البلاد إلى نور الدين، فأجابه إلى الصلح على أخذ ألف ألف دينار مصرية، يعجل البعض ويؤخر البعض واستقرت القاعدة على ذلك، ورأى الفرنج أن البلاد امتنعت عليهم وربما سُلمت إلى نور الدين فأجابوا كارهين وقالوا: نأخذ المال نتقوى به ونكثر من الرجال ثم نعود إلى البلاد بقوة لا نبالي معها بنور الدين ولا غيره، ومكروا ومكر الله، والله خير الماكرين، فعجل لهم شاوَر مائة ألف دينار وسألهم الرحيل عن البلد ليجمع لهم المال فرحلوا قريباً.

[١٩١] وكان خليفة مصرَ العاضد عُقَيب حريق مصر أرسل إلى نور الدين يستغيث به ويُعَرّفه ضعف المسلمين عن الفرنج وأرسل في الكتب

شعور النساء وقال له: هذه شعور نسائي من قصري يستغثن بك لتنقذهن من الفرنج، فقام نور الدين لذلك وقعد، وشرع في تجهيز العساكر إلى مصر، ولما صالح شاوَر الفرَنج على ذلك المال عاود العاضد مراسلة نور الدين وإعلامه بما لقي المسلمون من الفرنج، وبذل له ثلث البلاد من مصر، وأن يكون أسد الدين شِيْركُوه مقيماً عنده في عسكره، وإقطاعهم عليه خارجاً عن الثلث الذي لنور الدين، هذا قول ابن الأثير.

[١٩٢] فصل فيما فعل نور الدين

كان نور الدين لما أتاه الرسل أولاً من العاضد قد أرسل إلى أسد الدين ليستدعيه من حمص - وهي إقطاعه - فلما خرج القاصد من حلب لقي أسد الدين قد وصلها، وكان سبب وصوله أن كتب المصريين أيضاً وصلته في هذا الأمر، فبقي مسلوب القرار مغلوب الاصطبار، لأنه كان قد طمع في بلاد مصر فخاف خروجها من يده وأن يستولي عليها الكفار، فساق في ليلة واحدة من حمص إلى حلب واجتمع بنور الدين ساعة وصوله، فتعجب نور الدين من ذلك وتفاءل به وشكره وأمره بالتجهز إلى مصر والسرعة في ذلك، وأعطاه مائتي ألف دينار سوى الثياب والدواب والآلات والأسلحة، وحكّمه في العساكر والخزائن فاختار من العسكر ألفي فارس، وأخذ المال، وجمع من التركمان ستة آلاف فارس ثم سار هو ونور الدين إلى دمشق ورحلا في جميع العساكر وأعطى نور الدين كل فارس من العسكر الذين مع أسد الدين عشرين ديناراً معونة لهم على الطريق غير محسوبة من القرار⁽١⁾ الذي له، وأضاف إلى أسد الدين جماعة من الأمراء والمماليك منهم مملوكه عز الدين جُرديك⁽٢⁾ ورحلوا على قصد مصر مستنزلين من الله - تعالى - النصر، وذلك منتصف ربيع الأول وخيم

---

(١) أي من الذي يُقرر للجنود من المال عادةً.

(٢) كان بطلاً شجاعاً، وتولى إمرة القدس بعد فتحها، وقُتل بحلب سنة ٥٩٤. انظر «الوافي بالوفيات»: ١١/ ٦٨.

نور الدين برأس الماء(١) وأقام ينتظر ورود المبشرات، فوصل المبشر برحيل الفرنج عن القاهرة عائدين إلى بلادهم لما سمعوا بوصول عسكر نور الدين، وسب الملك كل من أشار عليه بقصد مصر، وأمر نور الدين بضرب البشائر في سائر بلاده، وبث رسله إلى الآفاق بذلك.

وقال القاضي أبو المحاسن:

لقد قال لي السلطان ـ يعني صلاح الدين ـ كنت أكرَهَ الناس للخروج في هذه الدَفْعة، وما خرجت مع عمي باختياري، قال: وهذا معنى قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾(٢).

وقال ابن الأثير:

أحب نور الدين مسير صلاح الدين وفيه ذهاب بيته(٣)، وكره صلاح الدين المسير وفيه سعادته وملكه. حُكي لي عنه أنه قال: لما وردت الكتب من مصر إلى الملك العادل نور الدين ـ رضي الله عنه ـ مستصرخين ومستحضرين أحضرني وأعلمني الحال وقال: تمضي إلى عمك أسد الدين بحمص مع رسولي إليه يأمره بالحضور، وتحثه أنت على الإسراع، فما يحتمل الأمر التأخير قال: ففعلت، فلما فارقنا حلب على ميل منها لقيناه قادماً، فقال له نور الدين: تجهز للمسير، فامتنع خوفاً من غدرهم أولاً، وعدم ما ينفقه في العساكر ثانياً، فأعطاه نور الدين الأموال والرجال، وقال: إن تأخرت أنت عن المسير إلى مصر فالمصلحة تقتضي أن أسير أنا بنفسي إليها، فإننا إن أهملنا أمرها ملكها الفرنج ولا يبقى لنا معهم مقام بالشام وغيره.

---

(١) موضع قريب من دمشق.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢١٦.

(٣) وذلك لأن نور الدين لم يخلف بعد موته إلا ولده الصالح إسماعيل ـ وكان صغيراً ـ فاضطربت الأمور، فاضطر صلاح الدين لأن يستولي على مملكة نور الدين ويضمها إليه، وسيأتي تفصيل ذلك كله.

قال: فالتفت إليّ عمي أسد الدين وقال: تجهز يا يوسف، قال: فكأنما ضرب قلبي بسكين، فقلت: والله لو أعطيت ملك مصر ما سرت إليها، فلقد قاسيت بالإسكندرية من المشاق ما لا أنساه أبداً، فقال عمي لنور الدين: لا بدّ من مسيره معي، فأمرني نور الدين وأنا أستقيله، ثم انقضى المجلس، ثم جمع أسد الدين العساكر من التركمان وغيرهم ولم يبق غير المسير فقال لي نور الدين: لا بد من مسيرك مع عمك، فشكوت إليه المضايقة وقلة الدواب وما أحتاج إليه فأعطاني ما تجهزت به، وكأنما أساق إلى الموت، وكان نور الدين مهيباً مَخُوفاً مع لينه ورحمته، فسرت معه، فلما استقر أمره وتوفي أعطاني الله من ملكها ما لا كنت أتوقعه.

[١٩٣] فصل في القبض على شاوَر وقتله

وصل أسد الدين القاهرة سابع ربيع الآخر، واجتمع بالعاضد خليفة مصرَ فخلع عليه وأكرمه وأجريت عليه وعلى عساكره الجرايات الكثيرة، والإقامات الوافرة، ولم يمكن شاوراً المنع من ذلك⁽¹⁾؛ رأى العساكر كثيرة بظاهر البلد، ورأى هوى العاضد معهم من داخله فلم يتجاسر على إظهار ما في نفسه فكتمه، وهو يماطل أسد الدين في تقرير ما كان بذل له من المال والإقطاع للعساكر، وإفراد ثلث البلاد لنور الدين، وهو يركب كل يوم إلى أسد الدين ويسير معه ويعده ويمنيه، وما يعدهم الشيطان إلا غروراً.

ثم إنه عزم على أن يعمل دعوة لأسد الدين ومن معه من الأمراء ويقبض عليهم، فنهاه ابنه الكامل وقال له: والله لئن عزمت على هذا الأمر لأعرفن أسد الدين، فقال له أبوه: والله لئن لم أفعل هذا لنقتلنّ جميعاً، فقال: صدقت، ولأن نقتل ونحن مسلمون والبلاد بيد المسلمين خير من أن نقتل وقد ملكها الفرنج، فليس بينك وبين عَوْد الفرنج إلا أن يسمعوا بالقبض على شِيْرِكُوه، وحينئذ لو مشى العاضد إلى نور الدين لم يرسل

---

(١) هكذا السياق، ولعل الصواب: ولم يتمكن شاور من المنع من ذلك، أو نحوه.

فارساً واحداً، ويملكون البلاد، فترك ما كان عزم عليه، فلما رأى العسكر النوري المَطْل(١) من شاوَر اتفق صلاح الدين يوسف وعز الدين جُرْديك وغيرهما على قتل شاوَر، وأعلموا أسد الدين بذلك فنهاهم، فقالوا: إنا ليس لنا في البلاد شيء مهما هذا على حاله، فأنكر ذلك.

واتفق أن أسد الدين سار بعض الأيام إلى زيارة قبر الشافعيّ - رضي الله عنه - وقصد شاوَر عسكره على عادته للاجتماع به، فلقيه صلاح الدين وعز الدين جُرْديك ومعهما جمع من العسكر فخدموه وأعلموه أن أسد الدين في الزيارة، فقال: نمضي إليه، فسار وهما معه قليلاً ثم ألقوه عن فرسه، فهرب أصحابه وأخذ أسيراً ولم يمكنهم قتله بغير إذن أسد الدين، فسجنوه في خيمة وتوكلوا بحفظه، فعلم أسد الدين الحال فعاد مسرعاً ولم يمكنه إلا إتمام ما عملوه، وأرسل العاضد لدين الله صاحب مصر في الوقت إلى أسد الدين يطلب منه رأس شاوَر ويحثه على قتله، وتابع الرسل بذلك فقُتل شاوَر في يومه - وهو سابع عشر ربيع الآخر - وحُمل رأسه إلى القصر، ودخل أسد الدين القاهرة فرأى من كثرة الخلق واجتماعهم ما خافه على نفسه، فقال لهم: أمير المؤمنين قد أمركم بنهب دار شاوَر، فقصدها الناس ينهبونها فتفرّقوا عنه، هذا قول ابن الأثير.

[١٩٤] فصل في وزارة أسد الدين وذلك عقيب قتل شاور

أنفذ إلى أسد الدين خلعة الوزارة فلبسها، ودخل القصر وترتب وزيراً ولقّب بالملك المنصور أمير الجيوش، وقصد دار الوزارة فنزلها وهي التي كان بها شاوَر فمن قبله من الوزراء، واستقرّ في الأمر ولم يبق له فيه منازع ووَلّى الأعمال من يثق إليه، واستبدّ بالولاية فأقطع البلاد العساكر التي قدمت معه، وصلاح الدين مباشر للأمور مقرّر لها، وزمام الأمر والنهي مفوّض إليه لمكان كفايته ودرايته وحسن تأنيه وسياسته.

---

(١) التأخير والتسويف: انظر «لسان العرب»: مطل.

فصل في وفاة أسد الدين شيركوه وولاية ابن أخيه صلاح الدين مكانه

[١٩٥] توفي أسد الدين فجأة يوم السبت الثاني والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة فكانت وزارته شهرين وخمسة أيام.

[١٩٦] قال ابن شدّاد:

كان أسد الدين كثير الأكل شديد المواظبة على تناول اللحوم الغليظة، تتواتر عليه التُخَم والخوانيق وينجو منها بعد معاناة شدّة عظيمة، فأخذه مرض شديد واعتراه خانوق عظيم فقتله، رحمه الله.

[١٩٧] وفوّض الأمر بعده إلى صلاح الدين، واستقرت القواعد واستتبت الأحوال على أحسن نظام، وبذل الأموال وملك الرجال وهانت عنده الدنيا فملكها، وشكر نعمة الله عليه فتاب عن الخمر وأعرض عن أسباب اللهو، وتقمص بلباس الجدّ والاجتهاد، وما عاد عنه ولا ازداد إلا جدّاً إلى أن توفاه الله ـ تعالى ـ إلى رحمته.

ولقد سمعت منه ـ رحمه الله ـ يقول: لما يسر الله لي الديار المصرية علمت أنه أراد فتح الساحل لأنه أوقع ذلك في نفسي.

وحين استتب له الأمر ما زال يشن الغارات على الفرنج وغشي الناس من سحائب الإفضال والنعم ما لم يؤرخ عن غير تلك الأيام. هذا كله وهو وزير متابع للقوم(١) لكنه مقوّ مذهب السنة، غارس في البلاد أهلَ العلم والفقه والتصوّف والدين، والناس يُهرعون إليه من كل صوب ويغدون إليه من كل جانب وهو ـ رحمه الله ـ لا يخيب قاصداً.

[١٩٨] وقال ابن الأثير:

أما كيفية ولاية صلاح الدين فإن جماعة من الأمراء النورية الذين كانوا بمصر طلبوا التقدّم على العساكر وولاية الوزارة كل قد خطبها وقد جمع

---

(١) أي للدولة المسمّاة ـ زوراً وبهتاناً ـ بالفاطمية.

ليغالب عليها، فأرسل الخليفة العاضد إلى صلاح الدين فأمره بالحضور في قصره ليخلع عليه خلَع الوزارة ويوليه الأمر بعد عمه.

وكان الذي حمل العاضد على ذلك ضَعف صلاح الدين؛ فإنه ظن أنه إذا ولّى صلاح الدين وليس له عسكر ولا رجال كان في ولايته بحكمه ولا يجسر على المخالفة، وأنه يضع على العسكر الشاميّ من يستميلهم إليه، فإذا صار معه البعض أخرج الباقين وتعود البلاد إليه، وعنده من العساكر الشامية من يحميها من الفرنج ونور الدين، فامتنع صلاح الدين وضعفت نفسه عن هذا المقام فأُلزم به ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، وثبت قدم صلاح الدين ورسخ ملكه وهو نائب عن الملك العادل نور الدين والخطبة لنور الدين في البلاد كلها ولا يتصرفون إلا عن أمره، واستمال صلاح الدين قلوب الناس وبذل لهم الأموال مما كان أسد الدين قد جمعه، وطلب من العاضد شيئاً يخرجه فلم يمكنه منعه، فمال الناس إليه وأحبوه وقويت نفسه على القيام بهذا الأمر والثبات فيه، وضعف أمر العاضد وكان كالباحث عن حتفه بظِلْفه.

[١٩٩] وأرسل صلاح الدين يطلب من نور الدين أن يرسل إليه إخوته فلم يجبه إلى ذلك وقال: أخاف أن يخالف أحد منهم عليك فتفسد البلاد، ثم إن الفرنج اجتمعوا ليسيروا إلى مصر فسير إلى مصر نور الدين العساكر وفيهم إخوة صلاح الدين منهم شمس الدولة تورانشاه بن أيوب، وهو أكبر من صلاح الدين، فلما أراد أن يسير قال له: إن كنت تسير إلى مصر وتنظر إلى أخيك أنه يوسف الذي كان يقوم في خدمتك وأنت قاعد فلا تسر فإنك تفسد البلاد وأحضرك حينئذ وأعاقبك بما تستحقه، وإن كنت تنظر إليه أنه صاحب مصر وقائم فيها مقامي وتخدمه بنفسك كما تخدمني فسر إليه واشدد أزره وساعده على ما هو بصدده، قال: أفعل معه من الخدمة والطاعة ما يصل إليك ـ إن شاء الله تعالى ـ فكان كما قال.

قال ابن أبي طيّ: وحدثني أبي ـ رحمه الله تعالى ـ قال:

[٢٠٠] حدثني جماعة من أصحاب نور الدين أن نور الدين لما اتصل به وفاة أسد الدين ووزارة صلاح الدين وما قد انعقد له من المحبة في قلوب الرعايا أعظم ذلك وأكبره، وتأفف منه وأنكره، وقال: كيف أقْدم صلاح الدين أن يفعل شيئاً بغير أمري، وكتب في ذلك عدة كتب فلم يلتفت الملك الناصر إلى قوله إلا أنه لم يخرج عن طاعته وأمره، وأنه ما فارق قَبول رأيه وإشارته، وأمر نور الدين مَن بالشام من أهل صلاح الدين وأصحابه بالخروج إليه، وطلب منه حساب مصر وما صار إليه، وكان كثيراً ما يقول: ملك ابن أيوب.

[٢٠١] قلت: هذا كله مما تقتضيه الطباع البشرية والجِبِلّة الآدمية، قد أجرى الله ـ سبحانه وتعالى ـ العادةَ بذلك إلا من عصم الله، ومَن أنصف عذر، ومن عرف صبر.

[٢٠٢] والذي أنكره نور الدين هو إفراط صلاح الدين في تفرقة الأموال واستبداده بذلك من غير مشاورته، هذا مع أن ابن أبي طيّ متهم فيما ينسبه إلى نور الدين مما لا يليق به؛ فإن نور الدين ـ رحمه الله ـ كان قد أذل الشيعة بحلب وأبطل شعارهم، وقوّى أهل السنة، وكان والد ابن أبي طيّ من رؤوس الشيعة فنفاه من حلب، فلهذا هو في الكتاب كثير الحمل على نور الدين ـ رحمه الله ـ فلا يُقبل منه ما ينسبه إليه مما لا يليق به، والله أعلم(١).

ثم دخلت سنة خمس وستين وخمسمائة

[٢٠٣] ففي أول صفر منها نزل الفرنج ـ خذلهم الله تعالى ـ على دمياط من الديار المصرية.

---

(١) هذا إنصاف وتعليل حسن من أبي شامة ـ رحمه الله تعالى ـ فقد كَثُر القيل والقال في كتب التاريخ حول تدهور العلاقة بين نور الدين وصلاح الدين، وتعلق بعض المُحْدثين من الصحفيين والكتاب بهذه الحادثة وشنّعوا، فكان هذا التعليق من أبي شامة مناسباً جداً للمقام، والله أعلم.

- قال ابن الأثير:

كان فرنج الساحل لما ملك أسد الدين مصر قد خافوا وأيقنوا بالهلاك، فكاتبوا الفرنج الذين بالأندلس وصقلية يستمدّونهم ويعرفونهم ما تجدّد من ملك مصر وأنهم خائفون على البيت المقدس، وأرسلوا جماعة من القسوس والرهبان يحرضون الناس على الحركة، فأمدوهم بالمال والرجال والسلاح واعتمدوا على النزول على دمياط ظناً منهم أنهم يملكونها ويتخذونها ظهراً يملكون به ديار مصر.

فلما نزلوها حصروها وضيقوا على مَن بها فأرسل إليها صلاح الدين العساكر في النيل، وحشر فيها كل من عنده، وأمدّهم بالمال والسلاح والذخائر وتابع رسله إلى نور الدين يشكو ما هو فيه من المخاوف، وأنه إن تخلف عن دمياط ملكها الفرنج، وإن سار إليها خلفه المصريون في مخلفيه ومخلفي عسكره بالسوء وخرجوا من طاعته وصاروا من خلفه والفرنج من أمامه، فجهز نور الدين إليه العساكر أرسالاً كلما تجهزت طائفة أرسلها فسارت إليه يتلو بعضها بعضاً، ثم سار نور الدين فيمن عنده من العساكر فدخل بلاد الإفرنج فنهبها وأغار عليها واستباحها، ووصلت الغارات إلى ما لم تكن تبلغه لخلو البلاد من ممانع، فلما رأى الإفرنج تتابع العساكر إلى مصر ودخول نور الدين بلادها ونهبها وإخرابها رجعوا خائبين ولم يظفروا بشيء، وهذا موضع المثل: ذهبت النعامة تطلب قرنين فعادت بلا أذنين، فوصلوا إلى بلادهم فرأوها خاوية على عروشها.

[٢٠٤] وكان مدة مقامهم على دمياط خمسين يوماً أخرج منها صلاح الدين أموالاً لا تحصى، حُكي عنه أنه قال: ما رأيت أكرم من العاضد أرسل إليّ مدّة مقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار مصرية سوى الثياب وغيرها.

وقال العماد: وكان لما وصل الخبر إلى نور الدين بوصولهم واجتماعهم على دمياط ونزولهم اغتم واهتم وأنهض من عنده عسكراً ثقيلاً.

[٢٠٥] قلت: وبلغني من شدّة اهتمام نور الدين ـ رحمه الله ـ بأمر المسلمين حين نزل الفرنج على دمياط أنه قُرئ عليه جزء من حديث كان له به رواية، فجاء في جملة تلك الأحاديث حديث مسلسل بالتبسم فطلب منه بعض طلبة الحديث أن يبتسم لتتم السلسلة على ما عُرف من عادة أهل الحديث فغضب من ذلك وقال: إني لأستحي من الله ـ تعالى ـ أن يراني متبسماً والمسلمون محاصرون بالفرنج.

[٢٠٦] وبلغني أن إماماً لنور الدين رأى ليلة رحيل الفرنج عن دمياط في منامه النبي ﷺ وقال له: أعلم نور الدين أن الفرنج قد رحلوا عن دمياط في هذه الليلة، فقال: يا رسول الله، ربما لا يصدقني، فاذكر لي علامة يعرفها، فقال: قل له بعلامة ما سجدت على تل حارم وقلت: يا رب انصر دينك ولا تنصر محموداً، من هو محمود الكلب حتى يُنصر؟

قال: فانتبهت ونزلت إلى المسجد، وكان من عادة نور الدين أنه كان ينزل إليه بَغَلس⁽¹⁾ ولا يزال يتركع فيه حتى يصلي الصبح، قال: فتعرضت له فسألني عن أمري، فأخبرته بالمنام وذكرت له العلامة إلا أنني لم أذكر لفظة الكلب، فقال نور الدين: اذكر العلامة كلها وألحّ عليّ في ذلك، فقلتها، فبكى ـ رحمه الله ـ وصدق الرؤيا⁽²⁾.

فأرّخت تلك الليلة، فجاء الخبر برحيل الفرنج بعد ذلك في تلك الليلة.

فصل في مسير نجم الدين ايوب إلى مصر بباقي اولاده واهله

قال العماد: استأذن الأمير نجم الدين أيوب نور الدين في قصده ولده صلاح الدين والخروج من دمشق إلى مصر بأهله وجماعته، وسار في حفظ فوصل إلى مصر في السابع والعشرين من رجب.

---

(١) الغَلَس: ظُلمة آخر الليل إذا اختلطت بضوء الصباح: «المعجم الوسيط»: غ ل س.

(٢) وهذا يدل على صدق نور الدين وولايته، وقربه من مولاه ـ سبحانه وتعالى ـ فرضي الله عنه ورحمه بما قدّم للإسلام، وانظر علاقة هذه الفقرة بالفقرتين: [١٦٤]، [١٦٥].

[٢٠٧] وقال ابن شدّاد:

أنفذ صلاح الدين في طلب والده ليكمل له السرور ويجمع القصة مشاكلة ما جرى للنبي يوسف الصديق ـ عليه السلام ـ فوصل والده نجم الدين إليه وسلك معه من الأدب ما كان عادته، وألبسه الأمر كلّه فأبى أن يلبسه، وقال: يا ولدي ما اختارك الله لهذا الأمر إلا وأنت كفؤٌ له فما ينبغي أن نغير موقع السعادة، فحكّمه في الخزائن بأسرها.

وكان ـ رحمه الله ـ كريماً يطلق ولا يرد، ولم يزل صلاح الدين وزيراً محكماً إلى أن مات العاضد أبو محمد عبد الله، وبه خُتم أمر المصريين.

[٢٠٨] وقال ابن أبي طيّ الحلبي:

أرسل الخليفة المستنجد بالله من بغداد إلى نور الدين يعاتبه من تأخير إقامة الدعوة له بمصر، فأحضر الأمير نجم الدين أيوب وألزمه الخروج إلى ولده بمصر بذلك وحمله رسالة، منها:

«وهذا أمر تجب المبادرة إليه لتحظى بهذه الفضيلة الجليلة والمنقبة النبيلة قبل هجوم الموت، لا سيما وإمام الوقت[١] متطلع إلى ذلك بكليته، وهو عنده من أهم أمنيته».

وسار نجم الدين، وأصحبه نور الدين هديةً سنية للملك الناصر، وخرج العاضد لتلقيه إلى ظاهر باب الفتوح، ولم يَجْرِ بذلك عادة لهم، وكان من أعجب يوم شهده الناس، خلع العاضد عليه، ولقبه الملك الأفضل، وحمل إليه من القصر الألطاف والتحف والهدايا، وأظهر السلطان[٢] من برّه وتعظيم أمره ما أحرز به الشكر والأجر، وأفرد له داراً إلى جانب داره، وأقطعه الإسكندرية ودمياط والبحيرة، وأقطع شمس الدولة

---

(١) أي الخليفة العباسي.

(٢) أي صلاح الدين.

أخاه قُوص(١) وأسوان وعَيْذاب(٢)، وفي هذه السنة ليلة عيد الفطر رُزق السلطان ولده الملك الأفضل نور الدين علي، وفرح به فرحاً عظيماً، وخلع وأعطى وتصدّق بما بهر به العقول.

[٢٠٩] فصل في ذكر الزلزلة الكبرى

قال ابن الأثير:

وفي ثاني عشر شوال كانت زلزلة عظيمة لم ير الناس مثلها عمت أكثر البلاد من الشام ومصر والجزيرة والمَوْصل والعراق وغيرها، إلا أن أشدّها وأعظمها كان بالشام، فخربت بعلبك وحمص وحماة وشَيْزَر وغيرها، وتهدّمت أسوارها وقلاعها، وسقطت الدُور على أهلها، وهلك من الناس ما يخرج عن العد والإحصاء، فلما أتى نور الدين خبرها والى بعلبك(٣) ليعمر ما انهدم من أسوارها وقلعتها، وكان لم يبلغه خبر غيرها، فلما وصلها أتاه خبر باقي البلاد بخراب أسوارها وخلوّها من أهلها، فرتب ببعلبك من يحميها ويعمرها، وسار إلى حمص ففعل مثل ذلك، ثم إلى حماة، ثم إلى بارين.

وكان شديد الحذر على البلاد من الفرنج لا سيما قلعة بارين فإنها مع قربها منهم لم يبق من سورها شيء ألبتة، فجعل فيها طائفة صالحة من العسكر مع أمير كبير، ووكل بالعمارة من يحث عليها ليلاً ونهاراً، ثم أتى مدينة حلب فرأى فيها من آثار الزلزلة ما ليس بغيرها من البلاد فإنها كانت قد أتت عليها وبلغ الرعب بمن نجا كل مبلغ، فكانوا لا يقدرون يأوون إلى بيوتهم السالمة من الخراب خوفاً من الزلزلة، فإنها عاودتهم غير مرة، وكانوا يخافون يقيمون بظاهر حلب من الفرنج، فلما شاهد ما صنعت

---

(١) بلدة بالصعيد. انظر «معجم البلدان»: ٤/ ٤١٣.

(٢) بلدة بالصعيد على البحر الأحمر. انظر «معجم البلدان»: ٤/ ١٧١.

(٣) أي سار إلى بعلبك.

الزلزلة بها وبأهلها أقام فيها وباشر عمارتها بنفسه، وكان هو يقف على استعمال الفعلة والبنائين، ولم يزل كذلك حتى أحكم أسوارها، وعمر جميع البلاد وجوامعها، وأخرج من الأموال ما لا يُقدر قدره⁽¹⁾.

وأما بلاد الفرنج - خذلهم الله تعالى - فإنها أيضاً فعلت بها الزلزلة قريباً من هذا، وهم أيضاً يخافون نور الدين على بلادهم، فاشتغل كل منهم بعمارة بلاده من قصد الآخر.

[٢١٠] قال ابن الأثير: وفيها⁽²⁾ في شوال توفي الملك قطب الدين مودود بن زَنْكي صاحب الموصل.

[٢١١] وكان لما اشتد مرضه أوصى بالملك بعده لولده عماد الدين زَنْكي بن مودود وهو أكبر أولاده وأعزهم عليه وأحبهم إليه، وكان النائب عن قطب الدين حينئذ والقيّم بأمر دولته فخر الدين عبد المسيح، وكان يكره عماد الدين زَنْكي لأنه كان قد أكثر المقام عند عمه الملك العادل نور الدين - رحمه الله تعالى - وخدمه وتزوج ابنته وكان عزيزَه وحبيبه.

وكان نور الدين يُبغض عبد المسيح لظلم كان فيه، ويذمه ويلوم أخاه قطب الدين على توليته لأموره، فخاف عبد المسيح أن يتصرف عماد الدين في أموره عن أمر عمه فيعزله ويبعده، فاتفق هو والخاتون ابنة حسام الدين تمرتاش زوجة قطب الدين فردّوه عن هذا الرأي، فلما كان الغد أحضر الأمراء واستخلفهم لولده سيف الدين غازي وتوفي وقد جاوز عمره أربعين سنة، وكانت ولايته إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر ونصفاً.

[٢١٢] ولما توفي استقر سيف الدين غازي في الملك، ورحل عماد الدين إلى عمه نور الدين شاكياً ومستنصراً، وكان عبد المسيح هو

---

(١) رضي الله عن مثل هذا السلطان، فكم تعب وضحى لأجل إقامة الدين والحفاظ عليه.

(٢) أي في سنة خمس وستين وخمسمائة.

يتولى أمور سيف الدين ويحكم في مملكته، وليس لسيف الدين من الأمر إلا اسمه لأنه في عنفوان شبابه وعزة حداثته.

[٢١٣] قال: وكان قطب الدين من أحسن الملوك وأعفهم عن أموال رعيته، محسناً إليهم، كثير الإنعام عليهم، ومحبوباً إلى صغيرهم وكبيرهم، حليماً عن المذنبين، سريع الانفعال للخير.

[٢١٤] قال: وكان كثير الصبر والاحتمال من أصحابه، لقد صبر من نوابه زين الدين، وجمال الدين وغيرهما على ما لم يصبر عليه سواه، وكان حسن الاتفاق مع أخيه الملك العادل نور الدين، كثير المساعدة والإنجاد له بنفسه وعسكره وأمواله، حضر معه المصاف بحارم وفتحها، وفتح بانياس، وكان يخطب له في بلاده باختياره من غير خوف، وكان إحسانه إلى أصحابه متتابعاً من غير طلب منهم ولا تعريض، وكان يبغض الظلم وأهله ويعاقب من يفعله.

[٢١٥] قال: وبالله أقسم إذا فكرت في الملوك أولاد زَنْكي: سيف الدين ونور الدين وقطب الدين، وما جمع الله فيهم من مكارم الأخلاق ومحاسن الأفعال وحسن السيرة وعمارة البلاد والرفق بالرعية، إلى غير ذلك من الأسباب التي يحتاج الملك إليها أذكر قول الشاعر:

من تلق منهم تقل لاقيت سيدهم مثلَ النجوم التي يسري بها الساري(١)

[٢١٦] قلت: وقرأت بخط الشيخ عمر المَلاّ - رحمه الله - في كتاب كتبه إلى بعض الصالحين وسأله فيه الدعاء لقطب الدين صاحب الموصل وقال فيه:

«يا أخي: لو ذهبت أشرح لك سيرته في بلاده، وعيش رعيته في ولايته أطلت وأضجرت غير أني أذكر لك ما خصه الله به من الأخلاق

---

(١) قائل هذا البيت هو العَرَندس الكلابي كما في «خزانة الأدب»: ١٠/ ١٢٠.

الصالحة: هو من أكثر الناس رحمة، وأشدهم حياء، وأعظمهم تواضعاً، وأقلهم طمعاً، وأزهدهم في الظلم، وأكثرهم صبراً، وأبعدهم غضباً، وأسرعهم رضاً، وهو من هذه الأخلاق على حدّ أحبه أنا محبّة لا أقدر أصفها، وبيني وبينه إخاء ومزاورة يزورني وأزوره».

[٢١٣] فصل

قال ابن الأثير: ولما بلغ نور الدين وفاة أخيه قطب الدين وملك ولده سيف الدين بعده، واستيلاء عبد المسيح واستبداده بالأمور وحكمه على سيف الدين أنف من ذلك وكبر لديه وشق عليه، وكان يبغض عبد المسيح لما يبلغه من خشونته على الرعية والمبالغة في إقامة السياسة، وكان نور الدين ـ رحمه الله ـ ليناً رقيقاً عادلاً، فقال: أنا أولى بتدبير بني أخي وملكهم، ثم سار من وقته فعبر الفرات عند قلعة جَعْبر أول المحرم.

ثم دخلت سنة ست وستين وخمسمائة

[٢١٤] وقصد الرَّقّة فامتنع النائب بها شيئاً من الامتناع، ثم سلمها على شيء اقترحه فاستولى نور الدين عليها وقرر أمورها، وسار إلى الخابور(١) فملكه جميعه، ثم ملك نَصيبين، وأقام بها يجمع العساكر وقد ترك أكثر عسكره بالشام لحفظ ثغوره وأطرافه من الفرنج وغيرهم، فلما اجتمعت العساكر سار إلى سِنْجار فحصرها وأقام عليها ونصب المجانيق وكان بها عسكر كبير من المَوْصل، فكاتبه عامة الأمراء الذين بالمَوْصل، يحثونه على السرعة إليهم ليسلموا البلد إليه وأشاروا بترك سِنْجار فلم يقبل منهم، وقام حتى ملك سنْجار وسلمها إلى ابن أخيه الأكبر عماد الدين زَنْكي، ثم سار فنزل شرقي الموصل على حصن نِينَوى، ودجلة بينه وبين الموصل.

---

(١) الخابور نهر بين رأس عين والفرات، وصار يطلق على ما يعبره من ولاية واسعة. انظر «معجم البلدان»: ٢/ ٣٣٤.

[٢١٥] قال: وكان عبد المسيح قد سير عز الدين مسعود بن قطب الدين إلى أتابك إيلدكز صاحب بلاد الجبل وأذَرْبيجان وآران وغيرها يستنجده، فأرسل إيلدكز رسولاً إلى نور الدين ينهاه عن قصد الموصل ويقول له: إن هذه البلاد للسلطان ولا سبيل لك إليها، فلم يلتفت نور الدين إلى رسالته، وكان بسِنْجار فسار إلى المَوْصل وقال للرسول: قل لصاحبك: أنا أرفق ببني أخي منك فلا تُدخل نفسك بيننا، وعند الفراغ من إصلاحهم يكون الحديث معك على باب هَمَذان، فإنك قد ملكت النصف من بلاد الإسلام وأهملت الثغور حتى غلب الكَرْج عليها(١)، وقد بليت أنا وحدي بأشجع الناس الفرنج، فأخذت بلادهم وأسرت ملوكهم فلا يجوز لي أن أتركك على ما أنت عليه، فإنه يجب علينا القيام بحفظ ما أهملت من بلاد الإسلام وإزالة الظلم عن المسلمين، فعاد الرسول بهذا الجواب.

[٢١٦] وحصر نور الدين الموصل فلم يكن بينهم قتال، وكان هوى كل من بالموصل من جندي وعامي معه لحسن سيرته وعدله، وكاتبه الأمراء يعلمونه على الوثوب على عبد المسيح وتسليم البلد إليه، فلما علم عبد المسيح ذلك راسله في تسليم البلد إليه وتقريره على سيف الدين، ويطلب الأمان وإقطاعاً يكون له، فأجابه إلى ذلك وقال: لا سبيل إلى إبقائه بالموصل بل يكون عندي بالشام، فإني لم آت لآخذ البلاد من أولادي، إنما جئت لأخلص الناس منك وأتولى أنا تربية أولادي، فاستقرت القاعدة على ذلك وسلمت الموصل إليه فدخلها ثالث عشرة جمادى الأولى، وسكن القلعة وأقر سيف الدين غازي على المَوْصل، وولّى بقلعتها خادماً يقال له: سعد الدين كمشتكين وجعله دُزْداراً(٢) فيها، وقسم جميع ما خلفه أخوه قطب الدين بين أولاده بمقتضى الفريضة.

---

(١) قوم من الكفّار كائنون في تلك الديار.

(٢) الدُزْدار هو الوالي.

[٢١٧] فلما دخل المَوْصل أطلق المكوس جميعها من المَوْصل وسائر ما فتحه من البلاد، وأمر ببناء الجامع النوريّ بالمَوْصل فبُني، وأقيمت الصلاة فيه سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة، وأقام بالمَوْصل نحو عشرين يوماً وسار إلى الشام، فقيل له: إنك تحب المَوْصل والمقام بها ونراك أسرعت العود فقال: قد تغير قلبي فيها فإن لم أفارقها ظلمت، ويمنعني أيضاً، أنني ها هنا لا أكون مرابطاً للعدوّ وملازماً للجهاد.

ثم أقطع نَصيبين والخابور العساكر، وأقطع جزيرة ابن عمر سيف الدين غازي ابن أخيه مع المَوْصل وعاد إلى الشام ومعه عبد المسيح، فغير اسمه وسماه عبد الله وأقطعه إقطاعاً كثيراً.

[٢١٨] وقال العماد: دخل قلعة المَوْصل وأقام بها سبعة عشر يوماً، وأمر بإسقاط جميع المكوس والضرائب، وأنشأ بذلك منشوراً يقرأ على الناس فمنه:

«قد قنعنا من كنز الأموال باليسير من الحلال، فسحقاً للسحت، ومحقاً للحرام الحقيق بالمقت، وبعداً لما يبعد من رضى الرب ويقصي من محل القرب، وقد استخرنا الله وتقربنا إليه، وتوكلنا في جميع الأحوال عليه، وتقدمنا بإسقاط كل مَكْس وضريبة في كل ولاية لنا بعيدة أو قريبة، وإزالة كل جهة مشتبهة مَشُوبة، ومحو كل سنة سيئة شنيعة، ونفي كل مَظلمة مُظلمة فظيعة، وإحياء كل سنة حسنة، وانتهاز كل فرصة في الخير ممكنة، وإطلاق كل ما جرت العادة بأخذه من الأموال المحظورة، خوفاً من عواقبها الرديئة المحذورة، فلا يبقى في جميع ولايتنا جَوْر جَائر جارياً، ولا عمل لا يكون به الله راضياً، إيثاراً للثواب الآجل على الحطام العاجل، وهذا حق لله قضيناه، وواجب علينا أدّيناه، بل هي سنة حسنة سنناها، ومحجة واضحة بيناها، وقاعدة محكمة مهدناها، وفائدة مغتنمة أفدناها».

فصل

[٢١٩] قال العماد:

وكان بالمَوْصل رجل صالح يعرف بعمر المَلاّ(١)، سُمي بذلك لأنه كان يملأ تنانير الجَص بأجرة يتقوّت بها، وكل ما عليه من قميص ورداء وكسوة وكساء قد ملكه سواه، فلا يملك ثوبه ولا إزاره، وكان له شيء فوهبه لأحد مريديه، وهو يتّجر لنفسه فيه، فإذا جاء ضيف قراه(٢) ذلك المريد، وكان ذا معرفة بأحكام القرآن والأحاديث النبوية، وكان العلماء والفقهاء والملوك والأمراء يزورونه في زاويته، ويتبركون بهمته، ويتيمنون ببركته، وله كل سنة دعوة يحتفل بها يحضره فيها صاحب الموصل ويحضر الشعراء وينشدون مدح رسول الله ﷺ في ذلك المحفل، وكان نور الدين من أخص محبيه يستشيره في حضوره، ويكاتبه في مصالح أموره.

وكانت بالمَوْصل خربة واسعة في وسط البلد أشيع عنها أنه ما شرع في عمارتها إلا مَن ذهب عمره ولم يتم على مراده، فأشار الشيخ عمر على نور الدين بابتياعها ورفع بنائها جامعاً تقام فيه الجمع والجماعات ففعل وأنفق فيه أموالاً كثيرة، ووقف عليه ضَيعة من ضياع المَوْصل، ورتب فيه خطيباً ومدرساً.

[٢٢٠] وقال القاضي ابن شدّاد:

لما صارت الموصل إلى سيف الدين ابن أخي نور الدين كان قد استولى عليه وتولى أمر البلد رجل يقال له عبد المسيح كان نصرانياً فأسلم، وقيل: إنه كان باقياً على نصرانيته وله بيعَة(٣) في داره، وتتبع أرباب العلم والدين فشتتهم وأبعدهم وآذى المسلمين، فبلغ نور الدين ذلك وكُتب له قصص في ذلك فسار ونزل على المَوْصل من جانب الشط والشط بينه

---

(١) قد سبق سَوْق بعض أخباره، انظر فهرس العلماء والصالحين.

(٢) أي أضافه: «المعجم الوسيط»: ق ر ى.

(٣) معبد النصارى.

وبينها، وقال: لا أقاتل هذه البلدة وأهتك حرمتها وهي لولدي، وراسل سيف الدين وقال له: أنا ليس مقصودي البلد وإنما مقصودي حفظ البلد لك فإنه قد كُتب إليّ في عبد المسيح كذا كذا ألف قصة بما يفعل مع المسلمين، وأنا مقصودي أزيل هذا النصرانيّ عن ولاية المسلمين، قال: وعبد المسيح يدبر البلد ويدور فيه والأمر إليه، وبُذل الصلح لنور الدين، فقال نور الدين: أنا قد جئت ولا بدّ لي من دخول البلد، فقال: نعم لا يدخل إلا من باب السرّ، فقال نور الدين: ما أدخل إلا من باب السرّ فجرت بين نور الدين وبين ابن أخيه مراسلات إلى أن علم أن نيته صالحة فصالحه في السر.

[٢٢١] وركب عبد المسيح وخرج يدور بين السورين فجاءه بعض أصحابه وقال له: أنت نائم، ودمك قد راح وأنت غافل، فقال: ما الخبر؟ فقال: سيف الدين قد صالح عمه وأنت في مقابلة نور الدين، فجاء ودخل على سيف الدين وألقى شُرْبُوشه(١) بين يديه وقال له: أنت قد صالحت عمك وقد عملتُ ما عملت في حفظ بلدك، وما لي طاقة بمقابلة نور الدين فاللّهَ اللّهَ في دمي، فقال له: ما لي طاقة بدفعه عنك، ولكن عليك بالشيخ عمر الملاّ، فقال: والله لو مضيت إليه لم يفتح لي ـ لعلمه بما جرى منه في حق المسلمين ـ ولكن تشير أنت إليه.

فأنفذ سيف الدين إليه واستحضره وكان معتكفاً فقال له: ما الخبر؟ فقال سيف الدين لعبد المسيح: منك إليه، فوقف بين يديه يبكي، فالتفت إليه الشيخ عمر وقال: من يعادي الرجال يبكي مثل النساء، فقال له: قد تمسكت بك وأطلب منك حقن دمي، فقال: أنت آمن على دمك، فقال: وعلى مالي؟ فقال: وعلى مالك، فقال: وعلى أهلي؟ فقال: وعلى أهلك.

فأحضر الفقهاء وعملوا نسخة يمين لنور الدين ونسخة يمين

---

(١) قلنسوة طويلة، وهي ما يوضع على الرأس: انظر «الألفاظ الفارسية المعربة»: ٩٩.

لعبد المسيح، فأخذهما عمر وخرج إلى نور الدين، فقام نور الدين وخرج من خيمته والتقاه وأكرمه، فقال له عمر: الناس يعلمون حسن عقيدتك فيّ، وقد خرجت في كذا وكذا، وناوله النسخة التي تتعلق بسيف الدين فقرأها فأجاب نور الدين إلى ذلك فقال له: قد علم الناس حسن عقيدتك فيّ وأن قولي مسموع عندك، وقد خرجت إليك ولا بد لي من ضيافة، فقال: كيف لي بذلك وأنت لا تأكل طعامي ولا تقبل مني شيئاً، فقال: تحلف لي بهذه النسخة، فوقف عليها وتغير وجهه، وقال: أنا ما جئت إلا في هذا لأخلص المسلمين منه، فقال الشيخ عمر: فما نطلب منك أن توليه على المسلمين، فقال: قد أمنته على نفسه، فقال: وعلى أهله، فقال: ومن أهلّه؟ فقال: نصارى، فقال: أمنتهم، فقال: وعلى ماله، فقال: ومَن أين لهذا الكلب مال؟ هذا مملوك لنا، فقال: قد أُعتق وماله له وهو اليوم كان صاحب الموصل، قال: قد أمنته على ماله، فحلف له على ذلك جميعه واستقر الصلح، وخرج سيف الدين إلى خدمة نور الدين فوقف بين يديه فأكرمه نور الدين، فدخل(١) إلى المَوْصل بها وانتقل إلى جانب الشط الآخر ولم يدخل إلى الموصل إلى أن جاء مطر شديد جداً فدخل من باب السر إليه، وأقام بها مدّة ورتب أمورها، وولى فيها كمشتكين.

[٢٢٢] فرأى النبيّ ﷺ ذات ليلة وهو يقول له: جئت إلى بلدك وطاب لك المقام به وتركت الجهاد وقتال أعداء الدين، فاستيقظ من منامه وسار سَحَرَ ذلك اليوم ولم يلبث، ولم يعلم به أكثر الناس حتى خرج ولحقوه، رحمه الله.

ثم دخلت سنة سبع وستين وخمسمائة

[٢٢٣] فاستفتحها صلاح الدين ـ رحمه الله ـ بإقامة الخطبة في الجمعة الأولى منها بمصر لبني العباس، وفي الجمعة الثانية خطب لهم بالقاهرة،

---

(١) أي نور الدين.

وانقطع ذكر خلفاء مصر، وتوفي العاضد يوم عاشوراء بالقصر وانقضت تلك الدولة.

[٢٢٤] وقال ابن الأثير:

كان السبب في ذلك أن صلاح الدين يوسف بن أيوب لما ثبتت قدمه في مصر وزال المخالفون له وضعف أمر العاضد وهو الخليفة بها، ولم يبق من العساكر المصرية أحد كتب إليه الملك العادل نور الدين محمود يأمره بقطع الخطبة العاضدية وإقامة الخطبة العباسية، فاعتذر صلاح الدين بالخوف من وثوب أهل مصر وامتناعهم من الإجابة إلى ذلك لميلهم إلى العلويين، فلم يُصغ نور الدين إلى قوله وأرسل إليه يلزمه بذلك إلزاماً لا فسحة له فيه، واتفق أن العاضد مرض وكان صلاح الدين قد عزم على قطع الخطبة له، فاستشار الأمراء كيف يكون الابتداء بالخطبة العباسية؟ فمنهم من أقدم على المساعدة وأشار بها، ومنهم من خاف ذلك إلا أنه لم يمكنه إلا امتثال أمر نور الدين، وكان قد دخل إلى مصر إنسان أعجميّ يعرف بالأمير العالم، وقد رأيناه بالمَوْصل كثيراً، فلما رأى ما هم فيه من الإحجام قال: أنا أبتدئ بها، فلما كان أول جمعة من المحرم صعد المنبر قبل الخطيب ودعا للمستضيء بأمر الله فلم ينكر ذلك أحد عليه، فلما كان الجمعة الثانية أمر صلاح الدين الخطباء بمصر والقاهرة بقطع خطبة العاضد وإقامة الخطبة للمستضيء بأمر الله ففعلوا ذلك، ولم ينتطح فيها عنزان، وكتب بذلك إلى سائر الديار المصرية.

وكان العاضد قد اشتد مرضه فلم يُعلمه أهله وأصحابه بذلك وقالوا: إن سلم فهو يعلم، وإن توفي فلا ينبغي أن ننغص عليه هذه الأيام التي قد بقيت من أجله، فتوفي يوم عاشوراء ولم يعلم.

[٢٢٥] قال: ولما توفي جلس صلاح الدين للعزاء، واستولى على قصره وعلى جميع ما فيه، وكان قد رتب فيه قبل وفاة العاضد بهاء الدين قراقوش - وهو خَصيّ - لحفظه، فحفظ ما فيه حتى تسلمه صلاح الدين،

ونقل أهل العاضد إلى مكان منفرد ووكل لحفظهم، وجعل أولاده وعمومته وأبناءهم في الإيوان في القصر، وجعل عندهم من يحفظهم، وأخرج من كان بالقصر من العبيد والإماء، فأعتق البعض ووهب البعض، وأباع البعض، وأخلى القصر من أهله وسكانه، فسبحان من لا يزول ملكه ولا يغيره ممر الأيام وتعاقب الدهور.

فلما توفي العاضد أمر السلطان بالاحتياط على أهله وأولاده في موضع خارج القصر، وقرر ما يكون لهم برسم الكسوات والأقوات والأزواد.

[٢٣٦] قلت: أخبرني أبو الفتوح أنه جعلهم في دار بَرْجَوان(١) في الحارة المنسوبة إليه بالقاهرة، وهي دار كبيرة واسعة كان عيشهم فيها طيباً، ثم نقلوا بعد الدولة الصلاحية منها، وأبعدوا عنها، قال العماد: وهم إلى اليوم في حفظ قراقوش واحتياطه واستظهاره يكلؤهم ويحرسهم بعين حزمه في ليله ونهاره، وجمع الباقين من عمومتهم وعترتهم من القصر في إيوان، واحترز عليهم في ذلك المكان بكل إمكان، وأبعد عنهم النساء لئلا يتناسلوا فيكثروا، وهم إلى الآن محصورون محسورون لم يظهروا، وقد نقص عددهم.

ثم عرض مَن بالقصر من الجواري والعبيد، والطريف والتليد(٢)، وما لا يعد إحصاءً، ولا يحد استقصاء، فوقع فيها الفناء، وكشف عنها الغطاء، وأسرف فيها العطاء، وأطلق البيع بعد ذلك في كل حديث وعتيق، ورخيصٌ وغال، وكل منقول ومحمول، ومصوغ ومعمول واستمر البيع فيها مدة عشر سنين، وتنقلت إلى البلاد بأيدي المسافرين.

---

(١) كان من خدام العزيز الفاطميّ بمصر ومن مديري دولته، وكان نافذ الأمر مطاعاً، وكان أسود، وأمر الحاكم من يقتله غيلة سنة ٣٩٠: انظر: «الوافي بالوفيات»: ١٠/ ٤١٠.

(٢) الحديث المستحسن والقديم النادر: «المعجم الوسيط»: ط ر ف.

[٢٢٧] ولما قطعت خطبة العاضد استطال أهل السنة على الإسماعيلية(١)، وتتبعوهم وأذلوهم، وصاروا لا يقدرون على الظهور من دورهم، وإذا وجد أحد من الأتراك مصرياً أخذ ثيابه، وعظمت الأذية بذلك، وجلى أكثر أهل مصر عنها إلى البلاد، وفرح الناس بذلك، وكتبت الكتب به إلى الأقطار، وتحدث به السُّمّار.

[٢٢٨] ولما وصل خبر ذلك إلى نور الدين ندب للبشارة إلى بغداد شهاب الدين أبا المعالي المطهر بن أبي عصرون وكتب معه نسخة بشارة تقرأ بكل مدينة يمرّ بها يقول فيها:

«أصدرنا هذه المكاتبة إلى جميع البلاد الإسلامية عامة بما فتح الله على أيدينا رتاجه(٢)، وأوضح لنا منهاجه، وهو ما اعتمدناه من إقامة الدعوة الهادية العباسية، بجميع المدن والبلاد والأقطار والأمصار المصرية والإسكندرية، ومصر والقاهرة وسائر الأطراف الدانية والقاصية، والبادية والحاضرة، وانتهت إلى القريب والبعيد، وإلى قوص وأسوان بأقصى الصعيد، وهذا شرف لزماننا هذا وأهله نفتخر به على الأزمنة التي مضت من قبله، وما برحت هممنا إلى مصر مصروفة، وعلى افتتاحها موقوفة، وعزائمنا في إقامة الدعوة الهادية(٣) بها ماضية، حتى ظفرنا بها بعد يأس الملوك منها، وقدرنا عليها وقد عجزوا عنها، وبقيت مائتين وثمانين سنة مملوءة بحزب الشياطين، حتى أذن الله لغمتها بالانفراج، ولعلّتها بالعلاج، وسبّب قصد الفرنج لها وتوجههم إليها طمعاً في الاستيلاء عليها، واجتمع داءان الكفر والبدعة، وكلاهما شديد الروعة، فملّكنا الله تلك البلاد، ومكّن لنا في الأرض، وأقدرنا على ما كنا نؤمله في إزالة الإلحاد والرفض، من إقامة الفرض».

---

(١) وذلك لأن الدولة المسمّاة زوراً بالفاطمية كانت قد اتخذت الرفض شعاراً لها، وكانت الفرق من أمثال الإسماعيلية الضالة الكافرة ترتع في مصر.

(٢) الرتاج: القفل.

(٣) أي الدعوة العباسية.

[٢٢٩] وقال ابن أبي طي:

حكي أن ابن المارستاني في سيرة ابن هُبَيْرة الوزير[١] قال:

إن من عجيب ما جرى في أمر المصريين أن رأى إنسان من أهل بغداد في سنة خمس وخمسين وخمسمائة كأن قمرين أحدهم أنور من الآخر، والأنور منهما مسامت[٢] للقبلة وله لحية سوداء فيها طول، ويهب أدنى نسيم فيحركها، وأثر حركتها وظلها في الأرض، وكان الرجل يتعجب من ذلك، وكأنه سمع أصوات جماعة يقرؤون بألحان وأصوات لم يسمع قط مثلها، وكأنه سأل بعض من حضر فقال: ما هذا؟ فقالوا: قد استبدل الناس بإمامهم، قال: وكأن الرجل استقبل القبلة وهو يدعو الله أن يجعله إماماً بَرّاً تقياً.

واستيقظ الرجل، وبلغ هذا المنام ابنَ هُبَيْرة - الوزير إذ ذاك ببغداد - فعبّر المنام بأن الإمام الذي بمصر يُستبدل به، وتكون الدعوة لبني العباس لمكان اللحية السوداء[٣]، وقَوِي هذا عنده حتى كاتب نور الدين حين دخل أسد الدين إلى مصر في أول مرة بأنه يظفر بمصر، وتكون الخطبة لبني العباس بها على يده.

[٢٣٠] قال ابن أبي طيّ:

ومن جملة ما باعوا خزانة الكتب وكانت من عجائب الدنيا؛ لأنه لم يكن في جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم من الدار التي بالقاهرة في القصر، ومن عجائبها أنه كان بها ألف ومائتان وعشرون نسخة من تاريخ

---

(١) الوزير الكامل، الإمام العادل عون الدين، أبو المظفر يحيى بن محمد بن هُبَيْرة الشيباني العراقي الحنبلي. توفي مسموماً، فيما قيل، سنة ٥٦٠. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٤٢٦ - ٤٣٢.

(٢) أي مقابل لها وقاصدها: انظر «لسان العرب»: س م ت.

(٣) وذلك لأن شعار بني العباس في أعلامهم وملابسهم كان السواد.

الطبري، ويقال: إنها كانت تحتوي على ألفي ألف كتاب(١)، وكان فيها من الخطوط المنسوبة(٢) شيء كثير، وحصل للقاضي الفاضل قدر منها كبير حيث شغف بحبها.

[٢٣١] واقتسم الناس بعد ذلك دور القصر، وأعطى السلطان القصر الشماليّ للأمراء فسكنوه، وأسكن أباه نجم الدين في اللؤلؤة وهو قصر عظيم على الخليج فيه البستان الكافوريّ، ونقل الملك العادل(٣) إلى مكان آخر منه، وأخذ باقي الأمراء مكان دور من كان ينتمي إليهم، وزاد الأمر حتى صار كل من استحسن داراً أخرج منها صاحبها وسكنها، وانقضت تلك الدولة برمتها، وذهبت تلك الأيام بجملتها، بعد أن كانوا قد احتووا على البلاد، واستخدموا العباد مائتين وثمانين سنة وكسوراً.

[٢٣٢] قال: وحُكي أن الشريف الجليس ـ وهو رجل كان قريباً من العاضد يجلس معه ويحدّثه ـ عمل دعوة لشمس الدولة بن أيوب أخي السلطان بعد القبض على القصور وأخذ ما فيها وانقراض دولتهم، وغرم هذا الشريف على هذه الدعوة مالاً كثيراً، وأحضرها أيضاً جماعة من أكابر الأمراء فلما جلسوا على الطعام قال شمس الدولة لهذا الشريف: حدّثني بأعجب ما شاهدته من أمر القوم، قال: نعم، طلبني العاضد يوماً وجماعة من الندماء، فلما دخلنا عليه وجدنا عنده مملوكين من الترك عليهم أقبية(٤) مثل أقبيتكم، وقلانس(٥) كقلانسكم، وفي أوساطهم مناطق كمناطقكم فقلنا له: يا أمير المؤمنين: ما هذا الزي الذي ما رأيناه قط؟ فقال: هذه هيئة الذين يملكون ديارنا، ويأخذون أموالنا وذخائرنا.

---

(١) أي مليوني كتاب.

(٢) أي التي على قواعد الخط الصحيحة الأصلية.

(٣) هو أخو صلاح الدين.

(٤) القَباء نوع من الثياب: انظر «ترتيب القاموس المحيط»: قبو.

(٥) جمع قَلَنسوة: وهي التي توضع على الرأس كالطاقية، المصدر السابق: قلنس.

فصل

[٢٣٣] ولما خطب بالديار المصرية لبني العباس ومات العاضد انقرضت تلك الدولة، وزالت عن الإسلام بمصر بانقراضها الذلة، واستولى على مصرَ صلاح الدين وأهله ونوابه، وكلهم من قبَل نور الدين - رحمه الله - هم أمراؤه وخدمه وأصحابه، وفيهم يقول العرقلة(١):

أصبح الملك بعد آل علي   مشرقاً بالملوك من آل شاذي
وغدا الشرق يحسد الغرب للقو   م ومصر تزهو على بغذاذ(٢)
ما حووها إلا بحزم وعزم   وصليل الفولاذ في الفولاذ
لا كفرعون والعزيز ومن كا   ن بها كالخطيب والأستاذ

[٢٣٤] يعني بالأستاذ كافور الإخشيديّ، وقوله: «بعد آل علي» يعني بذلك بني عُبيد المستخلَفين بها، أظهروا للناس أنهم شرفاء فاطميون فملكوا البلاد، وقهروا العباد، وقد ذكر جماعة من أكابر العلماء أنهم لم يكونوا لذلك أهلاً، ولا نسبهم صحيحاً، بل المعروف أنهم بنو عبيد، وكان والد عبيد هذا من نسل القدّاح الملحد المجوسّي، وقيل: كان والد عُبيد هذا يهودياً من أهل سَلَميّة من بلاد الشام، وكان حدّاداً، وعُبيد هذا كان اسمه سعيداً فلما دخل المغرب تسمى بعبيد الله وزعم أنه علوي فاطميّ وادّعى نسباً ليس بصحيح لم يذكره أحد من مصنفي الأنساب العَلَوية.

[٢٣٥] ثم ترقت به الحال إلى أن ملك وتسمى بالمهدي وبنى المهديّة بالمغرب ونسبت إليه، وكان زنديقاً خبيثاً عدواً للإسلام، متظاهراً بالتشيع متستراً به، حريصاً على إزالة الملة الإسلامية، قتل من الفقهاء والمحدّثين والصالحين جماعة كثيرة، وكان قصده إعدامهم من الوجود لتبقى العالم كالبهائم فيتمكن من إفساد عقائدهم وضلالتهم، والله متم نوره ولو كره

---

(١) حسان بن نمير بن عجل الكلبي ويُعرف بـ «عرقلة الأعور»، شاعر، من سكان دمشق، كان يمدح صلاح الدين وينادمه. انظر «الأعلام»: ٢/١٧٧.

(٢) يقال بغداد وبغذاذ. انظر «معجم البلدان»: ١/٤٥٦.

الكافرون، ونشأت ذريته على ذلك منطوين يجهرون به إذا أمكنتهم الفرصة وإلا أسرّوه، والدعاة لهم منبثون في البلاد، يضلون من أمكنهم إضلاله من العباد، وبقي هذا البلاء على الإسلام من أول دولتهم إلى آخرها، وذلك من ذي الحجة سنة تسع وتسعين ومائتين إلى سنة سبع وستين وخمس مئة.

[٢٣٦] وفي أيامهم كثرت الرافضة واستحكم أمرهم، ووضعت المكوس(١) على الناس، واقتدى بهم غيرهم، وأُفسدت عقائد طوائف من أهل الجبال الساكنين بثغور الشام كالنصيرية(٢) والدُرزية، والحشيشية(٣) نوع منهم، وتمكن دعاتهم منهم لضعف عقولهم وجهلهم ما لم يتمكنوا من غيرهم.

وأخذت الفرنج أكثر البلاد بالشام والجزيرة إلى أن منّ الله على المسلمين بظهور البيت الأتابكي(٤) وتقدّمه مثل صلاح الدين(٥) فاستردّوا البلاد وأزالوا هذه الدولة عن أرقاب العباد، وكانوا أربعة عشر مستخلفاً ثلاثة منهم بإفريقية وهم الملقبون بالمهدي والقائم والمنصور، وأحد عشر بمصر وهم الملقبون بالمعز والعزيز والحاكم والظاهر والمستنصر والمستعلي والآمر والحافظ والظافر والفائز والعاضد، يدّعون الشرف ونسبتهم إلى مجوسيّ أو يهوديّ، حتى اشتهر لهم ذلك بين العوام فصاروا يقولون: الدولة الفاطمية والدولة العلوية، وإنما هي الدولة المجوسية أو اليهودية الباطنية الملحدة، ومن قباحتهم أنهم كانوا يأمرون الخطباء بذلك على المنابر ويكتبونه على جدران المساجد وغيرها، وخطب عبدهم جَوْهر الذي أخذ لهم الديار المصرية، وبنى لهم القاهرة المُعزّية بنفسه خطبة طويلة قال فيها:

---

(١) أي الضرائب.

(٢) وهم حكام سورية اليوم.

(٣) الحشيشية هم فرقة من فرق الباطنية.

(٤) نسبة إلى أتابك عماد الدين زَنْكي، وقد قدّمت أن أتابك معناها أمير الجيوش.

(٥) أي وكان وزيراً متقدماً عند الأتابكية.

«اللهم صلى على عبدك ووليك، ثمرة النبوّة وسليل العترة الهادية المهدية، معد أبي تميم الإمام المعز لدين الله أمير المؤمنين، كما صليت على آبائه الطاهرين وسلفه المنتخبين الأئمة الراشدين». كذب عدو الله اللعين، فلا خير فيه ولا في سلفه أجمعين ولا في ذريته الباقين، والعترة النبوية الطاهرة منهم بمعزل، رحمة الله عليهم وعلى أمثالهم من الصدر الأول.

[٢٣٧] وقد بين نسبهم هذا وما كانوا عليه من التمويه وعداوة الإسلام جماعة ممن سلف من الأئمة والعلماء، وكل متورع منهم لا يسميهم إلا بني عُبيد الأدعياء أي يدّعون من النسب بما ليس لهم، ورحمة الله على القاضي أبي بكر محمد بن الطيب⁽¹⁾ فإنه كشف في أول كتابه المسمى «كشف أسرار الباطنية» عن بطلان نسب هؤلاء إلى علي ـ رضي الله عنه ـ وأن القدّاح الذي انتسبوا إليه دعيّ من الأدعياء كذاب، وهو أصل دعاة القرامطة ـ لعنهم الله ـ.

وأما القاضي عبد الجبار البصري⁽²⁾ فإنه استقصى الكلام في أصولها، وبينها بياناً شافياً في آخر كتاب «تثبيت النبوة» له، وقد نقلت كلامهما في ذلك وكلام غيرهما في مختصر تاريخ دمشق في ترجمة عبد الرحيم بن إلياس، وهو من تلك الطائفة الذين هم بئس الناس، وهذان إمامان كبيران من أئمة أصول دين الإسلام، وأظهر عبد الجبار القاضي في كتابه بعض ما فعلوه من المنكرات والكفريات التي يقف الشعر عند استماعها ولكن لا بد من ذكر شيء من ذلك تنفيراً لمن لعله يعتقد إمامتهم ويخفى عنه مُحَالهم، ولم يعلم قباحتهم ومكابرتهم، وليعذر من أزال دولتهم، وأمات بدعتهم، وقلل عدتهم، وأفنى أمتهم، وأطفأ جمرتهم.

---

(١) هو الإمام الباقلاني. توفي سنة ٤٠٣، انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ١٧/ ١٩٠.

(٢) هو القاضي عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار العلامة المتكلم المعتزلي، من كبار فقهاء الشافعية، توفي سنة ٤١٥، وانظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ١٧/ ٢٤٤ ـ ٢٤٥.

[٢٣٨] ذكر عبد الجبار أن الملقب بالمهدي ـ لعنه الله ـ كان يتخذ الجهال ويسلطهم على أهل الفضل، وكان يرسل إلى الفقهاء والعلماء فيُذبحون في فرشهم، وأرسل إلى الروم وسلطهم على المسلمين، وأكثر من الجَوْر واستصفاء الأموال، وقتل الرجال، وكان له دعاة يضلون الناس على قدر طبقاتهم فيقولون لبعضهم: «هو المهدي ابن رسول الله ﷺ وحجة الله على خلقه»، ويقولون لآخرين: «هو رسول الله وحجة الله»، ويقولون لآخرين: «هو الله الخالق الرازق»، لا إله إلا الله وحده لا شريك له، تبارك ـ سبحانه وتعالى ـ عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

[٢٣٩] ولما هلك قام ابنه المسمى بالقائم مقامه، وزاد شره على شر أبيه أضعافاً مضاعفة، وجاهر بشتم الأنبياء، فكان ينادَى في أسواق المهدية وغيرها: «العنوا عائشة وبعلها، العنوا الغار وما حوى». اللهم صل على نبيك وأصحابه وأزواجه الطاهرين، والعن هؤلاء الكفرة الفجرة الملحدين، وارحم من أزالهم وكان سبب قلعهم، ومن جرى على يديه تفريق جمعهم، وأصلهم سعيراً، ولقِّهم ثبوراً، وأسكنهم النار جمعاً، واجعلهم ممن قلت فيهم: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ١٠٤﴾(١).

[٢٤٠] وبعث إلى أبي طاهر القرمطيّ المقيم بالبحرين وحثه على قتل المسلمين، وإحراق المساجد والمصاحف.

[٢٤١] وقام بعده ابنه المسمى بالمنصور فقتل أبا يزيد مَخْلداً(٢) الذي خرج على أبيه ينكر عليه قبيح فعله المقدّم ذكره، وسلخه وصلبه، واشتغل بأهل الجبال يقتلهم ويشردهم خوفاً من أن يثور عليه ثائر مثل أبي يزيد.

[٢٤٢] وقام بعده ابنه الملقب بالمُعز فبث دعاته فكانوا يقولون: هو

---

(١) سورة الكهف: الآية ١٠٤.

(٢) هو مخَلْد بن كَيْداد الزناتي البربري، من زعماء الإباضية. ثار على الدولة الفاطمية، وجرت له معارك كبيرة، وعَظُم شأنه، ثم ثار عليه بعض البربر، وتوالت عليه الهزائم إلى أن أُسر ومات متأثراً بجراحه في أسره سنة ٣٣٦. وانظر «الأعلام»: ٧/ ١٩٤.

المهدي الذي يملك الأرض، وهو الشمس التي تطلع من مغربها.

[٢٤٣] وكان يسره ما ينزل بالمسلمين من المصائب من أخذ الروم بلادهم.

[٢٤٤] واحتجب عن الناس أياماً ثم ظهر وأوهم أن الله رفعه إليه، وأنه كان غائباً في السماء وأخبر الناس بأشياء صدرت منهم كان ينقلها إليه جواسيس له، فامتلأت قلوب العامة والجهال منه، وهذا أول خَلْف خلفائهم بمصر، وهو الذي تنسب إليه القاهرة المُعزِّيّة.

[٢٤٥] واستدعى بفقيه الشام أبي بكر محمد بن أحمد بن سهل الرمليّ ـ ويعرف بابن النابلسي ـ فحُمل إليه في قفص خشب فأمر بسلخه فسُلخ حياً وحُشي جلده تبناً وصلب ـ رحمه الله تعالى ـ، قال أبو ذر الهروي: سمعت أبا الحسن الدارقطني يذكره ويبكي ويقول: كان يقول وهو يُسلخ: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾(١).

[٢٤٦] قلت: وفي أيام الملقب بالحاكم منهم أمر بكتب سب الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ على حيطان الجوامع والشوارع والطرقات، وكتب السجلات إلى سائر الأعمال بالسب، ثم أمر بقلع ذلك، وأنا رأيته مقلوعاً في بعض أبواب دمشق.

[٢٤٧] وفي أيامه طُوف بدمشق برجل مغربي ونودي عليه: هذا جزاء من يحب أبا بكر وعمر، ثم ضربت عنقه.

[٢٤٨] وكان يجري في أيامهم من نحو هذا أشياء مثل قطع لسان أبي القاسم الواسطي ـ أحد الصالحين ـ وكان أذن ببيت المقدس وقال في أذانه: حي على الفلاح، فأُخذ وقطع لسانه.

وما كانت ولاية هؤلاء الملاعين إلا محنة من الله ـ تعالى ـ ولهذا

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٥٨.

طالت مدّتهم مع قلة عدّتهم، فإن عدّتهم عدّة خلفاء بني أمية أربعة عشر، وأولئك بقوا نيفاً وتسعين سنة، وهؤلاء بقوا مائتي سنة وثمانياً وستين سنة، فالحمد لله على ما يسر من إبادة ملكهم، ورضي الله عمن سعى في ذلك وأزالهم، ورحم مَن بيّن كذبهم ومُحالهم.

[٢٤٩] وقد كشف أيضاً حالهم الإمام أبو القاسم عبد الرحمن بن علي بن نصر الشاسي(١) في كتاب «الرد على الباطنية»، وذكر قبائح ما كانوا عليه من الكفر والمنكرات والفواحش في أيام نزار(٢) وما بعده، ووصل الأمر إلى أن وصف بعضهم ما كانوا فيه في قصيدة سماها «الإيضاح عن دعوة القدّاح» أوّلها:

حيّ على مصر إلى خلع الرَسَن(٣) فثَمّ تعطيل فروض وسنن

[٢٥٠] وقال: لو وفق ملوك الإسلام لصرفوا أعنة الخيل إلى مصر لغزو الباطنية الملاعين، فإنهم من شر أعداء دين الإسلام، وقد خرجت من حدّ المنافقين إلى حد المجاهرين لمَا ظهر في ممالك الإسلام من كفرها وفسادها وتعين على الكافة فرض جهادها، وضرر هؤلاء أشدّ على الإسلام وأهله من ضرر الكفار إذا لم يقم بجهادها أحد إلى هذه الغاية، مع العلم بعظيم ضررها وفسادها في الأرض.

[٢٥١] قلت: ثم إني لم يقْنعني هذا من بيان أحوالهم فأفردت كتاباً لذلك سميته «كشف ما كان عليه بنو عبيد من الكفر والكذب والمكر والكيد»، فمن أراد الوقوف على تفاصيل أحوالهم فعليه به فإني بتوفيق الله - تعالى - جمعت فيه ما ذكره هؤلاء الأئمة المصنفون وغيرهم.

---

(١) لم أعثر على ترجمته.

(٢) هو العزيز بالله نزار بن معد أحد المسمين زوراً بالخلفاء الفاطميين، وتوفي سنة ٣٨٦. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ١٥/١٦٧.

(٣) معنى الرسن هو الزّمام الذي يوضع على أنف الدابة، ويقال: خَلَع فلان الرّسَن أي لم يتقيد بقيد فصار يفعل ما يريد: وانظر «المعجم الوسيط»: رسن.

وقفت على كتاب كبير صنفه الشريف الهاشمي ـ رحمه الله ـ وكان في أيام الملقب بالعزيز ـ ثاني خلفاء مصر ـ فبين فيه أصولهم أتم بيان، وأوضح كيفية ظهورهم وغلبتهم على البلاد وتتبع ذكر فضائحهم وما كان يصدر منهم من أنواع الزندقة والفسق، فنقلت منه إلى ما كنت جمعته قطعة كبيرة، وبالله التوفيق.

[٢٥٢] وما أحسن ما قال فيهم بعض من مدح بني أيوب بقصيدة منها:

ألستم مزيلي دولة الكفر من بني عبيد بمصر إن هذا هو الفضل
زنادقة شيعية باطنية مجوس وما في الصالحين لهم أصل
يسرون كفراً يظهرون تشيعاً ليستتروا شيئاً وعمهم الجهل

[٢٥٣] أما فعلة هؤلاء من الانتساب إلى علي ـ رضوان الله عليه ـ والتستر بالتشيع قد فعله جماعة القرامطة وغيرهم من المفسدين في الأرض على ما عرف من سِيَرهم مَنْ وقف على أخبار الناس، وكلهم كذبة في ذلك، وإنما غرضهم التقرب إلى العوام والجهال واستتباعهم لهم واستجلابهم إلى دعوتهم بذلك البلاء، ويفعل الله ما يشاء.

[٢٥٤] فصل في عزم نور الدين على الدخول إلى مصر

قال ابن الأثير:

وفي سنة سبع وستين أيضاً جرى ما أوجب نفرة نور الدين من صلاح الدين، وكان الحادث أن نور الدين أرسل إلى صلاح الدين، يأمره بجمع العساكر المصرية والمسير بها إلى بلاد الفرنج والنزول على الكَرَك(١) ومحاصرته ليجمع هو أيضاً عساكره ويسير إليه ويجتمعا هناك على حرب الفرنج والاستيلاء على بلادهم، فبرّز صلاح الدين من القاهرة في العشرين من المحرّم وكتب إلى نور الدين يعرّفه أن رحيله لا يتأخر.

---

(١) بلدة في الأردن اليوم.

وكان نور الدين قد جمع عساكره وتجهز وأقام ينتظر ورود الخبر من صلاح الدين برحيله ليرحل هو، فلما أتاه الخبر بذلك رحل من دمشق عازماً على قصد الكَرَك فوصل إليه وأقام ينتظر وصول صلاح الدين إليه، فأتاه كتابه يعتذر فيه عن الوصول باختلال البلاد وأنه يخاف عليها مع البعد عنها فعاد إليها، فلم يقبل نور الدين عذره، وكان سبب تقاعده أن أصحابه وخواصه خوّفوه من الاجتماع بنور الدين، فحيث لم يمتثل أمر نور الدين شق ذلك عليه وعظم عنده وعزم على الدخول إلى مصر وإخراج صلاح الدين عنها.

فبلغ الخبر إلى صلاح الدين فجمع أهله وفيهم والده نجم الدين وخاله شهاب الدين الحارمي ومعهم سائر الأمراء وأعلمهم ما بلغه من عزم نور الدين على قصده وأخذ مصر منه واستشارهم فلم يجبه أحد منهم بشيء، فقام ابن أخيه تقي الدين عمر وقال: إذا جاءنا قاتلناه وصددناه عن البلاد، ووافقه غيره من أهله فشتمهم نجم الدين أيوب وأنكر ذلك واستعظمه، وكان ذا رأي ومكر وكيد وعقل، وقال لتقي الدين: اقعد، وسبه، وقال لصلاح الدين: أنا أبوك، وهذا شهاب الدين خالك، أتظنّ في هؤلاء كلهم من يحبك ويريد لك الخير مثلنا؟ فقال: لا، فقال نجم الدين: والله لو رأيت أنا وهذا خالك نورَ الدين لا يمكننا إلا أن نترجل إليه، ونقبل الأرض بين يديه، ولو أمرنا بضرب عنقك بالسيف لفعلنا، فإذا كنا نحن هكذا كيف يكون غيرنا، وكل من تراه من الأمراء والعساكر لو رأى نور الدين وحده لم يتجاسر على الثبات على سَرْجه ولا وسعه إلا النزول وتقبيل الأرض بين يديه، وهذه البلاد له وقد أقامك فيها، فإن أراد عزلك فأيّ حاجة به إلى المجيء، يأمرك بكتاب حتى تقصد خدمته ويولي بلاده من يريد، وقال للجماعة كلهم: قوموا عنا، فنحن مماليك نور الدين وعبيده، ويفعل بنا ما يريده، فتفرّقوا على هذا، وكتب أكثرهم إلى نور الدين بالخبر.

ولما خلا نجم الدين أيوب بابنه صلاح الدين قال له: أنت جاهل قليل المعرفة، تجمع هذا الجمع العظيم وتطلعهم على ما في نفسك، فإذا سمع نور الدين أنك عازم على منعه من البلاد جعلك أهم الأمور إليه وأولاها بالقصد، ولو قصدك لم تر معك من هذا العسكر أحداً، وكانوا أسلموك إليه، وأما الآن بعد هذا المجلس فسيكتبون إليه ويعرّفونه قولي، وتكتب أنت إليه وترسل في هذا المعنى وتقول: أيّ حاجة إلى قصدي؟ يجيء نَجّاب⁽¹⁾ يأخذني بحبل يضعه في عنقي، فهو إذا سمع هذا عدل عن قصدك واشتغل بما هو أهم عنده، والأيام تندرج، والله كل وقت في شان، ففعل صلاح الدين ما أشار به والده، فلما رأى نور الدين - رحمه الله - الأمر هكذا عدل عن قصده، وكان الأمر كما قال نجم الدين: توفي نور الدين ولم يقصده ولا أزاله، وكان هذا من أحسن الآراء وأجودها.

[٢٥٥] فصل في الحمام

قال ابن الأثير:

في سنة سبع وستين أمر الملك العادل نور الدين باتخاذ الحمام الهوادي - وهي التي تطير من البلاد البعيدة إلى أوكارها - فاتُخذت في سائر بلاده، وكان سبب ذلك أنه اتسعت بلاده وطالت مملكته، فكانت من حدّ النوبة إلى باب هَمَذان لا يتخللها سوى بلاد الفرنج، وكان الفرنج - لعنهم الله - ربما نازلوا بعض الثغور فإلى أن يصله الخبر ويسير إليهم يكونون قد بلغوا بعض الغرض، فحينئذ أمر بذلك وكتب به إلى سائر بلاده، وأجرى الجرايات لها ولمربيها، فوجد بها راحة كبيرة: كانت الأخبار تأتيه لوقتها لأنه كان له في كل ثغر رجال مرتبون ومعهم من حَمام المدينة التي تجاورهم فإذا رأوا أو سمعوا أمراً كتبوه لوقته وعلقوه على الطائر وسرحوه إلى المدينة التي هو منها في ساعته فتنقل الرقعة من طائر إلى طائر

---

(١) لعله قائد النجيب وهو القوي السريع من الإبل: وانظر «لسان العرب»: ن ج ب.

آخر من البلد الذي يجاورهم في الجهة التي فيها نور الدين، وهكذا إلى أن تصل الأخبار إليه، فانحفظت الثغور بذلك حتى أنّ طائفة من الفرنج نازلوا ثغراً له فأتاه الخبر ليومه فكتب إلى العساكر المجاورة لذلك الثغر بالاجتماع والمسير بسرعة وكبس العدو، ففعلوا ذلك فظفروا والفرنج قد أمنوا لبعد نور الدين عنهم، فرحم الله نور الدين ورضي عنه فما كان أحسنَ نَظَرَه للرعايا وللبلاد.

[٢٥٦] وقال العماد: وكان نور الدين لا يقيم في المدينة أيام الربيع والصيف محافظةً على الثغر وصوناً من الحيَفْ، ليحمي البلاد من العدو بالسيف، وهو متشوّف إلى أخبار مصر وأحوالها فرأى اتخاذ الحمام وتدريجها على الطيران لتحمل إليه الكتب بأخبار البلدان، وتقدّم إلي بِكَتْبِ منشور لأربابها، ثم ذكر نسخة المنشور ووصف فيه الحمام فقال:

«هي برائد الأنباء المخصوصات بفضيلة الإلهام والإيحاء، وهي فيوج(١) الرسائل المأمونة الإبطاء، والحاملات ملطفات الأسرار في أقرب مدّة إلى أبعد غاية، والموصلات مهمات الأخبار في وقتها من أقاصي الأمصار بأكمل هداية، وهي تطوي الفراسخ البعيدة والأشواط في ساعة، وتنتهي إلى أقصى عنايات الطاعة بأتم استطاعة، وقد عم بها نفع المرابطين والغزاة والمجاهدين في سبيل الله في إهداء أخبار الكفرة إليهم من أماكنها، دالة على مكايدها ومكامنها، طائرة بكتبهم إلى من وراءهم من الطلائع والسرايا، مظهرة لهم من أحوالها خبايا الأمور الخفايا، وإنها لميمونة المطار، مأمونة العثار، سالمة على الأخطار، مُهدية في الأسفار، أمينة على الأسرار، سابقة إلى الأوكار، صادرة بالأوطار(٢) من الأقطار، سائرة إلى المؤمنين بنبأ الكفار».

---

(١) الفيوج: رسل السلطان، وهو من الفارسي المعرب، ومفرده: فَيج، وانظر «تاج العروس»: ف و ج.

(٢) الوَطَر: المراد والحاجة: وانظر «لسان العرب»: و ط ر.

قلت: وكل هذه أوصاف حسنة، وعبارات مستحسنة.

وقد بلغني عن القاضي الفاضل ـ رحمه الله تعالى ـ أنه وصفها بألطف من هذه الأوصاف وأخصر فقال: (الطيور ملائكة الملوك) يشير إلى أن نزولها على الملوك من جوّ الهواء نزول الملائكة على الأنبياء ـ عليهم السلام ـ من السماء مع فرط ما فيها من الأمانة، لا يتوهم من جهتها خيانة، فلقد أحسن فيما وصف وأبدع فيما استنبط وأنصف، وهو بذلك أولى وأعرف، رحم الله الجميع.

فصل في باقي حوادث هذه السنة

[٢٥٧] قُرأت نسخة سجل بإسقاط المكوس بمصر، قُرئ على المنبر بالقاهرة يوم الجمعة بعد الصلاة ثالث صفر سنة سبع وستين وخمسمائة عن السلطان الملك الناصر(١) في أيام نور الدين ـ رحمه الله ـ فهو كأن الآمر وذاك(١) المباشر.

ثم دخلت سنة ثمان وستين وخمسمائة

وفيها ترتّب العماد الكاتب مشرفاً بديوان نور الدين مضافاً إلى كتابة الإنشاء.

[٢٥٨] قال: وكان نور الدين ذكياً ألمعياً، فطناً لا يشتبه عليه الأحوال ولا يتبهرج عليه الرجال، ولا يتأهل لغير أهل الفضل منه الإفضال.

[٢٥٩] وقال العماد: حضرت عند الملك العادل نور الدين بدمشق في العشرين من صفر والحديث يجري في طيب دمشق، ورقة هوائها، وبهجة بهائها، وكل منا يمدحها، فقال نور الدين: أنا أحب الجهاد يُسليني(٢) عنها فما أرغب فيها.

---

(١) أي الملك الناصر صلاح الدين.

(٢) سلاه: نسيه، وطابت نفسه بعد فراقه: «المعجم الوسيط»: سلو.

[٢٦٠] فصل في وفاة نجم الدين أيوب والد صلاح الدين وطرف من أخباره

توفي في يوم الثلاثاء السابع والعشرين من ذي الحجة، وكان كريماً رحيماً عطوفاً حليماً، وبابه مزدحم الوفود، وهو متلف الموجود ببذل الجود، وكان ولده صلاح الدين عنه غائباً، وفي بلاد الكرك والشوبك على الغزاة مواظباً، فدفن إلى جانب قبر أخيه أسد الدين في بيت بالدار السلطانية ثم نقلا بعد سنتين إلى المدينة الشريفة النبوية، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام والتحية والإكرام والإجلال والإعظام وعلى آله وصحبه وسلم.

قلت: وقبرهما في تربة الوزير جمال الدين الأصفهاني وزير الموصل المقدّم ذكره ـ رحمهم الله ـ.

قال القاضي ابن شدّاد:

ولما عاد صلاح الدين من غزاته بلغه قبل وصوله إلى مصر وفاة أبيه نجم الدين فشق ذلك عليه حيث لم يحضر وفاته، وكان سبب وفاته وقوعه من الفرس ـ رحمه الله ـ وكان شديد الركض، ولعاً بلعب الكرة بحيث من رآه يلعب بها يقول: ما يموت إلا من وقوعه عن ظهر الفرس.

قال ابن أبي طَيّ الحلبيّ:

هو الأمير نجم الدين أيوب بن شاذي، ولا يعرف في نسبه أكثر من والده شاذي.

قال ابن أبي طَيّ:

وكان نجم الدين أيوب عدلاً مرضياً كثير الصلاة والصِلات، غزير الصدقات والخيرات، يحب العلماء ويميل إلى الفضلاء.

[٢٦١] وحدّثني أبي ـ رحمه الله ـ قال: حدّثني سعد الدولة أبو الميامن المؤملي ـ وكان أحد أصحاب نجم الدين أيوب ـ قال: وحدثني أيضاً بهذه الحكاية مجد الدين بن داية الملك الصالح قال: حدّثني حسام الدين سُنقر ـ

وكان سنقر هذا يخدم مع الأمير نجم الدين أيوب بن شاذي ـ قال: كنت في صحابة الأمير نجم الدين لما أنفذه نور الدين بن زَنْكي إلى ابنه السلطان الملك الناصر إلى مصر من أجل قطع خطبة المصريين(١) وإقامة دعوة بني العباس في أوّل سنة سبع وستين وخمسمائة، واتفق أني كنت حاضراً وقد اجتمع السلطان الملك الناصر ووالده الأمير نجم الدين في دار الوزارة وقد قعدا على طراحة واحدة، والمجلس غاص بأرباب الدولتين، وعند الناس من الفرح والسرور ما قد أذهل العقول.

فبينا الناس كذلك إذ تقدّم كاتب نصراني كان في خدمة الأمير نجم الدين فقبّل الأرض بين يدي السلطان الملك الناصر ووالده نجم الدين، والتفت إلى نجم الدين فقال له: يا مولاي هذا تأويل مقالتي لك بالأمس حين ولد هذا السلطان، فضحك نجم الدين وقال: صدقت والله، ثم أخذ في حمد الله وشكره والثناء عليه، والتفت إلى الجماعة الذين حوله والقضاة والأمراء وقال:

لكلام هذا النصرانيّ حكاية عجيبة، وذلك أنني ليلةَ رُزقت هذا الولد ـ يعني السلطان الملك الناصر ـ أمرني صاحب قلعة تكريت بالرحلة عنها بسبب الفعلة التي كانت من أخي أسد الدين شيْركُوه ـ رحمه الله ـ وقتله النصراني(٢)، وكنت قد ألفت القلعة وصارت لي كالوطن فثقل عليّ الخروج منها والتحول عنها إلى غيرها، واغتممت لذلك، وفي ذلك الوقت جاءني البشير بولادته فتشاءمت به وتطيرت لما جرى عليّ ولم أفرح به ولم أستبشر، وخرجنا من القلعة وأنا على طيرتي به لا أكاد أذكره ولا أسميه، وكان هذا النصرانيّ معي كاتباً فلما رأى مَا نزل بي من كراهية الطفل والتشاؤم به استدعى مني أن آذن له في الكلام فأذنت له، فقال لي: يا مولاي قد رأيت ما قد حدث عندك من الطيرَة بهذا الصبي، وأي شيء له

---

(١) أي الخلفاء المسمين زوراً بالفاطميين.

(٢) تقدم ذلك، انظر الفقرة [١٥٧].

من الذنب؟ وبم استحق ذلك منك وهو لا ينفع ولا يضر ولا يغني شيئاً؟ وهذا الذي جرى عليك قضاء من الله ـ سبحانه ـ وقدر، ثم ما يدريك أن هذا الطفل يكون ملكاً عظيم الصيت، جليل المقدار، فعطفني كلامه عليه، وها هو قد أوقفني على ما كان قاله، فتعجبت الجماعة من هذا الاتفاق، وحمد السلطان ووالده الله ـ سبحانه ـ وشكراه.

[٣٦٢] قال ابن الأثير:

وفي سنة ثمان وستين سار نور الدين ـ رحمه الله ـ نحو ولاية الملك عز الدين قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن سليمان السلجوقي وهي مَلَطْية(١) وسيواس(٢) وقونية(٣) وآقصرا(٤) عازماً على حربه وأخذ بلاده منه، وكان سبب ذلك أن ذا النون بن دانشمند صاحب مَلَطْيَة وسيواس وغيرهما من تلك البلاد قصده قليج أرسلان وأخذ بلاده وأخرجه عنها طريداً فريداً، فسار إلى نور الدين مستجيراً، وملتجئاً إلى ظله فأكرم نزله وأحسن إليه، وحمل له ما يليق أن يحُمل للملوك، ووعده النصر والسعي في ردّ ملكه إليه.

[٣٦٣] وكانت عادة نور الدين أنه لا يقصد ولاية أحد من المسلمين إلا ضرورة، إما ليستعين بها على قتال الفرنج، أو للخوف عليها منهم كما فعل بدمشق ومصر وغيرهما، فلما قصده ذو النون راسل قليج أرسلان وشفع إليه في إعادة ما غلبه عليه من بلاده فلم يجبه إلى ذلك، فسار نور الدين نحوه فابتدأ بكيسون(٥) وبهسني(٦) ومَرْعَش(٧) فملكها وما بينها

---

(١) بلدة في تركيا. وانظر «معجم البلدان»: ١/ ١٩٢.

(٢) بلدة في تركيا.

(٣) بلدة في تركيا.

(٤) بلدة في تركيا، وتسمى آق سراي.

(٥) الموجود في «معجم البلدان»: ٤/ ٤٩٧ كيسوم، ولعلها هي، وهي بلدة قريبة من الفرات شمال العراق.

(٦) من أعمال حلب. وانظر «معجم البلدان»: ١/ ٥١٦.

(٧) بلدة في تركيا. وانظر «معجم البلدان»: ٥/ ١٠٧.

من الحصون، وسيّر طائفة من عسكره إلى سيواس فملكوها، وكان قليج أرسلان لما بلغه قصد نور الدين بلاده قد سار من أطرافها التي تلي الشام إلى وسطها خوفاً وفَرَقاً، وراسل نور الدين يستعطفه ويسأله الصلح والصفح عنه، فتوقف نور الدين عن قصده رجاء أن ينصلح الأمر بغير حرب، فأتاه من الفرنج ما أزعجه فأجابه إلى الصلح.

[٢٦٤] وكان في جملة رسالة نور الدين إليه:

«إنني أريد منك أموراً وقواعد ومهما تركت منها فلا أترك ثلاثة أشياء أحدها: أن تجدّد إسلامك على يد رسولي حتى يحل لي إقرارك على بلاد الإسلام فإني لا أعتقدك مؤمناً - وكان قليج أرسلان يُتهم باعتقاد مذاهب الفلاسفة -.

والثاني: إذا طلبت عسكرك للغزاة تسيره فإنك قد ملكت طرفاً كبيراً من بلاد الإسلام وتركت الروم وجهادهم وهادنتهم، فإما أن تكون تنجدني بعسكرك لأقاتل بهم الفرنج، وإما أن تجاهد من يجاورك من الروم وتبذل الوسع والجهد في جهادهم.

والثالث: أن تزوج ابنتك لسيف الدين غازي ولد أخي، وذكر أموراً غيرها، فلما سمع قليج أرسلان الرسالة قال: ما قصد نور الدين إلا الشناعة عليّ بالزندقة، وقد أجبته إلى ما طلب، أنا أجدد إسلامي على يد رسوله، واستقر الصلح وعاد نور الدين وترك عسكره في سيواس مع فخر الدين عبد المسيح في خدمة ذي النون، فبقي العسكر بها إلى أن مات نور الدين، فرحل العسكر عنها وعاد قليج أرسلان ملكها.

[٢٦٥] فصل في فتح اليمن

قال ابن شدّاد:

ولما كان سنة تسع وستين رأى صلاح الدين قوة عسكره، وكثرة عدد إخوته وقوة بأسهم، وكان بلغه أن باليمن إنساناً استولى عليها وملك

حصونها، وهو يخطب لنفسه يُسمى عبد النبي بن مهدي، ويزعم أنه ينشر ملكه إلى الأرض كلها، واستتب أمره، فرأى أن يسير إليها أخاه الأكبر الملك المعظم تورانشاه، وكان كريماً أرْيَحياً[1] حسن الأخلاق سمعت منه ـ يعني من صلاح الدين رحمه الله ـ الثناء على كرمه ومحاسن أخلاقه وترجيحه إياه على نفسه، فمضى إليها وفتح الله على يديه، وقتل الخارجي الذي كان بها.

قال ابن أبي طيّ:

وكتب بذلك إلى أخيه الملك الناصر، فأرسل إلى نور الدين بما أفاض الله عليه من الإحسان وخوّله من ملك الديار والبلدان، فأرسل نور الدين بالبشارة بذلك إلى بغداد.

[٢٦٦] فصل في صلب عمارة الشاعر اليمني وأصحابه

قال ابن أبي طَيّ:

وفي هذه السنة اجتمع جماعة من دعاة المصريين والعوام، وتآمروا فيما بينهم خفية، وبكوا على انقراض دولة المصريين، وما صاروا إليه من الذل والفقر، ثم أجمعوا آراءهم على أن يقيموا خليفة ووزيراً، وتجمعوا هم وجماعة عيّنوهم من الأمراء وغيرهم، وأن يكاتبوا الفرنج، وأن يَثِبوا بالملك الناصر، وأدخلوا معهم في هذا الأمر ابن مصال، وأعدّوا جماعة من شيعة المصريين ليلةً عينوها، وكاتبوا الفرنج بذلك، وقرروا معهم الوصول إليهم في ذلك الزمان المقرر، فخانهم ابن مصال فيما عاهدهم عليه، ونكث في اليمين وكفّر عنها، وصار إلى الملك الناصر وعرّفه بجَلِيّة ما جرى، قال: فأحضرهم واحداً واحداً وقررهم على هذه الحالة فأقروا واعترفوا، واعتذروا بكونهم قُطعت أرزاقهم وأخذت أموالهم، فأحضر السلطان العلماء واستفتاهم في أمرهم فأفتوه بقتلهم وصلبهم ونفيهم فأمر بصلبهم.

---

(١) الأرْيَحي: الواسع الخلق، النشيط إلى المعروف: «المعجم الوسيط»: روح.

وكان الذين صُلبوا منهم المفضل بن كامل القاضي، وابن عبد القوي الداعي، وشبرما كاتب السر، وعبد الصمد القشة أحد أمراء المصريين، ورجل منجم نصراني أرمني كان قال لهم: إن أمرهم يتم بطريق علم النجوم، وعمارة اليمني الشاعر.

قلت: وبلغني أن عمارة إنما كان تحريضه لشمس الدولة على المسير إلى اليمن ليتم هذا الأمر؛ لأن فيه تقليلاً لعسكر صلاح الدين وإبعاداً لأخيه وناصريه عنه.

قال العماد: ووقعت اتفاقات عجيبة من جملتها أنه نسب إليه بيت من قصيدة ذكروا أنه له، يعني في القصيدة التي حرض فيها شمس الدولة على المسير إلى اليمن:

قد كان أوّل هذا الدين من رجل   سعى إلى أن دعوه سيدَ الأمم

قال العماد: ويجوز أن يكون هذا البيت معمولاً عليه، فأفتى فقهاء مصر بقتله، وحرضوا السلطان على المُثلة بمثله.

[٢٦٧] قال: ولعمارة في مصلوب بمصر يقال له طرخان ـ وكان خرج على الصالح بن رُزِّيك(١) فظفر به الصالح وصلبه ـ وكان يستحسن أبيات عمارة فيه وهي:

أراد علو مرتبة وقدر   فأصبح فوق جذع وهو عال
ومد على صليب الجذع منه   يمين لا تطول على الشمال
ونكس رأسه لعتاب قلب   دعاه إلى الغواية والضلال

قال العماد: فكأنه وصف حاله، وما آل إليه أمره.

[٢٦٨] وقال ابن أبي طيّ:

---

(١) وزير الفاطميين.

وقد كتب القاضي الفاضل إلى نور الدين كتاباً شرح فيه قضية المُصَلّبين، ثم ذكر تفصيلاً حاصله أنهم عينوا خليفة ووزيراً مختلفين في ذلك، فمنهم من طلب إقامة رجل كبير السن من بني عم العاضد، ومنهم من جعل ذلك لبعض أولاد العاضد وإن كان صغيراً، واختلف هؤلاء في تعيين واحد من ولدين له: وأما بنو رزّيك وأهل شاوَر فكل منهم أراد الوزارة لبيتهم من غير أن يكون لهم غرض في تعيين الخليفة.

[٣٦٩] ثم قال: وكانوا فيما تقدّم والمملوك(١) على الكَرَك بالعسكر قد كاتبوهم وقالوا لهم: إنه بعيد، والفرصة قد أمكنت، فإذا وصل الملك الفرنجي إلى صدر(٢) أو إلى أيلة(٣) ثارت حاشية القصر وكافة الجند وطائفة السودان، وجموع الأرمن، وعامة الإسماعيلية، وفتكت بأهلنا وأصحابنا بالقاهرة.

[٣٧٠] ثم قال: وفي أثناء هذه المدة كاتبوا سناناً(٤) صاحب الحشيشية(٥) بأن الدعوة واحدة، والكلمة جامعة، واستدعوا منه مَن يتمم على المملوك غيلة(٦) أو يُبيت له مكيدة وحيلة، والله من ورائهم محيط، وكان الرسول إليهم عن المصريين خالد بن قرجلة المقيم الآن هو وابن أخته عند الفرنج، ولما صح الخبر قتل الله بسيف الشرع المطهر جماعة من الغواة الغلاة، الدعاة إلى النار الحاملين لأثقالهم وأثقال من أضلوه من الفجار، وشُنقوا على أبواب قصورهم، وصُلبوا على الجذوع المواجهة لدورهم، ووقع التتبع لأتباعهم، وشُرِّدت طائفة الإسماعيلية ونفوا، ونودي

---

(١) أي صلاح الدين الأيوبي.

(٢) قلعة بين القاهرة وأيلة. وانظر «معجم البلدان»: ٣/ ٣٩٧.

(٣) هي المعروفة اليوم بـ(العقبة)، وانظر «معجم البلدان»: ١/ ٢٩٢.

(٤) سنان بن سلمان بن محمد البصري الباطني، من طواغيت الإسماعيلية الكفرة، هلك سنة ٥٨٩. وانظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ١٨٢ - ١٩٠.

(٥) هم الفرقة الباطنية المشهورة باغتيال العلماء والأمراء الصالحين.

(٦) أي من يقتل صلاح الدين.

بأن يرحل كافة الأجناد وحاشية القصر وراجل السودان إلى أقصى بلاد الصعيد.

[٢٧١] ومما يُطْرَف به المولى⁽¹⁾ أن ثغر الإسكندرية ـ على عموم مذهب السنة فيه ـ أطلع البحث أن فيه داعيةً خبيثاً أمرُه، محتقراً شخصُه، عظيماً كفره يسمى قديد القفاص، وأن المذكور مع خموله في الديار المصرية قد فشت في الشام دعوته، وطبقت عقول أهل مصر فتنته، وأن أرباب المعايش فيه يحملون إليه جزءاً من كسبهم، والنسوان يبعثن إليه شطراً وافياً من أموالهنّ، ووجدت في منزله بالإسكندرية عند القبض له والهجوم عليه كُتباً فيها صريح الكفر الذي ما عنه اعتذار، ورقاع يُخاطَب بها فيها ما تقشعرّ منه الجلود، وبالجملة فقد كُفي الإسلامُ أمره، وحاق به مكره، وصرعه كفره.

[٢٧٢] قلت: وفي قضية عمارة هذه يقول العلامة تاج الدين الكندي ـ رحمه الله ـ ونقلته من خطه:

عمارة في الإسلام أبدى جناية وبايع فيها بيعة وصليبا
وأمسى شريك الشرك في بغض أحمد فأصبح في حب الصليب صليبا
وكان خبيثَ الملتقى إن عجمته تجد منه عوداً في النفاق صليبا
سيلقى غداً ما كان يسعى لأجله ويُسقى صديداً في لظى وصليبا

قلت: الصليب الأوّل: النصارى، والثاني: بمعنى مصلوب، والثالث من الصلابة، والرابع وَدَكُ العظام، قيل هو الصديد، أي يُسقى ما يسيل من أهل النار نعوذ بالله منها.

[٢٧٣] وكان عمارة يُظهر في فلتات لسانه في نظمه ونثره ما يقتضي التحرز منه وإبعادَه، وهو يرى ذلك منهم فيزداد فساداً في نيته، وإن مدحهم تكلف ذلك وصرّح وعرض فيه بما في ضميره وقد قال في كتاب «الوزراء

---

(١) أي نور الدين.

المصرية»: ذكر الله أيامهم بحمد لا يكل نشاطه، ولا يُطوى بساطه، فقد وجدت فقدهم، وهنت بعدهم.

[٢٧٤] وقال من قصيدة مدح بها نجم الدين أيوب:

وكان لي في ملوك النيل قبلكم   مكانة عرفتها الغُرب والعجم
وكان بيني وبين القوم ملحمة   في حربها ألسن الأديان تختصم
وما تزال إلى داري عوارفهم   يسعى إليّ بها الإنعام والكرم
تركت قصدك لما قيل إنك لا   تجود إلا على من مسه العدم
ولست بالرجل المجهول موضعه   ولا لنزر من الإحسان أغتنم
ولا إلى صدقات المال أطلبها   ولا عميّ نال أعضائي ولا صمم
وإنما أنا ضيف للملوك ولي   دون الضيوف لسان ناطق وفم

[٢٧٥] وله فيه من أخرى:

فقد صارت الدنيا إليكم بأسرها   فلا تشبعوا منها ونحن جياع
إذا لم تريدونا فكونوا كمن مضى   ففي الناس أخبار لهم وسماع
وليس على مُرّ الفطام إقامة   فهل في ضروع المكرمات رضاع

[٢٧٦] وقال أيضاً:

قست رأفة الدنيا فلا الدهر عاطف   عليّ ولا عبد الرحيم رحيم
عفا الله عن آرائه كل فترة   كلام العدى فيها عليّ كلوم
وسامحه في قطع رزق بفضله   وصلت إليه والزمان ذميم
ألا هل له عطف عليّ فإنني   فقير إلى ما اعتدت منه عديم

عبد الرحيم هو القاضي الفاضل ـ رحمه الله ـ وبلغني أن عمارة لما مروا به ليصلب عبروا به على جهة دار الفاضل، فطلب الاجتماع به فقيل: ليس إليه طريق، فقال:

عبد الرحيم قد احتجب   إن الخلاص هو العجب

[٢٧٧] وكان عمارة هذا عربياً فقيهاً أديباً، وله كتاب صغير ذكر فيه

أخباره وأحواله باليمن ثم بمصر، فذكر أنه أقام بزبيد ثلاث سنين يُقرأ عليه مذهب الشافعيّ ـ رضي الله عنه ـ قال: ولي في الفرائض مصنف يُقرأ باليمن، وفي سنة تسع وثلاثين زارني والدي وخمسة من إخوتي إلى زبيد فأنشدته شيئاً من شعري فاستحسنه ثم قال: تعلم والله أن الأدب لنعمة من نعم الله عليك فلا تكفرها بذم الناس، واستحلفني أن لا أهجو مسلماً ببيت شعر فحلفت له على ذلك، ولطف الله بي فلم أهج أحداً ماعدا إنسان هجاني بحضرة الملك الصالح ـ يعني ابن رُزّيك[1] ـ ببيتي شعر فأقسم الصالح عليّ أن أجيبه ففعلت متأوّلاً قولَ الله عز وجل: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾[3] قال: ولم يكن شيء غير هذا.

[٢٧٨] وحججت مع الملكة أم فاتك ملك زَبيد، وكانت تقوم لأمير الحرمين بجميع ما يتناوله من حاج اليمن براً وبحراً وبجميع خفارات الطريق، فذكر أنه حصل له وجاهة عندها فانتفع بها حتى أثرى وكثر ماله وجاهه، ثم طرأت أمور اقتضت أن هرب من اليمن، وحج سنة تسع وأربعين وخمسمائة، قال: وفي موسم هذه السنة توفي أمير الحرمين هاشم بن فَليتة وولي الحرمين ولده قاسم بن هاشم فألزمني السفارة عنه والرسالة منه إلى الدولة المصرية، فقدمتها في شهر ربيع الأوّل سنة خمسين والخليفة بها يومئذ الفائز بن الظافر والوزير له الملك الصالح طلائع بن رُزّيك، فلما حضرت للسلام عليهما في قاعة الذهب من قصر الخليفة أنشدتهما:

الحمد للعيس بعد العزم والهمم   حمداً يقوم بما أولت من النعم

قال: وعهدي بالصالح وهو يستعيدها في حال النشيد مراراً،

---

[1] هو وزير الفاطميين.

[2] سورة الشورى، الآية ٤١.

[3] سورة البقرة: الآية ١٩٤.

والأستاذون والأمراء والكبراء يذهبون في الاستحسان كل مذهب، ثم أفيضت عليّ خِلَعٌ من ثياب الخلافة مُذهبة، ودفع إليّ الصالح خمسمائة دينار، وإذا بعضَ الأستاذين قد خرج لي من عند السيدة بنت الإمام الحافظ بخمسمائة دينار أخرى وحمل المال معي إلى منزلي، وأُطلقت لي من دار الضيافة رسوم لم تطلق لأحد قبلي، وتهادتني أمراء الدولة إلى منازلهم للولائم، واستحضرني الصالح للمجالسة ونظمني في سلك أهل المؤانسة، وغمرني بره.

[٢٧٩] قلت: وشعر عمارة كثير حسن، وعندي في قوله الحمد للعيس - وإن كانت القصيدة فائقة - نفرة عظيمة، فإنه أقام ذلك مقام قولنا: الحمد لله، ولا ينبغي أن يُفعل ذلك مع غير الله - عز وجل - فله الحمد وله الشكر، فهذا اللفظ كالمتعين لجهة الربوبية المقدّسة، وعلى ذلك اطّراد استعمال السلف والخلف - رضي الله عنهم -.

فصل في وفاة نور الدين رحمه الله تعالى

[٢٨٠] قال العماد:

وفي يوم العيد - يوم الأحد - ركب نور الدين على الرسم المعتاد، والقدر يقول له: هذا آخر الأعياد، وخطب له القاضي شمس الدين محمد بن المقدم قاضي العسكر بعد أن صلى به وذكّر، ودخل الميدان⁽١⁾ والعظماء يسايرونه والفهماء يحاورونه وفيهم همام الدين مودود وهو في الأكابر معدود - وكان قديماً في أوّل دولته والي حلب - فقال لنور الدين: هل نكون هاهنا في مثل هذا اليوم في العام القابل؟ فقال نور الدين: قل هل نكون بعد شهر فإنّ السنة بعيدة؟ فجرى على منطقهما ما جرى به القضاء السابق، فإن نور الدين لم يصل إلى الشهر، والهمام لم يصل إلى العام، ثم شرع نور الدين في اللعب بالكرة.

---

(١) ميدان لعب الكرة، كما سيأتي.

قال: ومرض نور الدين، وأشار عليه الأطباء بالفصد فامتنع وكان مهيباً فما روجع، وانتقل حادي عشر شوال يوم الأربعاء من مَرْبع الفناء إلى مَرْتع البقاء، ولقد كان من أولياء الله المؤمنين، وعباده الصالحين، وصار إلى جنات عدن أعدت للمتقين، وكانت له صُفَّة في الدار التي على النهر الداخل إلى القلعة من الشمال، وكان جلوسه عليها في جميع الأحوال، فلما جاءت سنة الزلزلة بني بإزاء تلك الصفّة بيتاً من الأخشاب، مأمون الاضطراب، فهو يبيت فيه ويصبح، ويخلو بعبادته ولا يبرح، فدُفن في ذلك البيت الذي اتخذه حمى من الحِمام(١).

[٢٨١] قال العماد:

يا ملكاً أيامه لم تزل   لفضله فاضلة فاخرة
غاصت بحار الجود مذ غُيبت   أنملك الفائضة الزاخرة
ملكت دنياك وخلفتها   وسرت حتى تملك الآخرة

قال ابن شدّاد:

وكان وفاة نور الدّين ـ رحمه الله ـ بسبب خوانيق اعترته عجز الأطباء عن علاجها.

[٢٨٢] ولقد حكى لي صلاح الدين قال: كان يبلغنا عن نور الدين أنه ربما قصدنا بالديار المصرية، وكانت جماعة أصحابنا يشيرون بأن نخالف ونشق عصاه، ونلقى عسكره بمصاف يردّه إذا تحقق قصده، وكنت وحدي أخالفهم وأقول: لا يجوز أن يقال شيء من ذلك، ولم يزل النزاع بيننا حتى وصل الخبر بوفاته ـ رحمه الله ورضي عنه ـ.

[٢٨٣] قال ابن الأثير:

وكان نور الدين قد شرع بتجهيز المسير إلى مصر لأخذها من

---

(١) الحِمام: الموت.

صلاح الدين؛ لأنه رأى منه فتوراً من غزو الفرنج من ناحيته، فأرسل إلى الموصل وديار الجزيرة وديار بكر يطلب العساكر ليتركها بالشام لمنعه من الفرنج ليسير هو بعساكره إلى مصر، وكان المانع لصلاح الدين من الغزو الخوف من نور الدين؛ فإنه كان يعتقد أن نور الدين متى زال عن طريقه الفرنج أخذ البلاد منه فكان يحتمي بهم عليه ولا يُؤثر استئصالهم، وكان نور الدين لا يرى إلا الجدّ في غزوهم بجهده وطاقته، فلما رأى إخلال صلاح الدين بالغزو وعلم غرضه تجهز بالمسير إليه، فأتاه أمر الله الذي لا يرد.

[٢٨٤] قلت: ولو علم نور الدين ماذا ادّخر الله - تعالى - للإسلام من الفتوح الجليلة على يد صلاح الدين من بعده لقرّت عينه، فإنه بنى على ما أسسه نور الدين من جهاد المشركين، وقام بذلك على أكمل الوجوه وأتمها - رحمهما الله تعالى -.

قال ابن الأثير:

وكان أسمر، طويل القامة، ليس له لحية إلا في حنكه، وكان واسع الجبهة، حسن الصورة، حلوَ العينين.

[٢٨٥] وكان قد اتسع ملكه جداً فملك المَوْصل وديار الجزيرة، وأطاعه أصحاب ديار بكر، وملك الشام، والديار المصرية، واليمن، وخُطب له بالحرمين الشريفين مكة والمدينة، وطبق الأرضَ ذكره لحسن سيرته وعدله، ولم يكن مثله إلا الشاذ النادر - رحمة الله تعالى عليه -.

[٢٨٦] قال الحافظ أبو القاسم بعدما ذكر أوصاف نور الدين الجليلة المتقدّمة مفرّقة ومجموعة في هذا الكتاب:

هذا مع ما جمع الله له من العقل المتين، والرأي الثاقب الرصين، والاقتداء بسيرة السلف الماضين، والتشبه بالعلماء والصالحين، والاقتفاء لسيرة من سلف منهم في حسن سمتهم، والاتّباع لهم في حفظ حالهم

ووقتهم، حتى رَوى حديث المصطفى ﷺ وأسمعه، وكان قد استجيز له ممن سمعه وجمعه حرصاً منه على الخير في نشر السنة بالأداء والتحديث، ورجاء أن يكون ممن حفظ على الأمة أربعين حديثاً كما جاء في الحديث.

فمن رآه شاهد من خلال السلطنة وهيبة الملك ما يُبهره، فإذا فاوضه رأى من لطافته وتواضعه ما يحيره.

[٢٨٧] يحب الصالحين ويؤاخيهم، ويزور مساكنهم لحسن ظنه فيهم، وإذا احتلم مماليكه أعتقهم، وزوّج ذكرانهم بإناثهم ورزقهم، ومتى تكرّرت الشكاية إليه من أحد من ولاته أمره بالكف عن أذى من تظلم بشكاته، فمن لم يرجع منهم إلى العدل قابله بإسقاط المنزلة والعزل، فلما جمع الله له من شريف الخصال تيسر له جميع ما يقصده من الأعمال، وسهل على يديه فتح الحصون والقلاع، ومكّن له في البلدان والبقاع.

[٢٨٨] ثم قال - بعد كلام كثير -: ومناقبه خطيرة، وممادحه كثيرة، ومدحه جماعة من الشعراء فأكثروا، ولم يبلغوا وصف آلائه بل قصّروا، وهو قليل الابتهاج بالشعر زيادة في تواضعه لعلوّ القدر، ومولده وقت طلوع الشمس من يوم الأحد سابع عشر شوّال سنة إحدى عشر وخمسمائة، وتوفي يوم الأربعاء الحادي عشر من شوّال سنة تسع وستين وخمسمائة، ودفن بقلعة دمشق، ثم نقل إلى تربة تجاور مدرسته التي بناها لأصحاب أبي حنيفة - رضي الله عنه -.

[٢٨٩] واشتُهر قلة ابتهاجه بالمدح لِما علم من تزايد الشعراء - وهي طريقة عمر بن عبد العزيز زاهد الخلفاء - وإياه عنى أسامة بن منقذ بقوله:

سلطاننا زاهد والناس قد زهدوا   له فكلٌ على الخيرات منكمش
أيامه مثل شهر الصوم طاهرة   من المعاصي وفيها الجوع والعطش

[٢٩٠] قلت: رحمه الله، ما كان يبذل أموال المسلمين إلا في الجهاد، وما يعود نفعه على العباد، وكان كما قيل في حق عبد الله بن

محيريز(١) وهو من سادات التابعين بالشام عن الشيباني(٢) قال:

كان ابن الدّيلمي(٣) من أنصر الناس لإخوانه، فذُكر ابن مُحيريز في مجلسه فقال رجل: كان بخيلاً، فغضب ابن الديلمي وقال: كان جواداً حيث يحب الله، بخيلاً حيث تحبون.

وأما شعر ابن منقذ فلا اعتبار به.

وإنما الشعراء وأكثر الناس كما قال الله ـ تعالى ـ في وصف قوم: ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾(٤) وما كل وقت يتفق العطاء، ويفعل الله ما يشاء.

[٢٩١] فصل

قال ابن الأثير:

لما تُوفي نور الدين جلس ابنه الملك الصالح إسماعيل في الملك وحُلف له ولم يبلغ الحلم، وحلف له الأمراء والمقدّمون بدمشق، وأقام بها وأطاعه الناس في سائر بلاد الشام، وصلاح الدين بمصر، وخطب له بها وضرب السكة باسمه فيها، وتولى تربيته الأمير شمس الدين محمد بن المقدّم.

قال ابن أبي طيّ الحلبيّ:

لما مات نور الدين اجتمع أمراء دولته واتفقوا على أن يكونوا في خدمة الملك الصالح بن نور الدين وكان يومئذ صبياً، وأجمعوا على منابذة الملك الناصر(٥) وقبض أصحابه الذين بالشام، ومصالحة الفرنج على يد ابن المقدّم شمس الدين مقدّم العساكر، وتم ذلك واستقر.

---

(١) توفي سنة ٩٩. انظر «التقريب»: ٣٣٢.

(٢) هو السري بن يحيى الشيباني، ثقة، مات سنة ١٦٧. انظر «التقريب»: ٢٣٠.

(٣) هو عبد الله بن فيروز الديلمي، ثقة من كبار التابعين، أو هو أخوه الضحاك بن فيروز الديلمّي الفلسطيني، مقبول، وانظر «التقريب»: ٣١٦، ٢٧٩ على التوالي.

(٤) سورة التوبة: الآية ٥٨.

(٥) أي صلاح الدين.

[٢٩٢] وكانت الفرنج قد تحركت إلى قصد دمشق فخرج ابن المقدّم ونزل على بانياس في عساكر نور الدين، وراسل الفرنج في الهدنة فأجابوه بعد أن قطعوا قطيعة على المسلمين فعجل حملها، وتم أمر الصلح، وعادت الفرنج إلى بلادها وابن المقدّم إلى دمشق.

[٢٩٣] واتصل خبر هذه الهدنة بالملك الناصر ـ وكان قد خرج من مصر أربع مراحل⁽¹⁾ ـ فأعظم أمرها وأكبره، واستصغر أمْرَ أهل الشام وعلم ضعفهم، فراسل ابن المقدّم وغيره من الأمراء بإنكار ذلك والتوبيخ عليه.

قال: وكان متولي قلعة حلب شاذ بخت الخادم النوري، وكان شمس الدين علي ـ أخو مجد الدين بن الداية ـ إليه أمور الجيش والديوان وإلى أخيه بدر الدين حسن الشحْنكية⁽²⁾، وكان بيده ويد إخوته جميع المعاقل التي حول حلب، فلما بلغَ علْياً موت نور الدين صعد إلى القلعة ـ وكان مقعداً ـ واضطرب البلد، واتصلت هذه الأخبار بمن في دمشق، وأخذوا الملك الصالح وساروا إلى حلب في الثالث والعشرين من ذي الحجة، وسار مع الملك الصالح سعد الدين كمشتكين وجُرْديك وإسماعيل الخازن وسابق الدين عثمان بن الداية، وقد وكلت الجماعة به وهو لا يعلم، وساروا إلى حلب وخرج الناس إلى لقائهم، وكان حسن قد رتب في تلك الليلة جماعة من الحلبيين ليصبح ويصلبهم، فلما خرج إلى لقاء الملك الصالح ووقعت عينه عليه ترجل ليخدم هو وجماعة من أصحابه، فتقدّم جرديك وأخذ بيده وشتمه وجذبه فأركبه خلفه رديفاً، وقُبض سابق الدين أخوه في الحال، وتُخطفتْ أصحابهم جميعهم، واحتيط عليهم، وساروا مجدّين حتى سبقوا الخبر إلى القلعة، وصعدوا إليها وقبضوا على شمس الدين علي بن الداية من فراشه، ثم صفدوا جميعاً وحبسوا في جُبّ القلعة وقبضوا على جميع الأجناد الذين حلفوا لأولاد الداية وأخرجوا جميعاً من القلعة.

---

(١) كل منزل بين مدينتين يسمّى مرحلة: وانظر «لسان العرب»: رحل.

(٢) أي الولاية والنيابة.

ثم دخلت سنة سبعين وخمسمائة

[٢٩٤] قال ابن أبي طيّ:

وبقي الملك الصالح في قلعة حلب، فأما صلاح الدين فإنه اعتقد أن ولد نور الدين يتولاه بعده إخوة مجد الدين، فلما جرى ما جرى ساءه ذلك وقال: أنا أحق برعي العهود، والسعي المحمود، فإنه إن استمرت ولاية هؤلاء تفرقت الكلمة المجتمعة، وانفردت مصر عن الشام، وطمع أهل الكفر في بلاد الإسلام، وكتب إلى ابن المقدّم ينكر ما أقدموا عليه من تفريق الكلمة وكيف اجترأوا على أعضاد الدولة وأركانها، بل أهلها وإخوانها، وإنه يلزمه أمرهم وأمرها، ويضره ضرهم وضرها، فكتب ابن المقدّم إليه يردعه عن هذه العزيمة، ويقبح له استحسان هذه الشيمة ويقول له:

«لا يقال عنك إنك طمعت في بيت مَن غَرَسك، ورباك وأسسك، وأصفى مشربك، وأصفى ملبسك، وأجلى سكونك لملك مصر وفي دَسته(١) أجلسك، فما يليق بحالك ومحاسن أخلاقك وخلالك، غير فضلك وإفضالك».

[٢٩٥] فكتب إليه صلاح الدين بالإنشاء الفاضلي(٢):

«إنا لا نُؤثر للإسلام وأهله إلا ما جمع شملهم وألّف كلمتهم، وللبيت الأتابكي - أعلاه الله - إلا ما حفظ أصله وفرعه، ودفع ضره وجلب نفعه، فالوفاء إنما يكون بعد الوفاة، والمحبة إنما تظهر آثارها عند تكاثر أطماع العداة، وبالجملة إنا في واد والظانون بنا ظن السوء في واد، ولنا من الصلاح مراد، ولا يقال لمن طلب الصلاح إنك قادح، ولمن ألقى السلاح إنك جارح».

---

(١) الدَّست: كرسيّ الوزارة، وصدر المجلس. وانظر «الألفاظ الفارسية المعربة»: ٦٣.

(٢) نسبة إلى القاضي الفاضل.

فصل

قال العماد:

ثم عزم السلطان على أن يسارع إلى تلافي الأمر فاعترضه أمران، أحدهما: وصول أسطول صقلية إلى الإسكندرية وإدراكه، والثاني: نوبة الكنز وهلاكه، أما وصول الأسطول فكان يوم الأحد السادس والعشرين من ذي الحجة سنة تسع وستين، وانهزم في أول المحرم سنة سبعين.

[٢٩٦] فصل وأما نوبة الكنز

فقال ابن شدّاد:

الكنز إنسان مقدم من المصريين كان قد نزح إلى أسوان فأقام بها، ولم يزل يدبر أمره ويجمع السودان عليه ويخيل لهم أنه يملك البلاد ويعيد الدولة مصرية، وكان في قلوب القوم من المهاواة للمصريين ما تستصغر هذه الأفعال عنده، فاجتمع عليه خلق كثير وجمع وافر من السودان، فانتهى خبره إلى صلاح الدين فجرّد له عسكراً عظيماً من الذين ذاقوا حلاوة ملك الديار المصرية وخافوا على فوت ذلك منهم، وقدّم عليهم أخاه سيف الدين وسار بهم حتى أتى القوم فلقيهم بمصاف فكسرهم وقتل منهم خلقاً عظيماً، وذلك في السابع من صفر سنة سبعين، واستقّرت قواعد الملك.

فصل في توجه صلاح الدين إلى دمشق ودخوله إليها في يوم الاثنين آخر شهر ربيع الأول

[٢٩٧] قال القاضي ابن شدّاد:

لما تحقق صلاح الدين وفاة نور الدين وكون ولده طفلاً لا ينهض بأعباء الملك ولا يستقل بدفع عدّو الله عن البلاد تجهز للخروج إلى الشام؛ إذ هو أصل بلاد الإسلام تجهز بجمع كثير من العساكر، وخلف بالديار المصرية من يستقل بحفظها وحراستها، ونظم أمورها وسياستها، وخرج هو سائراً مع جمع من أهله وأقاربه، وهو يكاتب أهل البلاد وأمرائها، واختلفت

كلمة أصحاب الملك الصالح واختلت تدبيراتهم وخاف بعضهم من بعض، وقبض البعض على جماعة منهم، وكان ذلك سبب خوف الباقين ممن فعل ذلك وسبباً لتنفير قلوب الناس عن الصبي، فاقتضى الحال أن كاتب ابن المقدّم صلاح الدين فوصل إلى البلاد مطالباً بالملك الصالح ليكون هو الذي يتولى أمره وتربية حاله، فدخل دمشق يوم الثلاثاء سلخ ربيع الآخر وكان أوّل دخوله إلى دار أبيه، واجتمع الناس إليه وفرحوا به، وأنفق في ذلك اليوم في الناس مالاً طائلاً، وأظهر الفرح والسرور بالدمشقيين وأظهروا الفرح به، وصعد القلعة واستقر قدمه في ملكها.

[٢٩٨] وقال ابن أبي طيّ:

ولما حصل⁽¹⁾ على دمشق وقلعتها، واستوطن بقعتها نشر علم العدل والإحسان، وعفى⁽²⁾ آثار الظلم والعدوان، وأبطل ما كان الولاة استجدّوه بعد موت نور الدين من القبائح والمنكرات، والضرائب المحرمات.

[٢٩٩] فصل فيما جرى بعد فتح دمشق من فتح حمص وحماة وحصار حلب

قال ابن أبي طيّ: لما اتصل بمن في حلب حصول دمشق للملك الناصر وميل الناس إليه، وانعكافهم عليه، خافوا وأشفقوا وأجمعوا على مراسلته فحمّلوا قطب الدين ينال بن حسان رسالة أرعدوا فيها وأبرقوا، وقالوا له: هذه السيوف التي مَلّكتك مصر بأيدينا، والرماح التي حويت بها قصور المصريين على أكتافنا، والرجال التي ردّت عنك تلك العساكر هي تردك، وعما تصدّيت له تصدّك، وأنت فقد تعدّيت طورك، وتجاوزت حدّك، وأنت أحد غلمان نور الدين وممن يجب عليه حفظه في ولده.

[٣٠٠] قال: ولما بلغ السلطان ورود ابن حسان عليه رسولاً تلقاه

---

(1) أي صلاح الدين.

(2) أي أزال: انظر «لسان العرب»: ع ف ا.

بموكبه وبنفسه، وبالغ في إكرامه والإحسان إليه، ثم أحضره بعد ثالثة(١) لسماع الرسالة منه فلما فاه ابن حسان بتلك التمويهات العاطلة لم يُغره السلطان ـ رحمه الله ـ طرْفاً ولا سمعاً، ولا ردّ عليه بل ضرب عنه صفحاً، وترك جوابه إحساناً وتجافياً، وخاطبه بكلام لطيف رقيق، وقال له: يا هذا، اعلم أنني وصلت إلى الشام لجمع كلمة الإسلام، وسدّ الثغور، وتربية ولد نور الدين، وكف عادية المعتدين.

فقال له ابن حسان: إنك إنما وردت لأخذ الملك لنفسك، ونحن لا نطاوعك على ذلك، فلم يلتفت السلطان لمقاله، وتزايد في احتماله، وأومأ إلى رجاله بإقامته من بين يديه بعد أن كاد يسطو عليه، ونادى في عساكره بالاستعداد لقصد الشام الأسفل، ورحل متوجهاً إلى حمص فتسلم البلد وقاتل القلعة ولم ير تضييع الزمان عليها فوكل بها من يحصرها، ورحل إلى جهة حماة فلما وصل إلى الرَسْتَن(٢) خرج صاحبها عز الدين جُرديك وأمر مَن فيها من العسكر بطاعة أخيه شمس الدين علي واتباع أمره، وسار جرديك حتى لقي السلطان واجتمع به بالرستن وأقام عنده يوماً وليلة، وظهر من نتيجة اجتماعه به أنه سلم إليه حماة وسأله أن يكون السفير بينه وبين من بحلب فأجابه السلطان إلى مراده، وسار إلى حلب وبقي أخو جُرديك بقلعة حماة، قال: وسار جرديك إلى حلب، فاجتمع بالأمراء والملك الصالح، وأشار عليهم بمصالحة الملك الناصر، فاتهمه الأمراء بالمخامرة(٣)، وردّوا مشورته وأشاروا بقبضه، فامتنع الملك الصالح ولجّ سعد الدين كمشتكين في القبض عليه فقبض وثقل بالحديد، وأخذ بالعذاب الشديد.

قال: ولم يزل السلطان مقيماً على الرستن، ثم طال عليه الأمر فلقيه أحد غلمان جرديك وأخبره بما جرى على جرديك من الاعتقال والقهر،

---

(١) أي بعد ثلاثة أيام.

(٢) قرية بين حمص وحماة. وانظر «معجم البلدان»: ٣/ ٤٣.

(٣) أي بمحاولة قلب الدولة.

فرحل السلطان من ساعته عائداً إلى حماة، وطلب من أخي جرديك تسليم حماة إليه، وأخبره بما جرى على أخيه ففعل، وصعد السلطان إلى قلعة حماة، واعتبر أحوالها وولاها مبارز الدين علي بن أبي الفوارس، وذلك مستهل جمادى الآخر، وسار السلطان إلى حلب.

[٣٠١] وكان من بحلب يظنون أن السلطان لا يقدم عليهم فلم يَرُعْهم إلا وعساكره قد نازلت حلب، فخافوا من الحلبيين أن يسلموا البلد كما فعل أهل دمشق، فأرادوا تطييب قلوب العامة فأشير على ابن نور الدين أن يجمعهم في الميدان ويقبل عليهم بنفسه ويخاطبهم بنفسه، فأمر أن يُنادَى باجتماع الناس إلى ميدان باب العراق فاجتمعوا حتى غص الميدان بالناس، فنزل ووقف في رأس الميدان من الشمال وقال لهم: يا أهل حلب أنا ربيبكم ونزيلكم، واللاجئ إليكم، كبيركم عندي بمنزلة الأب، وشابكم عندي بمنزلة الأخ، وصغيركم عندي يحل محل الولد، قال: وخنقته العَبْرة، وسبقته الدمعة، وعلا نشيجه فافتتن الناس وصاحوا صيحة واحدة ورموا بعمائمهم، وضجوا بالبكاء والعويل، وقالوا: نحن عبيدك وعبيد أبيك، نقاتل بين يديك، ونبذل أموالنا وأنفسنا لك، وأقبلوا على الدعاء له والترحم على أبيه، وكانوا قد اشترطوا على الملك الصالح أنه يعيد إليهم شرقية الجامع يصلون فيها على قاعدتهم القديمة، وأن يجهر بحيّ على خير العمل، والأذان والتذكير في الأسواق وقدّام الجنائز بأسماء الأئمة الاثني عشر، وأن يصلُّوا على أمواتهم خمس تكبيرات(١) وأشياء كثيرة اقترحوها مما كان قد أبطله نور الدين ـ رحمه الله ـ فأجيبوا إلى ذلك.

صلاح الدين

فصل

قال ابن أبي طيّ:

وكانت هذه السنة شديدة البرد، كثيرة الثلوج، عظيمة الأمطار، هائجة

---

(١) كل ذلك من شعائر الشيعة التي أبطلها نور الدين، رحمه الله تعالى.

الأهوية، وكان السلطان قد جعل أولاد الداية سبباً يقطع به ألسنة مَن يُنكر عليه الخروج إلى الشام وقصد الملك الصالح، ويقول: أنا إنما أتيت لاستخلاص أولاد الداية وإصلاح شأنهم، وأرسل السلطان إلى حلب رسولاً يعرّض بطلب الصلح، فامتنع كمشتكين فاشتدّ حينئذ السلطان في قتال البلد.

[٣٠٢] وكانت ليالي الجماعة عند الملك الصالح لا تنقضي إلا بنصب الحبائل للسلطان والفكرة في مخاتلته، وإرسال المكروه إليه، فأجمعوا آراءهم على مراسلة سنان صاحب الحشيشية في إرصاد المتالف للسلطان وإرسال مَن يفتك به وضمنوا له على ذلك أموالاً جمة وعدة من القرى، فأرسل سنان جماعة من فُتاك أصحابه لاغتيال السلطان فجاؤوا واختلطوا بالعسكر، وبدر من الحشيشية أحدهم وبيده سكينة مشهورة ليقصد السلطان ويهجم عليه، فلما صار إلى باب الخيمة اعترضه طغريل أمير جاندار⁽¹⁾ فقتله، وطُلب الباقون فقُتلوا بعد أن قتلوا جماعة.

[٣٠٣] قال: ولما فات مَن بحلب الغرض من السلطان بطريق الحشيشية كاتبوا قُمّص⁽²⁾ طرابلس وضمنوا له أشياء كثيرة متى رحل السلطان عن حلب، وكان ـ لعنه الله ـ في أسر نور الدين منذ كسرة حارم، وكان قد بذل في نفسه الأموال العظيمة فلم يقبلها نور الدين، فلما كان قبل موت نور الدين سعى له فخر الدين مسعود بن الزعفراني حتى باعه نور الدين بمبلغ مائة وخمسين ألف دينار وفكاك ألف أسير، واتفق في أوّل هذه السنة موت ملك الفِرَنج صاحب القدس وطبرية وغيرهما فتكفل هذا القُمّص بأمر ولده المَجدوم، فعظم شأنه وزاد خطره، فأرسل إلى السلطان في أمر الحلبيين، وأخبره الرسول أن الفِرَنج قد تعاضدوا وصاروا يداً واحدة، فقال السلطان: لست ممن يرهب بتألب الفِرَنج، وها أنا سائر إليهم، ثم أنهض

---

(١) الجاندار: أمير الجيوش.

(٢) القُمّص: مرتبة كَنَسيّة كبيرة، وتطلق على الأمير أيضاً.

قطعة من جيشه وأمرهم بقصد أنطاكية، فغنموا غنيمة حسنة، وعادوا فقصد القُمّص جهة حمص فرحل السلطان من حلب إليها، فسمع الملعون فنكص راجعاً إلى بلاده، وحصل الغرض من رحيل السلطان عن حلب، ووصل إلى حمص فتسلم القلعة ورتب فيها والياً من قِبَله.

[٣٠٤] فصل في فتح بعلبك

قال العماد:

ولما فرغ السلطان من حمص وحصنها سار إلى بعلبك فتسلمها في رابع شهر رمضان.

قال ابن أبي طيّ:

وكان بها خادم يقال له يمن، فلما شاهد كثرة عساكر السلطان اضطرب في أمره وراسل مَن بحلب على جناح طائر فلم يرجع إليه منهم خبر فطلب الأمان، وسلم بعلبك إلى السلطان.

[٣٠٥] فصل

فيما جرى للمواصلة والحلبيين مع السلطان في هذه السنة

قال ابن شدّاد:

ولما أحس سيف الدين صاحب الموصل بما جرى علم أن الرجل قد استفحل أمره وعظم شأنه وعلَت كلمته، وخاف أنه إن غفل عنه استحوذ على البلاد واستقر قدمه في الملك وتعدّى الأمر إليه، فجهز عسكراً وافراً وجيشاً عظيماً، وقدمّ عليهم أخاه عز الدين مسعود، وساروا يريدون لقاء السلطان، وردّه عن البلاد، فوصل إلى حلب والسلطان بحمص، وانضم إليه من كان بحلب من العسكر، وخرجوا في جمع عظيم، ولما عرف السلطان بمسيرهم سار حتى وافاهم، وراسلهم وراسلوه واجتهد أن يصالحهم فما صالحوه، ورأوا أن المصاف(١) ربما نالوا به الغرض الأكبر

---

(١) أي الحرب.

والمقصود إلأوفر، والقضاء يجر إلى أمور وهم بها لا يشعرون.

وقام المصاف بين العسكرين فقضى الله ـ تعالى ـ أن انكسروا بين يديه، وأسر جماعة منهم ومنّ عليهم وأطلقهم وذلك في تاسع عشر شهر رمضان، ثم سار عُقَيْب انكسارهم، ونزل على حلب وهي الدفعة الثانية، وصالحوه على أن أخذ المعرة وكفر طاب وبارين.

وفي كتاب ابن أبي طيّ: أن ميسرة سيف الدين انكسرت فتحرك إلى جانبها ليكون ردءاً لها ومدداً، فظنّ باقي العسكر أنه قد انهزم فانهزموا، فحقق ما كان وهماً فسار على وجهه لا يلوي على شيء، وتبعهم السلطان فهلك منهم جماعة قتلاً وغرقاً، وأسر جماعة كثيرة من وجوههم وأمرائهم، ثم رجع وأمر أصحابه برفع السيف عن الناس، وترك التعرض لمن وجد منهم بقتل أو نهب، وفرق ما وجد في خزائن سيف الدين، وسيَّر جواريه وحظاياه إلى حلب.

[٣٠٦] ووجد السلطان عسكر الموصل كالحانة من كثرة الخمور والعيدان والمغنين والمغنيات، قال: واشتهر أنه كان مع سيف الدين أكثر من مائة مغنية، وأن السلطان أرى ذلك لعساكره واستعاذ من هذه البلية.

[٣٠٧] فصل في فتح جملة من البلاد حوالي حلب

قال العماد:

ثم نزل السلطان على حصن بُزاعة(١) وتسلمه في الثاني والعشرين من شوّال، ثم فتح منَبِج في التاسع والعشرين منه، وكان فيها الأمير قطب الدين ينال بن حسان، والسلطان لا ينال به إحسان، ولا يحفظ معه شرط أدب، ويواجهه بما يكره، فسلم القلعة بما فيها وقوّم ما كان سلمه

---

(١) بلدة بين مَنْبج وحلب. انظر «معجم البلدان»: ١/ ٤٠٩.

بثلاث مئة ألف دينار، ومضى إلى صاحب الموصل فأقطعه الرَّقّة، فبقي فيها إلى أن أخذها السلطان منه مرة ثانية في سنة ثمان وسبعين.

[٢٠٨] قال ابن أبي طيّ:

لما ملك السلطان مَنْبج وتسلم الحصن صعد إليه وجلس يستعرض أموال ابن حسان وذخائره، فكان في جملة أمواله ثلثمائة ألف دينار، ومن الفضة والآنية الذهبية والأسلحة والذخائر ما يناهز ألفي ألف دينار، فحان من السلطان التفاتة فرأى على الأكياس والآنية مكتوباً يوسف، فسأل عن هذا الاسم فقيل له: ولد يحبه ويؤثره اسمه يوسف كان يدّخر هذه الأموال له، فقال السلطان: أنا يوسف، وقد أخذت ما خُبئ لي، فتعجب الناس من ذلك.

قال: ولما فرغ من مَنبج نزل على عَزاز ونصب عليها عدّة مجانيق، وجدّ في القتال وبذل الأموال.

[٢٠٩] قال العماد: ثم نزل السلطان على حصن عَزاز، وقطع بين الحلبيين وبين الفرنج الجواز، وهو حصن منيع رفيع فحاصره ثمانية وثلاثين يوماً، وكان السلطان قد أشفق على هذا الحصن من موافقة الحلبيين الفِرَنج فإن الغيظ حملهم على مهادنة الفرنج وإطلاق ملوكهم الذين تعب نور الدين - رحمه الله - في أسرهم فرأى السلطان أن يحتاط على المعاقل، فتسلمها حادي عشر ذي الحجة بعد مدّة حصارها المذكورة.

[٢١٠] فصل في وثوب الحشيشية على السلطان مرة ثانية على عَزاز، وكانت الأولى على حلب

قال ابن أبي طَيّ:

لما فتح السلطان حصن بزاعة ومَنبج أيقن مَن بحلب بخروج ما في أيديهم من المعاقل والقلاع، فعادوا إلى عادتهم في نصب الحبائل للسلطان فكاتبوا سناناً صاحب الحشيشية مرة ثانية ورغبوه بالأموال والمواعيد،

وحملوه على إنفاذ من يفتك بالسلطان، فأرسل ـ لعنه الله ـ جماعة من أصحابه فجاؤا بزي الأجناد، ودخلوا بين المقاتلة وباشروا الحرب، وأبلوا فيها أحسن البلاء، وامتزجوا بأصحاب السلطان لعلهم يجدون فرصة ينتهزونها، فبينما السلطان يوماً جالساً في خيمة والحرب قائمة، والسلطان مشغول بالنظر إلى القتال، إذ وثب عليه أحد الحشيشية وضربه بسكينة على رأسه، وكان ـ رحمه الله ـ محترزاً خائفاً من الحشيشية لا ينزع الزردية عن بدنه، ولا صفائح الحديد عن رأسه، فلم تصنع ضربة الحشيشي شيئاً لمكان صفائح الحديد، وأحس الحشيشي بصفائح الحديد على رأس السلطان فمدّ يده بالسكينة إلى خدّ السلطان فجرحه وجرى الدم على وجهه، فتتعتع السلطان لذلك، ولما رأى الحشيشي ذلك هجم على السلطان وجذب رأسه ووضعه على الأرض وركبه لينحره، وكان مَن حول السلطان قد أدركهم دهشة أخذت بعقولهم.

وحضر في ذلك الوقت سيف الدين بازكوج، وقيل إنه كان حاضراً فاخترط سيفه وضرب الحشيشيّ فقتله، وجاء آخر من الحشيشية أيضاً يقصد السلطان فاعترضه الأمير منكلان الكرديّ وضربه بالسيف، وسبق الحشيشيّ إلى منكلان فجرحه في جبهته وقتله منكلان ومات منكلان من ضربة الحشيشيّ بعد أيام، وجاء آخر من الباطنية فحصل في سهم الأمير علي بن أبي الفوارس فهجم على الباطنيّ ودخل الباطني فيه ليضربه فأخذه علي تحت إبطه وبقيت يد الباطني من ورائه لا يتمكن من ضربه فصاح عليّ: اقتلوه واقتلوني معه، فجاء ناصر الدين محمد بن شِيرْكُوه فطعن بطن الباطني بسيفه وما زال يخضخضه فيه حتى سقط ميتاً، ونجا ابن أبي الفوارس، وخرج آخر من الحشيشية منهزماً فلقيه الأمير شهاب الدين محمود خال السلطان فتنكب الباطنيّ عن طريق شهاب الدين فقصده أصحابه وقطّعوه بالسيوف، وأما السلطان فإنه ركب من وقته إلى سرادقه ودمه على خده سائل، وأخذ من ذلك الوقت في الاحتراس والاحتراز، وضرب حول سرادقه برجاً من الخشب كان يجلس فيه وينام، ولا يدخل عليه إلا من يعرفه.

وبطلت الحرب في ذلك اليوم، وخاف الناس على السلطان، واضطرب العسكر وخاف الناس بعضهم من بعض، فألجأت الحال إلى ركوب السلطان ليشاهده الناس فركب حتى سكن العسكر وعاد إلى خيمته، وأخذ في قتال عَزاز فقاتلها مدّة ثمانية وثلاثين يوماً حتى عجز مَن كان فيها وسألوا الأمان، فتسلمها حادي عشر ذي الحجة، وصعد إليها وأصلح ما تهدّم منها ثم أقطعها لابن أخيه تقي الدين عمر.

[٣١١] ولما فرغ السلطان مِن أمر عَزاز حقد على مَن بحلب لما فعلوه من أمر الحشيشية، فسار حتى نزل على حلب خامس عشر ذي الحجة، وجبى أموالها، وأقطع ضياعها، وضيّق على أهلها، ولم يفسح لعسكره في مقاتلتها، بل كان يمنع أن يدخل إليها شيء أو يخرج منها أحد.

ثم دخلت سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة

[٣١٢] قال العماد:

والسلطان مقيم بظاهر حلب، فعرف أهلها أن العقوبة أليمة، والعاقبة وخيمة، فدخلوا من باب التذلل، ولاذوا بالتوسل، وخاطبوا في التفضل، وطلبوا الصلح فأجابهم وعفا وعفّ، وكفى وكفّ، وأبقى للملك الصالح حلباً وأعمالها، وأراد له الإعزاز فردّ عليه عَزاز.

[٣١٣] قال ابن أبي طَيّ:

لما تم الصلح وانعقدت الأيمان عوّل الملك الصالح على مراسلة السلطان، وطلب عَزاز منه، فأشار الأمراء عليه بإنفاذ أخته وكانت صغيرة فأخرجت إليه، فأكرمها السلطان إكراماً عظيماً، وقدّم لها أشياء كثيرة، وأطلق لها قلعة عَزاز وجميع ما فيها من مال وسلاح وميرة، وغير ذلك.

[٣١٤] وقال غيره: بعث الملك الصالح أخته بنت نور الدين إلى صلاح الدين في الليل، فدخلت عليه فقام قائماً، وقبّل الأرض وبكى على نور الدين، فسألت أن يردّ عليهم عَزاز، فقال: سمعاً وطاعة، فأعطاها

إياها، وقدّم لها من الجواهر والتحف والمال شيئاً كثيراً(١).

واتفق مع الملك الصالح أن له من حماة وما فتحه إلى مصر، وأن يطلق الملك الصالح أولاد الداية.

قال العماد:

وحلفوا له على كل ما شرطه، واعتذروا عن كل ما أسخطه، وكان الصلح عاماً لهم وللمواصلة وأهل ديار بكر، وكتبت في نسخة اليمين أنه إذا غدر منهم واحد وخالف، ولم يف بما عليه حالف، كان الباقون عليه يداً واحدة، وعزيمة متعاقدة، حتى يفيء إلى الوفاء، ويرجع إلى مرافقة الرفاق.

[٣١٥] فلما انتظم الصلح ذكر السلطان ثأره عن الإسماعيلية وكيف قصدوه بتلك البَلية، فرحل يوم الجمعة لعشر بقين من المحرم فحصر حصنهم مصيات(٢)، ونصب عليه المجانيق الكبار، وأوسعهم قتلاً وأسراً، وساق أبقارهم، وخرب ديارهم وهدم أعمارهم، وهتك أستارهم، حتى شفع فيهم خاله شهاب الدين محمود بن تكش صاحب حماة، وكانوا قد راسلوه في ذلك لأنهم جيرانه، فرحل عنهم وقد انتقم منهم.

[٣١٦] قال: وكان الفِرَنج قد أغاروا على البقاع، فخرج إليهم شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدّم ـ وهو متولي بعلبك ومدبر أحوالها ـ فقتل منهم وأسر أكثر من مائتي أسير، وأحضرهم عند السلطان وهو على حصار مصيات.

[٣١٧] قال ابن أبي طيّ:

وهذا أكبر الدواعي في مصالحة السلطان لسنان وخروجه من بلاد الإسماعيلية؛ لأن السلطان خاف أن تهيج الفِرَنج في الشام الأعلى وهو بعيد عنه، فربما ظفروا من البلاد بطائل، فصالح سناناً وعاد إلى دمشق.

---

(١) وهذا يدل على وفاته لنور الدين، رحمهما الله تعالى.

(٢) حصن غرب سورية عند جبال النصريين.

فصل في رجوع السلطان إلى مصر

خرج من دمشق يوم الجمعة رابع شهر ربيع الأوّل، وكان الدخول إلى القاهرة يوم السبت سادس عشر ربيع الأوّل بالزي الأجمل والعزّ الأكمل.

[٣١٨] فصل في بيع الكتب⁽¹⁾ وعمارة القلعة والمدرسة والبيمارستان⁽²⁾

قال العماد:

وكان لبيع الكتب في القصر كل أسبوع يومان، وهي تباع بأرخص الأثمان، وخزائنها في القصر مرتّبة البيوت، مقسمة الرفوف، مفهرسة بالمعروف، فقيل للأمير بهاء الدين قراقوش متولي القصر: هذه الكتب قد عاث فيها العَثّ، ولا غنى عن تهويتها ونفضها، وإخراجها من بيوت الخزانة - وهو تركي لا خبرة له بالكتب، ولا دربة له بأسفار الأدب - وكان مقصود دلالي الكتب أن يوكسوها⁽³⁾ ويخرموها، فأخرجت وهي أكثر من مائة ألف من أماكنها، وغُرِّبت من مساكنها، وخُربت أوكارها، وذهبت أنوارها، واختلط أدبيها بنجوميّها، وشرعيُّها بمنطقيّها، وطبّيها بهندسيها، وتواريخها بتفاسيرها، ومجاهيلها بمشاهيرها، وكان فيها من الكتب الكبار، وتواريخ الأمصار، ومصنفات الأخبار، ما يشتمل كل كتاب على خمسين أو ستين جزءاً مجلداً، إذا فقد منها جزء لا يخلف أبداً، فاختلطت واختبطت فكان الدلال يخرج عشرة عشرة من كل فن كتباً، فتسام بالدون، وتباع بالهون، والدلال يعلم أن عنده من أجناسها وأنواعها، وقد شارك غيره في ابتياعها حتى إذا لفق كتاباً قد تقوّم عليه بعشرة باعه بعد ذلك لنفسه بمائة.

[٣١٩] قال: فلما رأيت الأمر حضرتُ القصر واشتريت كما اشتروا،

---

(١) أي التي كانت للعُبيديين الخلفاء بمصر.

(٢) المستشفى.

(٣) أي ينقصوا قيمتها، وانظر «المعجم الوسيط»: وكس.

وحويت نفائس الأنواع، ولما عرف السلطان ما ابتعته وكان بمثين أنعم عليّ بها، وأبرأ ذمتي من ذهبها، ثم وهب لي أيضاً من خزانة القصر ما عينت عينه من كتبها، ودخلت عليه يوماً وبين يديه مجلدات كثيرة انتُقيت له من القصر، وهو ينظر في بعضها قال: وكنت طلبت كتباً عينتها، فقال: وهل في هذه شيء منها؟ فقلت: كلها، وما أستغني عنها، فأخرجتها من عنده بحمال، وكان هذا منه بالإضافة إلى سماحه أقلّ نوال.

[٣٢٠] قال: وكان السلطان لما تملك مصر رأى أن مصر والقاهرة لكل واحدة منهما سور لا يمنعها فقال: إن أفردت كل واحدة بسور احتاجت إلى جند مفرد يحميها، وإني أرى أن أدير عليهما سوراً واحداً، وأمر ببناء قلعة في الوسط عند مسجد سعد الدولة على جبل المقطم، ومبلغه⁽¹⁾ وهو دائر البلدين مصر والقاهرة بما فيه من ساحل البحر والقلعة بالجبل تسعة وعشرون ألفاً وثلثمائة وذراعان.

وبنى القلعة على الجبل وأعطاها حقها من إحكام العمل وقَطْع الخندق وتعميقه، وحفر واديه وتضييق طريقه، وحفر في رأس الجبل بئراً ينزل فيها بالدرج المنحوتة من الجبل إلى الماء المعين، وتوفي السلطان وقد بقي من السور مواضع والعمارة فيه مستمرة.

[٣٢١] قال: وأمر ببناء المدرسة بالتربة المقدسة الشافعية، ورتب قواعدها، وتولاها الفقيه الزاهد نجم الدين الخَبُوْشاني⁽²⁾، وهو الشيخ الصالح الفقيه، الورع التقي النقي.

[٣٢٢] قال: وأمر باتخاذ دار في القصر بيمارستاناً للمرضى، واستغفر الله بذلك واسترضى، ووقف على البيمارستان والمدرسة وقوفاً، وقد أبطل منكراً وأشاع معروفاً، وأضرب عن ضرائب فمحاها.

---

(١) أي محيط السور.

(٢) توفي سنة ٥٨٧ بمصر، رحمه الله تعالى.

ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة

[٢٣٣] فصل في نوبة كسرة الرملة

قال القاضي ابن شدّاد:

خرج السلطان يطلب الساحل حتى وافى الفِرَنج على الرملة، وذلك في أوائل جمادى الأولى، وكان مقدّم الفِرَنج البرنسَ(١) أرناط، وكان قد بيع بحلب فإنه كان أسيراً بها من زمن نور الدين ـ رحمه الله ـ وجرى خلل في ذلك اليوم على المسلمين.

ولقد حكى السلطان ـ قدّس الله روحه ـ صورة الكسرة في ذلك اليوم، وذلك أن المسلمين كانوا قد تعبّوا تعبية الحرب، فلما قارب العدوّ رأى بعض الجماعة تغيير الميمنة إلى جهة الميسرة والميسرة إلى جهة القلب ليكون حال اللقاء وراء ظهورهم تل معروف بأرض الرملة، فبينما اشتغلوا بهذه التعبية هجم الفرنج وقدّر الله كسرهم فانكسروا كسرة عظيمة، ولم يكن لهم حصن قريب يأوون إليه، فطلبوا جهة الديار المصرية، وضلوا في الطريق وتبدّدوا، وأسر منهم جماعة منهم الفقيه عيسى، وكان وهناً عظيماً جبره الله ـ تعالى ـ بوقعة حطين المشهورة، ولله الحمد.

قلت: وذلك بعد عشر سنين، فكسرة الرملة هذه كانت في سنة ثلاث وسبعين، وكسرة حطين كانت في سنة ثلاث وثمانين.

ثم دخلت سنة أربع وسبعين وخمسمائة

فصل قال العماد: ذكر ما أسقطه السلطان من مكس(٢) مكة ـ شرفها الله تعالى ـ عن الحاج وتعويض أميرها

كان الرسم بمكة أن يؤخذ من حاج المغرب على عدد الرؤوس ما

---

(١) أي الأمير.

(٢) أي الضريبة.

ينسب إلى الضرائب والمكوس، فإذا دخل حاج حُبس حتى يؤدي مَكسه، ويفك بما يطلبونه منه نفسه، وإذا كان فقيراً لا يملك فهو يحبس ولا يُترك، ويفوته الوقفة بعرفة، فقال السلطان: نريد أن نعوّض أمير مكة عن هذا المكس بمال، ونغنيه عنه بنوال، وإن أعطيناه ضياعاً استوعبها انتفاعاً فلا يكون لأهل مكة فيها نصيب، فقرر معه أن يحمل إليه في كل سنة مبلغ ثمانية آلاف إرْدَبّ(١) قمح إلى ساحل جدة، فإن الأمير يحتاج إلى بيعها للانتفاع بأثمانها، وقرر أيضاً حمل الغلات إلى المجاورين بالحرمين والفقراء، ومَن هناك من الشرفاء، ووقف لها وقوفاً، وخلد بها إلى قيام الساعة معروفاً، فسقطت المكوس، واغتبطت النفوس، وزاد البشر وزال العبوس، واستمرت النُّعمى وزال البُوس، وذلك في سنة اثنتين وسبعين.

[٣٢٥] ومن كلام الفاضل في ذلك في بعض كتبه:

من البشائر التي لا عهد لحاج ديار مصر بمثلها، ولا عهد لملك من ملوك الديار المصرية بالحصول على فخرها وأجرها انقطاع المكّاسين عن جدة وعن بقية السواحل، ويكفي أن تمام هذه المثوبة موجب الاستطاعة في الحج، فقد كانت الفتيا على سقوطه.

وما أكثر ما أجرى الله للخلائق على يد المولى(٢) من الأرزاق التي تفضل عن الاستحقاق، وما أولاه بأن يتوخّى بالمعروف مكانه من هذين الحرمين الشريفين المهجورين من إسعاف أهل الاقتدار، والمحروم مَن قدر فيهما على خير فأضاع فرصته.

وغير خاف عن مولانا همة الفِرَنج بالقدس براً وبحراً، وسلماً وحرباً، وبعداً وقرباً، وتوافيهم على حماسه وهو أنف في وجه الإسلام، ومسارعتهم إلى نصرة أهليه بالأرواح والأموال على مر الأيام، ومعاذ الله أن يستبصروا في الضلال ونُصرف نحن عن الحق ويضيق بنا في التوسعة على أهله سعة المجال،

---

(١) مكيال يسع أربعة وعشرين صاعاً: (المعجم الوسيط): إردب.

(٢) أي صلاح الدين.

والمملوك في مستهل رجب ـ بمشيئة الله ـ معول على السفر إلى الحجاز لقضاء الفريضة قولاً وفعلاً، والسائرون في هذه السنة ـ بطَمْعَة وقفة الجمعة وبفسحة وضع المَكْس ـ خلقٌ لا يُحصى، والمولى شريك في أجرهم، فليهنه أن الملوك عمرت بيوتها فخربت، وأن المولى عمر بيت الله.

فصل كالذي قبله في حوادث متفرقة

[٣٣٦] قال ابن الأثير:

وفي سنة أربع وسبعين وخمس مئة اشتد الغلاء وعم أكثر البلاد: العراق ومصر وديار بكر وديار الجزيرة والشام وغير ذلك من البلاد، ودام إلى أن انقضى سنة خمس وسبعين، وخرج الناس في البلاد يستسقون فلم يُسقَوا، ثم إن الله ـ تعالى ـ رحم عباده ولطف بهم وأنزل عليهم الغيث وأرخص الأسعار.

[٣٣٧] ومن عجيب ما رأيت تلك السنة أنني كنت في الجزيرة فأقبل إنسان تركماني قد أثر فيه الجوع وكأنه قد أخرج من قبر فبكى وشكا الجوع، فأرسلت من اشترى له خبزاً فتأخر إحضاره لعدمه وهو يبكي ويتمرغ على الأرض، فتغيمت السماء وجاءت نقط مطر متفرّقة وضجّ الناس، ثم جاء الخبز فأكل التركمانيّ وأخذ الباقي معه ومشى، واشتدّ المطر ودام من تلك الساعة، فرخصت الأسعار ووُجدت الأقوات بعد أن كانت معدومة، ثم تعقب الغلاء وباء شديد كثير، فمات فيه من كل بلد أمم لا يُحصون كثرة، ولقي الناس منه ما أعجزهم حمله، ثم إن الله ـ تعالى ـ رفعه في سنة ستٍّ وسبعين وخمسمائة وقد ضُعضع العالم.

[٣٣٨] فصل في عمارة حصن بيت الأحزان ووقعة الهنفري(١)

قال العماد:

وفي مدّة مقام السلطان على بعلبك واشتغاله بأمرها انتهز الفرنج

---

(١) أمير بانياس من قِبَل الفِرَنج.

الفرصة فبنوا حصناً على مخاضة بيت الأحزان، وبينه وبين دمشق مسافة يوم، وبينه وبين صفد وطبرية نصف يوم، وقيل للسلطان: متى أحكم هذا الحصن تحكم من الثغر الإسلامي الوهن، فلما انقضى أمر بعلبك وصل السلطان دمشق فأقام بها وأمر الحصن من همه، وقصد حصاره من عزمه، وكان العام مجدباً والجدب عاماً، وقيل للسلطان: ليس هذه سنةَ جهاد فإن استمنحوك السلامة فامنح وإن جنحوا للسلم فاجنح، فقال السلطان: إن الله أمر بالجهاد وكفل بالرزق، فأمره واجب الامتثال، ووعده ضامن الصدق، فنأتي بما كلفنا لنفوز بما كفله، ومن أغفل أمره أغفله.

[٣٢٩] قال: وفي مستهل ذي القعدة كانت وقعة هنفري ومقتله؛ وذلك أن الأخبار تواترت بأن الفِرَنج قد تجمعوا في جمع عظيم، وأنهم عازمون على الخروج على المسلمين على غرة، فقدم السلطان ابن أخيه فَرُّخشاه على عساكر دمشق وأمره أن يخرج إلى الثغر، ففعل، وأمره إن علم بخروجهم أن يُنفِذ إلى السلطان يعلمه بذلك ولا يلقاهم بل يتركهم حتى يتوسطوا البلاد، فلم يشعر فرخشاه إلا وقد خالطوهم على غرّة فوقعت الوقعة، فقُتل صاحب الناصرة وجماعة من مقدّميهم وطُلب الملك فطرح حصانه، وجرح فرسانه وجاء الهنفري ليحميه فوقعت فيه جراحات، وضُرب ثلاثاً في جنبه فكُسر له ضلعان، وقتلت عدّة من الرجالة والخيالة، ورجعت الفرنج بخزي عظيم ليس فيهم إلا مجروح، وكل يوم ترد البشرى بموت مقدّم من جراحة أصابته، وذلت الفِرَنج بعدها وانكسرت بموت الهنفري.

[٣٣٠] فصل فيما فعل مع الفرنج في باقي هذه السنة وأول الأخرى ووقعة مرج عيون(١)

قال ابن أبي طيّ:

كانت الفرنج قد عمرت بيت الأحزان، وكان على المسلمين منه ضرر

---

(١) بلدة في جنوب لبنان اليوم.

عظيم، فراسل السلطان الفرنج في هدمه، فأجابوا إنه لا سبيل إلى هدمه إلا أن يعطينا ما غرمنا عليه، فبذل لهم السلطان ستين ألف دينار فامتنعوا، فزادهم إلى أن بلغ مائة ألف دينار، وكان هذا الحصن للداوية(١) وكانوا يقوّون من فيه بالأموال والنفقات لقطع الطرقات على قوافل المسلمين، فأشار تقي الدين(٢) على السلطان ببذل هذا المال لأجناد المسلمين ويخرج بهم إلى الحصن ويهدمه ففعل ذلك كما سنذكره.

[٣٣١] ثم دخلت سنة خمس وسبعين

والسلطان نازل على تل القاضي ببانياس، فأجمع رأيه مع بقية المسلمين على أن يقتحموا على الكفار ديارهم فرحلوا صوب البقاع فنهضوا تلك الليلة وهي ليلة الأحد ثاني المحرم، فلما أصبح السلطان جاءه الخبر بأن الفرنج قد خرجت فالتقاهم، وأنزل الله نصره على المسلمين وأسر فرسانهم وشجعانهم، وانهزمت رجّالتهم في أول اللقاء، فكان من جملة الأسرى مقدّم الداوية ومقدّم الاسبتارية(٣) وصاحب طبرية، وأخو صاحب جُبيل، وابن القُمّصية، وابن بارزان صاحب الرملة، وعدة كثيرة من خيّالة القدس وعكّا وغيرهم من المقدّمين الأكابر ما زاد على مائتين ونيّف وسبعين سوى غيرهم، ثم قدمت الأسارى وهم يتهادون كأنهم سكارى.

---

(١) قوم من الإفرنج يحبسون أنفسهم لقتال المسلمين، ويمتنعون من النكاح وغيره، ولهم أموال وسلاح ولا طاعة عليهم لأحد، وقد تأسست هذه الفرقة سنة ١١١٩م، ثم تحولت إلى هيئة حربية دينية لها عدة حصون وقلاع ببلاد الشام وتسمى هيئة فرسان الهيكل، وانظر «عيون الروضتين»: ١/ ٣٠٥ هامش(١)، وانظر «التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية»: ص٤١، حاشية٥.

(٢) هو تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين.

(٣) فرقة حربية دينية تأسست بعد أخذ الصليبيين لبيت المقدس سنة ١٠٩٩م، وكانوا مقيمين في القدس قبل أخذها ولهم فيها دار لإيواء حجاج النصارى ومرضاهم، ثم تحولوا إلى أن يكونوا هيئة حربية دينية، وصار لهم عدة حصون معاقل ببلاد الشام، وتسمى هيئة فرسان القديس يوحنّا، انظر المصدر السابق. وانظر «عيون الروضتين»: ١/ ٣٠٥، هامش(١).

قال العماد:

وأنا جالس بقرب السلطان أستعرضهم بقلمي، ومن ألطاف الله - تعالى - أنّا وخواصه الحاضرين لم نزد على عشرين والأُسَراء قد أنافوا على سبعين، وقد أنزل الله علينا السكينة، وخصهم بالذلة المستكينة، وطلع الصباح، ورفع المصباح، وقمنا وصلينا بالوضوء الذي صلينا به العشاء، ثم عُرض الباقون من الأسراء، ثم نقلوا إلى دمشق، فأما ابن بارزان فإنه بعد سنة بذل في نفسه مائة وخمسين ألف دينار صورية وإطلاق ألف أسير من المسلمين، وكان الفقيه ضياء الدين عيسى من نوبة الرملة عندهم من المأسورين فالتزم فكاكه، وأما ابن القُمّصية فإنه استفكّته أمه بخمسة وخمسين ألفاً من الدنانير الصورية، وأما مقدّم الداوية فإنه انتقل من سجنه إلى سجِّين(١)، فطُلبت جيفته فأخذوها بإطلاق أسير من مقدّمي المؤمنين، وطال أسر الباقين فمنهم من هلك وهو عان(٢) ومنهم من خرج بقطيعة وأمان، وهذه هي وقعة مرج عيون، وكان العدو في عشرة آلاف مقاتل، وانهزم ملكهم مجروحاً.

[٢٣٢] فصل في تخريب حصن بيت الأحزان
وذلك في شهر ربيع الأول

قال العماد:

جمع السلطان جموعاً كثيرة من الخيّالة والرّجّالة، وزحفوا إلى الحصن بعد العصر، وباتوا طول الليل يحرسون وخافوا أن يفتح الفرنج الأبواب ويغيروا عليهم على غرة، وإذا بالفرنج قد أوقدوا خلف كل باب ناراً ليأمنوا من المسلمين اغتراراً، فاطمأن المسلمون وقالوا: ما بقي إلا نقب البرج(٣)، ففرقه السلطان على الأمراء، وأخذ السلطان الجانب الشمالي، وكان البرج

---

(١) أي قتل لعظم خطره وخطر طائفته، وسجين هي النار والعياذ بالله.

(٢) أي وهو أسير.

(٣) أي إحداث فروج فيه ليحرق بعد ذلك.

محكم البناء فصعب نقبه لكن ما انقضى يوم الأحد إلا وقد تم نقب السلطان، وحُشي بالحطب ليلة الاثنين وحُرّق، وكان النقب في طول ثلاثين ذراعاً في عرض ثلاث أذرع، وكان عرض السور تسعة أذرع فما تأثر بذلك، فاحتاج السلطان صبيحة يوم الاثنين إلى إطفاء النيران ليتم نقبه، وقال: من جاء بقربة ماء فله دينار.

قال العماد: فرأيت الناس للقرب حاملين، ولأوعية الماء ناقلين، حتى أغرقوا تلك الثقوب فخمدت فعاد نقّابوها وقد بردت فخرقوه وعمقوه وفتحوه وفتقوه وشقوا حجره وفلقوه، ثم حشوه، ثم أحرقوه، واشتدّ الحرص عليه؛ لأن الخبر أتاهم بأن الفرنج قد اجتمعوا بطبرية في جمع كثير، فلما أصبح يوم الخميس الرابع والعشرين من ربيع الأوّل وتعالى النهار انقض الجدار، وتباشرت الأبرار.

وكان الفرنج قد جمعوا وراء ذلك الواقع حطباً فلما وقع الجدار دخلت الرياح فردّت النار عليهم وأحرقت بيوتهم وطائفة منهم، فاجتمعوا إلى الجانب البعيد من النار وطلبوا الأمان، فلما خمدت النيران دخل الناس وقتلوا وأسروا، وغنموا مئة ألف قطعة من الحديد من جميع أنواع الأسلحة، وشيئاً كثيراً من الأقوات وغيرها، وجيء بالأسارى إلى السلطان فمن كان مرتداً أو رامياً ضربت عنقه، وأكثر من أسر قتله في الطريق الغزاة المطوّعة، وكان عدّة الأسارى نحو سبعمائة، وخلص من الأسر أكثر من مائة مسلم، وسير باقي الأسارى إلى دمشق، وأقام السلطان في منزلته حتى هدّوا الحصن إلى الأساس، وقد كان السلطان بذل لهم في هدمه ستين ألف دينار فلم يفعلوا فزادهم حتى بلغ مائة ألف فأبوا.

وكان مدّة المقام على الحصن في أيام فتحه وبعدها أربعة عشر يوماً، وبعد ذلك سار السلطان إلى أعمال طبرية وصور وبيروت وغيرها فأغار عليها وأرجف قلوبهم بوصوله إليها، ورجع السلطان إلى دمشق يوم الأربعاء، ومرض جماعة من الوباء لأن الحرّ كان شديداً، وأنتنت جيف

القتلى وطوّل السلطان المقام عليه بعد فتحه لأجل تتميم هدمه فتوفي أكثر من عشرة أمراء، وعاد المشهد اليعقوبيّ كما كان مزوراً، وبتكبير المسلمين وصلاتهم معموراً.

[٣٣٣] وهنأ الشعراء السلطان بفتح هذا الحصن، فمن ذلك ما أنشده أحمد بن نقادة الدمشقيّ من جملة مدائحه:

هلاك الفرنج أتى عاجلاً وقد آن تكسير صلبانها
ولو لم يكن قد دنا حتفها لما عمرت بيت أحزانها

فصل في باقي حوادث هذه السنة، منها
حجة الفاضل الثانية

قال العماد:

وفي العشر الأخير من شوّال سنة خمس وسبعين خرج الفاضل من دمشق إلى الحج، ثم عاد إلى مصر من مكة.

[٣٣٤] قلت: وقفت على نسخة كتاب الفاضل إلى الصفي بن القابض يصف له ما لقي في طريقه إلى مصر وركوب البحر، وكانت جماله ذهبت بمكة في خامس عشر ذي الحجة فقال:

«خرجنا من مكة - شرفها الله - يوم الخامس والعشرين من ذي الحجة، وفي هذه الأيام زاد تبسط المفسدين، وإسراف المسرفين، وظهر من هوان أمير الحاج العراقي ومن ضعف نفسه وانخفاض جناحه ما أطمع المفسد وأخاف المصلح.

ووصلنا إلى جدّة يوم الأحد السابع والعشرين من ذي الحجة، وركبنا البحر في يوم الثلاثاء التاسع والعشرين منه، وبتنا فيه ليلتي الأربعاء والخميس، ورمتنا الريح إلى جزيرة بالقرب من بلاد اليمن تسمّى دبادب.

وكانت إحدى الليلتين في البحر من ليالي البلاء، وبالله أقسم لقد شابَ بعض رؤوس أصحابنا في تلك الليلة، وأيسوا من الأنفس، وتمنوا

معاجلة الأمر وتقصير العذاب، وظنوا أنهم أحيط بهم، وعاتبوا أنفسهم ثم احتجوا عليها بالأقدار التي لا حيلة فيها، وصبرنا إلى أن فرّج الله ـ سبحانه ـ، ونزلنا البرية بحيث لا ماء يُشرب ولا جمل يُركب، وأنفذنا⁽¹⁾ إلى النازلين على ساحل البحر فأحضروا جمالاً ضعيفة أجرتها أكثر من ثمنها وثمن ما تحمله، فركبناها ووصلنا إلى عَيْذاب⁽²⁾ بعد عشرة أيام، وقد هلكنا ضعفاً وتعباً وجوعاً وعطشاً لأن الخلق كانوا كثيراً، والزاد يسيراً.

وركبنا البرية من عَيْذاب إلى أسوان فكانت أشق من كل طريق سلكناها، ومن كل مسافة قطعناها، لأنّا وردنا الماء في إحدى عشرة ليلة مرتين، فكانت البلوى عظيمة في العطش، فأما الحُزُون⁽³⁾ والوعور فهي تزيد على ما في برية الشام بكونها طريقاً بين جبلين، كالدرب المتضايق والزقاق المتقارب، وحر الشمس شديد، ولطف اللهُ إلى أن وصلنا مصر في السابع عشر من صفر.

[٣٣٥] قلت: وللوجيه بن الذروي⁽⁴⁾ في الفاضل:

لــك الله إمــا حــجــة أو وفــادة　　فـمـن مـشـهـد يوصـي الإلـه ومـوسـم
تُـرى تـارة بـيـن الـصـوارم والـقَـنـا　　وطـوْراً تُـرى بـيـن الـحـطـيـم وزمـزم
وكـم لـك يـا عـبـد الـرحـيـم مـآثـر　　لـهـا فـي سـمـاء الـفـخـر إشـراق أنـجـم
كـأنـك لـم تُـخـلـق لـغـيـر عـبـادة　　وإظـهـار فـضـل فـي الـورى وتـكـرم

ثم دخلت سنة ست وسبعين وخمسمائة

[٣٣٦] فصل في وفاة صاحب الموصل

قال العماد:

وفي أوائل هذه السنة توفي صاحب الموصل سيف الدين غازي بن

---

(١) أي أرسلنا.

(٢) ميناء على البحر الأحمر.

(٣) الحُزُون: جمع حَزن، وهو ما غلظ من الأرض.

(٤) القاضي علي بن يحيى، توفي سنة ٥٧٧. انظر «فوات الوفيات»: ٣/ ١١٣ ـ ١١٧.

مودود بن زنكي صاحب الموصل، وجلس مكانه أخوه عز الدين مسعود بن مودود.

قال ابن الأثير:

توفي سيف الدين يوم الأحد ثالث صفر سنة ست وسبعين، وكان مرضه السل وطال به.

[٣٣٧] قال: ومن العجائب أن الناس لما خرجوا يستسقون بالمَوْصل سنة خمس وسبعين للغلاء الحادث في البلاد خرج سيف الدين في موكبه، فثار الناس وقصدوه مستغيثين به، وطلبوا منه أن يأمر بالمنع من بيع الخمر فأجابهم إلى ذلك، فدخلوا البلد وقصدوا مساكن الخمارين وخربوا أبوابها ونهبوها، وأراقوا الخمر وكسروا الأواني، وعملوا ما لا يحل، فاستغاث أصحاب الدور إلى نواب السلطان، وخصوا بالشكوى رجلاً من الصالحين يقال له أبو الفرج الدقاق، ولم يكن له في الذي فعله الناس من النهب فعل إنما هو أراق الخمور، ولما رأى فعل العامة نهاهم فلم يسمعوا منه، فلما شكي أحضر بالقلعة وضُرب على رأسه فسقطت عمامته، فلما أطلق لينزل من القلعة نزل مكشوف الرأس فأرادوا تغطيته بعمامته فلم يفعل، وقال: والله لا غطيته حتى ينتقم الله ممن ظلمني، فلم يمض غير قليل حتى توفي الدُزْدار(١) المباشر لأذاه.

[٣٣٨] ثم تعقبه مرض سيف الدين، ودام مرضه إلى أن توفي، وكان عمره نحو ثلاثين سنة، وكانت ولايته عشر سنين وشهوراً، وكان من أحسن الناس صورة، تامَّ القامة، مليح الشمائل، أبيض اللون، مستدير اللحية، متوسط البدن بين السمين والدقيق، وكان عاقلاً وقوراً، وإذا جلس عفيفاً، لم يُذكر عنه شيء من الأسباب التي تنافي العفة، وكان غيوراً شديد الغيرة، لم يترك أحداً من الخدم يدخل دور نسائه إذا كبر، إنما يدخل عليهنَّ الخدم الصغار، وكان لا يحب سفك الدماء ولا أخذ الأموال مع شح فيه.

---

(١) الوالي.

قال: ولما اشتد مرضه أراد أن يعهد بالملك لولده معز الدين سنجر شاه فخاف من ذلك؛ لأن صلاح الدين يوسف بن أيوب كان قد تمكن بالشام وقويت شوكته، وامتنع أخوه عز الدين من الإذعان والإجابة إلى ذلك، فأشار الأمراء الكبار ومجاهد الدين قايماز بأن يجعل الملك بعده في أخيه لما هو عليه من كبر السن والشجاعة والعقل، وقوة النفس وحسن سياسة الملك، وأن يعطي ابنيه بعض البلاد ويكون مرجعهما إلى عمهما عز الدين ليبقى لهما ذلك، ففعل ذلك وحلف الناس لأخيه.

[٣٣٩] فصل في ذكر وفاة الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين ــ رحمهما الله ــ وما تم في بلاده بعده وذلك بحلب

قال ابن شدّاد:

وكان أوّل مرضه في تاسع رجب، وفي الثالث والعشرين منه أغلق باب قلعة حلب لشدّة مرضه، واستدعى الأمراء واحداً واحداً، واستُحلفوا لعز الدين صاحب الموصل، وفي الخامس والعشرين منه توفي ـ رحمه الله ـ وكان لموته وقع عظيم في قلوب الناس.

وقال ابن أبي طيّ:

كان سبب موته أن علم الدين سليمان بن جندر سقاه سماً في عنقود عنب وهو في الصيد، وقيل: الذي سقاه ياقوت الأسدي في شراب.

وقال: ودفن بالمقام الكبير الذي في القلعة وحزن الناس له حزناً عظيماً.

[٣٤٠] قلت: وبلغني أنه كان يقال إن موت الملك الصالح صغيراً كان من كرامات نور الدين ـ رحمه الله ـ فإنه سأل الله ـ تعالى ـ أن لا يعذب شيئاً من أجزائه بالنار، وولده جزؤه فمات قبل أن يطول عمره على أحسن سيرة وحالة ـ رحمهما الله ـ.

[٣٤١] قال ابن الأثير:

ولم يبلغ عشرين سنة، ولما اشتدّ مرضه وصف له الأطباء شرب الخمر تداوياً بها فقال: لا أفعل حتى أستفتي الفقهاء، وكان عنده علاء الدين الكاساني الفقيه الحنفي بمنزلة كبيرة، يعتقد فيه اعتقاداً حسناً ويكرمه، فاستفتاه فأفتاه بجواز شربها، فقال له: يا علاء الدين، إن كان الله - سبحانه وتعالى - قد قرب أجلي أيُؤخِّره شرب الخمر؟ قال: لا والله، قال: والله لا لقيت الله - تعالى - وقد استعملت ما حرمه عليَّ.

قلت: يحتمل أنه ذكر له أن من العلماء من ذهب إلى جواز ذلك لا أنه كان يرى ذلك فإن مذهبه بخلافه، والله أعلم.

[٣٤٢] ثم قال ابن الأثير:

فلما أيس من نفسه أحضر الأمراء كلهم وسائر الأجناد، واستحلفهم لابن عمه أتابك عز الدين، وأمرهم بتسليم مملكته جميعاً إليه، فقال له بعضهم: إن ابن عمك عز الدين له الموصل وغيرها من البلاد من هَمَذان إلى الفرات، فلو أوصيت بحلب للمولى عماد الدين ابن عمك لكان أحسن، ثم هو تربية والدك وزوج أختك، وهو أيضاً عديم المثل في الشجاعة والعقل والتدبير، وشرف الأعراق، وطهارة الأخلاق والخلال التي تفرد بها، فقال: إن هذا لم يغب عني، ولكن قد علمتم تغلب صلاح الدين على عامة بلاد الشام سوى ما بيدي ومعي، فإن سلمت حلب إلى عماد الدين يعجز عن حفظها من صلاح الدين، فإن ملكها صلاح الدين فلا يبقى لأهلنا معه مقام، وإذا سلمتها إلى عز الدين أمكنه أن يحفظها لكثرة عساكره وبلاده وأمواله، فاستحسن الحاضرون قوله، وعلموا صحته، وعجبوا من جودة رأيه مع شدّة مرضه، ومن أشبه أباه فما ظلم.

فلما توفي أرسل دُزدار(١) حلب - وهو شاذبخت - وسائر الأمراء إلى أتابك عز الدين يدعونه إلى حلب ليسلموها إليه، فورد الخبر ومجاهد الدين

---

(١) أي والي حلب.

قايماز قد سار إلى ماردين لمهم عرض، فلقي القاصدين عندها فأخبروه الخبر فسار إلى الفرات، وأرسل إلى أتابك عز الدين ويشير بتعجيل الحركة، وأقام على الفرات ينتظره، فسار أتابك مجداً فلما وصل إلى المنزلة التي بها مجاهد الدين أقام معه، وأرسل إلى حلب يستحضر الأمراء فحضروا كلهم عنده وجددوا اليمين له، فسار حينئذ إلى حلب ودخلها وكان يوماً مشهوداً.

ولما عبر الفرات كان تقي الدين عمر بن أخي صلاح الدين بمدينة مَنبج فسار عنها هارباً إلى مدينة حماة، وثار أهل حماة ونادوا بشعار أتابك، وكان صلاح الدين بمصر، فأشار عسكر حلب على عز الدين بقصد دمشق وأطمعوه فيها وفي غيرها من البلاد الشامية، وأعلموه محبة أهلها للبيت الأتابكي فلم يفعل وقال: بيننا يمين فلا نغدر به، وأقام بحلب عدّة شهور ثم سار منها إلى الرَقّة، فأقام بها، وجاءه رسول أخيه عماد الدين يطلب أن يسلم إليه حلب ويأخذ منه عوضها مدينة سنجار فلم يجبه إلى ذلك، ولجّ عماد الدين وقال: إن سلمتم إليَّ حلب وإلا سلمت أنا سنجار إلى صلاح الدين، فأشار حينئذ الجماعة بتسليمها إليه وكان أكبرهم في ذلك مجاهد الدين قايماز فإنه لجّ في تسليمها إلى عماد الدين، فوافقه وهو كاره فسلم حلب إلى أخيه وتسلم سنجار، وعاد إلى الموصل.

[٢٤٣] وكان صلاح الدين بمصر وقد أيس من العود إلى الشام، فلما بلغه ذلك برز عن القاهرة إلى الشام، فلما سمع أتابك عز الدين بوصول صلاح الدين إلى الشام جمع عساكره وسار عن المؤصل خوفاً على حلب من صلاح الدين، فاتفق أن بعض الأمراء الأكابر مال إلى صلاح الدين وعبر الفرات إليه، فلما رأى أتابك ذلك لم يثق بعده إلى أحد من أمرائه إذ كان ذلك الأمير أوثقَهم في نفسه، فعاد إلى الموصل وعبر صلاح الدين الفرات وملك البلاد الجزرية، ونازل الموصل فلم يتمكن من النزول عليها، وعاد إلى حلب وحصرها فسلمها عماد الدين إليه، وسبب ذلك أن

عز الدين لما تسلم حلب لم يترك في خزائنها من السلاح والأموال شيئاً إلا نقله إلى الموصل، وتسلمها عماد الدين وهي كما يقال: بطن حمار⁽¹⁾، فهو كان السبب في تسليمها.

[٣٤٤] وقال العماد: كان قصد السلطان إصلاح حال الملك الصالح وأنه القائم مقام أبيه فصده عنه مماليكه فأخذت بلاده بلجاجهم، ومرضت دولته لسوء علاجهم، فاقتنع بحلب إلى أن توفي.

ولما سمع السلطان في مصر بوفاة الملك الصالح تحرك عزمه وندم على النزوح من الشام مع قرب هذا المرام، فكتب إلى ابن أخيه تقي الدين وهو يتولى له المعرة وحماة وأمره بالتأهب للنهوض وكذلك شحذ عزائم نوّابه بالشام بتجديد المكاتبات لهم، وبعثهم على الاستعداد وحَمَلهم، وكان نائبه بدمشق ابن أخيه عز الدين فرخشاه قد نهض في مقابلة الفرنج بالكرك فإن الإبرنس الكَرَكي كان يحدّث نفسه بقصد تيماء⁽²⁾ في البرية، فما زال فَرُخشاه في مقابلته حتى نكص اللعين على عقبيه ذليلاً، ولم يجد إلى ما حدّثته به نفسه سبيلاً، فعرف السلطان اشتغاله بهذا المهم فكتب كتاباً يشرح الحال إلى بغداد باللفظ العمادي يقول فيه:

[٣٤٥] «وشاع الخبر بغارة فرنج إنطاكية على حارم، وأتوا من السبي والنهب بالعظائم، وشاع أيضاً أن عسكر حلب أغار على الراوندان وهي في عملنا⁽³⁾، ورسولهم عند الفرنج يستنجدهم ويغريهم بنا، وقد راسلوا الحشيشية والمراد من الرسالة غير خاف، وابن أخي غائب في أقصى بلاد الفرنج في أوّل برية الحجاز فإن طاغية منهم جمع خيله ورجله، وحدّثته نفسه الخبيثة بقصد تيماء وهي دهليز المدينة - على ساكنها السلام - واغتنم كون البرية معشبة مخصبة في هذا العام.

---

(1) أي فارغة من السلاح والعتاد.

(2) بلدة بالقرب من تبوك.

(3) أي تحت ولايتنا، وهي قلعة حصينة بجوار حلب.

والعجب أنا نحامي عن قبر النبي - صلوات الله عليه وسلامه - مشتغلين بهمه، والمذكور «يعني صاحب الموصل» ينازع في ولاية هي لنا ليأخذها بيد ظلمه، وكم بين من يحارب الكفر ويحمل إليهم قواصم الآجال، وبين من يتخذهم بطانة دون المؤمنين ويحمل إليهم كرائم الأموال، ولا غنى عن بروز الأوامر الشريفة إلى المذكور بأن يلزم حدّه ولا يتجاوز حقه، وبقاؤنا في هذه الدار القليل اللبث القصير المكث يؤثر أن نغتنمه في مجاهدة العدوّ الكافر الذي صار به البيت المقدّس محلاً للأرجاس، ومضت عليه دهور وملوك لم يحصلوا من رجاء تطهيره إلا على الياس».

[٣٤٦] وكان في الكتاب أيضاً ما معناه أن حلب من جملة البلاد التي اشتمل عليها تقليد أمير المؤمنين المستضيء بأمر الله له(١)، وإنما تركها في يد ابن نور الدين لأجل أبيه، والآن فليرجع كل إلى حقه.

[٣٤٧] ومن كتاب فاضلي: «فقد صُرف وجهنا في هذا الوقت عن جهاد لو كنا بصدده لكان الدين الخالص قد خلص إلى بلاد صار المشركون متوطنيها والمسلمون غرباؤها».

[٣٤٨] ثم ذكر أن: «المواصلة راسلوا الملاحدة الحشيشية واتخذوهم بطانة من دون المؤمنين، وواسطة بينهم وبين الفرنج الكافرين، ووعدوهم بقلاع من يد الإسلام تُقلع، وبدار دعوة بحلب يُنصب فيها علم الضلالة فيرفع، ويا للعجب من الخصم يهدم دولة حق وهي تبنيه، بل هذا رسولهم عند سنان صاحب الملاحدة، ورسولهم عند القمّصُ ملك الفرنج ومتى استمرت المشاركة في الشام أفضت إلى ضعف التوحيد وقوة الإشراك، وترامت إلى أخطار يعجز عنها خواطر الاستدراك، وإذا اجتمعت في الشام أيد ثلاث: يد عادية ويد ملحدة ويد كافرة، نهض الكفر بتثليثه، وقصرت عن الإسلام يد مغيثه، ولم ينفع الخادم(٢) حينئذ تصحيح حسابه وتصديق

---

(١) أي لصلاح الدين.

(٢) أي صلاح الدين، وهكذا كان يخاطب الخليفة العباسي ببغداد احتراماً وإجلالاً.

حديثه، وما يريد الخادم إلا من تكون عليه يد الله وهي الجماعة، ولا يؤثر إلا ما يتقرب به إليه وهو الطاعة، ولا يتوخى إلا ما يقوم به الحجة اليوم ويوم تقوم الساعة».

فصل

[٣٤٩] قال العماد:

وتوجه السلطان بعد شهر رمضان إلى الإسكندرية على طريق البحيرة، وخيم عند السواري وشاد الأسوار التي جدَّدها، والعمارات التي مهدها، وأمر بالإتمام والاهتمام.

[٣٥٠] وقال السلطان: يُغتنم حياة الشيخ الإمام أبي طاهر بن عوف(١)، فحضرنا عنده وسمعنا عليه موطأ مالك ـ رضي الله عنه ـ في العشر الأخير من شوّال، وتم له ولأولاده ولنا به السماع.

[٣٥١] قال ابن القادسيّ: وفيها(٢) عشية الخميس ثامن شعبان توفي الإمام كمال الدين أبو البركات عبد الرحمن بن محمد بن أبي السعادات الأنباري النحويّ، وكان فقيهاً، نحوياً زاهداً، عابداً، حسن العيش، صبوراً على الفقر، وكان يسرد الصوم ولا يقبل من أحد شيئاً.

وكان بابه مفتوحاً لطالبي العلم يعلمهم لوجه الله ـ تعالى ـ، وكان إذا أحضر أحدهم في الصيف مروحة يتروَّح بها فإذا خرج يقول له: خذ مروحتك معك، فيجتهد به ذلك أن يجعلها عنده إلى غد فما يفعل، وصنف تصانيف كثيرة، ودفن في تربة أبي إسحاق الشيرازيّ ـ رضي الله عنه ـ.

---

(١) لعله الشيخ الإمام أبو طاهر أحمد بن محمد بن أحمد السِلَفيّ، وقد توفي سنة ٥٧٦، وقد ذكر الحافظ الذهبي أن السلطان صلاح الدين قد قرأ عليه الحديث. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٢١/٥ ـ ٣٩.

(٢) أي في سنة ست وسبعين وخمسمائة.

فصل في عود السلطان من الديار المصرية إلى الشام

قال العماد:

وعُدنا من الإسكندرية إلى القاهرة في ذي القعدة، وشرع السلطان في الاستعداد لسفر الشام، فجمع العساكر والسلاح، واستصحب نصف العسكر وأبقى النصف الآخر يحفظ ثغور مصر، وأمر قراقوش بإتمام الأسوار الدائرة على مصر والقاهرة.

[٣٥٢] قال: وكان السلطان عشية توديعه لأهل مصر جالساً في سرادقه، وكل ينشده بيتاً في الوداع، فأخرج أحد مؤدبي أولاده رأسه وأنشد مظهراً له فضله ورافعاً به محله:

تمتع من شميم عَرار نجد فما بعد العشية من عَرار[١]

فلما سمعه خمد نشاطه، وتبدل بالانقباض انبساطه، ونحن ما بين مُغْضب ومُغضٍ، ينظر بعضنا إلى بعض، ولا يقضي العجب من مؤدب ترك الأدب، فكأنه نطق بما هو كائن في الغيب، فإنه ما عاد بعدها إلى الديار المصرية.

[٣٥٣] قال: ومن جملة تسمج المعلمين في القول ما حكاه لنا شيخنا أبو محمد بن الخشاب قال: وصلت إلى تبريز فأحضرني يوماً رئيسها في داره، وأجلس ولده ليقرأ بعض ما تلقنه عليّ، فقلت: فرخ البط سابح، فقال معلمه وكان حاضراً: نعم، وجرو الكلب نابح، فخجلت من خطأ خطابه، وإنما يصلح لمجالسة الملوك من يتحفظ في كلامه ويتيقظ حتى في منامه.

ثم دخلت سنة ثمان وسبعين

فصل في أخذ السالكين البحر لقصد الحجاز

[٣٥٤] قال العماد:

وفي شوّال سنة ثمان وسبعين كانت نصرة الأسطول المتوجه إلى بحر

---

(١) العرار: نبات طيب الرائحة: «المعجم الوسيط»: ع ر ر.

القُلْزُم والمقدّم فيه الحاجب حسام الدين لؤلؤ لطلب الفرنج السالكين بحر الحجاز.

وذلك أن الإبرنس صاحب الكرك لما صعب عليه ما توالى عليه من نكاية أصحابنا المقيمين بقلعة أيْلة - وهي في وسط البحر، لا سبيل عليها لأهل الكفر - أفكر في أسباب احتياله، وفتح أبواب اغتياله فبنى سفناً ونقل أخشابها على الجمال إلى الساحل، ثم ركب المراكب وشحنها بالرجال وآلات القتال، ووقف منها مركبين على جزيرة القلعة فمنع أهلها من استقاء الماء ومضى الباقون في مراكب نحو عيذاب فقطعوا طريق التجار وشرعوا في القتل والنهب والأسار.

ثم توجهوا إلى أرض الحجاز وتعذر على الناس وجه الاحتراز، فعظم البلاء وأعضل الدواء وأشرف أهل المدينة النبوية منهم على خطر، ووصل الخبر إلى مصر وبها العادل أخو السلطان فأمر الحاجب حسام الدين لؤلؤ فعمر في بحر القُلْزُم مراكب بالرجال البحرية ذوي التجربة من أهل النخوة للدين والحمية، وسار إلى أيْلة فظفر بالمركب الفرنجي عندها، فخرق السفينة وأخذ جندها، ثم عدّى إلى عيذاب وشاهد بأهلها العذاب، ودُلّ على مراكب العدوّ فتبعها، فوقع بها بعد أيام فأوقع بها وواقعها، وأطلق المأسورين من التجار وردّ عليهم ما أُخذ لهم، ثم صعد إلى البرّ فوجد أعراباً قد نزلوا منه شعاباً فركب خيلهم وراء الهاربين، وكانوا في أرض تلك الطرق ضاربين، فحصرهم في شعب لا ماء فيه، فأسرهم بأسْرهم وكان ذلك في أشهر الحج فساق منهم أسيرين إلى منى كما يساق الهَدي، وعاد إلى القاهرة ومعه الأسارى، فكتب السلطان إليه بضرب رقابهم.

[٣٥٥] قلت: ولأبي الحسن ابن الذروي(١) في الحاجب لؤلؤ بسبب هذه الوقعة أشعار منها:

---

(١) القاضي علي بن يحيى، شاعر مجيد، توفي بمصر سنة ٥٧٧، انظر «فوات الوفيات»: ٣/ ١١٣ - ١١٧.

مر يوم من الزمان عجيب   كاد يبدي فيه السرورَ الجمادُ
إذ أتى الحاجب الأجلّ بأسرى   قرنتهم في طيها الأصفاد
بجمال كأنهنّ جبال   وعلوج كأنهم أطواد
قلت بعد التكبير لما تبدّى   هكذا هكذا يكون الجهاد
حبذا لؤلؤ يصيد الأعادي   وسواه من اللآلي يصاد

[٣٥٦] وكتب السلطان إلى العادل⁽¹⁾ من كلام الفاضل:

«وصل كتابه المؤرخ بخامس ذي القعدة المسفر عن المسفر من الأخبار، المتبسم عنْ المتبسم من الآثار، وما كان الحاجب لؤلؤ فيها إلا سهماً أصاب وحُمد مسدده، ورسولاً عليه البلاغ، وإن لم يُجهل ما أثّرته يده، وقد غبطناه بأجر جهاده، ونُجحِ اجتهاده.

وهؤلاء الأسارى فقد ظهروا على عورة الإسلام وكشفوها، وتطرقوا بلاد القبلة وتطوفوها، ولو جرى في ذلك سبب ـ والعياذ بالله ـ لضاقت الأعذار إلى الله والخلق، وانطلقت الألسن بالمذمة في الغرب والشرق، ولا بد من تطهير الأرض من أرجاسهم، والهواء من أنفاسهم، بحيث لا يعود منهم مخبر يدل الكفار على عورات المسلمين».

وفي كتاب آخر إلى العادل أيضاً:

«ونحن نهنىء المجلس السامي بظفره، ولم لا يكمله وينصره؟ ولم لا يعجله ويشكره؟ وليس في قتل هؤلا الكفار مراجعة، ولا للشرع في إبقائهم فسحة، ولا في استبقاء واحد منهم مصلحة، ولا في التغاضي عنهم عند الله عذر مقبول، ولا حُكم الله في أمثالهم عند أهل العلم بمشكل ولا مجهول، فليُمض العزم في قتلهم، ليتناهى أمثالهم عن فعلهم، وقد كانت عظيمة ما طُرق الإسلام بمثلها، وقد أتى الله بعدها بلطيفة أجراها على يد من رآه من أهلها».

---

(١) أخي صلاح الدين.

[٢٥٧] فصل في فتح آمد(١)

قال العماد:

ثم سار السلطان إلى آمد ونزل عليها يوم الأربعاء سابع عشر ذي الحجة بعد أن استأذن الخليفة في ذلك فأذن له، فنصب السلطان عليها المجانيق وضايقهم وطال حصارهم، ثم أخذها في السنة الآتية كما سيأتي.

ثم دخلت سنة تسع وسبعين

قال ابن أبي طيّ:

والسلطان منازل لآمد واشتدّ قتال العامة بها، فأمر السلطان بكتب رقاعٍ فيها إبراق وإرعاد، ووعد وإيعاد، وإن داموا على القتال لنستأصلنَّ شأفتَهم(٢)، وإن اعتزلوا وسلموا البلد لنحسنن إليهم، ولنضعن ما عليهم من الكلف والضرائب، وأمر أن تعلق تلك الرقاع على السهام وتُرمى إلى آمد فرُمي من ذلك شيء كثير، فكفوا عن القتال، وأشاروا على ابن تيسان(٣) بطلب الأمان، فأومن على أن يخرج بجميع أمواله دون الذخائر والسلاح، وأمهل ثلاثة أيام.

فلما عَوَّل على نقل أمواله قعد به أصحابه، فأرسل إلى السلطان فأنفذ إليه غلماناً ودواب وضُربت له خيمة بظاهر آمد، وجعل ينقل ما يقدر على نقله من المال والقماش وآلات الذهب والفضة مدّة ثلاثة أيام بعالم عظيم كانوا يزيدون على ثلاث مئة إنسان، ولم ينقل عشر ما كان له، وسُرق من أمواله أكثر مما حصل له، لأنه ما أخرج أحد شيئاً إلا وأخذ نصفه أو أكثر،

---

(١) مدينة من ديار بكر، وتقع في الأراضي التركية اليوم.

(٢) الشأفة: قرحة تخرج في أصل القدم فتُكوى فتذهب، ويقال: استأصل الله شأفته أي أذهبه كما تذهب تلك القرحة، فصار المعنى أزاله من أصله: انظر «القاموس المحيط»: ش أ ف.

(٣) وهو الوالي فيها.

وكان ابن تيسان قد حصل في آمد أشياء كثيرة لا يمكن وصفها من الأسلحة والأموال والغلال والكتب، ولما انقضى الأجل أخذ ما حصل وسار قاصداً بلاد الروم.

[٣٥٨] وتسلم السلطان مدينة آمد بأموالها وذخائرها، ونصبت أعلامه على أسوارها، وذلك في رابع عشر المحرم، ووجد فيها من الغلال والسلاح وآلات الحصار أشياء كثيرة لا يمكن أن يوجد في بلد مثلها، ووجد في برج من أبراجها مائة ألف شمعة وأشياء يطول شرحها، وكان فيها خزانة كتب كان فيها ألف ألف وأربعون ألف كتاب فوهب السلطان الكتب للقاضي الفاضل فانتخب منها حمْل سبعين حجازة(١)، ويقال: إن ابن قرا أرسلان(٢) باع من ذخائر آمد وخزائنها مما لا حاجة له به مدّة سبع سنين حتى امتلأت الأرض من ذخائرها، وكان السلطان لما تسلم آمد وهبها لنور الدين محمد بن قرا أرسلان بما فيها، وكتب له بها وبأعمالها توقيعاً، ووفى له بما وعده به، وقيل للسلطان: إنك وعدته بآمد وما وعدته بما فيها من الأموال والذخائر، وفيها من الذخائر ما يساوي ثلاثة آلاف ألف دينار، فقال: لا أضن عليه بما فيها من الأموال، فإنه قد صار من أتباعنا وأصحابنا.

[٣٥٩] فصل في فتح حلب

قال القاضي ابن شداد:

لما نزل السلطان على حلب استدعى العساكر من الجوانب، فاجتمع خلق كثير وقاتلها قتالاً شديداً، وتحقق عماد الدين زَنْكي أنه ليس له به قِبَل، وكان قد ضَرِس(٣) من اقتراح الأمراء عليه، وجبههم(٤) إياه، فأشار

---

(١) لم أعثر لها على معنى مناسب، وإن كان المعنى مفهوماً من السياق.

(٢) وهو الذي وهب له السلطان آمد كما سيأتي.

(٣) صَعُب خُلُقه وشَرِس: انظر «المعجم الوسيط»: ض ر س.

(٤) جَبَه فلان فلاناً: قابله بما يكره: وانظر «المعجم الوسيط»: ج ب هـ.

إلى حسام الدين طمان أن يسفر(١) له مع السلطان في إعادة بلاده وتسليم حلب إليه، واستقرت القاعدة ولم يشعر أحد من الرعية ولا من العسكر حتى تمّ الأمر، ثم أعلمهم وأذن لهم في تدبير أنفسهم، وخرجت العساكر إلى خدمته(٢) إلى الميدان الأخضر ومقدّمو حلب وخلع عليهم، وطيَّب قلوبهم، وأقام عماد الدين بالقلعة يقضي أشغاله وينقل أقمشته وخزائنه.

ومن كتب فاضلية:

«فتحنا مدينة حلب، وتسلمنا قلعتها التي ضمنت أن نتسلم بعدها بمشيئة الله قلاعاً، وعُوِّض صاحبها من بلاد الجزيرة ما اشترط عليه به الخدمة في الجهاد بالعدّة الموفورة، فهي بيدنا بالحقيقة، لأن مرادنا من البلاد رجالها لا أموالها، وشوكتها لا زهرتها، ومناظرتها للعدوّ لا نَضْرتها، والأوامر بحلب نافذة، والرايات بأطراف قلعتها آخذة، وجاء أهل المدينة يستبشرون، وقد بلغوا ما كانوا يؤملون، وأمنوا ما كانوا يحذرون، وعُوِّض صاحبها ببلاد من الجزيرة على أن تكون العساكر مجتمعة على الأعداء، مرصدة للاستدعاء، فالبلاد بأيدينا لنا مغنمها، ولغيرنا مغرمها، وفي خدمتنا ما لا نسمح به وهو عسكرنا، وفي يده ما لا نضن به وهو درهمنا، شرطنا على عماد الدين النجدة في أوقاتها، والمظاهرة على العداة عند ملاقاتها، فلم يخرج منا بلد إلا إلينا عاد عسكره، وإنما استنبنا فيه من يحمل عنا مؤنته ويدبره، وتكون عساكره إلى عساكرنا مضافة، ونتمثل قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾»(٣).

[٣٦١] وقال ابن أبي طيّ:

وفي يوم الاثنين سابع عشري صفر ركب السلطان وصعد إلى قلعة

---

(١) من السفارة، وهي المراسلة.

(٢) أي إلى خدمة صلاح الدين رحمه الله تعالى.

(٣) سورة التوبة: الآية ٣٦.

حلب، وكان صعوده إليها من باب الجبل، وسُمع وهو صاعد إلى قلعة حلب يقرأ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾ الآية(١)، وقال: والله ما سررت بفتح مدينة كسروري بفتح هذه المدينة، والآن قد تبينت أنني أملك البلاد، وعلمت أن ملكي قد استقر وثبت.

وقال: صعدت يوماً مع نور الدين ـ رحمه الله تعالى ـ إلى هذه القلعة فسمعته يقرأ ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ الآية.

[٣٦٢] قال: ولما بلغ السلطان إلى باب عماد الدين قرأ: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾(٢) ثم صار إلى المقام فصلى ركعتين، ثم سجد فأطال السجود، ثم خرج ودار في جميع القلعة، ثم عاد إلى المخيم وأطلق المكوس والضرائب، وسامح بأموال عظيمة، وجلس للهناء بفتح حلب، وأنشده جماعة من الشعراء.

[٣٦٣] قال: وحدثني جماعة من الحلبيين منهم الركن بن جهبل العدل، قال: كان الفقيه مجد الدين بن جَهْبَل الشافعيّ الحلبيّ(٣) قد وقع إليه تفسير القرآن لأبي الحكم المغربيّ(٤) فوجد فيه عند قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢﴾(٥) الآية، أن أبا الحكم قال: إن الروم يغلبون في رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، ويفتح البيت المقدَّس ويصير داراً للإسلام إلى آخر الأبد، واستدل على ذلك بأشياء ذكرَها في كتابه، فلما فتح السلطان حلب كتب إليه المجد بن جَهْبَل ورقة يبشره بفتح البيت

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٢٦.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٢٧.

(٣) هو طاهر بن جهبل، فقيه فاضل، توفي بحلب سنة ٥٩٦. انظر ترجمته في ملحق «وفيات الأعيان»: ٢/٣٤٣.

(٤) هو المشهور بـ «ابن برجان» عبد السلام بن عبد الرحمن الأندلسي، وقد توفي سنة ٥٣٦. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٢٠/٧٢ ـ ٧٤.

(٥) سورة الروم.

المقدّس على يديه، ويعين فيه الزمان الذي يفتحه فيه، وأعطى الورقة للفقيه عيسى(١)، فلما وقف الفقيه عيسى عليها لم يتجاسر على عرضها على السلطان، وحدّث بما في الورقة لمحيي الدين بن زكي الدين(٢) القاضي الدمشقي، وكان ابن زكي الدين واثقاً بعقل ابن جَهْبَل، وأنه لا يُقْدم على هذا القول حتى يحققه ويثق به، فعمل قصيدة مدح السلطان بها حين فتح حلب في صفر وقال فيها:

وفتحكم حلباً بالسيف في صفر قضى لكم بافتتاح القدس في رجب

ولما سمع السلطان ذلك تعجب من مقالته، ثم حين فتح البيت المقدّس خرج إليه المجد بن جَهْبَل مهنئاً له بفتحه وحدّثه حديث الورقة، فتعجب السلطان من قوله وقال: قد سبق إلى ذلك محيي الدين بن زكي الدين غير أني أجعل لك حظاً لا يزاحمك فيه أحد، ثم جمع له مَن في العسكر من الفقهاء وأهل الدين، ثم أدخله إلى القدس بعدما خرج الفِرَنج منه، وأمره أن يذكر درساً من الفقه على الصخرة فدخل وذكر درساً هناك، وحظي بما لم يحظَ به غيره.

وقال العماد: تم فتح حلب في صفر من هذه السنة، ومدح القاضي محيي الدين بن الزكي السلطان بأبيات منها:

وفتحكم حلباً بالسيف في صفر مبشر بفتوح القدس في رجب

فوافق فتح القدس كما ذكره، فكأنه من الغيب ابتكره.

[٣٦٤] قال: ويشبه هذا أنني في سنة اثنتين وسبعين طلبت من السلطان جارية من سَبي الأسطول المنصور في أبيات وهي:

---

(١) هو عيسى بن محمد بن عيسى الهكّاري، فقيه، أمير، كبير القدر، توفي سنة ٥٨٥. انظر ترجمته في «وفيات الأعيان»: ٣/ ٤٩٧ ـ ٤٩٨.

(٢) هو قاضي دمشق محمد بن علي بن محمد القرشي الشافعي، توفي سنة ٥٩٨. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ٣٥٨ ـ ٣٦٠.

يؤمل المملوك مملوكة   تبدل الوحشة بالأنس
تخرجه من ليل وسواسه   بطلعة تشرق كالشمس
فوحدة العزبة قد حركت   سواكن البلبال والمس
فلا تدع يهدم شيطانه   ما أحكم التقوى من الأسّ
فوقع اليوم بمطلوبه   مما سبى الأسطول بالأمس
لا زلت وهاباً لما حازه   سيفك من حور ومن لُعس(١)
وإنني آمل من بعدها   كرائم السبي من القدس

قال: فجاء الأمر على وفق الأمل، فوهب لي ما أملت عام القدس.

ثم دخلت سنة ثمانين

[٣٦٥] فصل يحتوي على ذكر المفاضلة بين مصر والشام

قال العماد:

هذا زين الدين علي بن نجا الواعظ من أهل دمشق ومن ساكني مصر، وهو ذو لهجة في الوعظ فصيحة، وقَبول من القلوب، وأحسن السلطان إليه بالأعطيات والإقطاعات وأجمل، وأعطاه وأجزل، وأتم له مراده وأكمل، وكان السلطان يستشيره ويروقه تدبيره، ويميل إليه لقديم معرفته، وكريم سجيته، ووصل في هذه السنة منه كتاب إلى السلطان يشوقه إلى مصر ونيلها ونعيمها، وسلسبيلها ودار ملكها، وبحرها وخليجها، ونشرها وأريجها وقصور معزها، ومنزل عزها، وجيزتها وجزيرتها، وملتقى البحرين، ومرتقى الهرمين، وروضة جنانها، وجنة رضوانها، ومساجدها وجوامعها، ومشاهدها ومرابعها، ونواظر بساتينها، ومناظر ميادينها، وساحات سواحلها وآيات فضائلها، وشتاؤها في الفضل ربيع نضير،

---

(١) اللُّعس: النساء اللواتي اسودّ باطن شفاههن، وكان أمراً مستحسناً عند العرب: انظر «المعجم الوسيط»: ل ع س.

وغبارها عبير، وماؤها كوثري، وترابها عنبري، ثم وصف العماد غير ذلك، ثم قال: وذكر زين الدين الواعظ في كتابه ما دل به على فضيلة تلك الديار من الآيات والأخبار والآداب والآثار.

قال: فكتبت إلى زين الدين الواعظ في جوابه عن السلطان:

«عرفنا طيب الديار المصرية ورقة هوائها، ونحن نسلم له المسألة في طيبها، ورقة نسيمها، لكن لا ريب أن الشام أفضل، وأن أجر ساكنه أجزل، وأن القلوب إلى قلبه أميل، وأن الزُّلال البارد به أعلُّ وأنهل، وأن الهواء في صيفه وشتائه أعدل، وأن الجَمال فيه أكمل، والكمالَ فيه أجمل، وأن القلوب به أروح والروح به أقبل.

ودمشق عقيلته الممشوطة(١)، وحديقته الناضرة، وحدقته الناظرة، وهي عين إنسانه، بل إنسان عينه(٢)، وكم فيها من جوار ساقيات، وسواق جاريات، وأثمار بلا أثمان، وروح وريحان، وفاكهة ورمان، وخيرات حسان، وجميع ما في سورة الرحمن، ونحن نتلو عليه آلاءها إلى أن يرجع إلينا فنتلو على منكرها ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾(٣) وقد تمسكنا بالآية والسُّنَّة والإجماع، وغنينا بهذه الأدلة عن الاختراع والابتداع.

أمَا أقسم الله - تعالى - بدمشق في قوله: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١﴾(٤)، والقسم من الله لها أدل دليل على فضلها المصون، أمَا قال رسول الله ﷺ: «الشام خيرة الله من أرضه يشوق إليها خيرته من عباده»(٥)، هذا أوضح برهان قاطع على أنه خير بلاده.

---

(١) أي أن دمشق سيدة بلاد الشام.

(٢) إنسان العين: الحدقة.

(٣) سورة الرحمٰن.

(٤) سورة التين.

(٥) أخرج الطبراني نحواً من هذا الحديث بلفظ «... صفوة الله من بلاده يجتبي إليه صفوته من خلقة» ورجال الطبراني ثقات كما ذكر الحافظ الهيثمي في «مجمع الزوائد»: ١٠/ ٦٢.

أمّا الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ أجمعوا على اختيار السكنى بالشام، أمَا فَتح دمشق بكر الإسلام(١) وما ننكر أن الله ـ تعالى ـ ذكر مصر وسمّاها أرضاً، فما الذِّكر والتسمية في جنب فضيلة القَسَم، ولا الإخبار عنها دليلاً على الكرم، وإنما اكتسبت الفضيلة من الشام، بنقل يوسف الصدّيق إليها ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ ثم المقام بالشام أقرب للرباط، وأوجب للنشاط، وأجمع للعساكر السائرة من سائر الجهات للجهاد.

وأين الهرَم الهَرِم من الحَرم المحترم، وهل للنيل مع طول نيله وطول ذيله واستطالة سيله بَرْدُ بَردى في نقع الغَليل(٢)، وما لذاك الكثير طلاوة هذا القليل، وسيل هذا السلسبيل، ونحن لا نجفو الوطن كما جفاه، ولا نأبى فضله كما أباه، وحب الوطن من الإيمان، ومع هذا فلا ننكر أن مصر إقليم عظيم الشأن، وأن مَغَلّها كثير وماءها غزير، وأن عدها نمير وأن ساكنها ملك أو أمير، ولكن نقول كما قال المجلس السامي الفاضلي(٣) ـ أسماه الله ـ إن دمشق تصلح أن تكون بستاناً لمصر، ولا شك أن أحسن ما في البلاد البستان، وزين الدين ـ وفقه الله ـ قد تعرض للشام فلم يرضَ أن يكون المساوي حتى شرع في عدّ المساوي، ولعله يرجع إلى الحق إن شاء الله».

حب الوطن

قلت: وقد قيل في وصف دمشق ومدحها شيء كثير من النظم والنثر، واشتمل ما جمعته في أوّل تاريخ دمشق على قطعة كبيرة حسنة، من ذلك ما وصف شيخنا أبو الحسن علي بن محمد السخاوي(٤) ـ رحمه الله ـ في مقامة(٥) تشتمل على المفاخرة بين دمشق ومصر، ووصف كلاً من

---

(١) لقد كان فتح دمشق مبكراً سابقاً على فتح مصر.

(٢) الغليل: شدة العطش وحرارته، والنَّقْع: الرواء. انظر «المعجم الوسيط»: غ ل ل، ن ق ع.

(٣) أي القاضي الفاضل.

(٤) الإمام العالم شيخ القراء، المصري، نزيل دمشق، توفي سنة ٦٤٣ بدمشق. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٢٣/ ١٢٢ ـ ١٢٤.

(٥) المقامة قصة صغيرة مسجوعة تشتمل على عظة أو مُلحة: انظر «معجم الأدب»: ٢/ ٨١٦ ـ ٨١٧.

البلدين بما يليق به، وكان أوّل ما قدم دمشق يذمها في مكاتباته إلى مصر نظماً ونثراً حباً للوطن، ثم لمَّا استقر فيها قرت عينه، وفضلها في بعض مكاتباته، وقد ذكرت كل ذلك في جزء مستقل به.

وأما القاضي الفاضل ـ رحمه الله ـ فقد قال في بعض مكاتباته إلى مصر:

[٣٦٦] «ومما أسر به قلبه الكريم أنني وصلت إلى دمشق المحروسة حين شرد بردها، وورد وردها، واخضر نباتها وحسن نعتها، وصفا ماؤها، وصفا دواؤها، وتغنَّت أطيارها، وتبسمت أزهارها، وافتر زهر أقحوانها، فحكى ثغور غزلانها، فلما قربت من بساتينها، ولاح لي فيح ميادينها، وتوسطت جنة واديها، ورأيت ما أبدعه الله فيها، سمعت عند ذلك حماماً يغرد، وقُمرياً ينوح، وبلبلاً بأشجانه يبوح، فوقفت أنني على باديها، وأكاد بالدمع أباديها، أسفاً على أيام خلت بعدما حَلَت منها وفيها، فعند ذلك عادت روحي، وزال أنيني ونوحي:

وكانت النفس قد ماتت بغصتها فعند ذلك عادت روحها فيها»

[٣٦٧] قلت: ووصف أيضاً دمشق من أهل مصر من يُرجع إلى قوله ويُرضى بحكمه لفضله وفصله، وهو الوزير العادلي صفيّ الدين أبو محمد عبد الله بن علي المعروف بابن شكر(١) في كتاب «البصائر» له فقال:

«دمشق نزهة الأبصار، وعروس الأمصار، ومجرى الأنهار، ومغرس الأشجار، ومعبد الأبرار، المستغفرين بالأسحار، وظلها الممدود، ومقامها المحمود، وماؤها المسكوب، وعيبها المسلوب، ومحاسنها المجموعة، وفضائلها المروية المسموعة، ودرجتها المرفوعة، وفاكهتها الكثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة، ونسيمها العليل، وهجيرها الأصيل، وماؤها السلسبيل، وقد شرفها الله ـ تعالى ـ بالذِّكر في كتابه، وآوى إليها من اختار

---

(١) توفي سنة ٦٢٢. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٢٢/ ٢٩٤ ـ ٢٩٥.

من أنبيائه وأحبابه، فقال تعالى في كتابه المبين: ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾(١)، ولم تزل مقر البركات، ومَعْدن النبوات، ومنزل الرسالات، ومسكن أرباب الكرامات، وورد في تفضيل بقعتها من الأخبار ما لا يشك في صحة إسناده، قال رسول الله ﷺ: «الشام صفوة الله من بلاده، فيها خيرة الله من عباده»(٢)،ونبه في خبر آخر على عِظَم فضله فقال: «إن الله تكفل لي بالشام وأهله»(٣)، وبارك في سكناها بقوله عليه السلام «البركة في الشام»(٤)، وذهب بعض المفسرين من أهل الاجتهاد إلى أنها إرم ذات العماد،والتي لم يُخلَق مثلها في البلاد.

قال: ولما أنعم الله تعالى عليَّ بإسكاني في فنائها، وتخيري لبنائها، ونزهتي في أفنانها، وأنسي بإنسانها، مضيت إلى جامعها الجامع، وشفعت بإدراك البصر منه إدراك المسامع، فلما وصلت إليه رأيت مَرْأً صَغَّر الرواية، ورونقاً حصل من الحسن على النهاية، ونوراً يجلو الأبصار، وجمعاً يفضل على جموع الأمصار، وعبادة موصولة على الاستمرار، وقرآناً يُتلى في آناء الليل وأطراف النهار، ومنقطعين إليه قد أنفقوا في الاعتكاف به نفائس الأعمار، والبركات تحف بجوانبه، والعلوم تنشر في زواياه ومحاربه، والأحاديث عن رسول الله ﷺ تُسند وتُروى، والمصاحف بين أيدي التالين تُنشَر فلا تُطوى، وأعلام البرّ فيه ظاهرة فلا تخفى ولا تزوى، والإسلام فيه فاش، والجهل متلاش، وهو مما بناه الأولون لعبادتهم، وجعلوه ذخراً لآخرتهم، وما بَرح معبداً لكل ملة، اتخذته المجوس واليهود والنصارى قبل

---

(١) سورة المؤمنون: الآية ٥٠.

(٢) قد سبق تخريج مثل هذا الحديث آنفاً.

(٣) جزء من حديث أخرجه الإمام الطبراني من طريقين، ورجال أحدهما رجال الصحيح كما ذكر الحافظ الهيثمي. انظر «مجمع الزوائد»: ١٠/ ٦١ ـ ٦٢.

(٤) لم أجد هذا الحديث لكن يدل على صحته آيات في كتاب الله ـ تبارك وتعالى ـ نحو: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله﴾.

الإسلام هيكلاً وقبلة، وهو بيت المتقين، وسوق المتصدقين، ليله للمتهجدين، ونهاره للعلماء المجتهدين».

قال: «وعاشرت أهلها وباشرتهم، ثم كاثرتهم وكاشفتهم، فرأيت سادة أدباء، وعلماء نجباء، رأيتهم يتناظرون في الفقه مناظرة الوالد مع ولده، ويقفون عند كتاب الله فلا يعدلون عن واضح جُدَده(١)، ويفسرونه عن علم واستبصار، ويحتاطون في علمهم بصحيح الأخبار، ويتبعون ما وردت به ثقات الآثار، وعامتهم مشغولون بالمعاش، آخذون من زينتهم عند كل مسجد أفضل الرياش(٢)، لا يخوضون في لغط ولا إكثار، ولا يجتمعون على فساد نيّة في مقيم ولا بعيد الدار».

قال: «فأقمت منها في أشرف البلدان، التي هي أنموذج الجنان، وعنوان الدار التي خازنها رضوان، والقلوب فيها عند ذكر الله حاضرة، والنفوس بالخير دون الشر آمرة».

فصل في باقي حوادث هذه السنة

[٣٦٨] قال العماد:

وفي هذه السنة مستهل جمادى الآخرة توفي صاحب ماردين(٣) وهو قطب الدين إيلغازي بن ألبي بن تمرتاش بن إيلغازي بن أرتق، والأمَرَاء الأرتقية هم الذين رتقوا(٤) فتوق الإسلام أوّلاً، وكانوا يتولّون بيت المقدس، وحموه من الإفرنج قبل المصريين، وإنما أخذه الفرنج سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة من المصريين، فبقي الساحل كله مع أهل الشرك، فحمت الأرتقية ديار بكر وما والاها، وحلب وأعمالها، وتوارثوا ديار بكر كابراً عن

---

(١) الجدد: الطرق: انظر «لسان العرب»: ج د د.

(٢) أي الملابس: وانظر «لسان العرب»: ريش.

(٣) بلدة تقع الآن في حدود تركيا الجنوبية الشرقية.

(٤) الرتق ضد الفتق.

كابر إلى أن انتهى إلى هذا قطب الدين أعمال مَيّا فارقين(١) وماردين، فلما مات بقيت على ولده وله عشر سنين، وانتهى إلى ابن عمه نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داود بن سليمان بن أرتق حصن كيفا(٢) والبلاد التي تناسبها، وأضاف السلطان إليه آمد، وقد كان قطب الدين أوّلاً على مصافاة صاحب الموصل لما بينهما من القرابة، ثم أذعن للسلطان ودخل تحت طاعته.

[٣٦٩] قال القاضي ابن شدّاد: وبعد عود السلطان من حصار الكَرَك وصلت رسل زين الدين(٣) مستصرخاً إلى السلطان يخبر أن عسكر الموصل وعسكر قزل نزلوا على إربل مع مجاهد الدين قايماز، وأنهم نهبوا وحرقوا وأنه نصر عليهم وكسرهم، فلما سمع ذلك سار من دمشق يطلب البلاد، وسار السلطان إلى حمص ثم إلى حماة فأقام بها.

ودخلت سنة إحدى وثمانين وخمسمائة

قال العماد:

والسلطان مخيِّم بظاهر حماة، فسار إلى حلب وتلقّاه أخوه العادل واجتمعت له بها العساكر، فخرج منها في صفر لقصد المَوْصل.

قال القاضي ابن شدّاد:

وسار السلطان حتى أتى حران، ثم رحل السلطان ثاني ربيع الأول من حران إلى رأس عين(٤) ووصله في ذلك اليوم رسولٌ يخبره أن ملوك الشرق بأسرهم قد اتفقت كلمتهم على قصد السلطان إن لم يعد عن

---

(١) هي أشهر مدينة بديار بكر، وهي اليوم في تركيا. انظر «معجم البلدان»: ٥/ ٢٣٥.

(٢) بلدة فيها قلعة عظيمة مشرفة على دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر. انظر «معجم البلدان»: ٢/ ٢٦٥.

(٣) والي إربل.

(٤) بلدة أقصى شمالي شرق سورية.

الموصل وماردين، وأنهم على عزم ضرب المصاف معه إن أصر على ذلك.

وقال العماد:

ثم سار السلطان لقصد الموصل، فنزل على دجلة بقرب الموصل في شعبان وعزم على أنه يشتّي في ذلك المكان، فخرجت من الموصل نساء أتين إليه بكتاب متعرضات للشفاعة، فأكرمهن السلطان، ووعدهنّ بالإحسان وقال: قد قبلت شفاعتكن لكن لا بد من مصلحة تتم ومصالحة نفعها يعم، واستقر الأمر على أن يكون عماد الدين زَنْكي صاحب سنجار أخو صاحب الموصل وسيطاً في إصلاح ذات البين، وحكماً فيما يعود لمصلحة الجانبين، فإنه كانت شفاعته سابقة، ورأى بهذا الرأي قضاء الحقين، وتعطف وتلطف لأجلهنّ وإجلالهنّ، وأتى بالكرامة بما يليق بأمثالهنّ، وكن ظنن أنه لا يقيم لحرمة قصدهنّ، ولا يصدق ظنونهن، ويقضي بمكارمه ديونهنّ، ولا يشتغل بأمر لا يؤذن بمرادهنّ، فدخلن البلد متلومات متذممات، وبلطف الله لائذات معتصمات.

فصل في انتظام الصلح مع أهل الموصل ومرض السلطان المرضة المشهورة بحران

[٣٧٠] قال العماد:

وكان السلطان لما دخل شهر رمضان داوم قراءة القرآن وحفظه، واشتغل بالصيام والتقليل من الطعام، فظهر انزعاجه، وتغير مزاجه، وتعذر علاجه، وطال مرضه.

ثم استمر الصلح وصلح الأمر، وخُطب في جميع بلاد المَوْصل للسلطان وفي ديار بكر أيضاً، والولايات الأرتقية، وضُرب باسمه الدينار والدرهم، وانحل الإشكال.

وقال القاضي ابن شدّاد:

ومرض السلطان مرضاً شديداً خاف من غائلته، فرحل طالباً حران وهو مريض، وكان يتجلد ووصل حران شديد المرض، وبلغ إلى غاية الضعف وأيس منه، وأرجف بموته.

[٣٧١] قال العماد:

والسلطان كلما زاد ألمه زاد في لطف الله أمله، وكلما بان ضعفه قَوي على الله توكله، وأنا ملازمه ليلاً ونهاراً، سراً وجهاراً، وهو يملي عليَّ في كل وقت وصاياه، ويفرق بقلمي عطاياه، ومن جملة ذلك أنه اشتدّت به الحال ليلة أيس بها منه الأطباء، وغلب القنوط وعدم الرجاء، فلما أصبح اجتمع الوافدون إلى بابه، وضجوا ضجة لانت لسماعها الصخرة الصماء، فسأل عن ذلك، فقيل: هؤلاء وفدك قد اجتمعوا على بابك، متأسفين على ما نابك، فدعاني وأمرني بكتب أسمائهم، وتفريق ما اجتمع في خزانته من المال عليهم، وأمسينا وما على الباب سائل، وكنا نظن أن ما به من الألم شغل شاغل، فوجد بتلك السماحة راحة، واستمر مدة استمرار مرضه على بذل ماله، وكان خلقه أحسن ما كان في حال الصحة، يخاطبنا بسجاياه السهلة السمحة، ولا يخلو مجلسه من ذوي فضل، وأولي نباهة ونبل، يتجاذبون بحضرته أطراف الفوائد، فتارة في أحكام شرعية، ومسائل فقهية، وآونة في صناعات شعرية، وألفاظ عربية، ومعان أدبية، ومرة في أحاديث الأجواد، وشيَم الأمجاد، ودَفعة في ذكر فضائل الجهاد وفرائض التأهب له والاستعداد، وينذر أنه إن خلصه الله من هذه النّوبة، وأعفاه من كدر هذه المرضة ومرارتها اشتغل بفتح البيت المقدّس ولو ببذل نفائس الأموال والأنفس، وأنه لا يصرف بقية عمره إلا في قتال أعداء الله، والجهاد في سبيله، وإنجاد أهل الإسلام، وأنه لا يترك شيمة الجود والسماحة بالموجود، والوفاء بالعقود، والمحافظة على العهود، وإنجاز الموعود.

قال: وربما استروح(١) في بعض ساعات الليل أو النهار إلى

---

(١) أي استراح: انظر «لسان العرب»: روح.

السماع(١) لإشارة الأطباء به لأجل التفريج والإمتاع، ولقد كان ذلك المرض تمحيصاً(٢) من الله للذنوب وتنزيهاً، وتذكرة موقظة من سنة الغفلة وتنبيهاً.

قال: ولما سمع العادل في حلب بمرض أخيه السلطان ووصوله إلى حران بادر بالوصول، وقام بضبط الأمور وسياسة الجمهور، والجلوس في كل يوم لتولي مصالح الرعية والتصدي لكشف المظالم، وبث المكارم.

ثم دخلت سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة

قال القاضي ابن شدّاد:

ولما وجد السلطان نشاطاً من مرضه رحل يطلب جهة حلب، وكان وصوله إليها يوم الأحد رابع عشر المحرم، وكان يوماً مشهوداً لشدة فرح الناس بعافيته ولقائه، فأقام بها أربعة أيام، ثم رحل في ثامن عشرة نحو دمشق، وكان دخوله إليها في ثاني ربيع الأول، وكان يوماً لم يُرَ مثله فرحاً وسروراً.

ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة

[٣٧٢] وهي سنة كسرة حطين وفتح الساحل والأرض المقدسة للمسلمين

قال القاضي أبو المحاسن بن شدّاد:

لما كان المحرم سنة ثلاث وثمانين عزم السلطان على قصد الكَرَك(٣)، فسيّر إلى حلب من سيُحضر العسكر، وبرز من دمشق في منتصف المحرم فسار حتى نزل بأرض الكَرَك منتظراً لاجتماع العساكر المصرية والشامية، وأمر العساكر المتواصلة إليه بشن الغارة على ما في

---

(١) أي سماع الأشعار المؤداة بدف أو غيره.
(٢) أي تطهيراً.
(٣) بلد في الأردن.

طريقهم من البلاد الساحلية ففعلوا ذلك، وأقام ـ رحمه الله ـ بأرض الكَرَك حتى وصل الحاج الشامي إلى الشام وأمِنوا غائلة العدوّ.

[٣٧٣] ثم عرض السلطان العساكر منتصف ربيع الآخر ورتبهم واندفع قاصداً بلاد العدو في وسط نهار الجمعة، وكان أبداً يقصد بوقعاته الجُمَع لا سيما أوقات صلاة الجمعة تبركاً بدعاء الخطباء على المنابر، فربما كانت أقرب إلى الإجابة، وبلغه أن الفِرَنج اجتمعوا في مرج صفورية بأرض عكّا فقصد نحوهم للمصاف معهم، فسار ونازل طبرية وزحف عليها فهجمها وأخذها في ساعة من نهار، وامتدت الأيدي إليها بالنهب والأسر، والحريق والقتل، وامتنعت القلعة وحدها فرحل الفرنج وقصدوا طبرية للدفع عنها.

فأخبرت الطلائع الإسلامية الأمراء بحركة الفرنج فسيروا إلى السلطان مَن عرّفه ذلك، فنزل على طبرية من يحفظ قلعتها ولقي العسكر هو ومن معه فالتقى العسكران على سطح جبل طبرية الغربي منها، وحال الليل بين الفئتين فباتتا على مصاف إلى صبيحة الجمعة فركب العسكران وتصادما، ولم تزل الحرب إلى أن حال بينهم الظلام، وجرى في ذلك اليوم من الوقائع العظيمة والأمور الجسيمة ما لم يُحْكَ عن من تقدّم، وبات كل فريق في سلاحه ينتظر خصمه في كل ساعة، وقد أقعده التعب عن النهوض حتى كان صباح السبت الذي بورك فيه، فطلب كل من الفئتين مقامه، وتحقق المسلمون أن من ورائهم الأردن، ومن بين أيديهم بلاد القوم ولا ينجيهم إلا الله.

كان الله قد قدَّر نصر المسلمين فيسّره، وأجراه على وفق ما قدّره، فألقى الله الرعب في قلوب الكافرين: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾⁽¹⁾.

وكان القُمّص ذكيّ القوم وألمعيهم، فرأى أمارات الخذلان قد نزلت بأهل دينه، فهرب في أوائل الأمر قبل اشتداده، وأخذ طريقه نحو صور،

---

(١) سورة الروم: الآية ٤٧.

وتبعه جماعة من المسلمين فنجا وحده وأمن الإسلام كيده، واحتاط أهل الإسلام بأهل الكفر والطغيان من كل جانب، فانهزمت منهم طائفة فتبعها أبطال المسلمين فلم ينجُ منها واحد، واعتصمت الطائفة الأخرى بتلّ حطين، وهي قرية عنده فضايقهم المسلمون على التل، وأشعلوا حولهم النيران، وقتلهم العطش وضاق بهم الأمر، حتى كانوا يستسلمون للأسر خوفاً من القتل، فأسر مقدّموهم، وقتل الباقون وأسروا، وكان الواحد العظيم منهم يخلد إلى الأسر خوفاً على نفسه.

ولقد حكى لي من أثق به أنه لقي بحوران شخصاً واحداً ومعه نيف وثلاثون أسيراً يجرهم وحده بخذلان وقع عليهم.

وأما القُمّص الذي هرب فإنه وصل إلى طرابلس وأصابه ذات الجنب فأهلكه الله بها، وأما مقدّمو الاسبتارية والداوية فإن السلطان اختار قتلهم فقتلوا عن بكرة أبيهم(١).

[٣٧٤] وأما البرنس أرناط فكان السلطان قد نذر أنه إن ظفر به قَتَله، وذلك أنه كان عبر به بالشَّوْبك(٢) قَفَل(٣) من الديار المصرية في حالة الصلح فنزلوا عنده بالأمان فغدر بهم وقتلهم، فناشدوه الله والصلح الذي بينه وبين المسلمين فقال ما يتضمن الاستخفاف بالنبي ﷺ وقال: قولوا لمحمدكم يخلصكم، وبلغ السلطان فحمله الدين والحميّة على أنه نذر إن ظفر به قتله، فلما فتح الله عليه بالنصر والظفر جلس في دهليز الخيمة - فإنها لم تكن نُصبت - والناس يتقربون إليه بالأسارى وبمن وجدوه من المقدّمين، ونصبت الخيمة وجلس فرحاً مسروراً شاكراً لما أنعم الله به عليه.

---

(١) وذلك لعظم خطرهم، فهم في غاية التعصب، كما مر في تعريفهم.

(٢) قلعة حصينة في أطراف الشام بين عمان وإيلات. انظر «معجم البلدان»: ٣/ ٣٧٠.

(٣) أي قافلة راجعة.

ثم استحضر الملك جفري وأخاه والبرنس أرناط وناول الملك شربة من جَلّاب[1] بثلج فشرب منها، وكان على أشدّ حال من العطش، ثم ناول بعضها البرنس أرناط، فقال السلطان للترجمان: قل للملك أنت الذي تسقيه، وإلا أنا ما سقيته، وكان على جميل عادة العرب وكريم أخلاقهم أن الأسير إذا أكل أو شرب من مال مَن أسره أمن فقصد بذلك الجري على مكارم الأخلاق، ثم أمر بمسيرهم إلى موضع عين لنزولهم فمضوا وأكلوا شيئاً ثم عاد استحضرهم ولم يبقَ عنده أحد سوى بعض الخدم فأقعد الملك في الدهليز واستحضر البرنس أرناط وأوقفه على ما قال، وقال: ها أنا أنتصر لمحمد ﷺ ثم عرض عليه الإسلام فلم يفعل، ثم سلّ البيمجاة[2] وضربه بها فحلّ كتفه، وتمم عليه من حضر، وعجل الله بروحه إلى النار، فأُخذ ورُمي على باب الخيمة، فلما رآه الملك قد أُخرج على تلك الصورة لم يشك في أنه يثنّي به، فاستحضره وطيب قلبه وقال: لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك، وأما هذا فإنه جاوز حده فجرى ما جرى.

[illegible]

وبات الناس في تلك الليلة على أتم سرور وأكمل حبور، ترتفع أصواتهم بالحمد لله والشكر له والتكبير والتهليل، حتى طلع الصبح في يوم الأحد فنزل ـ رحمه الله ـ على طبرية وتسلم في بقية ذلك اليوم قلعتها، وأقام بها إلى يوم الثلاثاء.

قلت: وذكَر محمد بن القادسي في تاريخه أنه ورد في هذه السنة كتب إلى بغداد في وصف هذه الوقعة منها كتاب من عبد الله بن أحمد المقدسيّ يقول فيه:

---

(١) شراب يتخذ من دبس التمر مع الزبيب.

(٢) هي السيف القصير، انظر: «تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل»: ١٩٢، وفي «عيون الروضتين»: ٢/١٣٨ «وسل المجناة» وفسر المحقق ذلك بأنها عصا غليظة لها رأس مدبب، واللفظة الأولى أقرب للسياق، والله أعلم.

كتبت هذا الكتاب من عَسْقلان يوم الثلاثاء ثالث عشر جمادى الآخر سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة وفيه:

«ولو حمدنا الله عز وجل طول أعمارنا ما وفَينا بعُشر معشار نعمته التي أنعم بها علينا من هذا الفتح العظيم، فإنا خرجنا إلى عسكر صلاح الدين وتلاحق الأجناد حتى جاء الناس من المَوْصل وديار بكر وإربل، فجمع صلاح الدين الأمراء وقال: هذا اليوم الذي كنت أنتظره، وقد جمع الله لنا العساكر، وأنا رجل قد كبرت وما أدري متى أجَلي، فاغتنموا هذا اليوم وقاتلوا لله ـ تعالى ـ لا من أجلي، فاختلفوا في الجواب وكان رأي أكثرهم لقاء الكفار».

[٣٧٥] قال: وورد كتاب آخر فيه هذه الفتوح التي ما سمع بها قط، هذا ذكر بعضها مختصراً مع أنه لا يقدر أحد يصف ذلك لأن الأمر أكبر من ذلك:

«الذي يبشر به المسلمون أن مدينة طبرية فُتحت بالسيف، وأخذت قلعتها بالأمان، واجتمع عسكر الإفرنج جميعهم والتقوا بالمسلمين، وقُتل من الإفرنج ثلاثون ألفاً، وكان عدد الإفرنج ثلاثة وستين ألفاً بين فارس وراجل، وأسر منهم ثلاثون ألفاً، وبلغ ثمن الأسير بدمشق ثلاثة دنانير، واستغنى عسكر الإسلام من الأسرى والأموال والغنائم بحيث لا يقدر أحد يصف ذلك، وما سلم من عسكر الفرنج سوى قمّص أطرابلس مع أربعة نفر، وهو مجروح ثلاث جراحات، وأُخذ جميع أمراء الفرنج، وكم قد سُبي من النساء والأطفال، يباع الرجل وزوجته وأولاده في المناداة بيعة واحدة، ولقد بيع بحضوري رجل وامرأته وخمسة أولاد ثلاث بنين وابنتان بثمانين ديناراً.

وأُخذ صليب الصلبوت(١) فعلق مُنكّساً، ودخل به القاضي ابن أبي

---

(١) هو الخشبة التي يعتقد النصارى الضالون أن عيسى ـ عليه السلام ـ صلب عليها، وما قتل وما صلب، عليه السلام.

عصرون إلى دمشق، وكل يوم يُرى من رؤوس الفرنج مثل البطيخ، وأخذ من البقر والغنم والخيل والبغال ما لم يجيء من يشتريها من كثرة السبي والغنائم».

[٣٧٦] قلت: وبلغني أن بعض فقراء العسكر وقع بيده أسير وكان محتاجاً إلى نعل فباعه بها، فقيل له في ذلك فقال: أردت أن يُذكر ذلك، ويقال: بلغ من هوان أسرى الفرنج وكثرتهم أن بيع منهم واحد بنعل، ولله الحمد.

[٣٧٧] وكان القاضي الفاضل غائباً عن هذه الكسرة بدمشق فلما بلغته كتب إلى السلطان:

«ليهن المولى أن الله قد أقام به الدين القيِّم، وأنه كما قيل: أصبحت مولاي ومولى كل مسلم، وأنه قد أسبغ عليه النعمتين الباطنة والظاهرة، وأورثه الملكين: ملك الدنيا وملك الآخرة، كتب المملوك هذه الخدمة(١) والرؤوس إلى الآن لم ترفع من سجودها، والدموع لم تمسح من خدودها، وكلما فكر الخادم أن البِيَع(٢) تعود وهي مساجد، والمكان الذي كان يقال فيه: إن الله ثالث ثلاثةَ يقال اليوم فيه: إنه الواحد، جدَّد شكراً، تارة يفيض من لسانه، وتارة يفيض من جَفنه».

[٣٧٨] قال ابن أبي طَيّ:

حدثني والدي عن أحد التجار قال: كنت بالموصل في سنة خمس وخمسين وخمسمائة فزرت الشيخ عمر المَلاّ فدخل إليه رجل فقال: أيها الشيخ رأيت البارحة في النوم كأني بأرض غريبة لا أعرفها، وكأنها مملوءة بالخنازير، وكأن رجلاً في يده سيف وهو يقتل الخنازير والناس ينظرون إليه، فقلت لرجل: هذا عيسى بن مريم؟ هذا المهدي؟ قال: لا، فقلت:

---

(١) أي هذه الرسالة.

(٢) معابد النصارى: وانظر «المعجم الوسيط»: ب ي ع.

من هذا؟ قال: هذا يوسف، ما زادني على ذلك، قال: فتعجب الجماعة من هذه الرؤيا وقالوا: إنه سيقتل النصارى رجل يقال له يوسف، وحدست الجماعة أنه يوسف بن عبد المؤمن(١) صاحب الغرب، وكان المستنجد بالله(٢) قد ولي الخلافة تلك السنة فحدس بعض الجماعة عليه، قال: وأُنسيت أنا هذه الوقعة، فلما كانت سنة كسرة حطين ذكرتها فكان يوسف الملكَ الناصر ـ رحمه الله ـ.

قال: وحدّثتني ظئر(٣) لي من نساء الحلبيين كانت تداخل أخت السلطان الملك الناصر قالت: كانت والدة السلطان تخبر أنها أُتيت في نومها وهي حامل بالسلطان فقيل لها: إن في بطنك سيفاً من سيوف الله ـ تعالى ـ.

[٣٧٩] فصل في فتح عكا وغيرها

قال القاضي ابن شدّاد:

ثم رحل السلطان طالباً عكا وكان نزوله عليها يوم الأربعاء سلخ ربيع الآخر، وقاتلها بكرة الخميس مستهل جمادى الأولى فأخذها، واستنقذ من كان فيها من الأسارى ـ وكانوا زهاء أربعة آلاف نفر ـ واستولى على ما فيها من الأموال والذخائر، والبضائع والتجائر، وتفرقت العساكر في بلاد الساحل يأخذون الحصون والقلاع والأماكن المنيعة، فأخذوا نابلس وحيفا وقيسارية وصفورية والناصرة(٤)، وكان ذلك لخلوّ الرجال بالقتل والأسر.

---

(١) أمير الموحدين، وقد توفي سنة ٥٨٠. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٢١/٩٨ ـ ١٠٣.

(٢) هو الخليفة العباسي يوسف بن محمد، توفي سنة ٥٦٦. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ١٠/٤١٢ ـ ٤١٨.

(٣) الظئر: هي مرضعة غير ولدها: «المعجم الوسيط»: ظ أ ر.

(٤) البلدان السابقة في فلسطين.

[٢٨٠] فصل في فتح نابلس وجملة من البلاد الساحلية، بعد فتح عكا وطبرية

قال العماد:

وأقام السلطان أياماً بعد فتح عكا على التل مخيماً، وعلى سائر بلاد الساحل مصمماً، وكان قد كتب إلى أخيه العادل بمصر بما فتحه الله عليه، فوصل بعسكره وفتح في طريقه حصن مجدل يابا، ومدينة يافا عنوة، فقصده من عسكرنا القصاد، ووفد إليه الوفاد، وأمره السلطان بأن يقيم في ذلك الجانب جامعاً للكتائب ليجتمع به الواصلون من مصر.

قال: وتوجه عدة من الأمراء والعسكرية إلى الناصرة وقيسارية، والبلاد المجاورة لعكا وطبرية، ومضى كل فريق في صوب وآبوا بالغنيمة والسَّبي خير أوب.

قال: فأما الفولة فهي قلعة للداوية حصينة، وفيها ذخائرهم وأموالهم، فلما خرج الداوية منها وقتلوا لم يبق فيها إلا أتباع وغلمان فسلموها وجميع ما يجاورها وجميع ما لعكا وطبرية من الولايات.

قال: وتوجه مظفر الدين كُوكُبُرِيّ(١) إلى الناصرة فاستباحها، وصفرت صفورية من سكانها، وتوجه جماعة من الأمراء إلى قيسارية فافتتحوها بالسيف، وتُسلمت بعدها حيفا، وحيفا بين عكا وقيسارية على البحر.

قال: وأما نابلس فإن أهل ضياعها ومعظم أهلها كانوا مسلمين وفي سلك الرعية مع الفرنج منتظمين، فلما عرفوا كسرهم، خافوا من مساكنة المسلمين فتفرقوا، وكبسهم أهل الضياع في الدور والرباع وغنموا ما وجوده من الذخائر والمتاع، وأوقعوا بضعفائهم وضايقوا الحصون على أقويائهم، وطلبها من السلطان ابن أخته حسام الدين عمر بن محمد بن لاجين، وهو

---

(١) هو صاحب إزبل، توفي سنة ٦٣٠، انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٢٢/ ٣٣٤ - ٣٣٧.

عزيز عند خاله، فأقطعه السلطان نابلس وأعمالها وضياعها، ونواحيها وقلاعها، فتوجَّه إليها بعسكره.

فأوّل ما أناخ على سبسطية وفيها مشهد زكريا ـ عليه السلام ـ وقد اتخذه الأقسّا(١) كنيسة منذ فارقه الإسلام، وهو متعبدهم المعظم، والمشهد المكرم، وقد حجبوه بالأستار، وحلوه بالفضة وعيَّنوا له مواسم الزوار، ولا يؤذن في الزيارة إلا لمن معه هدية قيِّمة، فدخله وحوى ما فيه، وأبقى ما لا يحسن أن يخلو من مثله المسجد وفتح للمسلمين أبوابه، وأظهر للمصلين محرابه، ثم سار إلى نابلس ففتحها بالأمان، واستمال من سكانها من ضرب عليه الجزية بعد زمان، وأجراهم على ما لهم من العمارة والبنيان، وبقيت بيده إلى آخر عهده، وعمرت بعدله ورفده.

[٣٨١] فصل في فتح تِبنين(٢) وصيدا وبيروت وغيرها، ومجيء المركيس(٣) إلى صور

قال العماد:

أرسل السلطان إلى تبنين ابن أخيه تقي الدين فضايقها، وكتب إلى السلطان أن يأتيه بنفسه فوصل إليها يوم الأحد الحادي عشر من جمادى الأولى، فراسلوا السلطان وسألوا الأمان، واستمهلوا خمسة أيام لينزلوا بأموالهم فأُمهلوا، وبذلوا رهائن من مقدّميهم ووفوا بما بذلوا، وتقربوا بإطلاق الأسارى المسلمين، فخرج الأسارى مسرورين، فسر بهم السلطان وقرَّبهم، وكساهم وحباهم، وهذا دأبه في كل بلد يفتحه أنه يبدأ بالأسارى فيفك قيودها، ويعيد بعد عدمها وجودها، فخلَّص تلك السنة من الأسر أكثر من عشرين ألف أسير، ووقع في أسره من الكفار مائة ألف.

---

(١) جمع قسيس.

(٢) هي بلدة في جنوب لبنان اليوم.

(٣) الأمير المقدم.

ولمّا أخلوا البقعة سيّرهم ومعهم من العسكر المنصور مَن أوصلهم إلى صور، وتسلمها يوم الأحد الثامن عشر من جمادى الأولى وكان شرط عليهم تسليم العُدد والدواب والخزائن.

وقال القاضي ابن شدّاد:

فتحها السلطان عُنوة، وكان بها رجال أبطال شديدون في دينهم، فاحتاجوا إلى معاناة شديدة، ونصر الله عليهم وأسر من بقي بها بعد القتل، ثم رحل منها إلى مدينة صيدا فنزل عليها، ومن الغد تسلمها وهو يوم الأربعاء الحادي والعشرون.

قال العماد: وخيَّمنا على صيدا وقد جاءت رسل صاحبها بمفاتيحها، وطلعت الراية الصفراء على سورها، وأقيمت بها الجمعة والجماعة، واستديمت بها ـ بعد العصيان لله ـ الطاعة.

ثم سار في يومه على سمت بيروت(١) فنزل عليها يوم الخميس، وضايقها وحاصرها ثمانية أيام ثم طلبوا الأمان فأمنهم، وتسلمها يوم الخميس التاسع والعشرين من جمادى الأولى.

فانتظمت هذه البلاد المتناسقة بالساحل في سلك من الفتوح متسق، وأمر من الاستقامة متفق، وكان معظم أهل صيدا وبيروت وجبيل مسلمين مساكين، لمساكنة الفرنج مستسلمين، فذاقوا العزة بعد الذلة، وصدقت البشائر، وصدحت المنابر، وقرىء القرآن، واستشاط الشيطان، وخرست النواقيس، وبطلت النواميس، ورفع المسلمون رؤوسهم وعرفوا نفوسهم، وكان كل من استأمن من الكفار يمضي إلى صور، فصارت صور عُشَّ غشهم، ووَكْر مكرهم، وملجأ طريدهم، ومنجا شريدهم، وهي التي فرّ القُمّص إليها يوم كسرتهم، بل يوم حسرتهم.

ولما عرف القُمّص قرب السلطان منها أخلاها وخلاها، وآوى إلى

---

(١) أي قاصد بيروت.

طرابلس، وتعّوضت صور عن القُمّص بالمركيس، كما يُتعَوّض عن الشيطان بإبليس.

وكان المركيس من أكبر طواغيت الكفرة، وأغول شياطينه، وأخبث ذئابه، وأنجس كلابه، وهو الطاغية الداهية، الذي خُلقت له ولأمثاله الهاوية، ولم يكن وصل إلى الساحل قبل هذا العام، واتفق وصوله إلى ميناء عكا وهو بفتحها جاهل، وعمن فيها من المسلمين ذاهل.

فعزم على إرساء الشيني(١) بالميناء، ثم تعجب وقال: ما نرى أحداً من أهليها يلتقينا، ورأى زي الناس غير الزي الذي يعرفه، فارتاب وارتاع، وسأل عن الحال فأخبر بها ففكر في النجاة والهواء راكد، فإنه لو خرج إليه مركب لأخذه، فاحتال كيف يخرج بسفينته، فسأل عن متولي البلد وقال: خذوا لي منه أماناً حتى أدخل وأرفع ما معي من المتاع فجيء إليه بالأمان، فقال: ما أثق إلا بخط يده، ولا أنزل إلا بعهده، وهو ينتظر هبوب الريح الموافقة فما زال يردّد الرسل ويدبر الحيل حتى وافقته الريح فأقلع وأفلت بعد ما وقع، وصار في صور.

[٣٨٢] فصل في فتح عسقلان وغزة

قال ابن شدّاد:

لما فرغ بال السلطان من هذا الجانب ـ يعني ناحية بيروت ـ رأى قصد عسقلان، ولم يرَ الاشتغال بصور بعد أن نزل عليها ومارسها؛ لأن العسكر كان قد تفرق في الساحل وذهب كل إنسان يأخذ لنفسه شيئاً، وكانوا قد ضرسوا(٢) من القتال، ومن ملازمة الحرب والنزال.

وكان قد اجتمع في صور ـ يسر الله فتحها ـ كل فرنجي بقي في الساحل، فرأى قصدَ عسقلان لأن أمرها كان أيسر، وتسلم في طريقه

---

(١) سفينة حربية كبيرة فيها أبراج. انظر «عيون الروضتين»: ص٥، هامش٤.

(٢) تغيروا وتعبوا.

مواضع كثيرة كالرملة وتبنين، فأقام عليها المنجنيقات وقاتلها قتالاً شديداً، وتسلمها سلخ جمادى الآخرة، وأقام عليها إلى أن تسلم أصحابه غزة وبيت جبريل والنطَرون بغير قتال، قال: وكان بين فتح عسقلان وأخذ الفرنج لها من المسلمين خمس وثلاثون سنة، فإن العدوّ ملكها في السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وخمسمائة.

[٢٨٣] فتح البيت المقدس شرفه الله تعالى

قال القاضي ابن شدّاد:

لما تسلم السلطان عسقلان والأماكن المحيطة بالقدس شمَّر عن ساق الجد والاجتهاد في قصده، واجتمعت إليه العساكر التي كانت متفرقةً في الساحل، بعد قضاء لُبانتها(١) من النهب والغارة، فسار نحوه معتمداً على الله، منتهزاً فرصة فتح باب الخير.

وكان نزوله عليه ـ قدس الله روحه ـ يوم الأحد الخامس عشر من رجب فنزل بالجانب الغربيّ، وكان مشحوناً بالمقاتلة من الخيالة والرجالة، ولقد تحازر أهل الخبرة عدّة من كان فيه من المقاتلة بما يزيد على ستين ألفاً ما عدا النساء والصبيان.

ثم انتقل ـ رحمه الله تعالى ـ لمصلحة رآها إلى الجانب الشماليّ، وكان انتقاله يوم الجمعة العشرين من رجب ونصب عليه المنجنيقات وضايقه بالزحف والقتال وكثرة الرماة حتى أخذ النقب في السور.

ولما رأى أعداء الله ما نزل بهم من الأمر الذي لا يندفع، وظهرت لهم أمارات نصرة الحق على الباطل، وكان قد ألقى الله في قلوبهم مما جرى على أبطالهم ورجالهم من السبي والقتل والأسر، وما جرى على حصونهم من الاستيلاء والأخذ، علموا أنهم إلى ما صاروا إليه صائرون،

---

(١) اللبانة: الحاجة.

وبالسيف الذي قتل به إخوانهم يُقتلون، فاستكانوا وأخلدوا إلى طلب الأمان، واستقرت القاعدة بالمراسلة بين الطائفتين، وكان تسلمه له يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب، وليلته كانت ليلة المعراجِ المنصوص عليها في القرآن المجيد، فانظر إلى هذا الاتفاق العجيب كيف يسَّر الله عوده إلى أيدي المسلمين في مثل زمان الإسراء بنبيهم ـ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم ـ وهذه علامة قبول هذه الطاعة من الله ـ تعالى ـ.

قلت: هذا أحد الأقوال في ليلة المعراج، وفي ذلك اختلاف كثير ذكرناه في مواضع غير هذا، والله أعلم.

[٣٨٤] ثم قال القاضي: وكان فتوحاً عظيماً شهده من أهل العلم خلق عظيم، ومن أرباب الخِرَق(١) والحِرَف، وذلك أن الناس لما بلغهم ما منَّ الله به على يده من فتوح السَاحل شاع قصده للقدس، فقصده العلماء من مصر والشام بحيث لم يتخلف معروف عن الحضور، وارتفعت الأصوات بالضجيج والدعاء والتهليل والتكبير، وخُطب فيه وصُلِّيَت فيه الجمعة يوم فتحه، وحُط الصليب الذي كان على قبة الصخرة، وكان شكلاً عظيماً، ونصر الله الإسلام نصر عزيز مقتدر، وكانت قاعدة الصلح أنهم قطعوا على أنفسهم عن كل رجل عشرة دنانير، وعن كل امرأة خمس دنانير، وعن كل صغير ذكراً وأنثى واحداً.

قلت: كذا قال، وسيأتي في كلام العماد: إن على كل صغير دينارين، وكذا قال: إن الجمعة صُلِّيَت ببيت المقدس يوم فتحه، وسيأتي في كلام العماد التصريح بأن يوم الفتح ضاق عن ذلك، فصُليت في يوم الجمعة الآتي، ثم قال القاضي: فمن أحضر القطيعة سلم بنفسه وإلا أُخذ أسيراً، وفرج الله عمن كان فيه من أسرى المسلمين وكانوا خلقاً عظيماً زهاء ثلاثة آلاف نفس، وأقام عليه ـ رحمه الله ـ يجمع الأموال ويفرقها على

---

(١) أي الصوفية.

الأمراء والعلماء، ويوصل من دفع قطيعته منهم إلى مأمنه، وهو صور.

وقال: ولقد بلغني أنه ـ رحمه الله ـ رحل عنه ولم يبقَ معه من ذلك المال شيء، وكان مائتي ألف دينار وعشرين ألفاً، وكان رحيله عنه يوم الجمعة الخامس والعشرين من شعبان سنة ثلاث وثمانين كما سيأتي.

فصل هذا الذي ذكره القاضي في أمر فتح بيت المقدس مختصراً مجموعاً، وقد بسطه العماد فقال:

رحل السلطان من عسقلان للقدس طالباً، وبالعزم غالباً، وللنصر مصاحباً، ولذيل العز ساحباً، والإسلام يخطب من القدس عروساً، ويبذل لها في المهر نفوساً، ويحمل إليها نُعمَى ليحمل عنها بُوسى، ويهدي بُشرى ليُذهب عبوساً، ويسمع صرخة الصخرة المستعدية لأعدائها، وإجابة دعائها، وتلبية ندائها، وإعادة الإيمان الغريب منها إلى وطنه، وإقصاء أعداء الدين أقصاهم الله ـ تعالى ـ بلعنته من الأقصى، وإسكان الناقوس منه بإنطاق الأذان، وتطهيره من أنجاس تلك الأجناس، وأدناس أدنى الناس.

وطار الخبر إلى القدس، وتمنت الفرنج لما شاعت الأخبار أنها ما عاشت، وكان به من مقدّمي الفرنج باليان بن بارزان، وهو وملكهم في التسلط شيئان بارزان، والبطرك الأعظم، وقاموا وقعدوا، وصوَّبوا وصعدوا، فاشتغل بال باليان، واشتعل بالنيران، وضاقت بالقوم منازلهم، وقاموا للتدبير في مقام الإدبار، وتقسمت أفكار الكفار، وأيس الفرنج من الفرج، وأجمعوا على بذل المُهَج، وقالوا: ها هنا نطرح الرؤوس، ونسفك الدماء، ونصبر على اجتراح الجروح، ونسمح بالأرواح شحاً بمحل الروح.

فهذه الأماكن فيها قمامتنا⁽¹⁾، ومنها تقوم قيامتنا، وبها غرامنا، وعليها غرامتنا، وبإكرامها كرامتنا، وبسلامتها سلامتنا، وباستقامتها استقامتنا، وفي استدامتها استدامتنا، وإذا تخلينا عنها وجبت ملامتنا، ففيها المجمع

---

(١) أي كنيسة القيامة المشهورة.

والمعبد، والمهبط والمصعد، والصور والأشكال، والأنظار والأمثال، والأشباه والأشباح، والأعمدة والألواح، والأجسام والأرواح، وفيها صور الحواريين في حوارهم، والأحبار في أخبارهم، والراهبين في صوامعهم، والأقسّاء(١) في مجامعهم، والسحرة وحبالها، ومثال السيدة والسيد، والهيكل والمولد، والمائدة والحوت، والمنعوت والمنحوت، والتلميذ والمعلم، والمهد والصبي المتكلم، وصورة الكبش والحمار، والجنة والنار، والنواقيس والنواميس.

قالوا: وفيها صُلب المسيح، وقرب الذبيح، ونزل النور، وزال الدَّيْجور(٢)، ومخضت البتول بالمولود، وأضافوا إلى متعبدهم من هذه الضلالات ما ضلوا فيه بالشبه عن نهج الدلالات، وقالوا: دون مقبرة ربنا نموت، وعلى خوف فوتها منا نفوت(٣)، وعنها ندافع، وعليها نقارع، وما لنا لا نقاتل وكيف لا ننازع ولا ننازل، ولأي معنى نتركهم حتى يأخذوا، وندعهم حتى يستخلصوا ما استخلصناه منهم ويستنقذوا.

وتأهبوا وتباهوا، ونصبوا المجانيق على الأسوار، واستشاطت شياطينهم، وطغت طواغيتهم، وهاج هائجهم، وحضّتهم قسوسهم، وحرضتهم رؤوسهم، وحركتهم نفوسهم، وجاءتهم بنجوى السوء جواسيسهم، وحفروا في الخندق حفراً عميقاً، وشادوا في كل جانب ركناً وثيقاً، وفرقوا على كل برج فريقاً، وتحمل كل منهم ما لم يكن له من قبل مطيقاً.

ثم أقبل [السلطان] وأبطال شجعانه وأقيال(٤) أولاده وإخوانه، وأشبال مماليكه وغلمانه، وكرام أمرائه وعظام أوليائه، وأصبح يسأل عن الأقصى،

---

(١) جمع قسيس.

(٢) الظلام: «المعجم الوسيط»: د ج ر.

(٣) أي نموت.

(٤) القيْل: الملك. انظر «المعجم الوسيط»: ق و ل.

وطريقه الأدنى، ويذكر ما يفتح الله عليه بحسن فتحه من الحسنى، وقال: إن أسعدنا الله على إخراج أعدائه من بيته المقدّس فما أسعدنا، وأنه مكث في أيدي الكفر إحدى وتسعين سنة لم يتقبل الله فيه من عابد حسنة، فما ادّخر الله فضيلة فتحه إلا لآل أيوب ليجمع الله لهم بالقَبول القلوب.

وكيف لا يهتم بفتح البيت المقدس الأقوى، والمسجد الأقصى المؤسس على التقوى، وهو مقام الأنبياء، وموقف الأولياء، ومعبد الأتقياء، ومزار ملائكة السماء، ومن المحشر والمنشر، ويتوافد إليه من أولياء الله المعشر بعد المعشر، وفيه الصخرة التي منها منهاج المعراج، لها القبة الشماء التي هي على رأسها كالتاج، وفيه أضاءت ليلة الإسراء بحلول السراج المنير فيه الآفاق، ومن أبوابه باب الرحمة التي يستوجب داخله إلى الجنة بالدخول إلى الخلود، وفيه كرسيّ سليمان، ومحراب داود.

هو أوّل القبلتين، وثاني البيتين، وثالث الحرمين، وهو أحد المساجد الثلاثة التي جاء في الخبر النبوي أنها تشد إليها الرحال، وتَعْقِد الرجاء بها الرجال، لعل الله يعيده بنا إلى أحسن صورة، كما شرفه بذكره مع أشرف خلقه في أول سورة، فقال عز من قائل: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾(١)، وله فضائل ومناقب لا تُحصى، ومنه كان الإسراء، ولأرضه فتحت السماء، وعنه تؤثر أنباء الأنبياء، وآلاء الأولياء، ومشاهد الشهداء، وكرامات الكرماء، وعلامات العلماء.

وفيه صخرته الطُولى، والقبلة الأولى، ومنها تعالت القدم النبوية، وتوالت البركة العلوية، وعندها صلى نبينا بالنبيين، وصحب الروح الأمين، وصعد منها إلى أعلى عليّين.

وفيه محراب مريم - عليها السلام - الذي قال الله فيه: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ﴾(٢)، وهو الذي أسسه داود، وأوصى ببنائه سليمان،

---

(١) سورة الإسراء: آية ١.

(٢) سورة آل عمران: آية ٣٧.

ولأجل إجلاله أنزل الله سبحانه سبحان(١)، وهو الذي افتتحه الفاروق وافتتحت به سورةٌ من الفرقان.

فما أجلّه وأعظمَه، وأشرفه وأفخمَه، وأعلاه وأحلاه، وأسناه وأكرمَه، وأيمنَ بركاته، وأبركَ ميامنه، وأحسنَ حالاته، وأحلى محاسنه، وأزين مباهجَه، وأبهج مزاينَه، وكم فيه من الآيات التي أراها الله نبيه، ووصف السلطان من خصائصه ومزاياه، ما وثق على استعادة الآية مواثيقه وآلاه وأقسم لا يبرح حتى يبر قسمه، ويرفع بأعلاه علمه، وتخطر إلى زيارة موضع القدم النبوية قدمه، وتصغي إلى صرخة الصخرة أذنه، وسار واثقاً بكمال النصرة.

فصل في نزول السلطان على البيت المقدس وحصره، وما كان من امره

[٣٨٥] قال العماد:

ولما غصّتهم الحرب، ووقع السور واتسع النقب، فصعب عليهم الهيِّن وهان لنا الصعب، عقدوا ما بينهم مشورة وقالوا: ما لنا إلا الاستئمان، فقد أُخذ لنا بخطة الخذلان والحرمان، وأخرجوا كبراءهم ليأخذوا لهم الأمان، فأبى السلطان إلا قتالهم، وتدميرهم واستئصالهم، وقال: لا آخذ القدس إلا كما أخذوه من المسلمين منذ إحدى وتسعين سنة، فإنهم استباحوا القتل، فأنا أفني رجالهم قتلاً، وأحوي نساءهم سبياً، فبرز ابن بارزان ليأمن من السلطان بموثقه، وطلب الأمان لقومه، وتمنع السلطان وقال: لا أمن لكم ولا أمان، وما هوانا إلا أن نديم لكم الهوان، ونأخذ مملكتكم قسراً، ونوسعكم قتلاً وأسراً، ونسفك من الرجال الدماء، ونسلط على الذُرِّيّة والنساء السِّباء، وأبى في تأمينهم إلا الإباء.

فتعرضوا للتضرع وخوّفوه عاقبة التسرع، وقالوا: إذا أيسنا من أمانكم، وخفنا من سلطانكم، وخبنا من إحسانكم، وأيقنّا أنه لا نجاة ولا نجاح،

---

(١) أي سورة الإسراء.

ولا صلح ولا صلاح، ولا سلم ولا سلامة، ولا نعمة ولا كرامة، فإنا نستقل فنقاتل قتال الدم والندم، ونقابل الوجود بالعدم، ونُلقي أنفسنا على النار، ولا نلقي بأيدينا إلى التهلكة والعار، ولا يجرح منا واحد حتى يجرح عشرة، وأنا نحرق الدور، ونخرب القبة، ونترك عليكم في سبينا السُّبة، ونقلع الصخرة، ونوجدكم عليها الحسرة، وقبة الصخرة نرميها.

وعندنا من المسلمين خمسة آلاف أسير ما بين غني وفقير وكبير وصغير، فنبدأ بقتلهم وشت شملهم، وأما الأموال فإنا نُعطبها ولا نعطيها، وأما الذراري فإنا نسارع إلى إعدامها ولا نستبطيها، فلا يحصل لكم سبي ولا يُقبل لكم سعي، فأي فائدة لكم في هذا الشح، وكل خسر لكم في هذا الربح.

فشاور السلطان أصحابه فقيل له: الصواب أن نحسبهم أسارى فتتبعهم نفوسهم، ونعمم لصَغار الجزية رؤوسَهم⁽¹⁾، واستقر الحال بعد مراودات ومعاودات، ومفاوضات وتفويضات، وضراعات من القوم وشفاعات، على قطيعة تكمل بها الغبطة، ويحصل منها الحوطة اشتروا بها منا أنفسهم وأموالهم، وخلّصوا بها رجالهم ونساءهم وأطفالهم، على أنه مَن عجز بعد أربعين يوماً عما لزمه أو امتنع منه وما سلمه ضُرب عليه الرق، وثبت في تملكه لنا الحق، وهو عن كل رجل عشرة دنانير، وعن كل امرأة خمسة، وكل صغيرة أو صغير ديناران: الذكر والأنثى فيهما سيان.

ودخل ابن بارزان البطرك ومقدّمو الداوية الاسبتار في هذا الضمان، وبذل ابن بارزان ثلاثين ألف دينار عن الفقراء، وقام بالأداء، ولم يتكل عن الوفاء، فمن سلم خرج عن بيته آمناً، ولم يعد إليه ساكناً، وسلموا البلد يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب على هذه القطيعة، وكان فيه أكثر من مائة ألف إنسان من رجال ونساء وصبيان، فأغلقت دونهم الأبواب،

---

(١) أي أن الذل الحاصل بالجزية صار محيطاً بهم كإحاطة العمامة بالرأس.

ورتب لعرضهم واستخراج ما يلزمهم النواب، ووكل بكل باب أمير ومقدَّم كبير يحصر الخارجين، فمن استخرج منه خرج ومن لم يقم بما عليه قعد في الحبس وعدم الفرج، ولو حفظ ذلك المال حق حفظه لفاز منه بيت المال بأوفر حفظه، لكن تم التفريط وعم التخليط، فكل من رشا مشى، فمنهم من أدلى من السور بالحبال، ومنهم من حُمل مخفياً في الرحال، ومنهم من غيرت لبسته فخرج مخفياً بزي الجند، ومنهم من وقعت فيه شفاعة مطاعة لم تقابل بالرد.

وادَّعى مظفر الدين كُوْكُبريّ أن منهم جماعة من أرمن الرُها وعددها ألف نسمة فجُعل إليه أمرها، وكذلك صاحب البيرة ادَّعى ما عدته الكثيرة زهاء خمسمائة أرمني ذكر أنهم من بلده، وأن الواصل منهم إلى القدس لأجل متعبده، وكذلك كل من استوهب عدة استطلقها، ثم تولى الملك العادل(١) استخراجهم وقوَّم على الأداء منهاجهم، وسهَّل على السلطان لفرط جوده الاستخراج والإخراج.

وكانت بالقدس ملكة رومية متعبدة، مترهبة، في عبادة الصليب متصلبة، وعلى مصابها متلهبة، وفي التمسك بملتها متصعبة متعصبة، أنفاسها متصاعدة للحزن، وعبراتها متحدرة تحدّر القطرات من المُزن(٢)، ولها حال ومال ومتاع وأشياء وأتباع، فاستعاذت بالسلطان فأعاذها، ومنَّ عليها وعلى كل من معها بالإفراج، وأذن في إخراج كل مالها، وأبقى عليها من مصوغات صلبانها الذهبية المجوهرة، ونفائسها وكرائم خزائنها، فخرجت بجميع مالها وحالها ونسائها ورجالها، والصناديق بأقفالها، وتبعها من لم يكن من أتباعها.

وكذلك خرجت زوجة الملك المأسور وهي ابنة الملك أماري،

---

(١) هو أخو صلاح الدين.

(٢) أي السحاب: وانظر «لسان العرب»: م ز ن.

وكانت مقيمة في جوار القدس مع مالها والخدم والجواري، فاستأذنت في الإلمام بزوجها وكان بقيده مقيماً في برج نابلس فأذن لها فخلصت هي ومن تبعها وأقامت عند زوجها، وكذلك خرجت الإبرنسة(١) أم هنفري وهي ابنة فليب وزوجة الإبرنس الذي سُفك دمه يوم حطين، وهي صاحبة الكَرَك والشَّوْبك، وهي بنوّابها محوطة، فجاءت سائلة في ولدها العاني(٢) فوُعدت أنها إن سمحت بحصنها سُمح لها بابنها، ثم أعفيت وأطلقت وعُصمت على أن تستحضر ابنها هنفري من دمشق إليها، وأقر برؤيته عينها، وسار معهما من الأمراء الأمناء من يتسلم منهم تلك المعاقل، فخرجت فمضت إلى حصونها لتسلمها فمانعها أهلها ودافعوها، وردُّوها ذليلة خائبة، فسكنت صور، واستودعت السلطان ابنها المأسور، ووعدها بإطلاقه إذا تسلم تلك الحصون.

[٣٨٦]فصل في ذكر يوم الفتح وبعض كتب البشائر إلى البلاد

قال العماد:

تسلم المسلمون المدينة يوم الجمعة أوان وجوب صلاتها، وطلعت الرايات الناصرية على شرفاتها، وأغلقت أبوابها لحفظ ناسها في طلب القطيعة(٣) والتماسها، وضاق وقت الفريضة وتعذر أداؤها، وللجمعة مقدّمات وشروط لم يمكن استيفاؤها، وكان الأقصى لا سيما محرابه مشغولاً بالخنازير والخَناء(٤)، مملوءاً بما أحدثوا من البناء، مسكوناً بمن كفر وغوى، وضل وظلم وجنى، مغموراً بالنجاسات فوقع الاشتغال بالأهم والأنفع، والأتم الأنجح، وهو حفظهم وضبطهم إلى أن يوجد شرطهم ويؤخذ قسطهم.

---

(١) أي الأميرة.

(٢) أي الأسير.

(٣) القطيعة: هي ما عُيّن على النصارى من الفداء.

(٤) الفساد: انظر «المعجم الوسيط»: خ ن ى.

واتفق فتح البيت المقدس في يوم كان في مثل ليلته المعراج، وتم بما وضع من منهاج النصر الابتهاج، وجلس السلطان بالمخيم ظاهر القدس للهناء، وللقاء الأكابر والأمراء، والمتصوفة والعلماء، وهو جالس على هيئة التواضع وهيبة الوقار بين الفقهاء، وأهل العلم جلسائه الأبرار، ووجهه بنور البشر سافر، وبابه مفتوح، ورفده(١) ممنوح، وحجابه مرفوع، وخطابه مسموع، والقراء جلوس يقرأون ويرددون، والشعراء وقوف ينشدون ويستنشدون، والعيون من فرط المسرة تدمع، والقلوب للفرح بالنصرة تخشع، والألسنة بالابتهال إلى الله تضرع، وبُشر المسجد الحرام بخلاص المسجد الأقصى، وهُنّىء الحجر الأسود بالصخرة البيضاء، ومنزل الوحي بمحل الإسراء، ومقر سيد المرسلين وخاتم النبيين بمقر الرسل والأنبياء، ومقام إبراهيم بموضع قدم المصطفى ـ صلى الله عليه وعليهم أجمعين ـ، وتسامع الناس بهذا النصر الكريم والفتح العظيم، فوفدوا للزيارة من كل فج عميق، وسلكوا إليه في كل طريق، وأحرموا من البيت المقدّس إلى البيت العتيق، وتنزهوا من زهر كراماته في الروض الأنيق.

[٣٨٧] قال: فكتبت في ذلك اليوم سبعين كتاب بشارة، كل كتاب بمعنى بديع وعبارة، فمنها الكتاب إلى الديوان العزيز ببغداد افتتحته بهذه الآية: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾(٢).

الحمد لله الذي أنجز لعباده الصالحين وعد الاستخلاف، وقهر بأهل التوحيد أهل الشرك والخلاف، وخص سلطان الديوان العزيز بهذه الخلافة، ومكّن دينه المرتضى وبدّل الأمن من المخافة، وذخر هذا الفتح الأسنى،

---

(١) أي عطاؤه: انظر «لسان العرب»: رفد.

(٢) سورة النور: آية ٥٥.

والنصر الأهنى، للعصر الإماميّ النبويّ الناصريّ على يد الخادم أخلص أوليائه، والمختص من اعتزازه باعتزائه إليه وانتمائه، وهذا الفتح العظيم والنجح الكريم قد انقرضت الملوك الماضية، والقرون الخالية، على حسرة تمنيه، وحيرة ترجيه، وتقاصرت عنه طوال الهمم، وتخاذلت عن الانتصار له أملاك الأمم، فالحمد لله الذي أعاد القدس إلى القدس، وأعاذه من الرجس، وحقق من فتحه ما كان في النفس، وبدّل وحشة الكفر فيه من الإسلام بالأنس، وجعل عز يومه ماحياً ذل أمس، وأسكنه الفقهاء والعلماء بعد الجهال والضلال من البطرك القَسّ، وعبدة الصليب ومستقبلي الشمس، وقد أظهر الله على المشركين الضالين جنوده المؤمنين العالمين، وقطع دابر القوم الظالمين، والحمد لله رب العالمين، فكأن الله شرف هذه الأمة وقال لهم اعزموا على اقتناء هذه الفضيلة التي بها فضلكم، وحقق في حقهم امتثال أمره في قوله الكريم: ﴿ٱدۡخُلُوا۟ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِی كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾(١)، وأخرج من بيته المقدس يوم الجمعة أهل الأحد، وقمع من كان يقول: إن الله ثالث ثلاثة بمن يقول هو الله أحد، وأعان الله بإنزال الملائكة والروح، وأتى بهذا النصر الممنوح، الذي هو فتح الفتوح.

وقد تعالى أن يحيط به وصف البليغ نظماً ونثراً، وعُبد الله في البيت المقدّس سراً وجهراً، ومُلكت بلاد الأردن وفلسطين غَوْراً ونَجْداً(٢)، وبراً وبحراً، ومُلئت إسلاماً وكانت قد مُلئت كفراً، والحمد لله شكراً، حمداً يجدّد للإسلام كل يوم نصراً، وأجيبت الصخرة المقدسة عند استصراخها، وغُسلت من أوضارها وأوزارها بعبرات العيون، ورجع اضطرابها إلى السكون، وبُدّل بالأنس فيها ما كان من الوحشة والحسرة، والحمد لله على هذه النصرة، والمنة له على هذه المبرة.

---

(١) سورة المائدة: آية ٢١.

(٢) الغَوْر: كل منخفض من الأرض، والنَّجْد: كل مرتفع منها: وانظر «المعجم الوسيط»: غ و ر، ن ج د.

فصل

[٣٨٦] قال العماد: وأنفذ من مصر نجم الدين يوسف بن الحسين بن المجاور الوزير العزيزي قصيدة وعرضتها على السلطان بالقدس وفيها ذكر الإنكلتيرة، وفتح يافا وذكر الهدنة التي يأتي ذكرها في آخر الكتاب، فمنها:

الوقت أضيق من سماع قصيدة   موسومة لصفات أغْيدَ أهيف(١)
الجدّ في هذا الزمان مبين   والهزل فيه مع الغواية مختف
بالناصر المهدي والهادي إلى   سبل الجهاد أبي المظفر يوسف
المستعين بربه والواثق الـ   ـمنصور والمستظهر البر الوفي
قد أنصف التوحيد من تثليثهم   وأقام في الإنجيل حد المصحف
مُغرى بتجريح الرجال لأنه   يروي أحاديث العوالي الرُّعَّف(٢)
ملك له في الحرب بحر تفقه   وله غداة السلم زهد تصوف
ما للسواحل غير بحرك حافظ   بشبا سنان أو بصفحة مرهف(٣)
هذا الطراز الأخضر استفتحته   فزهى بثوب من علاك مسجف(٤)
أحييت دين محمد وأقمته   وسترته من بعد طول تكشف

[٣٨٩] قلت: وذكرت بقوله: «هذا الطراز الأخضر استفتحته» حكاية حسنة لائقة بالحال حدثني بها شيخنا أبو الحسن علي بن محمد السخاويّ قال: قرأت بخط شيخنا أبي الفضائل بن رشيق بمصر عُقيب موته في سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة، قال: رأى إنسان كأنّ شخصاً ذا جهامة واقفاً على حائط بجامع دمشق يسمى النسر وهو يقول:

---

(١) الأغْيد: المتمايل المتثني في نعومة ولين، والأهيف: الدقيق الخصر، الضامر البطن: وانظر «المعجم الوسيط»: غ ي د، هـ ي ف.

(٢) الرُّعف: سيلان الدماء: انظر «المصدر السابق»: رعف، والعوالي: أعالي الرماح.

(٣) السيف الرهيف: الرقيق، وشبا السيف: حد طرفه، والسنان: نصل الرمح: وانظر «المصدر السابق»: رهف، ش ب ى، س ن ن.

(٤) الطراز الأخضر سيأتي تعريفه من قبل المصنف، والسِّجاف ما يركب على حواشي الثوب: وانظر «المصدر السابق»: س ج ف.

ملك الصياصي والصواصي ناصرٌ   للدين بعد إياسه أن يُنصرا(١)
وسيفتح البيت المقدّس بعدما   يُطوى الطِّراز له ويقتل قيصرا

قلت: وهذا قبل أن يفتح صلاح الدين البلاد بعشر سنين، وقرأت بخط بعض أصحابنا قال: وجدت على حاشية كتاب يُروى عن خطيب كان بالرَقّة أنه رأى من يُنشده هذا الشعر في النوم سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة، فذكر البيتين، وهذا قبل الفتح باثنتين وخمسين سنة، وقبل مولد صلاح الدين بسنة.

والمعنيّ بالطراز الأخضر بلاد الساحل المصطفة على بلاد البحر من الداروم وغزة وعسقلان وعكّا وصيدا وبيروت وجبيل وغير ذلك، ولم يبق من الطراز في أثناء ذلك سوى صور بين صيدا وعكّا، وهكذا كان الأمر على ما سبق بيانه فُتح هذا الطراز أوّلاً ثم فتح البيت المقدّس، وكنى بقيصر عن الإبرنس الذي قتله بيده؛ لأنه كان من رؤوس الكفر وملوكهم وغُلاتهم في معاداة الإسلام، والله أعلم.

قال العماد: وكان فخر الكتاب أبو علي الحسن بن علي الجويني(٢) المقيم بمصر من أهل بغداد يُنفذ إليّ قصائده لأعرضها، فرأيت أن أثبت له هذه القصيدة في الفتح، وهي مشتملة على ذكر ملوك الإسلام وإهمالهم له تسعين عاماً حتى تجرد له سلطاننا، منها:

جند السماء لهذا الملك أعوان   من شك فيهم فهذا الفتح برهان
متى رأى الناس ما نحكيه في زمن   وقد مضت قبلُ أزمان وأزمان
هذا الفتوح فتوح الأنبياء وما   له سوى الشكر بالأفعال أثمان

---

(١) الصياصي جمع صيصية، وهو الحصن: وانظر «المعجم الوسيط»: ص ي ص، أما الصواصي فلعلها: النواصي، حُرِّفت، والذي في «عيون الروضتين»: ٢/ ١٧٩: النواصي.

(٢) توفي سنة ٥٨٦ ـ بالقاهرة بعد أن نزح إليها من بغداد ـ عن اثنتين وثمانين سنة. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ٢٣٣ ـ ٢٣٤.

أضحت ملوك الفرنج الصيِّد في يده　　صَيداً وما ضعفوا يوماً وما هانوا[1]
كم من فحول ملوك غُودروا وهم　　خوف الفِرَنجة وُلْدان ونسوان
استصرخت بمَلِكْشَاه طرابلس　　فحام عنها وصُمّت منه آذان[2]
هذا وكم ملك من بعده نظر الـ　　إسلام يُطوى ويُحوى وهو سكران
تسعون عاماً بلاد الله تصرخ والـ　　إسلام أنصاره صم وعميان
فالآن لبى صلاح الدين دعوتهم　　بأمر من هو للمِعوان مِعوان
للناصر ادُّخرت هذي الفتوح وما　　سمت لها همم الأملاك مذ كانوا
حباه ذو العرش بالنصر العزيز فقا　　ل الناس داود هذا أم سليمان؟
في نصف شهر غدا للشرك مصطلماً[3]　　فطهرت منه أقطار وبلدان؟
فأين مسلمة عنها وإخوته　　بل أين والدهم بل أين مروان؟[4]
وعَدِّ عما سواه فالفِرَنجة لم　　يُبِذهم من ملوك الأرض إنسان
لو أن ذا الفتحَ في عصر النبي لقد　　تنزلت فيه آيات وقرآن
يا قبح أوجه عباد الصليب وقد　　غدا يبرقعها شؤم وخذلان
خزنتَ عند إله العرش سائر ما　　ملكته وملوك الأرض خُزّان
فالله يبقيك للإسلام تحرسه　　من أن يضام ويُلفى وهو حيران
وهذه سنة أكرم بها سنة　　فالكفر في سنة والنصر يقظان
يا جامعاً كلمة الإيمان قامع مَن　　معبوده دون رب العرش صلبان
إذا طوى الله ديوان العباد فما　　يطوى لأجر صلاح الدين ديوان

[٣٩١] وللشريف النسابة المصري محمد بن أسعد بن علي بن معمر الحلبي المعروف بالجوّاني نقيب الأشراف بالديار المصرية من قصيدة:

أتُرى مناماً ما بعينيّ أبصر　　القدس يُفتح والفرنجة تُكسر

---

[1] الصيد: المتكبرون المزهوّون.

[2] مَلِكشاه هو السلطان السلجوقي في بغداد.

[3] أي قاطعاً.

[4] هو مسلمة بن عبد الملك الخليفة الأموي، ومروان هو ابن الحكم.

وقمامة(١) قمت من الرجس الذي   بزواله وزوالها يتطهر
ومليكهم في القيد مصفود ولم   يُرَ قبل ذاك لهم مليك يؤسر
قد جاء نصر الله والفتح الذي   وعد الرسول فسبحوا واستغفروا
فُتح الشآم وطُهر القدس الذي   هو في القيامة للأنام المحشر
من كان هذا فتحه لمحمد   ماذا يقال له وماذا يُذكر
يا يوسف الصدّيق أنت لفتحها   فاروقها عمر الإمام الأطهر
ولأنت عثمان الشريعة بعده   ولأنت في نصر النبوة حيدر(٢)
ملك غدا الإسلام من عجب به   يختال والدنيا به تتبختر
نثر ونظم طعنه وضرابه   فالرمح ينظم والمهند ينثر
حيث الرقاب خواضع حيث العيو   ن خواشع حيث الجباه تعفر
غاراته جُمَعٌ فإن خطبت له   فيها السيوف فكل هامٍ منبر

فصل في صفة إقامة الجمعة بالأقصى — شرفه الله تعالى — في رابع شعبان ثامن يوم الفتح

قال العماد:

لما تسلم السلطان القدس أمر بإظهار المحراب وكان الداوية قد بنوا في وجهه جداراً، وتركوه للغلة هُرْياً(٣)، وقيل كانوا اتخذوه مستراحاً عدواناً وبغياً، وكانوا قد بنوا من غربي القبلة داراً وسيعة، وكنيسة رفيعة، فأوعز بكشف ذلك الحجاب، وكشف النقاب عن عروس المحراب، وهدم ما قدّامه من الأبنية، وتنظيف ما حوله من الأفنية، بحيث يجتمع الناس للجمعة في العَرْصة(٤) المتسعة، ونصب المنبر وأظهر المحراب المطهر، ونقض ما أحدثوه بين السواري، وفرشوا تلك البسيطة بالبسط الرفيعة عوض الحُصُر

---

(١) أي كنيسة القيامة في القدس.

(٢) أي علي، رضي الله عنه.

(٣) الهري: بيت كبير يُجمع فيه طعام البُرّ ونحوه: «المعجم الوسيط»: هري.

(٤) الساحة: وانظر «المعجم الوسيط»: ع ر ص.

والبواري(١)، وعُلقت القناديل، وتلي التنزيل، وحق الحق وبطلت الأباطيل، وتولى الفرقان وعُزل الإنجيل، وصفت العبادات، وأقيمت الصلوات، وأديمت الدعوات، وتجلت البركات، وانجلت الكربات، وتُليت الآيات، وأعليت الرايات، ونطق الأذان، وخرس الناقوس، وحضر المؤذنون، وغاب القسوس، وزال العبوس والبوُس، وطابت الأنفاس والنفوس، وأقبلت السعادات وأدبرت النحوس، وعاد الإيمان الغريب منه إلى موطنه، وطلب الفضل من مَعدِنه، وورد القرّاء وقرأوا الأوراد، واجتمع الزهاد والعبّاد، وعُبد الواحد، ووحّد العابد، وتوافد الراكع والساجد، والخاشع والواجد، والزاهي والزاهد، والحاكم والشاهد، والجاهد والمجاهد، والقائم والقاعد، والزائر والوافد.

وصدح المنبر وصدع المذكر، وأملى الحفاظ، وأبكى الوعاظ، وتذاكر العلماء، وتناظر الفقهاء، وتحدث الرواة، وروى المحدِّثون، وأخلص الداعون، ودعا المخلصون، وأخذ بالعزيمة المترخصون، ولخص المفسرون، وفسر الملخِّصون، وانتدب الخطباء، وكثر المترشحون للخطابة، المعروفون بالفصاحة، الموصوفون بالحصافة، فما فيهم إلا من خطب الرتبة، ورتب الخطبة، وأنشأ معنى شائقاً وسوّى كلاماً بالموضع لائقاً، وروى مبتكراً من البلاغة فائقاً، وفيهم من عرض عليّ خطبته، وتمنى أن ترجح فضيلته، وتنجح وسيلته، وما منهم إلا من يتأهب ويترقب، ويتوسل ويتقرّب، وفيهم من يتعرض ويتضرع، والسلطان لا يعين ولا يبين، ولا يخص ولا ينص.

فلما دخل يوم الجمعة رابع شعبان أصبح الناس يسألون في تعيين الخطيب السلطانَ، وامتلأ الجامع واحتفلت المجامع، وتوجست الأبصار والمسامع، وفاضت لرقة القلوب المدامع، وغصّت بالسابقين إليها

---

(١) الحُصُر، وهي جمع بارياء: وانظر «المعجم الوسيط»: بار.

المواضع، وقال الناس: هذا يوم كريم، وفضل عميم، وموسم عظيم، هذا يوم تجاب فيه الدعوات، وتصب البركات، وتسال العبَرات، وتقال العثرات، ويتيقظ الغافلون، ويتعظ العاملون، وطوبى لمن عاش حتى حضر هذا اليوم الذي فيه انتعش الإسلام، وما أفضل هذه الطائفة الحاضرة، والعصبة الطاهرة، والأمة الظاهرة، وما أكرم هذه النصرة الناصرية، والأسرة الإمامية، والدولة العباسية، والمملكة الأيوبية، والدولة الصلاحية.

وهل في بلد الإسلام أشرف من هذه الجماعة، التي شرفها الله بالتوفيق لهذه الطاعة، وتكلموا فيمن يخطب، ولمن يكون المنصب، والأصوات ترتفع، والجماعات تجتمع، والأفواج تزدحم، وللعارفين من الضجيج ما في عرفات للحجيج، حتى حان الزوال فنصب السلطان الخطيب وأبان عن اختياره، وأوعز إلى القاضي محيي الدين أبي المعالي محمد بن زكي الدين علي القرشّي بأن يرقى ذلك المرقى، وترك جباه الباقين بتقديمه عَرقَى، فأعَرْتُه من عندي أُهْبة(١) سوداء من تشريف الخلافة، وخطب وأنصتوا، ونطق وسكتوا، وأفصح وأعرب، وأبدع وأغرب، وأعجز وأعجب، ووعظ في خطبتيه وخطب بموعظتيه، وأبان عن فضل البيت المقدس وتقديسه، والمسجد الأقصى من أوّل تأسيسه، وتطهيره بعد تنجيسه، وإخراس ناقوسه، وإخراج قسيسه، ودعا للخليفة والسلطان، وختم بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ ﴾(٢) ونزل وصلى في المحراب، وافتتح ببسم الله الرحمن الرحيم من أم الكتاب فأم بتلك الأمة، وتم نزول الرحمة، وكمل وصول النعمة.

ولما قُضيت الصلاة انتشر الناس، وكان قد نُصب للوعظ تجاه القبلة سرير فجلس عليه زين الدين أبو الحسن علي بن نجا فذكّر من خاف ومن رجا، ومن سعد ومن شقى، ومن هلك ومن نجا، وأتى بكل عظة للراقدين

---

(١) كأنها العباءة أو نحوها.

(٢) سورة النحل: آية ٩٠.

موقظة، ولأولياء الله مرققة، ولأعداء الله مغلظة، وضج المتباكون، ورقت القلوب، وتحدَّرت العبرات، وتاب المذنبون، وصاح التوابون، وناح الأوابون، وصلى السلطان في قبة الصخرة، والصفوف على سعة الصحن بها متصلة، والأمة إلى الله بدوام نصره مبتهلة، والوجوه الموجهة إلى القبلة عليه مقبلة، والأيدي إلى الله مرفوعة، والدعوات له مسموعة.

[٣٩٣] فصل في إيراد ما خطب به القاضي محيي الدين ــ رحمه الله ــ

قال العماد:

وخطب القاضي محيي الدين بن زكي الدين أربع خطب في أربع جُمَع كلها من إنشائه، وذكرت الخطبة الأولى افتتحها بهذه الآيات:

﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٤٥)﴾(١)، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٢) ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ (٣) مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ (٤)﴾(٢)، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾(٣)، ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾(٤)، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾(٥)، ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾(٦)، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾(٧)، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾(٨).

والخطبة هي:

الحمد لله معز الإسلام بنصره، ومذل الشرك بقهره، ومصرف الأمور

---

(١) سورة الأنعام.

(٢) سورة الفاتحة.

(٣) سورة الأنعام: الآية ١.

(٤) سورة الإسراء: الآية ١١١.

(٥) سورة الكهف: الآية ١.

(٦) سورة النمل: الآية ٥٩.

(٧) سورة سبأ: الآية ١.

(٨) سورة فاطر: الآية ١.

بأمره، ومديم النعم بشكره، ومستدرج الكافرين بمكره، الذي قدَّر الأيام دُوَلاً بعدله، وجعل العاقبة للمتقين بفضله، وأفاء على عباده من ظله، وأظهر دينه على الدين كله.

القاهر فوق عباده فلا يمانع، والظاهر على خليقته فلا ينازع، والآمر بما يشاء فلا يراجع، والحاكم بما يريد فلا يدافع.

أحمده على إظفاره وإظهاره، وإعزازه لأوليائه، ونصره لأنصاره، وتطهيره بيتَه المقدّس من أدناس الشرك وأوضاره، حمد من استشعر الحمدَ باطنُ سره وظاهر جهاره.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، شهادة من طهر بالتوحيد قلبه، وأرضى به ربه، وأشهد أن محمداً ﷺ عبده ورسوله رافع الشك، وداحض الشرك، الذي أسرى به من المسجد الحرام إلى هذا المسجد الأقصى، وعرج به منه إلى السموات العلى إلى سدرة المنتهى، عندها جنة المأوى، إذ يغشى السدرةَ ما يغشى، ما زاغ البصر وما طغى، صلى الله عليه وعلى خليفته أبي بكر الصدّيق السابق إلى الإيمان، وعلى أمير المؤمنين عمرَ بنِ الخطاب أوّل من رفع عن هذا البيت شعار الصلبان، وعلى أمير المؤمنين عثمانَ ذي النورين جامع القرآن، وعلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب مزلزل الشرك ومكسّر الأوثان، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان:

أيها الناس أبشروا برضوان الله الذي هو الغاية القصوى، والدرجة العليا، لما يسره الله على أيديكم من استرداد هذه الضالة من الأمَّة الضالة، وردِّها إلى مقرها من الإسلام بعد ابتذالها في أيدي المشركين قريباً من مائة عام، وتطهير هذا البيت الذي أذن الله أن يرفع، وأن يُذكر فيه اسمه، ورفع قواعده بالتوحيد فإنه بُني عليه، وبالتقوى فإنه أسس على التقوى من خلفه ومن بين يديه، فهو موطن أبيكم إبراهيم، ومعراج نبيكم محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ وقبلتكم التي كنتم تصلون إليها في ابتداء الإسلام، وهو

مقر الأنبياء، ومقصد الأولياء، ومقر الرسل، ومهبط الوحي، ومنزل تنزل الأمر والنهي، وهو في أرض المحشر، وصعيد المنشر، وهو في الأرض المقدّسة التي ذكرها الله في كتابه المبين، وهو المسجد الذي صلى فيه رسول الله ﷺ بالملائكة المقربين، وهو البلد الذي بعث الله إليه عبده ورسوله وكلمته التي ألقاها إلى مريم وروحه عيسى الذي شرفه الله برسالته وكرّمه بنبوّته، ولم يزحزحه عن رتبة عبوديته، فقال تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ﴾(١) وقال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾(٢).

وهو أوّل القبلتين، وثاني المسجدين، وثالث الحرمين، لا تُشد الرحال بعد المسجدين إلا إليه، ولولا أنكم ممن اختاره الله من عباده واصطفاه من سكان بلاده لما خصّكم بهذه الفضيلة التي لا يجاريكم فيها مجار ولا يباريكم في شرفها مبار، فطوبى لكم من جيش ظهرت على أيديكم المعجزات النبوية، والوقعات البدرية، والعزمات الصديقية، والفتوح العُمَرية، والجيوش العثمانية، والفتكات العلوية، جددتم للإسلام أيام القادسية، والوقعات اليرموكية، والمنازلات الخيبرية، والهجمات الخالدية، فجزاكم الله عن نبيه محمد ﷺ أفضل الجزاء، وشكر لكم ما بذلتموه من مُهجكم في مقارعة الأعداء، وتقبل منكم ما تقربتم به إليه من مهراق الدماء، وأثابكم الجنة فهي دار السعداء.

فاقدروا ـ رحمكم الله ـ هذه النعمة حق قدرها، وقوموا لله ـ تعالى ـ بواجب شكرها، فله النعمة عليكم بتخصيصكم بهذه النعمة، وترشيحكم لهذه الخدمة، فهذا هو الفتح الذي فتحت له أبواب السماء، وتبلجت(٣) بأنواره وجوه الظلماء، وابتهج به الملائكة المقربون، وقرَّ به عيناً الأنبياء والمرسلون.

---

(١) سورة النساء: الآية ١٧٢.

(٢) سورة المائدة: الآية ٧٢.

(٣) تبلّج: أسفر وأنار: «انظر المعجم الوسيط» ب ل ج.

فماذا عليكم من النعمة، بأن جعلكم الجيش الذي يفتح عليه البيت المقدّس في آخر الزمان، والجند الذي تقوم بسيوفهم بعد فترة من النبوّة أعلام الإيمان، فيوشك أن تكون التهاني بين أهل الخضراء(١) أكثر من التهاني بين أهل الغبراء(٢).

أليس هو البيتَ الذي ذكره الله في كتابه، ونصّ عليه في خطابه فقال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾(٣)، أليس هو البيت الذي عظمته الملوك، وأثنت عليه الرسل، وتُليت فيه الكتب الأربعة المنزّلة من إلهكم عز وجل.

أليس هو البيت الذي أمسك الله - عز وجل - الشمس على يُوشَع لأجله أن تغرب، وباعد بين خطواتها ليتيسر فتحه ويقرب.

أليس هو البيت الذي أمر الله موسى أن يأمر قومه باستنقاذه فلم يجبه إلا رجلان، وغضب عليهم لأجله فألقاهم في التيه عقوبة للعصيان.

فاحمدوا الله الذي أمضى عزائمكم لما قعد عنه بنو إسرائيل وقد فضّلهم على العالمين، ووفقكم لما خذل فيه من كان قبلكم من الأمم الماضين، وجمع لأجله كلمتكم وكانت شتى، وأغناكم بما أمضته كان وقد عن سوف وحتى(٤).

فليهنكم أن الله قد ذكركم به فيمن عنده، وجعلكم بعد أن كنتم جنوداً لأهويتكم جنده، وشكركم الملائكة المنزلون على ما أهديتم إلى هذا البيت من طيب التوحيد، ونشر التقديس والتحميد، وما أمطتم عن طرقهم فيه من أذى الشرك والتثليث، والاعتقاد الفاجر الخبيث.

فالآن يستغفر لكم أملاك السموات، وتصلي عليكم الصلوات

---

(١) أي أهل السماء.

(٢) أي أهل الأرض.

(٣) سورة الإسراء: الآية ١.

(٤) أي تحقق الفتح ولم يُسوف.

المباركات، فاحفظوا ـ رحمكم الله ـ هذه الموهبة فيكم، واحرسوا هذه النعمة عندكم بتقوى الله التي من تمسَّك بها سلم ومن اعتصم بعروتها نجا وعصم، واحذروا من اتّباع الهوى ورجوع القهقرى، والنكول من العدا وخذوا في انتهاز الفرصة، وإزالة ما بقي من الغصة، وجاهدوا في الله حق جهاده، وبيعوا عباد الله أنفسكم في رضاه، إذ جعلكم من خير عباده، وإياكم أن يستزلكم الشيطان، وأن يتداخلكم الطغيان، فيخيل لكم أن هذا النصر بسيوفكم الحداد، وبخيولكم الجياد، وبجلادكم في مواطن الجلاد، لا والله ما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم.

واحذروا عباد الله بعد أن شرَّفكم بهذا الفتح الجليل، وخصَّكم بهذا الفتح المبين، أن تقترفوا كبيراً من مناهيه، وأن تأتوا عظيماً من معاصيه، فتكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوَّة أنكاثاً، والذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين.

والجهادَ الجهادَ فهو من أفضل عباداتكم، وأشرف عاداتكم، انصروا الله ينصركم، اذكروا أيام الله يذكركم، اشكروا الله يزدكم ويشكركم، جُدّوا في حسم الداء، وقطع شأفة الأعداء، وتطهير بقية الأرض التي أغضبت الله ورسوله، واقطعوا فروع الكفر واجتثوا أصوله، فقد نادت الأيام بالثارات الإسلامية، والملة المحمدية، الله أكبر، فتح الله ونصر، غلب الله وقهر، أذل الله من كفر.

واعلموا ـ رحمكم الله ـ أن هذه فرصة فانتهزوها، وفريسة فناجزوها، ومهمة فأخرجوا لها هممكم وأبرزوها، وسيروا إليها عزماتكم وجهزوها، فالأمور بأواخرها، والمكاسب بذخائرها، فقد أظفركم الله بهذا العدو المخذول، وهم مثلكم أو يزيدون، فكيف وقد أضحى في قبالة الواحد منهم منكم عشرون، وقد قال الله تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ﴾(١)، أعاننا الله وإياكم على اتّباع أوامره، والازدجار بزواجره،

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٦٥.

وأيدنا معشر المسلمين بنصر من عنده: ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ﴾(١).

وتمام الخطبة الثانية قريب مما جرت به العادة، وقال بعد الدعاء للخليفة:

اللهم وأدم سلطاننا عبدك الخاضع لهيبتك، الشاكر لنعمتك، المعترف بموهبتك، سيفك القاطع، وشهابك اللامع، والمحامي عن دينك المدافع، والذابّ عن حرَمك الممانع، السيد الأجلّ الملك الناصر، جامع كلمة الإيمان، وقامع عبدة الصلبان، صلاح الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، مطهر البيت المقدّس أبا المظفر يوسف بن أيوب محيي دولة أمير المؤمنين.

اللهم عم بدولته البسيطة(٢)، واجعل ملائكتك براياته محيطة، وأحسن عن الدين الحنيفي جزاءه، واشكر عن الملة المحمدية عزمه ومضاءه.

اللهم أبق للإسلام مهجته، وانشر في المغارب والمشارق دعوته.

اللهم فكما فتحت على يده البيت المقدس بعد أن ظنت الظنون، وابتلُي المؤمنون فافتح على يده أداني الأرض وأقاصيها، وملِّكه صياصي الكفرة ونواصيها، فلا تلقاه منهم كتيبة إلا مزقها ولا جماعة إلا فرقها، ولا طائفة بعد طائفة إلا ألحقها بمن سبقها.

اللهم اشكر عن محمد ﷺ سعيه، وأنفذ في المشارق والمغارب أمره ونهيه، اللهم وأصلح به أوساط البلاد وأطرافها، وأرجاء الممالك وأكنافها، اللهم ذلل به معاطس الكفار، وأرغم به أنوف الفجار، وانشر ذوائب ملكه على الأمصار.

اللهم ثبت الملك فيه وفي عقبه إلى يوم الدين، واحفظه في بنيه وبني

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٦٠.

(٢) أي الأرض.

أيوب الملوك الميامين، واشدد عضده ببقائهم واقض بإعزاز أوليائه وأوليائهم، اللهم كما أجريت على يده في الإسلام هذه الحسنة التي تبقى على الأيام، وتتخلد على مر الشهور والأعوام، فارزقه الملك الأبديّ الذي لا ينفد في دار المتقين، وأجب دعاءه في قوله: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾(١) ثم ما جرت العادة به(٢).

[٣٩٤] فصل في المنبر

قال العماد:

لما فتحنا القدس أمر بتعمير المحراب وترخيمه، وتكميل حسنه وتتميمه، ووضع منبر رسمي في أوّل يوم قُضي به الفرض، واحتيج بعد ذلك إلى منبر حسن رائق، بحسنه لائق، وبجماله شائق، وبكماله فائق، فذكر السلطان المنبر الذي أنشأ الملك العادل نور الدين محمود بن زَنْكي - رحمه الله - لبيت المقدس قبل فتحه بنيف وعشرين سنة، فأمر أن يكتب إلى حلب ويُطلب، فحمل وعمل على ما أمر به وامتثل، فجاء كالروض النضير، والوشي الحبير(٣)، عديمَ النظير.

[٣٩٥] وكان الملك العادل نور الدين بن زنكي - رحمه الله - في عهده عَرف بنور فراسته فتح البيت المقدّس من بعده فأمر في حلب باتخاذ منبر للقدس تعب النجارون والصناع والمهندسون فيه سنين، وأبدعوا في تركيبه الإحكام والتزيين، وأنفق في إبداع محاسنه وإبداء مزاينه ألوفاً، وكان لترديد النظر فيه على الأيام ألوفاً، وبقي ذلك المنبر بجامع حلب منصوباً، حتى أمر السلطان في هذا الوقت بالوفاء بالنذر النوري، ونقل المنبر إلى موضعه

---

(١) سورة النمل: الآية ١٩.

(٢) أي ذكر الخطيب ما جرت العادة به في ختم الخطب.

(٣) الوشي: الثوب المنقوش الحسن، والحبير: المزين: وانظر «المعجم الوسيط»: و ش ي، ح ب ر.

القدسي، فعُرفت بذلك كرامات نور الدين التي أشرق نورها بعده بسنين، وكان من المحسنين الذين قال الله فيهم: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾(١).

[٣٩٦] قلت: وهذا الذي نسبه إلى نور الدين ـ رحمه الله ـ من أنه كرامة من كراماته لائق بمحله ومنزلته من الدين وليس بالبعيد من مثل ذلك، وكان ـ رحمه الله ـ قد بدت له مخايل ذلك بما تسنى له من فتح البلاد الشامية والمصرية، وقهر العدوّ بين يديه مراراً، وكان فتح القدس في همته من أوّل ملكه، فإن لم يكن حصل له مباشرة فقد حصل له تسبباً، فإن الفاتحين له ـ رحمهم الله ـ بنوا على ما أسسه لهم من الملك والتدبير، وهم أمراؤه وأتباعه، وأجناده وأشياعه.

[٣٩٧] ثم يحتمل أن يكون ـ رحمه الله ـ وقف على ما ذكره أبو الحكم بن بَرّجان الأندلسيّ في تفسيره فإنه أخبر عن فتح القدس في السنة التي فُتح فيها، وعمر نور الدين إذ ذاك إحدى عشرة سنة، وقد رأيت أنا ذلك في كتابه، ذكر في تفسير أوّل سورة الروم أن البيت المقدّس استولت عليه الروم عام سبع وثمانين وأربعمائة، وأشار أنه يبقى بأيديهم إلى تمام خمسمائة وثلاث وثمانين سنة.

قال: ونحن في عام اثنتين وعشرين وخمسمائة، فلم يستبعد نور الدين ـ رحمه الله ـ لما وقف عليه أن يمتدّ عمره إليه فهيأ أسبابه حتى منبر الخطابة فيه تقرباً إلى الله ـ تعالى ـ بما يبديه من طاعته ويخفيه.

وهذا الذي ذكره أبو الحكم الأندلسي في تفسيره من عجائب ما اتفق لهذه الأمة المرحومة(٢)، وقد تكلم عليه شيخنا أبو الحسن علي بن محمد(٣) في تفسيره الأوّل فقال: وقع في تفسير أبي الحكم الأندلسي في

---

(١) سور آل عمران: الآية ١٣٤.

(٢) قد سبق سَوْق شيء من هذه المسألة، انظر الفقرة [٣٦٣].

(٣) هو السخاوي السابق ذكره.

أوّل سورة الروم إخبارٌ عن فتح البيت المقدس، وأنه ينزع من أيدي النصارى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة.

قال: وقال لي بعض الفقهاء: إنه استخرج ذلك من فاتحة السورة، قال: فأخذت السورة وكشفت عن ذلك فلم أرَه أخذ ذلك من الحروف(١)، وإنما أخذه ـ فيما زعم ـ من قوله تعالى: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ (٢) فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ (٣) فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾(٢) فبنى الأمر على التاريخ كما يفعل المنجمون، ثم ذكر أنهم يغلبون في سنة كذا ويغلب في سنة كذا على ما تقتضيه دوائر التقدير، قال: وهذه نجامة وافقت إصابة إن صح أنه قال ذلك قبل وقوعه، وكان في كتابه قبل حدوثه، وليس ذلك بمأخوذ من الحروف، ولا هو من قَبيل الكرامات أيضاً، فإن الكرامة لا تكتسب بحساب، ولا تفتقر إلى تاريخ.

[٣٩٨] فصل

قال العماد: وأما الصخرة المقدّسة فإن الفرنج كانوا بنوا عليها كنيسة، وستروها بالأبنية، وعوَّجوا أوضاعها بزعم التسوية، وكسوها صُوَراً هي أشنع من التعرية، ولم يتركوا فيها للأيدي المتبركة، ولا للعيون المدركة ملمساً ولا مطمحاً، وقد زينوها بالصور والتماثيل، وعينوا بها مواضع الرهبان ومحط الإنجيل، وكملوا بها أسباب التعظيم والتبجيل، وأفردوا فيها لموضع القدم قبة صغيرة مذهبة، بأعمدة الرخام منصبة، وقالوا: محل قدم المسيح، وهو مقام التقديس والتسبيح، وكان فيها صور الأنعام، منبتة في الرخام، فأمر السلطان بكشف نقابها ورفع حجابها وحسر لثامها وقَشْر رخامها، وإبرازها للزائرين، وإظهارها للناظرين، فعادت كما كانت في الزمن القديم، وما كان يظهر منها قبل الفتح إلا قطعة من تحتها، فظهرت الآن أحسن ظهور،

---

(١) أي من قوله تعالى في أول سورة الروم: ﴿الم﴾ والمقصود حساب الجُمَّل المعتمد على الحروف، إذ كل حرف له رقم حيث الألف بواحد، واللام بثلاثين، والميم بأربعين: وانظر «المعجم الوسيط»: ج م ل.

(٢) سورة الروم: الآية٢ ـ ٤.

وسفرت أيمن سفور، وأشرقت القناديل من فوقها نوراً على نور، وعملت عليها حظيرة من شبابيك حديد، والاعتناء بها إلى كل يوم في مزيد.

قال: وكان الفرنج قد قطعوا من الصخرة قطعاً، وحملوا منها إلى قسطنطينية، ونقلوا منها إلى صقلية، وقيل باعوها بوزنها ذهباً، واتخذوا ذلك مكتسباً، ولما طهرت ظهرت مواضعها، فهي الآن مبرزة للعيون، باقية على الأيام، مصونة للإسلام.

وقال: ورتب السلطان في قبة الصخرة إماماً حسناً، ووقف عليها داراً وأرضاً وبستاناً، وحمل إليها وإلى محراب المسجد الأقصى مصاحف معظَّمات، لا تزال بين أيدي الزائرين على كراسيها مرفوعة، وعلى أسرتها موضوعة، ورتب لهذه القبة خاصة وللبيت المقدّس عاماً قوماً من العارفين العاكفين، القائمين بالعبادة الواقفين، فما أبهج ليلها وقد حضرت الجموع، وزهرت الشموع، وبان الخشوع، ودان الخضوع، ودرت من المتقين الدموع، واقشعرت من العارفين الضلوع، فهناك كل ولي يعبد ربه، ويأمل بره، وكل أشعثَ أغبر لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبرّه، وهناك كل من يحيي الليل ويقومه، وهناك كل من يختم القرآن ويرتله، ويطرد الشيطان ويبطله، ومن عرفته لمعرفته الأسحار، ومن ألفته لتهجده الأوراد والأفكار، وما أسعدَ نهارها حين يستقبل الملائكة زوّارها، وتلحق الشمس أنوارها، وتحمل القلوب إليها أسرارها.

قال: وتنافس ملوك بني أيوب فيما يؤثرونه بها من الآثار الحسنة، وفيما يجمع لهم ودّ القلوب وشكر الألسنة، فما منهم إلا من أجمل وأحسن، وفعل ما أمكن، وجلى وبيّن، وحلى وزين، وأتى تقي الدين عمر بكل ما عمَّ وعمر، ومن جملة أفعاله المشكورة ومكرماته المشهورة أنه حضر يوماً في قبة الصخرة ومعه من ماء الورد أحمال، ولأجل الصدقة والرفد(١) مال، فانتهز فرصة هذه الفضيلة التي ابتكرها، وتولى بيده كنس

---

(١) أي العطاء.

تلكَ الساحات ثم غسلها بالماء مراراً حتى تطهرت، ثم أتبع الماء بماء الورد صباً حتى تعطرت، وكذلك طهر حيطانها، وغسل جدرانها، ثم أتى بمجامر الطيب فتبخرت، ثم فرق ذلك المال فيها على ذوي الاستحقاق.

وجاء الملك الأفضل نور الدين علي(١) بكل نور جلي، وفرش فيها البسط الرفيعة.

قال: وأما محراب داود ـ عليه السلام ـ خارج المسجد الأقصى فإنه في حصن عند باب المدينة منيع، وموضع عال رفيع، وهو الحصن الذي يقيم به الوالي، فرتب السلطان له إماماً ومؤذنين وقوَّاماً وهو مثابة الصالحين، ومزار الغادين والرائحين، فأحياه وجدَّده، وأمر بعمارة جميع المساجد، وصون المشاهد.

وكان موضع هذه القلعة دار داود وسليمان ـ عليهما السلام ـ وكان الملك العادل نازلاً في كنيسة صهيون وأجناده على بابها مخيمون، وفاوض السلطانَ جلساؤه من العلماء والأكابر الأبرار، والأتقياء الأخيار في أن يبني مدرسة للفقهاء الشافعية، ورباطاً للصلحاء الصوفية، فعين للمدرسة الكنيسة المعروفة بصندحنة عند باب أسباط، وعين دار البطرك وهي بقرب كنيسة قمامة للرباط، ووقف عليهما وقوفاً، وأسدى بذلك إلى الطائفتين معروفاً.

فصل

[٣٩٩] قال(٢): وشرع الفرنج في إخلاء البيوت، وبيع ما ادخروه من الأثاث والقوت، وأمهلوا حتى باعوا بأرخص الأثمان، وكان خروجهم شبيهاً بالمجّان، لا سيما ما تعذر لثقله نقله، وصعب حمله، وكانوا كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾﴾(٣) فباعوا ما تهيأ لهم على

---

(١) ابن صلاح الدين.

(٢) أي العماد.

(٣) سورة الدخان: الآيات ٢٥ ـ ٢٨.

البيع إخراجه رخيصاً، وأبقوا ما لم يجدوا من تركه محيصاً، وغلبوا على ما في الدور من الماعون والمذخور.

أما الصناديق والأخشاب والرخام وما يجري مجراها مما توفرت منه الأنواع والأقسام فإنها بقيت بحالها متروكة، ولمن يسكن تلك الأماكن مملوكة.

وكانت قمامة ـ وهي كنيستهم العظمى، ومتعبدهم الذي يجمعون به الدين والدنيا ـ مفروشة بالبسط والرقاع، مكسوّة بالستور النسيج، والحرير الممزوج من سائر الأنواع، والذي يذكرون أنه قبر عيسى ـ عليه السلام ـ محلى بصفائح الفضة والعَيْن(١)، ومصوغات الذهب واللُجَين(٢)، فأعاده البطرك منه عاطلاً(٣)، وتركه طللاً ماثلاً، فقلت للسلطان: هؤلاء إنما أخذوا الأمان على أموالهم، فما بال هذا المال ـ وهو بألوف ـ يحملونه في أثقالهم؟ فقال: هم ما يعرفون هذا التأويل، ويقولون: إنهم لم يحفظوا العهد، ولم يلحظوا العقد، ونحن نجريهم على ظاهر الأمان، ونغريهم بذكر محاسن الإيمان.

وكانت المهلة أنه من عجز بعد أربعين يوماً عن أداء ما عليه من القطيعة ضُرب عليه الرق بحكم الشريطة، ووقف الشريعة، فتولاهم النواب بعد خروجنا من القدس، وبقي منهم ممن ضُرب عليه الرق خمسة عشر ألفاً في الحبس، ففرقهم السلطان، وتناهبتهم البلدان، وحصل لي منهم سبايا نسوان وصبيان، وذلك بعد أن وفّى ابن بارزان بالضمان، وأدى ثلاثين ألف دينار، وأخرج من ذكر أنه فقير بحسب الإمكان، وكانوا تقدير ثمانية عشر ألفاً، وأعتقد أنه لم يبق غير فقير، وبقي بعد أدائه على ما ذكرناه كثير.

---

(١) هو الذهب: وانظر «لسان العرب»: ع ي ن.

(٢) وهي الفضة: انظر «لسان العرب»: ل ج ن.

(٣) أي أخذ ما فيه من الذهب والفضة.

وأما النصارى الساكنون بالقدس فإنهم بذلوا مع القطيعة الجزية ليسكنوا ولا يُزعجوا، ويؤمّنوا ولا يخرجوا، فأقرّوا بوساطة الفقيه عيسى، وأقر من قسوس النصارى أربعة قُوّام لقُمامة(١)، فأعفاهم ولم يكلفهم الغرامة، وأقام بمدينة القدس وأعمالها منهم ألوف، فشمروا وعمروا، وعرّشوا وغرّسوا.

وكانت لأمراء الفرنج ومقدّميهم مجاورة للصخرة، وعند باب الرحمة مقبرة، وقباب معمرة، فعفّينا(٢) آثارها.

[٤٠٠] وقال: وأمر السلطان بإغلاق كنيسة قمامة، وحرّم على النصارى زيارتها، وتفاوض الناس عنده فيها فمنهم من أشار بهدم مبانيها وتعفية آثارها، وقالوا: إذا هُدمت ونبشت المقبرة وعُفّيت، وخربت أرضها، ودمر طولها وعرضها انقطعت عنها أمداد الزوار، وانحسمت عن قصدها موادّ أطماع أهل النار، ومهما استمرت العمارة استمرت الزيارة، وقال أكثر الناس: لا فائدة في هدمها وهدّها، فإن متعبدهم موضع الصليب والقبر لا ما يشاهد من البناء، ولا ينقطع عنها قصد أجناس النصرانية ولو نسفت أرضها في السماء، ولما فتح أمير المؤمنين عمر - رضي الله عنه - القدس في صدر الإسلام أقرهم على هذا المكان ولم يأمر بهدم البنيان.

[٤٠١] قال: وأقام السلطان على القدس حتى تسلم ما بقربها من حصون، واستباح كل ما للكفر بها من مصون، ثم عمد إلى ما جمعه ففرّقه، وأخرجه في ذوي الاستحقاق وأنفقه، فأكثروا عذله(٣) على بذله، واستكثروا ما أفاضه بفضله، فقال: كيف أمنع الحق مستحقيه؟ وهذا الذي أنفقه هو الذي أتقيه، وإذا قبله مني المستحق فالمنة له عليّ فيه، فإنه يخلصني من الأمانة ويطلقني من وثاقها، فإن الذي في يدي وديعة أحفظها

---

(١) هي كنيسة القيامة.

(٢) أي أزلنا: وانظر «لسان العرب»: ع ف ى.

(٣) العذل: اللوم: وانظر «لسان العرب»: ع ذ ل.

لذوي استحقاقها، وقيل له: لو ادّخرت هذا المال للمآل، فقال: أملي قوي من الله الكافل بنُجح الآمال، وجمع الأسراء المطلقين، وكانوا ألوفاً من المسلمين، فكساهم وواساهم، وأذهب أساهم، فانطلق كل منهم إلى وطنه.

[٤٠٢] وقال: سمعت الملك العادل[١] يوماً وهو يُجري ذكر إفراط السلطان في أياديه[٢] يقول: إني توليت استيفاء قطيعة القدس فأنفذت له ليلة سبعين ألف دينار فجاءني خازنه بكرة وقال: نريد اليوم ما نخرجه في الإنفاق، فما عندنا مما كان بالأمس شيء باق، فَنفَّذت له ثلاثين ألف دينار أخرى في الحال.

ثم دخلت سنة أربع وثمانين وخمسمائة

[٤٠٣] فصل في فتح اللاذقية

قال القاضي ابن شدّاد:

وهي بلد مليح خفيف على القلب، غير مسوَّر، وله ميناء مشهور، وله قلعتان متصلتان على تل يشرف على البلد، فنزل السلطان ـ رحمة الله عليه ـ يوم الخميس رابع عشر جمادى الأولى، وأخذ العسكر منازلهم مستديرين على القلعتين من جميع نواحيهما إلا من ناحية البلد، واشتد القتال وعظم الزحف والنزال، وارتفعت الأصوات، وقَوي الضجيج إلى آخر النهار، وأخذ البلد دون القلعتين، وغنم الناس منه غنيمة عظيمة، فإنه كان بلد التجار، وفرق بين الناس الليل وهجومُه، وأصبح يوم الجمعة مقاتلاً مجتهداً في أخذ النقوب من شمالي القلاع، وتمكن منها النقب حتى بلغ طوله على ما حكى لي مَن ذرَّعه عشرين ذراعاً وعرضه أربعة أذرع، فاشتد الزحف عليه حتى صعد الناس الجبل وقاربوا السور، وتواصل القتال حتى صاروا يتحاذفون بحجارة اليد.

---

(١) أخو صلاح الدين.

(٢) الأيادي: النعم.

فلما رأى عدو الله ما حل به من الصَّغار والبوار استغاثوا بطلب الأمان، وطلبوا قاضي جبلة يدخل إليهم ليقرر لهم قاعدة الأمان فأجيبوا إلى ذلك.

وكان السلطان ـ رحمه الله ـ متى طلب منه الأمان لا يبخل به، فعاد الناس عنهم إلى خيامهم وقد أخذ منهم التعب فباتوا إلى صبيحة السبت، ودخل قاضي جبلة إليهم واستقرّ الحال معهم على أنهم يطلقون بأنفسهم وذراريهم ونسائهم وأموالهم خلا الغلال والذخائر وآلات السلاح والدواب، وأطلق لهم دواب يركبونها إلى مأمنهم، ورقى عليها العلم الإسلامي المنصور في بقية يوم السبت، وأقمنا عليها يوم الأحد سابع عشر جمادى الأولى.

وقال العماد:

ثم ولّى السلطان بها مملوكه سُنْقُر الخلاطيّ، وركب السلطان إلى البلد وطافه، وأمنه بعد ما أخافه، قال: ورأيتها بلدة واسعة الأفنية، جامعة الأبنية، في كل دار بستان، وفي كل قطر بنيان، وسقوفها عالية، وقطوفها دانية، وأسواقها قصية، وآفاقها مُضيَّة، وأرجاؤها فسيحة، وأهواؤها صحيحة، لكن العسكر شعث عمارتها، وأذهب نضارتها، ووقع من عدة من الأمراء الزحام على الرخام، ونقلوا منه أحمالاً إلى منازلهم بالشام، فشوهوا وجوه الأماكن ومحو أسنى المحاسن.

قال: وبظاهر اللاذقية كنيسة عظيمة، نفيسة قديمة، بأجزاء الأجزاع(١) مرصعة، وبألوان الرخام مجزعة(٢)، وأجناس تصاويرها متنوعة، وأصول تماثيلها متفرّعة، وهي متوازية الزوايا، ومتوازنة البنايا، وزينت لإخوان

---

(١) الأجزاع: جمع جزع وهو ضَربٌ من العقيق له خطوط مختلفة الألوان، والحجر في جملته بلون الظفر: انظر «المعجم الوسيط»: ج ز ع.

(٢) المُجَزَّع: كل ما اجتمع فيه سواد وبياض، وانظر المصدر السابق.

الشياطين، وعينت لعبدة الأوثان والصلبان، ولما دخلها الناس أخرجوا رخامها، وشوّهوا أعلامها، وأهدوا الأسى لهد أساسها، وحكموا بعد الغنى بإفلاسها، فأقفرت وأقفرت، وخربت وتربت، ثم لما طابت النفوس، وتجلى عن البلد بفتحه البوس، عاد إلى هذه الكنيسة بالأمان القسوس، وهي متشوهة متشعثة، متمسكة بأركانها وبقواعدها متشبثة.

قال: ولقد كثر أسفي على تلك العمارات كيف زالت، ولكنما زاد سروري بأنها عادت للإسلام مرابع، ولشموسه مطالع، فلو بقيت بحِليتها وحالتها بعد ما تبدلت رشدها من ضلالتها لشاقت وراقت.

ورغب في إعطاء الجزية سكان البلد من النصارى والأرمن حباً للوطن، ولما أراد السلطان الرحيل دخل المدينة وردّ إلى سكانها السكينة، ودار خلال ديارها، ووقف على البحر للنظر إلى موانيها وشوانيها(١)، وأقاصيها وأدانيها، وشكر الله على تمكينه من ملكها، وتخصيصه بمُلكها.

فصل في عهد الهدنة مع صاحب انطاكية وعَوْد السلطان

قال العماد: كان السلطان قد عزم على قصد أنطاكية، فرأى همم الأجناد لا سيما الغرباء قد ضعفت، ونياتهم في الجهاد قد فترت، وتشوّقوا إلى بلادهم والراحة من جهادهم، وكان صاحب أنطاكية قد أشرف على الهلاك، وعلم أنه إن قُصد غُلب، فنفّذ أخا زوجته رسولاً إلى السلطان متذللاً يطلب الهدنة على أنه يُطلق من عنده من أسارى المسلمين وهم جمع كبير، فعقدها معهم مدّة يسيرة ثمانية أشهر من تشرين الأول إلى انقضاء أيّار، فيكون انقضاء الهدنة قبل إدراك الغلة وأوان حصادها فيستريح فيها الأجناد، ويعودون بعدها إلى فرض الجهاد، فتم كتاب الهدنة وتوجه شمس الدولة ابن منقذ لتخليص الأسرى وإنقاذهم منه.

وقال القاضي ابن شدّاد:

---

(١) أي سفنها.

وعُقد الصلح بيننا وبين أهل أنطاكية لا غير على أن يطلقوا جميع أسارى المسلمين الذين عندهم، وكان إلى سبعة أشهر، فإن جاءهم من ينصرهم وإلا سلموا البلد إلى السلطان، ثم رحل عنه يطلب دمشق وسأله ولده الظاهر صاحب حلب أن يجتاز به فأجابه، فدخلها حادي عشر شعبان، فأقام بقلعتها ثلاثة أيام، ثم سار إلى دمشق فاعترضه ابن أخيه تقي الدين وأصعده إلى قلعة حماة، وبات بها ليلة واحدة فأعطاه جبلة واللاذقية، وسار إلى بعلبك وأقام ببرجها يوماً ودخل حمّامَها، ثم أتى دمشق فأقام بها حتى دخل شهر رمضان.

وما كان يرى تبطيل وقته عن الجهاد مهما أمكنه، وكان قد بقي له من القلاع القريبة من حوران التي يخاف عليها من جانبها صفد وكوكب فرأى أن يشغل الزمان بفتح المكانين في الصوم.

[٤٠٥] فصل في فتح الكَرَك وحصونه

قال العماد: ووردت البشرى بنُجح الدَرَك في تسليم حصن الكَرَك، وذلك أنها مدة غيبتنا في بلاد أنطاكية لم تعدم من محاصرتها، المضايقة الناكية، حتى فنيت أزوادهم ونفدت موادهم، ويئسوا من نجدة تأتيهم، فتوسلوا بالملك العادل(١) وأبدوا له ضراعة السائل، فما زالت الرسالات تتردّد والاقتراحات تتجدد والقوم يلينون والعادل يتشدّد حتى دخلوا في الحكم وخرجوا على السلم، وسلموا الحصن وتحصنوا بالسلامة، وخلصوا بإقامة عذرهم عند قومهم من الملامة.

[٤٠٦] فصل في فتح صفد

قال القاضي ابن شدّاد:

ثم سار في أوائل رمضان من دمشق يريد صفد، ولم يلتفت إلى

---

(١) وهو أخو صلاح الدين.

مفارقة الأهل والولد في هذا الشهر الذي يسافر الإنسان أين كان ليجتمع فيه بأهله، فأتاها وهي قلعة منيعة قد تقاطعت حولها أودية من سائر جوانبها، فأحدق العسكر بها ونصبت عليها المجانيق، وكانت الأمطار شديدة، والوحول عظيمة، ولم يمنعه ذلك عن جدّه.

ولقد كنت ليلةً في خدمته وقد عيَّن مواضع خمسة مجانيق حتى تُنصب، فقال: في تلك الليلة ما ننام حتى ننصب الخمسة، وسلم كل منجنيق إلى قوم، ورسله تتواتر إليهم يخبرونه ويعرفونهم كيف يصنعون حتى أظلّنا الصباح، فرويت له الحديث المشهور في الصحاح، وبشرته بمقتضاه وهو قوله ﷺ: «عينان لا تمسهما النار، عين باتت تحرس في سبيل الله وعين بكت من خشية الله»، قال المؤلف: أخرج الترمذي هذا الحديث، وقال: هو حديث حسن غريب.

قال: ولم يزل القتال متواصلاً، مع الصوم حتى سُلمت بالأمان في رابع عشر شوّال.

[٤٠٧] فصل في فتح حصن كوكب[١]

قال القاضي ابن شدّاد:

ثم سار ـ رحمة الله عليه ـ يريد كوكب، فنزل على سطح الجبل، وأحدق بالقلعة وضايقها بالكلية بحيث اتخذ له موضعاً يتجاوزه نشّاب العدو، وبنى له حائطاً من حجر وطين يستتر وراءه، وكانت الأمطار متواترة، والوحول بحيث تمنع الماشي والراكب إلا بمشقة عظيمة، وعانى شدائد وأهوالاً من شدّة الرياح وتراكم الأمطار، وكون العدوّ متسلطاً عليهم بعلوّ مكانه، وجرح وقتل جماعة، ولم يزل راكباً مركب الجدّ ـ رحمه الله ـ حتى تمكن النقب من سورها ولما أحس العدوّ المخذول بالنقب وقد تمكن

---

(١) اسم للقلعة التي على الجبل المطل على طبرية. انظر «معجم البلدان»: ٤/ ٤٩٤.

من السور علم أنه مخذول مأخوذ فطلب الأمان، فأمنهم وتسلمها في منتصف ذي القعدة.

[٤٠٨] ومن كتاب فاضلي(١) إلى سيف الإسلام باليمن عن السلطان:

«والآن فالمجلس السامي(٢) يعلم أن الفرنج لا يَسْلُون(٣) عما فتحنا، ولا يصبرون على ما جرحنا، وأنهم ـ لعنهم الله ـ أمم لا تُحصى، وجيوش لا تستقصى، ويد الله فوق أيديهم، وسيجعل الله بعد عسر يسراً، وما هم إلا كلاب قد تعاوت، وشياطين قد تغاوت، وإن لم يُقذفوا من كل جانب استأسدوا واستكلبوا، وكانوا لباطلهم الداحض أنصرَ منا لحقنا الناهض، وقد كتب المستخدمون بالإسكندرية، وصاحب قسطنطينية، والثغور المغربية ينذرون بأن العدوّ قد أجمع أمراً، وحاول نُكراً، وغضبوا ـ زادهم الله غضباً ـ وأوقدوا ناراً للحرب جعلها الله عليهم حطباً، وسلُّوا سيوفاً للبغي لا يبعد أن يكونوا أغمادَها(٤)، وتواعدت جموع ضلالتهم أخلف الله ميعادها.

وأما نحن فبالله ندفع ما نطيق، وما لا نطيق، وإليه نرغب في أن يثبت قلوبنا إذا كادت تزيغ قلوب فريق، ونحن الآن نستنجد أخانا وندعوه إلى ما له دُعينا، ونؤمل من الله أن ينصرنا ديناً ودنيا، ونرجو أن يمدنا بنفسه سريعاً، وبعسكره جميعاً، ويذخره الذي كان لمثله مجموعاً، وأن يلبيها دعوة إما أن يطيع بها ربه لأنها دعوته، وإما أن ينصر بها نبيه ﷺ فإنها شريعته، وإما أن يعين بها أخاه فإنها شدّة الإسلام لا شدّته.

هذا وإن كان المجلس قد قعد عنا ولم يعدنا في مرض الأجسام، فلا يقعد عنا في مرض الإسلام، فالبدارَ البدارَ فإن لم يكن الشام له بدار فما اليمن له بدار، والجنةَ الجنةَ فإنها لا تُنال إلا بإيقاد الحرب على أهل النار،

---

(١) أي من إنشاء القاضي الفاضل، رحمه الله تعالى.

(٢) هكذا كان يخاطب الملوك والأمراء.

(٣) أي لا ينسون ولا يتلهّوْن.

(٤) أي توضع السيوف فيهم كما توضع في غمدها.

والهمةَ الهمةَ فإن البحار لا تُلقى إلا بالبحار، والملوك الكبار لا يقف في وجوهها إلا الملوك الكبار، وما يدعى للعظيم إلا العظيم، ولا يرجى لموقف الصبر الكريم إلا الكريم، هذا والأقدار جارية، ومشيئة الله ماضية، فإن يشأ ينصرنا على العدد المضعف بالعدد الأضعف، فإنا لا نرتاب بأن الله ـ تعالى ـ ما فتح علينا هذه الفتوح ليغلقها، ولا جمع علينا هذه الأمة ليفرقها، وإنما يؤثر أن يتساهم آل أيوبَ في ميراثهم منه مواقف الصبر، ومطالع النصر، ولا يسرنا أن ينقضي عمره(١) في قتال غير الكافر، ونزال غير الكفر المناظر»(٢).

ثم دخلت سنة خمس وثمانين وخمسمائة

[٤٠٩] فصل في فتح شقيف أَرْنُون(٣)

قال القاضي ابن شدّاد:

وهو موضع حصين قريب من بانياس، خرج السلطان من دمشق بعد صلاة الجمعة في الثالث من ربيع الأول، فسار حتى نزل في مرج فلوس، ونزل من الغد يوم السبت في مرج برغوث، فأقام به والعساكر تتابع إلى حادي عشرة، ورحل إلى بانياس ومنها إلى مرج عيون، فخيم به وهو قريب من شقيف أرنون بحيث يركب كل يوم يشارفه ويعود، والعساكر تجتمع وتطلبه من كل صوب، فأقمنا أياماً نشرف كل يوم على الشقيف، والعساكر الإسلامية في كل يوم تصبح متزايدة العَدد والعُدد، وصاحب الشقيف يرى ما تيقن معه عدم السلامة، فرأى إن إصلاح حاله معه قد تعين طريقاً إلى سلامته، فنزل بنفسه وما أحسسنا به إلا وهو قائم على باب خيمة

---

(١) أي أخو صلاح الدين الوالي باليمن.

(٢) هذه رسالة عزيزة نفيسة من صلاح الدين بقلم القاضي الفاضل، رحمهما الله تعالى، توضح بجلاء ما كان عليه صلاح الدين من الرغبة في الجهاد واستئصال الكفار، وتوضح ـ أيضاً ـ نقاء قصده وصفاء نيته.

(٣) قلعة حصينة جداً قريبة من بانياس: انظر «معجم البلدان»: ٣/ ٣٥٦.

السلطان فأذن له فدخل فاحترمه وأكرمه، وكان من كبار الفرنجية وعقلائها، وكان يعرف بالعربية وعنده اطّلاع على شيء من التواريخ والأحاديث.

قال: وبلغني أنه كان عنده مسلم يقرأ له ويُفهمه، وكان عنده أناة فحضر بين يدي السلطان وأكل معه الطعام، ثم خلا به وذكر أنه مملوكه وتحت طاعته وأنه يسلم إليه من غير تعب، واشترط أن يُعطى موضعاً يسكنه بدمشق فإنه لا يقدر بعد ذلك على مساكنة الفرنج، وإقطاعاً بدمشق يقوم به وبأهله، وأنه يُمكّن من الإقامة بموضعه، وهو يتردد إلى الخدمة ثلاثة أشهر من تاريخ اليوم الذي كان فيه حتى يتمكن من تخليص أهله وجماعته من صور، ويأخذ مغلّ هذه السنة، فأجيب إلى ذلك كله، وأقام يتردد إلى خدمة السلطان في كل وقت ويناظرنا في صحة دينه ونناظره في بطلانه.

وكان حسن المحاورة متأدباً في كلامه، ثم استفاض بين الناس أن صاحب الشقيف فعل ما فعله من المهلة غيلة لا أنه صادق في ذلك، وإنما قصد به تدفيع الزمان، وظهرت لذلك مخايل كثيرة من الخوض في تحصيل الميرة، وإتقان الأبواب، فرأى السلطان أن يصعد إلى سطح الجبل ليقرب من المكان ويمنع من دخول نجدة وميرة إليه، وأظهر أن سبب ذلك شدة حموّ الزمان والفرار من وَخَم المرْج، فنزل صاحبه وسأل أن يمهل تمام سنة فماطله السلطان وما آنسه، وقال: نفكر في ذلك ونجمع الجماعة.

وقال العماد:

فعرف السلطان من فحوى حاله أمارات الارتياب، فكلمه بإيناس وما ردّه بإياس، وأمر السلطان بتحويل الخيم إلى ظهر الجبل ليقرب من الحصن وقد بقي من الهدنة يومان فتضوّر صاحب الحصن فقيل له: تقيم عندنا في كنف الأمان، فبكى وتألم من ضبطه، وانكشفت سريرته الغادرة، فأمر بحمله إلى الشقيف حتى يسلمه، ووكل به وحفظ من حيث لا يعلم، وقيل: لعله يحسن ولا يحوج إلى المقابحة ويسلم، وقيل له: قد بقي

يومان من المدة تقيم حتى تنتهي وتسلم فأبدى ضراعة، وقال: سمعاً وطاعة، وكان له مَلْقَى ومَلَق(١)، وفي لسانه ذَلَق(٢)، قال: أنا أنفذ إلى نوابي في التسليم، وهو قد تقدم إليهم بالوصية والتعليم، فأظهروا عصيانه، وقالوا: يبقى مكانه، فقُيد وحُمل إلى قلعة بانياس وبطل الرجاء فيه وبان الياس، ثم استُحضر في سادس رجب وهدده وتوعده، فلما لم يفد خطابه ولم يُجد عذابه، سيَّره إلى دمشق وسجنه، ورتب عدة من الأمراء بملازمة حصر الحصن في الصيف والشتاء إلى أن تسلمه بعد سنة بحكم السلم، وأطلق صاحبه وأجرى عليه حكم الحلم.

[٤١٠] فصل في نزول الفرنج ــ خذلهم الله ــ على عكا

قال القاضي ابن شدّاد:

ثم بلغنا بعد ذلك أن الفرنج بصور ومن كان مع الملك قد ساروا يريدون جهة عكا، وأن بعضهم نزل بإسكندرونة(٣)، وجرى بينهم وبين رجّالة المسلمين مناوشة وقتل منهم المسلمون نفراً يسيراً، وأقاموا هناك.

ولما بلغ السلطان حركتهم إلى تلك الجهة عظم عليه ولم يرَ المسارعة خوفاً من أن يكون قصدهم ترحيلهم عن الشقيف لا قصد المكان، فأقام مستكشفاً للحال إلى يوم الأحد ثاني عشر رجب فوصل قاصدٌ أخبر أن الفرنج في بقية ذلك اليوم رحلوا ونزلوا عين بصة، ووصل أوائلهم إلى الزيب(٤)، فعظم عنده ذلك، وكتب إلى سائر أرباب الأطراف بالمسير إليه، وأصبح يوم الاثنين ثالث عشر رجب سائراً إلى عكا على طريق طبرية، إذ لم يكن ثم طريق يسع العسكر إلا هو، وسيَّر جماعة على

---

(١) أي حُسْن لقاء، وحسن تملّق الناس.

(٢) سلامة ولطافة.

(٣) مدينة في تركيا.

(٤) بلدة قرب عكا.

طريق تبنين يستشرفون العدو ويواصلون بأخباره، ثم رحل وسار طول الليل حتى أتى موضعاً يقال له المنية صبيحة الثلاثاء وفيه بلغنا نزول الفرنج على عكا، وسُيّر صاحب الشقيف إلى دمشق بعد الإهانة الشديدة على سوء صنيعه، واشتدّ حنقه عليه بسبب تضييع ثلاثة أشهر عليه وعلى عسكره لم يعملوا فيها شيئاً.

وسار السلطان حتى اجتمع ببقية العسكر الذي كان أنفذه على طريق تبنين بمرج صفورية فإنه كان واعدهم إليه، وبعث بعض العسكر ودخل عكا على غرة من العدو تقوية لمن فيها، ولم يزل يبعث إليها بعثاً بعد بعث حتى حصل فيها خلق كثير، واحتاط العسكر الإسلاميّ بالعدّو وأخذوا عليهم الطرق من سائر الجوانب، وتلاحقت العساكر الإسلامية واجتمعت، وحصر العدو في خيامه بحيث لا يخرج منها أحد إلا يجرح أو يقتل.

وكان عسكر العدوّ على شطر من عكا، وخيمة ملكهم على تل المصلبين قريباً من باب البلد، وكان عدد راكبهم ألفي فارس، وعدد راجلهم ثلاثين ألفاً، قال: وما رأيت مَن نَقَصهم عن ذلك، ورأيت من حَزَرهم بزيادة على ذلك، ومددهم من البحر لا ينقطع، والمسلمون يتهافتون على قتالهم والسلطان يمنعهم من ذلك إلى وقته، والبعوث من عساكر المسلمين تتواصل والملوك والأمراء من الأقطار تتابع، ووصل تقي الدين من حماة، ومظفر الدين بن زين الدين.

ولما استفحل أمر الفرنج استداروا بعكا بحيث منعوا من الدخول والخروج منها، وذلك سلخ رجب، فعظم على السلطان وضاق صدره وثارت همّته العالية في فتح الطريق إلى عكا لتستمر السابلة إليها بالميرة والنجدة فباكرهم مستهل شعبان وضايقهم مضايقة شديدة فكانت الحملة بعد صلاة الجمعة، وانتشر عسكر العدوّ إلى أن ملكوا التلول، واتصلت الحرب إلى أن حال بين الفئتين هجوم الليل وبات الناس على حالهم من الجانبين تحرس كل طائفة نفسها من الأخرى، وأصبحوا ثاني شعبان يوم السبت على القتال.

وأنفذ السلطان طائفة من شجعان المسلمين إلى البحر من شمالي عكا فحمل شجعان المسلمين على عسكر الفرنج الواقف شمالي عكا فانكسروا بين أيديهم كسرة عظيمة وقتلوا منهم جمعاً كبيراً، والتفت السالمون منهم إلى خيامهم، وانفتح الطريق إلى عكّا من باب القلعة، ودخل السلطان في ذلك اليوم إلى عكا ورقى على السور ونظر إلى عسكر العدوّ، وتراجع الناس عن القتال بعد صلاة الظهر لسقي الدواب وأخذ الراحة، ولم يعودوا إلى القتال، وأصبحوا يوم الأحد فرأى بعض الأمراء تأخير القتال إلى أن يدخل الراجل كله إلى عكا ويخرجوا مع العسكر المقيم بها من أبواب البلد على العدوّ من ورائه، وتركب العساكر من خارج من سائر الجوانب ويحملوا حملة الرجل الواحد.

[٤١١] والسلطان ـ رحمه الله ـ يعاني هذه الأمور كلها بنفسه، لا يتخلف عن مقام من هذه المقامات، وهو من شدة حرصه ووفور همته كالوالدة الثُكلى، ولقد أخبرني بعض أطبائه أنه بقي من يوم الجمعة إلى يوم الأحد لم يتناول من الغذاء إلا شيئاً يسيراً لفرط اهتمامه، وفعلوا ما كان عزموا عليه، واشتدّت منعة العدوّ وحمى نفسه في خيامه، ولم تزل سوق الحرب قائمة تباع فيها النفوس بالنفائس.

واستمر فتح طريق عكا والمسلمون يترددون إليها، قال: وكنت ممن دخل ورقى على السور، ودام القتال بين الفئتين متصلاً الليل مع النهار، حتى كان الحادي عشر من شعبان ورأى السلطان ـ رحمه الله ـ توسيع الدائرة عليهم لعلهم يخرجون إلى مصارعهم، فنقل الثُقْل إلى تل العياضية وهو تل مشرف على عكا وخيام العدوّ.

[٤١٢] وطال الأمر بين الفئتين وما يخلو يوم عن قتل وجرح وسَبي ونهب، وأنس البعض بالبعض بحيث إن الطائفتين كانتا تتحدثان وتتركان القتال، وربما غنى البعض ورقص البعض لطول المعاشرة، ثم يرجعون إلى القتال بعد ساعة، وسئموا يوماً فقالوا: إلى كم يتقاتل الكبار وليس للصغار

حظ نريد أن يصطرع صبيان: صبي منا وصبي منكم، فأخرج صبيان من البلد إلى صبيين من الفرنج فوثب أحد الصبيين المسلمين على أحد الصبيين الكافرين فاحتضنه وضرب به الأرض وأخذه أسيراً، فاشتراه منه بعض الفرنج بدينارين وقالوا: هو أسيرك حقاً فأخذ الدينارين وأطلقه.

قال: ووصل مركب فيه خيل فهرب منها فرس ووقع في البحر، وما زال يسبح وهم حوله يردّونه حتى دخل ميناء عكا وأخذه المسلمون.

[٤١٣] فصل في المصاف الأعظم على عكا، وهي الوقعة الكبرى التي بدأت بالسوء وختمت بالحسنى

قال القاضي ابن شدّاد:

لما كان يوم الأربعاء الحادي والعشرين من شعبان تحركت عساكر الفرنج حركة لم يكن لهم بمثلها عادة: فارسهم وراجلهم، وكبيرهم وصغيرهم، واصطفوا خارج خيمهم قلباً وميمنة وميسرة، وفي القلب الملك وبين يديه الإنجيل محمول مستور، بثوب أطلس⁽¹⁾ مغطًى، يمسك أربعة أنفس أربعة أطرافه، وهم يسيرون بين يدي الملك، وامتدت الميمنة في مقابل ميسرة المسلمين من أولها إلى آخرها، وامتدت ميسرة العدوّ في مقابلة ميمنتنا إلى آخرها، وملكوا رؤوس التلال فكان طرف ميمنتهم إلى النهر وطرف ميسرتهم إلى البحر، وأمر السلطان أن ينادى في الناس: يا للإسلام وعساكر الموحدين، فركب الناس وقد باعوا أنفسهم بالجنة، وامتدت الميمنة إلى البحر كل قوم يركبون ويقفون بين يدي خيامهم، والميسرة إلى النهر كذلك أيضاً، وكان السلطان قد أنزل الناس في الخيم ميمنة وميسرة وقلباً على تعبية الحرب حتى إذا وقعت صيحة لا يحتاجون إلى تجديد ترتيب.

---

(١) الثوب الأطلس هو البالي أو الأسود: وانظر «المعجم الوسيط»: ط ل س.

[٤١٤] وجميع هذا والسلطان ـ رحمه الله تعالى ـ يطوف على الأطلاب⁽¹⁾ بنفسه يحثهم على القتال، ويدعوهم إلى النزال، ويرغبهم في نصرة دين الله، ولم يزل القوم يتقدمون، والمسلمون يُقْدمون حتى علا النهار ومضى فيه أربع ساعات، وعند ذلك تحركت ميسرة العدوّ على ميمنة المسلمين وأخرج لهم تقي الدين الجاليش وجرى بينهم قلبات كثيرة وتكاثروا على تقي الدين ـ وكان في طرف الميمنة على البحر ـ فتراجع عنهم شيئاً إطماعاً لهم لعلهم يتعدّون عن أصحابهم فينال منهم غرضاً، فلما رآه السلطان قد تأخر ظن به ضعفاً فأمدّه بأطلاب عدّة من القلب حتى قَوِيَ جانبه وتراجعت ميسرة العدوّ واجتمعت على تل مشرف على البحر.

ولما رأى الذين في مقابلة القلب ضعف القلب ومن خرج منه من الأطلاب داخلهم الطمع، وتحركوا نحو ميمنة القلب وحملوا حملة الرجل الواحد راجلهم وفارسهم، وجاءت الحملة على الديار بكرية⁽²⁾ ـ كما شاء الله تعالى ـ وكان بهم غرة عن الحرب فتحركوا بين يدي العدوّ وانكسروا كسرة عظيمة، وسرى الأمر حتى انكسر معظم الميمنة، وأما الميسرة فإنها ثبتت فإن الحملة لم تصادفها.

[٤١٥] وأما السلطان ـ رحمه الله ـ فإنه أخذ يطوف على الأطلاب يُنهضهم ويعدهم الوعود الجميلة، ويحثهم على الجهاد، وينادي فيهم يا للإسلام، ولم يبق معه إلا خمسة أنفس وهو يطوف، ويتخرق الصفوف، فتراجع الناس.

[٤١٦] وعاد السلطان وجلسوا في خدمته يتذاكرون من فُقد منهم فكان مقدار من فقد منهم من الغلمان والمجهولين مائة وخمسين نفراً، ومن المعروفين استشهد في ذلك اليوم ظهير الدين أخو الفقيه عيسى ـ رحمه الله

---

(١) جمع طُلْب: وهي فرقة من الفرسان الذين يبلغ عددهم خمس مائة فارس. وانظر: «عيون الروضتين»، ص١٣٤، هامش(٥).

(٢) أي الجيش القادم من ديار بكر، وهي في جنوب شرق تركيا اليوم.

ـ ولقد رأيته وهو جالس يضحك والناس يعزونه وهو ينكر عليهم ويقول: هذا يوم الهناء لا يوم العزاء.

ثم قال القاضي: هذا الذي قتل من المسلمين، وأما العدوّ المخذول فحزر قتلاهم بسبعة آلاف نفر، ورأيتهم وقد حُملوا إلى شاطىء النهر ليُلقوا فيه.

وعند انقضاء هذه الوقعة وسكون ثائرتها أمر السلطان بالثقْل(١) حتى تراجع إلى موضع يقال له الخرّوبة خشية على العسكر من آثار الوقعة من الوَخَم(٢)، وهو موضع قريب من مكان الوقعة إلا أنه أبعد عنها من المكان الذي كان نازلاً فيه بقليل، وضُربت له خيمة عند الثقل.

[٤١٧] واستحضر الأمراء وأرباب المشورة ثم أمرهم بالإصغاء إلى كلامه وكنت من جملة الحاضرين، ثم قال: بسم الله، والحمد لله، والصلاة على رسول الله، اعلموا أن هذا عدوّ الله وعدوّنا، وقد وطىء أرض الإسلام، وقد لاحت لوائح النصرة عليه ـ إن شاء الله تعالى ـ وقد بقي من هذا الجمع(٣) اليسيرُ ولا بدّ من الاهتمام بقلعه، والله قد أوجب علينا ذلك، وأنتم تعلمون أن هذه عساكرنا ليس وراءنا نجدة ننتظرها سوى الملك العادل(٤) وهو واصل، وهذا العدوّ إن بقي وطال أمره إلى أن ينفتح البحر جاءنا مدد عظيم، والرأي كل الرأي عندي مناجزته، فليخبرنا كل منكم بما عنده في ذلك، وكان ذلك في ثالث عشر تشرين ـ يعني الثاني من الشهور الشمسية ـ فانفصلت آراؤهم على أن المصلحة تأخر العسكر إلى الخروبة، وأن يبقى العسكر أياماً حتى يستجم من حمل السلاح وترجع نفوسهم إليهم فقد أخذ منهم التعب، واستولى على نفوسهم الضجر، وتكليفهم أمراً على

---

(١) أمتعة الحرب: وانظر «المعجم الوسيط»: ث ق ل.

(٢) المرض.

(٣) أي جمع الفرنجة.

(٤) أخي صلاح الدين.

خلاف ما تحمله القوى لا تؤمن غائلته(١)، والناس لهم خمسون يوماً تحت السلاح وفوق الخيل، والخيل قد ضجرت، وعند أخذ حظ من الراحة ترجع نفوسها إليها، ويصل الملك العادل ويشاركنا في الرأي والعمل، ونستعيد من شذّ من العساكر.

وكان بالسلطان ـ رحمه الله ـ التياث(٢) مزاجيّ قد عراه من كثرة ما حمل على قلبه وعاناه من التعب بحمل السلاح والفكر في تلك الأيام، فوقع له ما قالوه ورآه مصلحة، فأقام يُصلح مزاجه ويجمع العساكر إلى عاشر رمضان.

قال: وكان لما بلغه خبر العدوّ وقصده عكا جمع الأمراء وأصحاب الرأي بمرج عيون وشاورهم فيما يصنع، وكان رأيه ـ يرحمه الله ـ أن قال: المصلحة مناجزة القوم ومنعهم من النزول على البلد، وإلا إن نزلوا جعلوا الرجّالَة سوراً لهم وحفروا الخنادق وصعب علينا الوصول إليهم وخيف على البلد منهم، وكانت إشارة الجماعة أنهم إذا نزلوا واجتمعت العساكر قلعناهم في يوم واحد، وكان الأمر كما قال، والله لقد سمعت منه هذا القول، وشاهدت الفعل كما قال.

فصل في باقي حوادث هذه السنة بمرج عكا وغيره

قال العماد:

وفي يوم الاثنين ثالث رمضان أخذ أصحابنا بعكا مركباً للفرنج إلى صور مقلعاً محتوياً على ثلاثين رجلاً وامرأة واحدة ورزمة من الحرير، وجاءت حظوة حلوة، وغنيمة صفوة، وقد كان انكسر نشاطهم وانقبض انبساطهم، فلما عثروا بالمركب انتعشوا وصاروا يخرجون ويقتلون ويجرحون، ويمسون على القتال ويصبحون، وندم الفرنج على تلك

---

(١) الغائلة: الفساد والشر: وانظر «المعجم الوسيط»: غ و ل.

(٢) اختلاط: وانظر «المعجم الوسيط»: ل و ث.

الحركة، فإنها أفضت بهم إلى الهلكة فإنهم ما داموا رابضين، وعلى يد الصبر قابضين، يتعذر الوصول إليهم، والدخول عليهم.

[٤١٨] وفي بعض الكتب إلى بعض الأطراف: «والمرجو من الله ـ سبحانه وتعالى ـ تحريك همم المؤمنين في تسكين ثائرهم، وتخريب عامرهم، وما دام البحر يمدّهم، والبر لا يصدّهم، فبلاء البلاد بهم دائم، ومرض القلوب بأدوائهم ملازم، فأين حمية المسلمين، ونخوة أهل الدين، وغيرة أهل اليقين؟

وما ينقضي عجبنا من تضافر المشركين وقعود المسلمين، فلا ملبي منهم لمناد، فانظروا إلى الفرنج، أي مورد وردوا، وأي حشد حشدوا، وأي ضالة نشدوا، وأية نجدة أنجدوا، وأية أموال غرموها وأنفقوها، ولم يبق ملك في بلادهم وجزائرهم، ولا عظيم ولا كبير من عظمائهم وأكابرهم إلا جارى جاره في مضمار الإنجاد، وبارى نظيره في الجد والاجتهاد، واستقلوا في صون ملتهم بذل المهَج والأرواح، وأمدّوا أجناسهم الأنجاس بأنواع السلاح مع أكفاء الكفاح، وما فعلوا ما فعلوا، ولا بذلوا ما بذلوا إلا لمجرد الحمية لمتعبَّدهم، والنخوة لمعتقدهم، والمسلمون بخلاف ذلك قد وهنوا وفشلوا، وغفلوا وكسلوا، ولزموا الحيرة، وعدموا الغيرة، ولو انثنى ـ والعياذ بالله ـ للإسلام عنان، أو خبا سنَا(١) ونبا سنان(٢) لما وُجد في شرق البلاد وغربها، وبعد الآفاق وقربها، مَن لدين الله يغار، ومَن لنصرة الحق على الباطل يختار، وهذا أوان رفض التواني، واستدناء أولي الحمية من الأقاصي والأداني، على أنا ـ بحمد الله ـ لنصره راجون، وله بإخلاص السرّ وسرّ الإخلاص مناجون، والمشركون ـ بإذن الله ـ هالكون، والمؤمنون آمنون ناجون»(٣).

---

(١) أي نور: وانظر «لسان العرب»: س ن ى.

(٢) السنان: الرمح، ونبا أي لم يُصِب.

(٣) هذا الخطاب من القاضي الفاضل يصور حال المجاهدين المسلمين اليوم مع عدد من الحكومات الإسلامية.

قال العماد:

وكان السلطان قد كتب إلى مصر يستدعي بأخيه العادل في رجال فقدم عليه منتصف شوّال، وكتب أيضاً في طلب الأسطول المصري فقدمت خمسون قطعة مع حسام الدين لؤلؤ منتصف ذي القعدة فجاءت فجأة على مراكب الفرنج وبغتتها وسحقتها، وبددتها، وسلبتها، وظفر ببُطْستين(١) كبيرتين بما فيهما من أموالهم ورجالهم وغلالهم.

قال: وهذا لؤلؤ قد اشتهرت بالكفر فتكاته، وشُكرت في العدو نكاياته، وقد تفرد بغزوات لم يشاركه فيها أحد، وهو الذي ردَّ الفرنج عن بحر الحجاز ولم يترك منهم عيناً تطرف، ولم يبق لهم دليلاً يعرف، وغزواته مشهورة، وفتكاته مذكورة، وأمواله مبذولة، وأكياسه لعقد الإنفاق في سبيل الله محلولة.

قال: ونقل السلطان إلى البلد في المراكب جماعة من الأمراء بأجنادهم، وعُدَدهم، وأزوادهم، واستظهر البلد أيضاً برجال الأسطول، وكانوا زهاء عشرة آلاف، هذا ورجالة المسلمين يتطرقون إليهم ليلاً، ويذيقونهم من القتل والأسر والسرقة ويلاً، حتى كان رجالنا يختفون بالحشيش في أجراف النهار فإذا صادفوا فارساً ورد الماء فاجأوه بالقتل والإسار.

[٤٢٠] ومن كتاب إلى الديوان(٢):

«قد مضت ثلاثة أشهر شهر بها التثليث على التوحيد سلاحه، وبسط الكفر جناحه، وقُتل من الفرنج وعدم في الوقعات التي روَّعت، والروعات التي وقعت، أكثر من عشرين ألف مقاتل، من فارس وراجل، ورامح

---

(١) أي سفينتين.

(٢) أي ديوان الخلافة ببغداد.

ونابل(١)، فما أثر ذلك في نقصهم، ولا أرّث(٢) إلا نارَ حرصهم، وليس هذا العدوّ بواحد فينجع(٣) فيه التدبير ويأتي عليه التدمير، وإنما هو كلّ من وراء البحر، وجميع من في ديار الكفر، فإنه لم يبق لهم مدينة ولا بلدة ولا جزيرة، ولا خطة صغيرة ولا كبيرة، إلا جهزت مراكبها، وأنهضت كتائبها، وتحرز ساكنها، وبرز كامنها، وثار ثائرها، وسار سائرها، وطار طائرها، ونقضت خزائنها وانقضت معادنها، وحملت ذخائرها، واستخرجت دفائن نفائسها، وخرج بصلبانها أساقفها وبطاركها، وغصّت بالأفواج فجاجها ومسالكها، وتصلبت للصليب السليب(٤)، وتعصبت للمصاب المصيب، ونادوا في نواديهم بأن البلاد هي بلادهم، وأن إخوانهم بالقدس أبارهم الإسلام وأبادهم، وأنه من خرج من بيته مهاجراً لحرب الإسلام وهبت له ذنوبه وذهبت عنه عيوبه، ومن عجز عن السفر سفر بعدّته وثروته من قدر، فجاؤا لابسين الحديد بعد أن كانوا لابسين الحداد، وتواصلت منهم الأمداد».

[٤٢١] قال: «ووصلت في مركب ثلاث مئة امرأة فرنجية مستحسنة، اجتمعن من الجزائر وانتُدبن للجرائر، وقصدن بخروجهن تسبيل أنفسهن للأشقياء، وأنهن لا يمتنعن من العزبان، ورأين أنهن لا يتقربن بأفضل من هذا القربان، وزعمن أن هذه قربة ما فوقها قربة لا سيما فيمن اجتمعت فيه غربة وعُزبة».

[٤٢٢] قال: «وأبق(٥) من عسكرنا من المماليك الأغبياء جماعة اتبعوا من غوى، فمنهم من رضي للذة بالذلة، ومنهم من ندم على الزلّة، وأمر

---

(١) أي أصحاب الرماح وأصحاب النبال.
(٢) أرّث النار: أوقدها: وانظر «المعجم الوسيط»: أرث.
(٣) ينفع: انظر «المعجم الوسيط»: ن ج ع.
(٤) وهو صليب الصلبوت الذي أخذه المسلمون في معركة حطين، كما مر.
(٥) هرب: وانظر «لسان العرب»: أ ب ق.

الهارب إليهم لاتهامه يشتدّ، وباب الهوى عليه يستدّ، وما عند الفرنج على العزباء إذا أمكنت منها العَزَب حرج، وما أزكاها عند القسوس إذا كان للعزبان المضيّقين من فَرْجها فَرَج».

[٤٢٣] قال: (ووصلت أيضاً في البحر امرأة كبيرة القدر، وفي حملتها خمس مئة فارس بخيولهم وأتباعهم، وغلمانهم وأشياعهم، وهي كافلة لكل ما يحتاجون إليه من المؤنة، زائدة بما تنفقه فيهم على المعونة، وهم يركبون بركباتها، ويحملون بحملاتها، ويثبون لوثباتها، وفي الفرنج نساء فوارس، لهن دروع وقوانس(١)، وهن في زيِّ الرجال يبرزن في حومة القتال، ويعملن على أرباب الحجى وهنَّ ربات الحجال(٢)، وكل هذا يعتقدن أنه عبادة، ويَخَلن أنهنَّ يستفدن به سعادة، ويجعلنه لهن عادة، فسبحان الذي أضلهنّ، وعن نهج الهدى أزلهنّ.

وفي يوم الوقعة طلعت منهن نسوة، لهنّ بالفرسان أسوة، وفيهن مع لينهنّ قسوة، وليس لهنّ سوى السوابغ كسوة، فما عرفن حتى سُلبن وعُرّين، ومنهنّ عدّة سُبين واشتُرين، وأما العجائز فقد امتلأت بهنّ المراكز، وهن يشدّدن تارة ويرخين، ويحرضن ويُنخين(٣)، ويقلن: إن الصليب لا يرضى إلا بالإباء، وإنه لا بقاء له إلا بالفناء، وإن قبر معبودهم تحت استيلاء الأعداء، فانظر إلى الاتفاق في الضلال بين الرجال والنساء)(٤).

[٤٢٤] قال: وفي آخر هذه السنة ندب السلطان الرسل إلى الأقطار والأمصار للاستنفار والاستنصار، وبث الكتب، وحث الرسل، وراسل بالحث إلى سيف الإسلام باليمن، وشرح في الكتاب إليه ما جرى من

---

(١) القوانس: ما يجعل على الرأس للوقاية من السلاح، وانظر «لسان العرب»: ق ن س.

(٢) الحجال: جمع حجلة، وهي الساتر كالقبة يُزين للعروس: وانظر «المعجم الوسيط»: ح ج ل.

(٣) أي يُثرن النخوة.

(٤) رسالة القاضي الفاضل هذه توضح مدى تعصب النصارى رجالاً ونساء، شباباً وعجائز لدينهم الباطل.

حوادث الزمن، ووصف له جلية الحال، وطلب منه الإعانة بالمال، وكوتب مظفر الدين قزل أرسلان بهمَذان.

[٤٢٥] فصل في ورود خبر خروج ملك الألمان

قال القاضي ابن شدّاد:

ولما دخل شهر رمضان من سنة خمس وثمانين وصل من حلب كتب من ولده[١] الظاهر يخبر فيها أنه قد صحّ أن ملك الألمان خرج إلى القسطنطينية في عدة عظيمة قيل: مائتا ألف، وقيل: مائتان وستون ألفاً، يريد البلاد الإسلامية.

[٤٢٦] فاشتدّ ذلك على السلطان وعظم عليه، ورأى استنفار الناس للجهاد وإعلام خليفة الوقت[٢] بهذه الحادثة، فاستندبني لذلك وأمرني بالمسير إلى صاحب سنجار، وصاحب المَوْصل، وصاحب إربل، واستدعائهم إلى الجهاد بأنفسهم وعساكرهم، وأمرني بالمسير إلى بغداد، فسرت حادي عشر رمضان ويسر الله ـ تعالى ـ الوصول في الجماعة وإبلاغ الرسالة إليهم، فأجابوا إلى ذلك بنفوسهم، وسير صاحب المَوْصل علاء الدين ابنه بمعظم عسكره، ووعد الديوان بكل جميل، وعدت إليه خامس ربيع الأول سنة ست وثمانين وسبقت العساكر، وأخبرته بإجابتهم وتأهبهم للمسير فسُرَّ بذلك.

وقال العماد:

ونمى الخبر بوصول ملك الألمان إلى قسطنطينية في ثلثمائة ألف مقاتل على قصد العبور إلى بلاد الإسلام، وقطع بلد الروم والأرمن إلى الشام، وفيهم ستون ألف فارس مدرَّع، ومعهم ملوك وكنود[٣]، وكل شيطان لربه كنود، وكتب صاحب قلعة الروم مقدّم الأرمن ـ وهو في قلعته

---

(١) أي ولد صلاح الدين.

(٢) أي الخليفة العباسي في بغداد.

(٣) الكنود جمع كند وهو معرب كنج: أي الملك.

على الفرات وبين أهل الذمة في المأمن - يبدي تنصحاً وإشفاقاً، وتخوّفاً على البلاد واحتراقاً، ويقطع أن الواصلين في كثرة، وأن الناهضين إلى طريقهم في عثرة، وأبرق في كتابه وأرعد، وأبدع في خطابه وأبعد، ولا شك أنه إلى جنسه النجس مائل.

ولما وصل هذا النبأ وقيل إنه عظيم، وورد هذا الخبر وخُيل أنه أليم، كاد الناس يضطربون على أنهم يصدقون ويكذبون، ومن طرف كل حبل من الرأي يجذبون، وقلنا: إن وضح هذا الخطر، وصح هذا الخبر، فالمسلمون يقومون لنا ولا يقعدون، ويغضبون لله ولا يرضون أنهم لا يعضدون، على أن الله ناصرنا، ومؤازرنا ومظاهرنا، وحققنا بإظهار القوة لمن استوحش التأنيس، وبثثنا بالإرسال إلى بلاد الروم عيوناً وجواسيس، وندبنا رسل الاستنصار، وبعثنا كتب الاستنفار إلى جميع الأمصار والأقطار.

وقال(١): وكان ملك الروم يكتب إلينا بأخبارهم، ونبأ خروجهم من ديارهم، ويقول: أنا لا أمكنهم من العبور، فلما جاؤوا لم يقدر على منعهم، فصدَّ عنهم الأزواد(٢)، وحرمهم الإسعاد، وعبروا الخليج وقد كثرت أمدادهم، وقلّت أزوادهم.

ولما وصلوا إلى حدود بلاد الإسلام، وسلكوا في الأودية والآكام، تسلمهم تركمان الأوج، وتراكم الثلوج، واحتاجوا إلى أكل الدواب، وإحراق عُدَدهم لإعواز الأحطاب، وعدموا العلف، وما وجدوا الخلَف، وهم بالبلاد جاهلون، لا يقطعون في يومين فرسخاً، وقد أذهب الله عنهم البركة، وصعب عليهم الحركة، وخرج الأمر عن حسابهم، وهم كل يوم في نقص أنفسهم ودوابهم، وكانوا يدفنون من أعلاقهم(٣) النفسية ما

---

(١) أي العماد.

(٢) الأزواد جمع زاد.

(٣) الأعلاق جمع عِلق، وهو كل ما يتعلق به القلب من النفائس: وانظر «المعجم الوسيط»: ع ل ق.

يعجزون عن نقله، فاتخذوا لأسرارها من أضلاع تلك الشِّعاب، وصدور تلك الهضاب، ضمائر لا تبوح بها أبداً، ولا تطلع على مكنونها ومدفونها أحداً، فلما خلصوا بعد أشهر نقص شطرهم، وانقطع ظهرهم، لكنهم عرضوا في ستين ألف مدرَّع مدجج مقنع، ذلك وقد باد أكثر راجلهم، وترجل معظم أبطال باطلهم، وسيأتي باقي أخبارهم.

ثم دخلت سنة ست وثمانين وخمسمائة

[٤٢٧] فصل في قدوم الملوك وحريق الأبراج

قال العماد:

ولما انقضى الشتاء وانفتح البحر، وحان زمان القتال جاءت العساكر الإسلامية من البلاد، فكان أوّل من وصل الملك المجاهد أسد الدين شيْركوه صاحب حمص والرَّحْبة، وسابق الدين عثمان صاحب شَيْرز، وعز الدين إبراهيم بن المقدم، ووفد معهم جموع من الأجناد والأعيان، وحشود من العرب والتركمان، فرحل السلطان وتقدم، وعزم على طلب العدوّ وصمم، ونزل على تل كيسان يوم الأربعاء ثامن عشر ربيع الأول، ورتب عسكره فكان تقي الدين في آخر الميمنة، والعادل في آخر الميسرة، والأفضل في أوّل ميمنة القلب، وأخوه الظافر في أول الميسرة على الجنب.

ثم وصل الظاهر في عساكر حلب، وعماد الدين محمود بن بهرام الأرتقي صاحب دارا وغيرهم من الملوك والمقاتلين، ووصل رسول الخليفة يوم الاثنين سادس عشر ربيع الأول وهو الشريف فخر الدين نقيب مشهد باب التبن ببغداد، ووصل معه حِمْلان من النفْط الطيار، وحمْلان من القنا الخطار(١)، وتوقيع بعشرين ألف دينار يقترض على الديوان العزيز من

---

(١) الرماح.

التجار، وخمسة من النفّاطين المتقنين صناعة الإحراق بالنار، فاعتدّ السلطان بكل ما أحضره، وأخلص الدعاء للديوان العزيز وشكره، غير أنه أبدى ردّ التوقيع وقال: كل ما معي من نعمة أمير المؤمنين، ولولا صرف أموال هذه البلاد إلى الجهاد لكانت محمولة إلى الديوان، وأركب الرسول معه مراراً وأراه مبارك النزال، ومعارك القتال، حتى يشهد بما يشاهد، ويَبين له المجتهد والمجاهد، وأقام طويلاً ثم استأذن في العود فرجع.

قال ابن شدّاد:

وفي ذلك اليوم بلغ السلطان أن الفرنج قد زحفوا على البلد وضايقوه، فركب إليهم ليشغلهم بالقتال عن البلد، فقاتلهم قتالاً شديداً إلى الليل، وخاف السلطان أن يهجم العدوّ البلد، فانتقل إلى تل الحجل في خامس عشر ربيع الأول للقرب.

قال: وفي صبيحة هذا اليوم وصل من البلد عوّام معه كتب تتضمن أنه قد طم العدوّ بعض الخندق، وقد قوي عزم العدو على منازلة البلد ومضايقته، فجدد السلطان الكتب إلى العساكر بالحث على الوصول، وفي سحر ليلة الجمعة سابع عشري ربيع الأوّل وصل ولده الظاهر، وفي آخر ذلك اليوم وصل مظفر الدين، وكان السلطان ـ رحمه الله ـ ما يقدم عليه عسكر إلا ويعرضهم ويسير بهم إلى العدو وينزل بهم في خيمته، ويمدّ لهم الطعام، وينعم عليهم بما تطيب به قلوبهم، إذا كانوا أجانب، ثم تضرب خيامهم حيث يأمر، وينزلون بها مكرمين.

[٤٢٨] قال: وكان العدوّ قد اصطنع ثلاثة أبرجة من خشب وحديد، وألبسها الجلود المسقاة بالخل على ما ذكر بحيث لا تنفذ فيها النيران، وكانت هذه الأبراج كأنها الجبال نشاهدها من مواضعنا عالية على الأسوار، وهي مركبة على عَجَل يسع الواحد منها من المقاتلة ما يزيد على خمسمائة نفر ـ على ما قيل ـ ويتسع سطحه لأن يُنصب عليه منجنيق، وكان ذلك قد عمل في قلوب المسلمين وأودعها من الخوف على البلد ما لا يمكن

شرحه، وأيس الناس من البلد بالكلية وتقطعت قلوب المقاتلة فيه، وكان قد فرغ عملها ولم يبق إلا جرّها إلى قريب السور.

وكان السلطان ـ رحمه الله ـ قد أعمل فكره في إحراقها وإهلاكها، وجمع الصناع النفّاطين وباحثهم في الاجتهاد في إحراقها ووعدهم عليه بالأموال الطائلة، والعطايا الجزيلة، وضاقت حيلهم عن ذلك، وكان من جملة من حضر شاب نحّاس دمشقي فذكر أن له صناعة في إحراقها، وإنه إن أمكن من الدخول إلى عكا وحصل له الأدوية التي يعرفها أحرقها، فحصل له جميع ما طلبه، ودخل إلى عكا وطبخ تلك الأدوية مع النفط في قدور من النحاس حتى صار الجميع كأنه جمرة نار، ثم ضرب البرج فاشتعل من ساعته ووقته، وصار كالجبل العظيم من النار طالعة ذؤابته نحو السماء، فاستغاث المسلمون بالتهليل والتكبير، وغلبهم الفرح حتى كادت عقولهم تذهب.

فبينما الناس ينظرون ويتعجبون إذ رمى البرج الثاني بالقدر الثاني، والثالثَ بالثالث فاحترقا كالأول، وركب السلطان والعساكر وسار إليهم وانتظر أن يخرجوا فيناجزهم، فلم يظهر العدوّ من خيامهم، وحال بين الطائفتين الليل واستمر ركوب السلطان إليهم في كل يوم، وطلب نزالهم وقتالهم وهم لا يخرجون من خيامهم لعلمهم بتباشير النصر والظفر بهم.

[٤٢٩] والعساكر الإسلامية تتواتر وتتواصل، فوصل في الثاني والعشرين من ربيع الآخر عماد الدين زنكي بن مَودود بن زَنْكي صاحب سنجار، وهو ابن أخي نور الدين ـ رحمه الله ـ وصهره زوج ابنته، فلقيه السلطان بالاحترام والتعظيم، ورتب له العسكر في لقائه، وسار به حتى أوقفه على العدوّ وعاد معه إلى خيمته وأنزله عنده، وكان صنع له طعاماً لائقاً بذلك اليوم، فحضر هو وجميع أصحابه، وقدّم له من التحف واللطائف ما لا يقدر عليه غيره، وكان قد أكرمه بحيث طرح له طراحة مستقلة إلى جانبه وبسط له ثوباً عند دخوله، وضربت خيمته على طرف الميسرة على جانب النهر.

[٤٣٠] وفي سابع جمادى الأولى وصل ابن أخيه صاحب الجزيرة معز الدين سنجرشاه بن سيف الدين غازي بن مَوْدود بن زَنكي فلقيَه السلطان وأنزله إلى جانب عمه عماد الدين، وفي تاسع جمادى الأول وصل ابن صاحب الموصل وهو علاء الدين خُرَّم شاه بن عز الدين مسعود بن مَوْدود بن زَنكي نائباً عن أبيه ففرح السلطان به فرحاً شديداً وتلقاه من بعيد هو وأهله، واستحسن أدبه، وأنزله عنده في الخيمة، وكارمه مكارمة عظيمة، وقدَّم له تحفاً حسنة، وأمر بضرب خيمته بين ولديه الأفضل والظاهر، وفي أواخر الشهر وصل صاحب إربل زين الدين يوسف بن زين الدين علي فأكرمه السلطان وأنزله عند أخيه مظفر الدين يعني في الميسرة.

[٤٣١] وذكر العماد قدوم هؤلاء الملوك بمعنى ما تقدم قال: وكان الفرنج مذ نزلوا على عكا صمموا على الإقامة والحصر، فشرعوا في بناء الأبراج العظام العالية، ونقلوا في البحر آلاتها وأخشابها الجافية، وأقطاع الحديد، وبنوا ثلاثة أبراج عالية في ثلاثة مواضع من أقطار البلد، فتعبوا فيها سبعة أشهر فلم يفرغوا منها إلا في ربيع الأوّل فعلت كأنها ثلاثة أطواد قد ملئت طبقاتها بعُدد وأعداد، وكل برج لا بد له في أركانه من أربع أسطوانات عاليات، غلاظ جافيات، طول كل واحدة خمسون ذراعاً ليشرف على ارتفاع سور البلد، وبسطوها على دوائر العجل، ثم كسوها بعد الحديد والوثوق الشديد بجلود البقر والسلوخ، وكل يوم يقربونها ولو ذراعاً على حسب التيسير في تسييرها، وسقوها بالخل والخمر وكشفوا من جوانبها الثلاثة سور البلد، وشرعوا في طم الخندق.

وجاء عوّام من عكا فأخبر السلطان، فركب بالعسكر ولازمهم من الجمعة إلى الجمعة يقاتلهم صباح مساء ليشغلهم، فافترقوا قسمين: فريق للقتال وفريق آخر مع الأبراج، ورميت الأبراج بكل قارورة نفْط فما أثرت، ولم نشعر يوم السبت الثامن والعشرين من ربيع الأول بالأبراج إلا وقد اشتعلت، والتهبت ووقعت، وكانت آية من قدرة الله ظهرت، وذلك أنه كان

بعكّا شاب من أهل دمشق يعرف بعلي ابن عريف النحاسين، وكان أبداً يجمع آلات الزراقين(١) مولعاً، ولتحصيل عقاقيرها متتبعاً، وكل من عرفه أنكر عمله، وكان قد ألف منها مقادير وقدوراً، وملأ بالغيظ من أهل تلك الصناعة صدوراً، ولم يكن النفط من صناعته، ولكن الله وفقه لسعادته.

فلما كان يوم حريقها جاء إلى الأمير قراقوش وهو مغتاظ، وأخلاقه فظاظ غلاظ، وقال: أتأذن لي في تصويب المنجنيق لأحرق البرج، والله وليُّ التوفيق، فزجره وزبره، ونهاه ونهره، وقال: صناع هذا الشغل قد خاروا وحاروا، فقال الناس: دعه وشأنه، وما يدريك أن الله وفقه وأعانه، فرمى ابن العريف إلى البرج الأول قدور نفط خالية من نار حتى عرف أنه سقاه وروّاه، ثم رماه بقدر محرقة، وأردفها بأخرى مزهقة، فتسلطت النار على طبقاتها، فأضرم على أهل السعير سعيراً، وكان يوماً على الكافرين عسيراً، ثم أحرق الثاني والثالث فاجتمع عليه الأصحاب يفدّونه(٢)، ومن أولياء الله يعدّونه، وحملوه بعد ذلك إلى السلطان فلم يقبل عطاء، وقال: عملته لله فما أريد به من سواه جزاء، وقيل: احترق في البرج الأوّل سبعون فارساً بعدّتها، فحبطت أعمالهم وخابت آمالهم، وخرج رجالنا من البلد فنظفوا الخندق، وسدوا الثغر، وجاؤوا إلى مواضع الأبراج وأماكنها، واستخرجوا الحديد من مكامنها، فأخذوا ما وجدوا، وحصلوا على ما نشدوا.

فصل فيما كان من أمر ملك الألمان

[٤٣٢] قال القاضي ابن شدّاد:

تواصلت الأخبار بوصول ملك الألمان، وعراهم في الطريق جوع عظيم، وأعوزهم الزاد، وقلّ بهم الظهر، حتى أنهم ألقوا بعض أقمشتهم، ولقد بلغنا ـ والله أعلم ـ أنهم جمعوا عُدداً كثيرة من آلات وسلاح عجزوا

---

(١) أي النفط.

(٢) أي يقولون له فداك أبي أو فداك أبي وأمي، وما شابه هذا.

عن حملها وأضرموا فيها النار لتتلف ولا ينتفع بها أحد، وساروا على هذه الحال حتى وصلوا إلى طَرَسوس فأقاموا على نهر ليعبروه، وإن ملكهم الملعون عنَّ له أن يسبح فيه، وكان ماءً شديد البرد وكان ذلك عُقيب ما ناله من التعب، وأنه عرض له بسبب ذلك مرض عظيم اشتدَّ به إلى أن قتله، ولما رأى ما حل به أوصى إلى ابنه الذي كان في صحبته.

ولما مات أجمعوا رأيهم على أنهم سلقوه في خل، وجمعوا عظامه في كيس حتى يحملوه إلى القدس الشريف ويدفنوه فيه، وترتب ابنه مكانه على خُلْف من أصحابه فإن ولده الأكبر كان خَلَفه في بلاده، وكان جماعة من أصحابه يميلون إليه، واستقر قدم ولده الحاضر في تقدمه في العسكر.

ولما أحس لافون⁽¹⁾ بما جرى عليهم من الخلل وما حل بهم من الجوع والموت والضعف بسبب موت ملكهم ما رأى أن يلقي نفسه بينهم فإنه لا يعلم كيف يكون الأمر وهم فرنج وهو أرمني فاعتصم عنهم في بعض قلاعه المنيعة، ولقد وصل إلى السلطان كتاب من الكاغيكوس ـ وهو مقدَّم الأرمن وهو صاحب قلعة الروم التي على طرف الفرات، ومعنى هذا الاسم الخليفة ـ ونسخة الكتاب:

«كتاب الداعي المخلص الكاغيكوس مما أطالع به علوم مولانا ومالكنا السلطان الملك الناصر جامع كلمة الإيمان، رافع علم العدل والإحسان، صلاح الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، من أمر ملك الألمان وما جرى له عند ظهوره، وذلك أنه أول ما خرج من دياره دخل بلاد الهنكر⁽²⁾ غصباً، ثم دخل أرض مقدم الروم وفتح البلاد ونهبها، وأحوج ملك الروم إلى أن أطاعه وأخذ رهائنه: ولده وأخاه وأربعين نفراً من خلصائه، وأخذ منه خمسين قنطاراً ذهباً وخمسين قنطاراً فضة، واغتصب المراكب، وعدَّى

---

(١) ملك الأرمن النصارى.

(٢) أي بلاد هنغاريا.

بها إلى هذا الجانب، وصحبته الرهائن إلى أن دخل حدود بلاد الملك قليج أرسلان⁽¹⁾، وردّ الرهائن وبقي ثلاثة أيام سائراً، وتركمان الأوج يلقونه بالأغنام والأبقار والخيل والبضائع، فتداخلهم الطمع وجمعوا من جميع البلاد، ووقع القتال بين التركمان وبينهم وضايقوه ثلاثة وثلاثين يوماً وهو سائر، ولما قرب من قونية جمع قطب الدين ولد قليج أرسلان العساكر وقصده وضرب معه مصافاً عظيماً فظفر به ملك الألمان وكسره كسرة عظيمة، وسار حتي أشرف على قونية فخرج إليه جموع عظيمة من المسلمين فردهم مكسورين، وهجم قونية بالسيف وقتل منها عالماً عظيماً من المسلمين والفرس، وأقام بها خمسة أيام، فطلب قليج أرسلان منه الأمان فأمنه الملك واستقر بينهم قاعدة أكيدة، وأخذ منه الملك رهائن عشرين من أكابر دولته، وأشار على الملك أن يجعل طريقه على طَرَسوس والمصِّيصة ففعل.

وقبل وصوله إلى هذه البلاد أنفذ كتابه ورسوله يشرح حاله وأين قصده وما لقيه في طريقه، وأن لا بد يجتاز بهذه الديار اختياراً أو كرهاً، فاقتضى الحال إنفاذ المملوك خاتمه وصحبته ما سأل ومعه من الخواص جماعة للقاء الملك في جواب كتابه، وكانت الوصية معهم أن يُحرِّفوه على بلاد قليج أرسلان إن أمكن، فلما اجتمعوا بالملك الكبير وأعادوا عليه الجواب وعرّفوه الأحوال أبى الانحراف، ثم كثر عليه العساكر والجموع ونزل على شط بعض الأنهر وأكل خبزاً ونام ساعة، وانتبه فتاقت نفسه إلى الاستحمام في الماء البارد ففعل ذلك وخرج، وكان أمر الله أنه تحرّك عليه مرض عظيم من الماء البارد فمكث أياماً قلائل ومات.

وأما ابن الملك فكان أبوه منذ توجه لقصد هذه الديار نصب ولده الذي معه عوضه، وتأكدت قواعده.

---

(١) وهي بلاد تركيا اليوم.

[٤٣٣] وفي الجملة هم في عدد كثير، أجناس متفاوتة وخلق غريبة، وهم على قصد عظيم وجد في أمرهم، وسياسة هائلة حتى أن مَن جنى منهم جناية ليس له جزاء إلا أن يذبح مثل الشاة، ولقد بلغنا عن بعض أكابرهم أنه جنى على غلام له وجاوز الحد في ضربه، فاجتمعت القسوس للحكم عليه فاقتضى الحال والحكم العام ذبحه، وشفع إلى الملك منهم خلق عظيم، فلم يلتفت إلى ذلك وذبحه.

[٤٣٤] وقد حرَّموا الملاذ على أنفسهم حتى أن من بلغهم عنه بلوغ لذة هجروه وعزروه، وكل ذلك كان حزناً على بيت المقدس، ولقد صح عن جمع منهم أنهم هجروا الثياب مدة طويلة وحرَّموها على أنفسهم، ولم يلبسوا إلا الحديد حتى أنكر عليهم الأكابر ذلك وهم من الصبر على الذل والشقاء والتعب على حال عظيم».

وقال القاضي ابن شدّاد:

ولقد حضرت من يخبر السلطان عنهم ويقول: هم عدد كثير لكنهم ضعفاء قليلو الخيل والعدة، وأكثر ثقْلهم على حمير وخيل ضعيفة، قال: ولقد وقفت على جسر يعبرون عليه لأعتبرهم فعبر منهم جمع عظيم ما وجدت مع واحد منهم طارقة ولا رمحاً إلا النادر، فسألتهم عن ذلك فقالوا: أقمنا بمرج وَخِم أياماً، وقلَّت أزوادنا وأحطابنا فأوقدنا معظم عُددنا، ومات منا خلق عظيم، واحتجنا إلى الخيل فذبحناها وأكلناها.

ولم تزل أخبارهم تتواتر بالضعف والمرض، قال: ولما تحقق السلطان وصول ملك الألمان وقربه من البلاد الإسلامية جمع أمراء دولته وأرباب الآراء وشاورهم فيما يصنع، فاتفق الرأي على أن العسكر يسير بعضه إلى البلاد المتاخمة لطريق عسكر العدوّ الواصل، وأن يقيم هو ـ رحمه الله ـ على منازلة العدو المقابل(١) بباقي العسكر المنصور.

---

(١) أي في عكّا.

فكان أول من سار صاحب مَنْبج ناصر الدين بن تقي الدين، ثم عز الدين ابن المقدم صاحب كفر طاب وبارين وغيرهما، ثم مجد الدين صاحب شَيْزر، ثم سار الملك الظاهر إلى حلب لكشف الأخبار وحفظ ما يليه من البلاد، وسار بعده الملك المظفر لحفظ ما يليه من البلاد وتدبير أمر العدوّ.

ولما سارت هذه العساكر خفت الميمنة، فإن معظم من سار منها، فأمر ـ رحمة الله عليه ـ الملك العادل فانتقل إلى منزلة تقي الدين في طرف الميمنة، وكان عماد الدين زَنكي في طرف الميسرة، ووقع في العسكر مرض عظيم، ومرض خلق كثير من الأكابر وغيرهم إلا أن المرض كان سليماً(١) بحمد الله تعالى ـ وكان المرض عند العدوّ أكثر وأعظم، وكان مقترناً بموتان عظيم، وأقام السلطان مصابراً على ذلك مرابطاً للعدوّ.

[٤٣٥] ومن كتاب فاضليّ إلى بغداد:

«ومن خبر الفرنج أنهم الآن على عكا يمدهم البحر بمراكبَ أكثر عدة من أمواجه، ويخرج منه للمسلمين ما هو أمرّ من أجاجه(٢)، وقد تعاضدت ملوك الكفر على أن يُنهضوا إليهم من كل فرقة طائفة، ويرسلوا إليهم من كل سلاح شوكة، فإذا قتل المسلمون واحداً في البر بعثوا ألفاً عوضه في البحر، فالزرع أكثر من الحصاد، وهذا العدو المقابل ـ قاتله الله ـ قد زرّ عليه من الخنادق دروعاً متينة، فصار محصوراً متمنعاً، حاسراً ومتدرّعاً، وعددهم الجم قد كاثر القتل، وأصحابنا قد أثرت فيهم المدّة الطويلة، والكُلف الثقيلة ـ في استطاعتهم لا في طاعتهم، وفي أحوالهم لا في شجاعتهم(٣) ـ وكل من يعرفهم يناشد الله فيهم المناشدة النبوية في الصحبة

---

(١) أي لم يكن مصاحَباً بوباء وموت.

(٢) الأجاج: المالح المر.

(٣) ما أجمل هذا الاستثناء.

البدرية: «اللهم إن تهلك هذه العصابة»(١) ويخلص الدعاء ويرجو على يد سيدنا أمير المؤمنين الإجابة.

وقد حرّم باباهم ـ لعنة الله عليه وعليهم ـ كلّ مباح، واستخرج منهم كل مذخور، وأغلق دونهم الكنائس، ولبس وألبسهم الحداد، وحكم عليهم أن لا يزالوا كذلك أو يستخلصوا المقبرة(٢).

فيا عصبة محمد(٣) ـ عليه السلام ـ أخلفه في أمته بما تطمئن به مضاجعه، ووفه الحق فينا فإنا والمسلمون عندك ودائعه، وما مثّل الخادم(٤) نفسه في هذا القول إلا بحالة عبد لو أمكنه لوقف بالعتبات ضارعاً، وقبّل ترابها خاشعاً، وناجاها بالقول صادعاً، ولولا أن في التصريح ما يعود على العدالة بالتجريح لقال ما يبكي العيون، وينكي القلوب، ولكنه صابر محتسب، منتظر لنصر الله مرتقب، قائم من نفسه بما يجب، رب إني لا أملك إلا نفسي وها هي في سبيلك مبذولة، وأخي وقد هاجر إليك هجرة يرجوها مقبولة(٥)، وولدي وقد بذلت لعدوك صفحات وجوههم، وهان عليّ محبوبك بمكروهي فيهم ومكروههم، ونقف عند هذا الحد، ولله الأمر من قبل ومن بعدة».

[٤٣٦] فصل في الوقعة العادلية على عكا ظهر يوم الأربعاء العشرين من جمادى الآخرة

قال القاضي ابن شدّاد:

علم عدو الله أن العساكر قد تفرقت في أطراف البلاد، وأن الميمنة قد خفت لأن معظم من سار كان منها بحكم قرب بلادهم من طريق

---

(١) وهذا هو الدعاء المشهور الذي دعا به النبي ﷺ يوم بدر.

(٢) أي التي في القدس، ويزعمون أنها قبر عيسى عليه الصلاة والسلام.

(٣) يخاطب الخليفة العباسي.

(٤) أي صلاح الدين.

(٥) يعني أخاه سيف الإسلام الحاكم في اليمن، كما مر.

العدو، فأجمعوا رأيهم واتفقت كلمتهم على أنهم يخرجون بغتة، ويهجمون على طرف الميمنة فجأة، فخرجوا واستخفوا طرف الميمنة وفيها مخيم العادل(١) فلما بصر الناس بهم صاح صائحهم وخرجوا من خيامهم كالأسود من آجامها.

[٤٣٧] وركب السلطان، ونادى مناديه يا للإسلام، وكان ـ رحمه الله ـ أوّلَ راكب، ولقد رأيته وقد ركب من خيمته وحوله نفر يسير من خواصه، والناس لم يستتم ركوبهم، وهو كالفاقدة لولدها، الثاكلة لواحدها، وركب الناس وسارع الفرنج في قصد الميمنة حتى وصلوا إلى المخيم العادلي قبل استتمام ركوب العساكر وامتدت أيديهم في السوق وأطراف الخيم بالنهب والغارة، وركب العادل واستركب من يليه من الميمنة، ووقف وقوف مخادع حتى يوغل بهم طمعهم في المخيم ويشتغلوا بالنهب.

وكان كما ظن، فإنه عاثت أيديهم في الخيام والأقمشة والفواكه والطعام، فلما علم اشتغالهم بذلك صاح بالناس وحمل بنفسه يقدمه ولده الكبير شمس الدين مودود، وحمل بحملته من كان يليه من الميمنة، واتصل الأمر بجميع الميمنة حتى وصل الصائح إلى عسكر المَوْصل، وهجموا على العدو هجمة الأسود على فرائسها، وأمكنهم الله منهم، ووقعت الكسرة فعادوا يشتدون نحو خيامهم هاربين وعلى أعقابهم ناكصين، وسيف الله يقتل فيهم.

وصاح صائح السلطان في الناس: يا أبطال الموحدين هذا عدو الله قد أمكن الله منه وقد داخله الطمع حتى غشي خيامكم بنفسه، فبادر إلى إجابة دعوته خاصته، ثم عسكر المَوْصل يقدمهم علاء الدين ولد عز الدين، ثم عسكر مصر يقدمهم سُنقُر الحلبي، وتتابعت العساكر وتجاوبت الأبطال، وقامت سوق الحرب فلم يكن إلا ساعة حتى رأينا القوم صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية، وامتدوا مطروحين من خيام العادل إلى خيامهم أولهم

---

(١) وهو أخو صلاح الدين.

في الخيم الإسلامية وآخرهم في خيم العدوّ صرعى، وكان مقدار ما امتد فيه القتلى بين المخيمين فرسخاً وربما زاد على ذلك، ولم ينج من القوم إلا النادر.

[٤٣٨] قال: ولقد خضت في تلك الدماء بدابتي، واجتهدت أن أعدَّهم فما قدرت على ذلك لكثرتهم وتفرقهم، وشاهدت منهم امرأتين مقتولتين، وحكى لي من شاهد منهم أربع نسوة يقاتلن، وأسر منهن اثنتان، وأسر من الرجال في ذلك اليوم نفر يسير؛ فإن السلطان كان قد أمر الناس أن لا يستبقوا أحداً.

هذا كله في الميمنة وبعض القلب، وأما الميسرة فما اتصل الصائح بهم إلا وقد نجز الأمر وقضى القضاء على العدو لبعد المسافتين، وكانت هذه الوقعة فيما بين الظهر والعصر، فإن العدوّ ظهر في قائم الظهيرة وانفصلت الحرب بعد العصر، وانكسر القوم حتى دخلت طائفة من المسلمين وراءهم إلى مخيمهم على ما قيل، ثم إن السلطان أمر الناس بالتراجع، ولم يُفقد من المسلمين أحد في ذلك اليوم سوى عشرة أنفس غير معروفين.

ولما أحس جند الله بعكا بما جرى بين المسلمين وبين العدوّ من الوقعة فإنهم كانوا يشاهدون الوقعات من أعالي السور خرجوا إلى مخيم العدوّ من البلد وجرى بينهم مقتلة عظيمة، وكانت النصرة - والحمد لله - للمسلمين بحيث هجموا خيام العدوّ ونهبوا منها جمعاً من النسوان والأقمشة حتى القدور فيها الطعام، ووصل كتاب من عكا يخبر بذلك.

واختلف الناس في عدد القتلى منهم فذكر قوم أنهم ثمانية آلاف، وقال آخرون سبعة آلاف، ولم يُنقصهم حازر عن خمسة آلاف، ولقد شاهدت منهم خمسة صفوف أوّلها في خيم العادل وآخرها في خيم العدوّ، ولقد لقيت إنساناً عاقلاً جندياً يسعى بين صفوف القتلى ويعدهم فقلت له: كم عددت؟ فقال: إلى ها هنا أربعة آلاف ونيفاً وستين قتيلاً، وكان قد عدَّ صفين وهو في الصف الثالث، لكن ما مضى من الصفوف أكثر عدداً من الباقي.

[٤٣٩] وقال العماد:

لما شاع عند الفرنج خبر وصول الألمانية قالوا: إذا وصل ملكهم ونكى في المسلمين تطأطأت عنده رؤوسنا، فذكر الوقعة بمعنى ما تقدم إلى أن قال: ووصل السلطان وشاهد من مساءة الفرنج ما سرَّه، وعرف لطف الله وبره ونصره، وعاين هناك مصارع الأعداء، وكانوا مفروشين في مدى فرسخ على الأرض، وركبت أنا والقاضي بهاء الدين ابن شدّاد لمشاهدة ما هناك من أشلاء صرعى وأجساد، فما أعجل ما سُلبوا وعُرّوا، وقد بقرت بطونهم وفقئت عيونهم، ورأينا امرأة مقتولة لكونها مقاتلة، وسمعناها وهي خامدة بالعَبرة قائلة، وما زلنا نطوف عليهم ونعبر، ونفكر فيهم ونعتبر، حتى ارتدى العشاء بالظلام، فعدنا إلى الخيام، وأطلنا الوقوف على تلك الطلول الدارسة، واستبشرت الوجوه بتلك الأوجه العابسة، وحزرناهم بعشرة آلاف قتيل لا حزر تكثير بل حزر تقليل.

وامتلأت الأيدي بالأسلاب والأكساب، وحصل من العُدد ما لم يكن في الحساب، قال: وشرع الفرنج في الخداع والمراسلة، وسألوا في الصلح وأذن لهم السلطان في الخروج للنظر إلى أولئك الصرعى بتلك المروج، وهي قد تورمت وأنتنت.

فصل

[٤٤٠] قال العماد: كان الرأي بعد هذه النصرة أن نرد عليهم الكرة مرة بعد مرة إلى أن يهلكوا حسرة ويبيدوا، فاشتغل السلطان بما جاءه من المكاتبات بظفر التركمان وغيرهم بعسكر الألمان، فجاءت للفرنج نجدة من البحر ومدد أضعاف ما نقص منهم من العدد والعُدد، فأضحوا كأن لم يُنكبوا، ووصل إليهم المعروف بالكندهري(١) ففرّق الأموال، واستخدم الرجال، وأنفق في عشرة آلاف راجل، وأظهر أن يخرج إلى لقاء عسكر

---

(١) من ملوك أوروبا.

الإسلام، ونصب الكند(١) على عكا منجنيقات كثيرة فأحرقها المسلمون، وقُتل منهم من الفوارس سبعون وأسر عدّة معروفون، ثم نصب منجنيقين فأحرقا أول شعبان، وكان الكند قد أنفق على أحدهما ألفاً وخمسمائة دينار.

ومن جملة من وقع في الأسر فارس كبير فما أمهلوه حين أخذوه حتى قتلوه ونبذوه، فطلبه منهم الفرنج بالأموال ولم يعرفوا بالحال، فأخرجوه إليهم قتيلاً فأكثر الفرنج عليه بعد العويل عويلاً، وحين وقعت أعينهم عليه قتيلاً ضربوا بنفوسهم الأرض، وحثوا على رؤوسهم التراب، ووقعت عليهم بسبب ذلك خمدة عظيمة، وكتموا أمره، واستصغر المسلمون بعد ذلك أمرهم، وهجم عليهم العرب من كل جانب يسرقون وينهبون، ويقتلون ويأسرون، هذا والكتب متواصلة من عكا إلينا ومنا إليها على أجنحة الطيور وأيدي السُبّاح والمراكب اللطاف تخرج ليلاً وتدخل سارقة من العدوّ.

[٤٤١] قال العماد: ووصل من ملك قسطنطينية كتاب يتضمن استعطافاً واستسعافاً، ويذكر تمكينه من إقامة الجمعة في جامع المسلمين بقسطنطينية والخطبة فيه، وأنه مستمر على المودّة، راغب في المحبة، ويعتذر عن عبور الملك الألماني، وأنه قد فجع في طريقه بالأماني، ونال من الشدّة ونقص العُدّة ما أضعفه وأوهاه، وأنه لا يصل إلى بلادكم فينتفع بنفسه أو ينفع، ويكون مصرعه هناك ولا يرجع.

[٤٤٢] وقال القاضي ابن شدّاد:

كان بين السلطان وبين ملك قسطنطينية مراسلة ومكاتبة، وكان وصل منه رسول إلى الباب الكريم السلطاني بمرج عيون سنة خمس وثمانين في رجب في جواب رسول كان أنفذه السلطان بعد تقرير القواعد، وإقامة قانون الخطبة في جامع قسطنطينية، فمضى الرسول وأقام الخطبة، ولُقي باحترام

---

(١) الكند معرب كنج، وهو الملك باللاتينية.

عظيم وإكرام زائد، وكان قد أنفذ معه في المركب الخطيب والمنبر وجمعاً من المؤذنين والقراء، وكان يوم دخولهم إلى قسطنطينية يوماً عظيماً من أيام الإسلام، شاهده جمع كبير من التجار، ورقى الخطيب المنبر واجتمع إليه المسلمون المقيمون بها والتجار، وأقام الدعوة الإسلامية العباسية، ثم عاد فعاد معه هذا الرسول يخبر بانتظام الحال في ذلك فأقام مدة، ولقد شاهدته يبلغ الرسالة ومعه ترجمان يترجم عنه، وهو شيخ من أحسن ما يفرض أن يكون من صُوَر المشايخ وعليه زيّهم الذي يختص بهم، ومعه كتاب وتذكرة، والكتاب مختوم بذهب، ولما مات وصل خبر وفاته إلى ملك قسطنطينية فأنفذ هذا الرسول في تتمة ذلك.

[٤٤٣] ثم قال: وكان من حديث ملك الألمان أنه بعد أن استقرت قدمه في أنطاكية أخذها من صاحبها وتحكم فيه، وكان بين يديه فيها ينفذ أوامره، وكان له أموال برفقته فأخذها منه غيلة وخديعة وأودعها في خزانته، وسار عنها خامس عشري رجب نحو عكا في جيوشه وجموعه على طريق اللاذقية حتى أتى طرابلس، وكان قد سار إليه من معسكر الفرنج يلتقيه المركيس صاحب صور، وكان من أعظمهم حيلة وأشدهم بأساً، وهو الأصل في تهييج الجموع وذلك أنه صوَّر القدس في ورقة عظيمة، وصور فيه صورة القمامة التي يحجون إليها ويعظمون شأنها، وفيها قبر المسيح الذي دفن فيه بعد صلبه بزعمهم، وذلك القبر هو أصل محجهم، وهو الذي يعتقدون نزول النور عليه في كل سنة في عيد من أعيادهم، فصوّر القبر وصوَّر عليه فرساً عليه فارس مسلم راكب وقد وطىء قبر المسيح وقد بال الفرس على القبر، وأبدى هذه الصورة وراء البحر في الأسواق والمجامع، والقسوس يحملونها ورؤوسهم مكشفة وعليهم المسوح وينادون بالويل والثبور، وللصُور عمل في قلوبهم فإنها أصل دينهم، فهاج بذلك خلائق لا يُحصي عددهم إلا الله - تعالى - وكان من جملتهم ملك الألمان وجنوده، فلقيهم المركيس لكونه أصلاً في استدعائهم إلى هذه الواقعة.

فلما اتصل به قوّى قلبه وبصره بالطرق وسلك به الساحل خوفاً من

أنه إذا أتى على بلاد حلب وحماة نازلهم المسلمون من كل جانب، ومع ذلك لم يسلموا من شن الغارات عليهم، واختلف حَزْر الناس لهم، ولقد وقفت على بعض كتب الخبيرين بالحرب قد حزر فارسهم وراجلهم بخمسة آلاف بعد أن كانوا قد خرجوا على ما ذكر بمائتي ألف، فانظر إلى صنيع الله مع أعدائه.

ولم يزالوا سائرين وأيدي المسلمين تتخطفهم من حولهم نهباً وأسراً وقتلاً حتى أتوا طرابلس، فأقام بها حتى استجم عسكره، وأرسل إلى النازلين على عكا يخبرهم بقدومه فوجموا من ذلك؛ لأن المركيس صاحب مشورته، وكان الملك جفري وهو ملك الساحل بالمعكسر هو الذي يرجع إليه في الأمور، فعلم أنه مع قدوم الملك الألماني لا يبقى له حكم، وفي أواخر شعبان نزل الملك الألماني في المراكب هو وعسكره فثارت عليهم ريح أهلكت منهم ثلاثة مراكب، وسار الباقون إلى صور، ثم وصل إلى عكا في نفر يسير في سادس رمضان، وكان لقدومهم وقع عظيم عندهم.

[٤٤٤] ووصل خبر وصولهم إلى طرابلس ثامن شعبان والسلطان ثابت الجأش راسخ القدم، لا يزعزعه ذلك عن حراسة عكا والحماية لها، ومراصدة العسكر النازل بها، وشن الغارات والهجوم عليهم في كل وقت مفوّضاً أمره إلى الله ـ تعالى ـ معتمداً عليه، منبسط الوجه لقضاء حوائج الناس، مواصلاً ببره من نفذ إليه من الفقراء والفقهاء، والمشايخ والأدباء، ولقد كنت إذ بلغني هذا الخبر تأثرت حتى إذا دخلت عليه أجد عنده من قوة النفس وشدة البأس ما يشرح صدري وأتيقن معه نصر الإسلام وأهله.

[٤٤٥] فصل في إدخال البُطس(١) إلى عكا

قال ابن شدّاد:

كان ـ رحمه الله ـ قد أعدّ ببيروت بطسة وعَمّرها، وأودعها أربعمائة

---

(١) السفن.

غرارة من القمح، ووضع فيها من الجبن والبصل والغنم وغير ذلك من الميرة، وكان الفرنج قد أداروا مراكبهم حول عكا حراسة لها عن أن يدخلها مركب للمسلمين، وكان قد اشتدَّت حاجة من فيها إلى الطعام والميرة فركب في بطسة بيروت جماعة من المسلمين، وتزيوا بزيّ الفرنج حتى حلقوا لحاهم ووضعوا الخنازير على سطح البطسة بحيث تُرى من بعد، وعلقوا الصلبان وجاؤوا قاصدي البلد من البعد حتى خالطوا مراكب العدوّ، فخرجوا إليهم واعترضوهم في الحرّاقات والشواني(١) وقالوا لهم: نراكم قاصدين البلد، واعتقدوا أنهم منهم، فقالوا: أو لم تكونوا أخذتم البلد فقالوا: لم نأخذ البلد بعد، فقالوا: وراءنا بُطْسة أخرى فأنذروهم حتى لا يدخلوا البلد وكان وراءهم بُطْسة فرنجية - قد اتفقت معهم في البحر قاصدين العسكر - فنظروا فرأوها فقصدوها لينذروها فاشتدت البطسة الإسلامية في السير واستقامت لها الريح حتى دخلت ميناء البلد وسلمت - ولله الحمد - وكان فرجاً عظيماً؛ فإن الحاجة كانت قد أخذت من أهل البلد، وكان ذلك في العشر الأواخر من رجب.

[٤٤٦] قال: وفي العشر الأوسط من شعبان كتب بهاء الدين قراقوش وهو والي البلد، والمقدّم على الأسطول وهو الحاجب لؤلؤ يذكران للسلطان أنه لم يبق بالبلد ميرة إلا قدر يكفي البلد إلى ليلة النصف من شعبان لا غير، فأسرّها يوسف في نفسه ولم يبدها لخاص ولا لعام خشية الشيوع والبلوغ إلى العدوّ فتضعف به قلوب المسلمين.

وكان قد كتب إلى مصرَ بتجهيز ثلاث بطس مشحونة بالأقوات والإدام والمير وجميع ما يُحتاج إليه في الحصار بحيث يكفيهم ذلك طول الشتاء، فأقلعت البطس الثلاث من الديار المصرية فطابت لهم الريح حتى ساروا

---

(١) الحراقات سفن ترمي العدو بالنيران: وانظر «ترتيب القاموس المحيط»: ح ر ق، وقد سبق تعريف الشواني بأنها السفن الضخام ذوات القلاع.

ووصلوا إلى عكا ليلة النصف من شعبان وقد فنيت الأزواد ولم يبقَ عندهم ما يطعمون الناس في ذلك اليوم.

وخرج عليها أسطول العدوّ يقاتلها والعساكر الإسلامية تشاهد ذلك من الساحل، والناس في تهليل وتكبير، وقد كشف المسلمون رؤوسهم يبتهلون إلى الله ـ تعالى ـ في القضاء بسلامتها إلى البلد، والسلطان على الساحل كالوالدة الثُّكْلى يشاهد القتال ويدعو إلى ربه بنصره، وقد علم من شدة القوم ما لم يعلمه غيره، وفي قلبه ما في قلبه والله يثبته، ولم يزل القتال يعمل حول البطس من كل جانب، والله يدفع عنها، والريح تشتد، والأصوات قد ارتفعت من الطائفتين والدعاء يخرق الحجب، حتى وصلوا ـ بحمد الله ـ سالمين إلى ميناء البلد، وتلقاهم أهل عكا تلقي الأمطار عن جدب، وكانت ليلةً بليال، وكان دخولها في وقت العصر رابع عشر شعبان.

فصل

قال العماد:

ووصل ملك الألمان، ورام أن يظهر بمجيئه وقعاً، ويبدي به نفعاً، وركب السلطان، وتقدم إلى تل كيسان، ولم تزل الحرب إلى أن جن الظلام، وكف الكفر وسلم الإسلام، وكانت الدائرة على الكَفَرَة.

قال القاضي: وقتل منهم وجرح خلق عظيم، والسيف يعمل في بقيتهم وهم هاربون، حتى وصل المخيم غروب الشمس من ذلك اليوم وهو(١) لا يعتقد سلامة نفسه من شدة خوفه، وقُتل من المسلمين في ذلك اليوم اثنان وجرح جماعة كثيرة.

[٤٤٧] ومن كتاب إلى بغداد:

(قد بُلي الإسلام منهم بقوم قد استطابوا الموت، واستجابوا الصوت،

---

(١) أي ملك الألمان.

وفارقوا المحبوبَيْن الأوطان والأوطار(١)، وهجروا المألوفَيْن: الأهل والديار، كل ذلك طاعة لقسيسهم، وامتثالاً لأمر مركيسهم، وغيرة لمتعبدهم، وحمية لمعتقدهم، وتهالكاً على مقبرتهم، وتحرقاً على قمامتهم، لا يطلبون مع شدة الإملاق مالاً، ولا يجدون مع كثرة المشاق ملالاً، ويقتحمون الردى(٢) متدرّعين الصبر متثبتي الجأش.

[٤٤٨] حتى خرجت النساء من بلادهن متبرزات، وسرن إلى الشام في البحر والبر متجهزات، وكانت منهن ملكة استتبعت خمسمائة مقاتل، فارس وراجل، والتزمت بمؤنتهم فصودف مركبها بقرب الإسكندرية فأخذت برجالها، وأراح الله من شر احتفالها، ومنهن ملكة وصلت مع ملك الألمان، وذوات المقانع من الفرنج مقنعات مقارعات، وقد وُجد في الوقعات التي جرت عدة منهن بين القتلى وما عُرفن حتى سُلبن.

[٤٤٩] وإن البابا الذي برومية قد حرم عليهم مطاعمهم ومشاربهم، وقال: من لا يتوجه إلى القدس مستخلِصاً فهو عندي محرم: لا منكح له ولا مطعم، فلأجل هذا يتهافتون على الورود، ويتهالكون على يومهم الموعود، وقال لهم: إني واصل في الربيع، جامع على الاستنفار شمل الجميع، وإذا نهض هذا الملعون فلا يقعد عنه أحد، ويصل معه بأهله وولده كل من يقول إن لله أهلاً وولد.

[٤٥٠] فهذا شرح هؤلاء وتعصبهم في ضلالتهم، ولجاجتهم في غوايتهم بخلاف أهل الإسلام فإنهم يتضجرون ولايصبرون، بل يتفللون ولا يجتمعون، ويتسللون ولا يرجعون، وإنما يقيمون ببذل نفقة، وإذا حضروا حضروا بقلوب غير متفقة، ليُعلم أن الإسلام من عند الله منصور، وأن الكفر بإرادة الله محسور ومدحور).

---

(١) الأوطار جمع وطر، وهو المراد والمبتغى: وانظر «لسان العرب»: و ط ر.

(٢) الموت والمهلكة: وانظر «لسان العرب»: ر د ى.

قال القاضي:

ولما عرف ملك الألمان ما جرى على أصحابه رأى أن يرجع إلى قتال البلد ويشتغل بمضايقته فاتخذ من الآلات العجيبة، والصنايع الغريبة ما هال الناظر إليه، وخيف على البلد منه، فمما أحدثه آلة عظيمة تسمى دبابة يدخل تحتها من المقاتلة خلق عظيم، ملبسة بصفائح الحديد ولها من تحتها عجل تحرك بها من داخل، وفيها المقاتلة حتى ينطح بها السور، ولها رأس عظيم برقبة شديدة من حديد وهي تسمى كبشاً ينطح بها السور بشدة عظيمة لأنه يجرها خلق عظيم فتهدمه بتكرار نطحها.

وآلة أخرى وهي قبو فيه رجال تسحب ذلك إلا أن رأسها محدّد على مثال السكة التي يُحرث بها، ورأس الكبش مدوّر، هذا يهدم بثقله، وتلك تهدم بحدّتها وثقلها، ومن الستائر والسلالم الكبار الهائلة، وأعدوا في البحر بطسة، وصنعوا فيها برجاً بخرطوم إذا أرادوا قلبه على السور انقلب بالحركات ويبقى طريقاً إلى المكان الذي ينقلب عليه يمشي عليه المقاتلة.

قال: ونصب العدوّ على البلد منجنيقات هائلة حاكمة على السور وتواترت حجارتها حتى أثرت فيه أثراً بيّناً وخيف من غائلته فأخذ سهمان، وأحرق نصلاهما حتى بقيا كالشعلة من النار، ثم رميا في المنجنيق الواحد فعلقا فيه، واجتهد العدوّ في إطفاء النار فلم يقدر على ذلك، وهبّت ريح شديدة فاشتعل اشتعالاً عظيماً واتصلت لهبته بالآخر فأحرقته، واشتدت ناراهما بحيث لم يقدر أحد أن يقرب من مكانهما ليحتال في إطفائهما، وكان يوماً عظيماً اشتد فيه فرح المسلمين وغم الكافرين.

[٤٥٢] قال: ومن نوادر هذه الوقعة ومحاسنها ـ يعني نوادر ما جرى في القتال على عكا ـ أن عوّاماً مسلماً كان يقال له عيسى كان يدخل البلد بالكُتب والنفقات على وسطه ليلاً على غرة من العدوّ، وكان يغوص ويخرج من الجانب الآخر من مراكب العدوّ، وكان ذات ليلة شد على وسطه ثلاثة أكياس فيها ألف دينار وكتباً للعسكر وعام في البحر فجرى عليه أمر أهلكه

وأبطأ خبره عنا، وكانت عادته إذا دخل البلد طار طائر عَرّفنا بوصوله فأبطأ الطائر فاستشعر هلاكه، فلما كان بعد أيام بينا الناس على طرف البحر في البلد وإذا البحر قد قذف إليهم ميتاً غريقاً فافتقدوه فوجدوه عيسى العوّام، ووجدوا على وسطه الذهب ومشمع الكتب، وكان الذهب نفقة للمجاهدين، فما رُؤي من أدّى الأمانة في حال حياته وقدَّر الله له أداءها بعد وفاته إلا هذا الرجل، وكان ذلك في العشر الأواخر من رجب أيضاً.

وقال العماد: فُقد - يعني عيسى - ولم يُسمع له خبر، ولم يظهر له أثر، فظُنت به الظنون(١)، وكانت له لا شك عند الله منزلة فلم يُرد أن تبقى حاله وهي مجهلة محتملة، فوُجد في عكا ميتاً قد رماه البحر إلى ساحلها، وبرأه الله مما قالوا فذهب حق اليقين من الظنون بباطلها.

فصل في إحراق ما حوصر به برج الذبان، وتحريق الكبش

قال القاضي:

وفي الثاني والعشرين من شعبان جهز العدوّ - لعنه الله - بطساً متعددة لمحاصرة برج الذبان - وهو برج في وسط البحر مبنيّ على الصخر على باب ميناء عكا تحرس منه الميناء ومتى عبره المركب أمن من غائلة العدو - فأراد العدو أخذه ليبقى الميناء بحكمه ويمنع من دخول شيء من البطس إليه فتنقطع الميرة عن البلد، فجعلوا على صواري البطس برجاً وملؤوه حطباً ونفطاً على أنهم يسيرون البطس فإذا قاربت برج الذبان ولاصقته أحرقوا البرج الذي على الصاري وألصقوه ببرج الذبان ليلقوه على سطحه ويقتل من عليه من المقاتلة ويأخذوه.

وجعلوا في البُطْسة وقوداً كثيراً حتى يُلقى في البرج إذا اشتعلت النار فيه، وعبأوا بطسة ثانية وملؤوها حطباً ووقوداً على أنهم يدفعونها إلى أن تدخل بين البطس الإسلامية ثم يلهبونها فتحرق البطس الإسلامية ويهلك ما

---

(١) أي ظُن أنه سرق المال.

فيها من الميرة، وجعلوا في بطسة ثالثة مقاتلة تحت قبو بحيث لا يصل إليهم نشاب ولا شيء من آلات السلاح حتى إذا أحرقوا ما أرادوا إحراقه دخلوا تحت القبو فأمنوا، وقدموا البطسة نحو البرج المذكور، وكان طمعهم مشتداً حيث كان الهواء مُسعداً لهم.

فلما أحرقوا البُطْسة التي أرادوا يحرقون بها بطس المسلمين والبرج الذي أرادوا يحرقون به من على البرج، فأوقدوا النار وضربوا فيها النفط فانعكس الهواء عليهم كما شاء الله ـ تعالى ـ وأراد، واشتعلت البطسة التي كان فيها البرج بأسرها واجتهدوا في إطفائها فما قدروا وهلك من كان بها من المقاتلة إلا من شاء الله ـ تعالى ـ ثم احترقت البطسة التي كانت معدة لإحراق بطسنا، ووثب أصحابنا عليها فأخذوها إليهم.

وأما البطسة التي فيها القبو فإنهم انزعجوا وخافوا وهموا بالرجوع واختلفوا واضطربوا اضطراباً عظيماً فانقلبت، وهلك جميع من بها لأنهم كانوا في قبو لم يستطيعوا الخروج منها، وكان ذلك من أعظم آيات الله ـ تعالى ـ وأندر العجائب في نصرة دين الله، ولله الحمد، وكان يوماً مشهوداً.

قال القاضي:

وفي ثالث رمضان زحف العدوّ على البلد في خلق لا يُحصى، فأهملهم أهل البلد حتى نشبت مخاليب أطماعهم فيه، وسحبوا آلاتهم المذكورة حتى قاربوا أن يُلصقوها بالسور، وتحصَّل منهم في الخندق جماعة عظيمة فأطلقوا عليهم المجانيق والسهام والنيران وصاحوا صيحة الرجل الواحد وفتحوا الأبواب وهجموا على العدوّ من كل جانب وكبسوهم في الخنادق فهربوا، ووقع السيف فيمن بقي في الخندق منهم، ثم هجموا على كبشهم فألقوا فيه النار والنفط وتمكنوا من حريقه لهرب المقاتلة عنه فأحرق حريقاً شنيعاً، وظهرت له لهبة نحو السماء، وارتفعت الأصوات بالتكبير والتهليل والشكر، وعلق المسلمون في الكبش الكلاليب الحديد

فسحبوه وهو يشتعل حتى حصّلوه عندهم في البلد، وكان مركباً من آلات هائلة عظيمة وألقي الماء عليه حتى برد حديده بعد أيام، وبلغنا من البلد أنه وُزن ما كان عليه من الحديد فكان مائة قنطار بالشامي، والقنطار مائة رطل، ولقد أنفذ رأسه إلى السلطان ومثل بين يديه، وشاهدته وقلبته، وقيل إنه يُنطح به السور فيهدم ما يلاقيه.

قال العماد:

لما أحس العسكر الشرقي بالشتاء أبدوا خلق السآمة، وضَجِروا من الإقامة، وأما عماد الدين صاحب سنْجار فإنه عرف كراهية السلطان لفراقه فلم يَجْر إلا على وفاقه، وأما صاحب الجزيرة سنجرشاه فإنه استطال المقام وأباه، ودخل يوم عيد الفطر على السلطان فقبل يده وودعه من غير سابقة الاستئذان، فأغضبه انفصاله، وساءه ارتحاله، وكان تقي الدين(١) واصلاً فلقي صاحب الجزيرة عنا فاصلاً فردّه عن طريقه، وجد في تعويقه، ورجع به إلى الرضى، وعفا الله عما مضى.

وقال القاضي:

ترددت رسله(٢) ورقاعه إلى السلطان في طلب الدستور، والسلطان يعتذر بأن رسل العدوّ متكررة في معنى الصلح ولا يجوز أن ينفض العساكر حتى يتبين على ماذا ينفصل الحال من سلم أو حرب، فلما كان يوم عيد الفطر دخل على السلطان وقبل يده وخرج وسار من ساعته وتبعه أصحابه، فلما بلغ السلطان صنيعه كتب إليه: «إنك أنت قصدت الانتماء إليّ في الابتداء، وراجعتني في ذلك مراراً، وأظهرت الخيفة على نفسك وبلدك من أهلك، فقبلتك وآويتك ونصرتك، فبسطت يدك في أموال الناس ودمائهم وأعراضهم، فنفذت إليك ونهيتك عن ذلك مراراً فلم تنته، فاتفق وقوع هذه

---

(١) هو تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين.

(٢) أي رسل سنجر شاه المذكور آنفاً.

الواقعة للإسلام فدعوناك، فأتيت بعسكر قد عرفته وعرفه الناس، وأقمت هذه المُديدة(١)، وقلقت هذا القلق، وتحركت بهذه الحركة، وانصرفت عن غير طيب نفس وعن غير فصل حال مع العدوّ، فانظر لنفسك، وأبصر من تنتمي إليه غيري، واحفظ نفسك ممن يقصدك فما بقي لي إلى جانبك التفات»، وسلم الكتاب إلى نجاب(٢)، فلحقه قريباً من طبرية فقرأ الكتاب ولم يلتفت وسار.

فلقيه تقيّ الدين عند عقبة فيق(٣)، فأخبره بأمره وتعتب على السلطان كيف لم يخلع عليه(٤) ولم يأذن له في الرواح، ففهم تقي الدين انفصاله عن غير دستور من السلطان فأمره بالرجوع وقال: أنت صبي ولا تعلم غائلة هذا الأمر، فقال: ما يمكنني الرجوع، فقال: ترجع من كل بد من غير اختيارك، وكان تقيّ الدين شديد البأس، مقداماً على الأمور ليس في عينه من أحد شيء، فلما علم أنه قابضه إن لم يرجع رجع معه وسأل السلطان الصفح عنه ففعل، وطلب أن يقيم في جوار تقي الدين خشية على نفسه فأذن له فأقام في جواره إلى حين ذهابه.

قال: وغلت الأسعار عند الفرنج، وبُلوا بأمور صعبة، وهرب إلينا منهم عصبة بعد عصبة، فاستأمنوا إلينا لفرط جوعهم، ولما شبعوا عندنا لم يرغبوا في رجوعهم، فمنهم من أسلم فحسن إسلامه، ومنهم من خدم فوافق استخدامه، ومنهم من حنّ إلى إلفه، فرجع القهقرى إلى خلفه.

فصل

[٤٥٤] كان القاضي الفاضل ـ رحمه الله تعالى ـ في هذه الأوقات بالديار المصرية يرتب للسلطان أموره من تجهيز العساكر وتعمير الأسطول

---

(١) تصغير مدة.

(٢) كأن المعنى: الفارس.

(٣) عقبة ينحدر منها النازل إلى طبرية.

(٤) أي لم يُهده ويكرمه.

وحمل المال ونقل المير إلى عكا، والسلطان يكاتبه في مهماته، وترجع أجوبته بأحسن عباراته، مشيراً وناصحاً ومسلياً، وباحثاً عن مصالح الإسلام متقصياً، فمن بعض كتبه:

«المملوك يُنهي(١) أن الله ـ تعالى ـ لا يُنال ما عنده إلا بطاعته، ولا تُفَرَّج الشدائد إلا بالرجوع إليه والامتثال لأمر شريعته، والمعاصي في كل مكان بادية، والمظالم في كل موضع فاشية، وقد طلع إلى الله ـ تعالى ـ منها ما لا يُتوقع بَعدها إلا ما يُستعاذ منه، وقد أجرى الله ـ تعالى ـ على يد مولانا من فتح البيت المقدس ما يكون بمشيئة الله له حجة في رضاه، ونعوذ بالله أن يكون حجة عليه في غضبه، بلغ المملوك(٢) من كل وارد منه مكاتبة ومخاطبة بأنه على صفة تقشعر منها الأجساد، وتتصدع بذكرها الأكباد، والمملوك لا يتعرض لتفصيل ما بلغه من ظهور المنكرات في أتباعه، وشيوع المظالم في ضياعه، وخراب البلد وعدم القدرة على المرمة(٣) لقبة الصخرة والمسجد الأقصى، وبالغفلة عن مرمتهما وتفقدهما في أشتية القدس العظيمة الجليلة المثلجة لا يؤمن سقوطهما، وافتضاح القدرة في العجز عن إعادتهما، والمرمة أقرب تناولاً من الإنشاء والتجديد، ولا شبهة أن مولانا ـ عز نصره ـ في أشغال شاغلة، وأمور متشددة، وقضايا غير واحدة ولا متعددة، ولكن قد ابتلي الناس فصبروا، وأضجرتهم الأيام فما ضَجِروا، وأي عبادة أعظم من عبادته التي قام بها والناس عنها قعود، وصبر في طلب جنتها على ناري الحرب والوقت ذواتي الوقود.

غير أن مولانا إذا ذكر نصيبه من الإقدام فلا ينسى نصيبه من الحزم، ولا يعجل في الأمور الخطيرة، ولا يُقدم بالعدد القليل على العدة الكثيرة، فالمولى إذا أقبل كان واحداً وإذا أدبر كان مُقَوَّماً بجميع الخلق ولا يطمع

---

(١) أي يخبر ويقرر.

(٢) أي القاضي الفاضل نفسه، رحمه الله تعالى، وهكذا كان يخاطب الملوك.

(٣) أي الترميم.

بأن يقوم به الألف، وليذكر المولى نوبة الرملة التي كان وقوعها من الله ـ سبحانه ـ أدباً لا غضباً، وتوفيقاً لا اتفاقاً، ولا يكره المولى أن تطول مدة الابتلاء بهذا العدوّ فثوابه يطول، وحسناته تزيد، وأثره في الإسلام يبقى، وفتوحاته بمشيئة الله يعظم موقعها والعاقبة للتقوى، ولينصرن الله من ينصره، والله ـ تعالى ـ يشكر لمولانا جهاده بيده وبرأيه، وبولده وبخاصته، وبعامة جنده»⁽¹⁾.

[٤٥٥] ومن كتاب آخر:

«إنما أُتينا من قِبَل أنفسنا، ولو صدقناه لعجل لنا عواقب صدقنا، ولو أطعناه لما عاقبنا بعدوّنا، ولو فعلنا ما نقدر عليه من أمره لفعل لنا ما لا نقدر عليه إلا به، فلا يستخصم أحد إلا عمله، ولا يلم إلا نفسه، ولا يَرْجُ إلا ربه، ولا تنتظر العساكر أن تكثر، ولا الأموال أن تحضر، ولا فلان الذي يُعتقد عليه أن يقاتل، ولا فلان الذي ينتظر أنه يسير، فكل هذه مشاغل عن الله ليس النصر بها ولا نأمن أن يكلنا الله إليها، والنصر به، واللطف منه، والعادة الجميلة له، ونستغفر الله ـ سبحانه ـ من ذنوبنا فلولا أنها مَسَدٌ طريق دعائنا لكان جواب دعائنا قد نزل، وفيض دموع الخاشعين قد غسل، ولكن في الطريق عائق، خار الله لمولانا في القضاء السابق واللاحق».

[٤٥٦] ومن كتاب آخر:

«وعسكرنا لا يشكو ـ والحمد لله ـ منه خوراً، وإنما يشكو منه ضجراً، والقوى البشرية لا بد أن يكون لها حدّ، والأقدار الإلهية لها قصد، وكل ذي قصد خادم قصدها، وواقف عند حدها، وإنما ذكر المملوك هذا ليرفع المولى من خاطره مقت المتقاعس من رجاله، كما يثبت فيه شكر

---

(١) هذه الرسالة من القاضي الفاضل، والرسائل التي بعدها تشجيع منه ـ رحمه الله تعالى ـ وتثبيت لصلاح الدين.

المسارع من أبطاله، قال الله ـ تعالى ـ: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾(١).

[٤٥٧] يا مولانا: أليس الله ـ تعالى ـ اطّلع على قلوب أهل الأرض فلم يؤهل ولم يستصلح ولم يختر ولم يُسَهل ولم يستعمل ولم يستخدم في إقامة دينه وإعلاء كلمته وتمهيد سلطانه وحماية شعاره وحفظ قبلة موحديه إلا أنت، هذا وفي الأرض مَن هو للنبوة قرابة، ومَن له المملكة وراثة، ومَن له في المال كثرة، ومَن له في العدد ثروة، فأقعدهم وأقامك، وكسّلهم ونشّطك، وقبضهم وبسطك، وحبب الدنيا إليهم وبغّضها إليك، وصعبها عليهم وهونها عليك، وأمسك أيديهم وأطلق يدك، وأغمد سيوفهم وجرّد سيفك، وأشقاهم وأنعم عليك، وثبطهم وسيرك: ﴿۞ وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ٤٦﴾(٢).

[٤٥٨] نعم وأخرى أهم من الأولى أنه لما اجتمعت كلمة الكفر من أقطار الأرض وأطراف الدنيا ما تأخر منهم متأخر ولا استبعد المسافة بينك وبينهم مستبعد، وخرجوا من ذات أنفسهم الخبيثة لا أموال تنفق فيهم، ولا ملوك تحكم عليهم، ولا عصا تسوقهم، ولا سيف يزعجهم، مُهطعين(٣) إلى الداعي، ساعين في أثر الساعي، وهم من كل حَدَب ينسلون(٤)، ومن كل بر وبحر يقبلون، كنت يا مولانا ـ كما قيل ـ أبقاك الله:

ولست بملك هازم لنظيره ... ولكنك الإسلام للشرك هازم

[٤٥٩] هذا وليس لك من المسلمين كافة مساعدة إلا بدعوة، ولا مجاهد معك إلا بلسانه، ولا خارج معك إلا بهمّ، ولا خارج بين يديك

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٥٩.

(٢) سورة التوبة.

(٣) أي مسرعين: وانظر «لسان العرب»: هـ ط ع.

(٤) أي من كل مرتفع من الأرض يظهرون: وانظر «لسان العرب»: ح د ب.

إلا بالأجرة، ولا قانع منك إلا بزيادة، تشتري منهم الخطوات شبراً بذراع، وذراعاً بباع، تدعوهم إلى الله وكأنما تدعوهم إلى نفسك، وتسألهم الفريضة كأنك تكلفهم النافلة، وتعرض عليهم الجنة وكأنك تريد أن تستأثر بها دونهم.

والآراء تختلف بحضرتك، والمشورات تتنوع بمجلسك، فقائل: لم لا نتباعد عن المنزلة، وآخر: لم لا نميل إلى المصالحة، ومتندم على فائت ما كان فيه حظ، ومشير بمستقبل ما يلوح فيه رشد، ومشير بالتخلي عن عكا حتى كأن تركها تغليق المعاملة⁽¹⁾، وما كأنها طليعة الجيش ولا خَرَزة السلك إن وهت تداعي السلك، فألهمك الله قتل الكافر، وخلاف المخذل، والتجلد وتحت قدمك الجمر، وأفرشك الطمأنينة وتحت جنبك الوعر.

ولكن مولانا صفيحة وجهه   كضوء شهاب القابس المتنور
قليل التشكي للمهم نصيبه   كثير الهوى شتى النوى والمسالك

[٤٦٠] لا شبهة أن المملوك قد أطال، ولكن قد اتسع المجال، وما مراده إلا أن يشكر الله على ما اختاره له ويسره عليه، وحببه إليه، فرب ممتحن بنعمة، ورب منعَم عليه بمشقة، وكم مغبوط بنعمة هي داؤه، ومرحوم من بلوى هي دواؤه، ويريد المملوك بهذا أن لا يت،غير لمولانا - أبقاه الله - وجه عن بشاشة، ولا صدر عن سَعة، ولا لسان عن حسنة، ولا تُرى منه ضجرة، ولا تُسمع منه نَهرة، فالشدة تذهب ويبقى ذكرها، والأزمة تنفرج ويبقى أجرها، وكما لم يُحدث استمرار النعم لمولانا - عز نصره - بطراً فلا تُحْدث له ساعات الامتحان ضَجراً، والمملوك يستحسن بيتي حاتم، ومولانا - أبقاه الله وخلد سلطانه وملكه - يحفظهما:

شربنا بكأس الفقر يوماً وبالغنى   وما منهما إلا سقانا به الدهر
فما زادنا بغياً على ذي قرابة   غنانا ولا أزرى بأحسابنا الفقر

---

(١) أي نهاية الجهاد مع الكفار.

والمملوك بأن يسمع أن مولانا ـ عز نصره ـ على ما يعهده من سعة صدره أسَرُّ منه بما يسمعه من بشائر نصره، ويا ليتني كنت معهم، وماذا كانت تصنع الأيام إما شيباً من مشاهدة الحروب، فقد شبنا والله من سماع الأخبار، أو غُرماً يمكن خُلفه من الوَفْر[١] فقد غرمنا في بُعد مولانا ما لا خُلف له من العمر، أو مرض جسم فخيره ما كان الطبيب حاضره، ولقد مرضنا أشدَّ المرض لفراقه إلا أن التجلد ساتره».

ومن كتاب آخر: «قيل للمهلب[٢]: أيَسُرُّكَ ظفر ليس فيه تعب؟ فقال: أكره عادة العجز.

[٤٦١] ولا بدّ أن تنفذ مشيئة الله في خلقه، لا رادَّ لحكمه فلا يتسخط مولانا بشيء من قدره، فلأن يجري القضاء وهو راض مأجور خير من أن يجري وهو ساخط موزور، من شكا بثه وحزنه إلى الله شكا إلى مشتكى واستغاث بقادر، ومن دعا ربه خفياً استجاب له استجابة ظاهرة، فلتكن شكوى مولانا إلى الله خفية عنا، ولا يقطع الظهور التي لا تشتدّ إلا به، ولا يُضيّق صدوراً لا تنفرج إلا منه، وما شرد الكرى[٣]، وأطال على الأفكار ليل السُرى[٤] إلا ضائقة القوت بعكا، ولم يبق إلا ضعف نعم المعين عليه ترويح النفس وإعفاؤها من الفكر، فقد علم مولانا بالمباشرة أنه لا يُدَبِّرُ الدهر إلا برب الدهر، ولا ينفذ الأمر إلا بصاحب الأمر، وأنه لا يقلّ الهم إن كثر الفكر.

قد قلت للرجل المقسِّمِ أمرُه ... فوض إليه تنم قرير العين

[٤٦٢] وكل مقترح يجاب إليه إلا ثغراً يصير نصرانياً بعد أن أسلم، أو بلداً يخرس فيه المنبر بعد أن تكلم، يا مولانا: هذه الليالي التي رابطتَ

---

(١) الوفر: المال الكثير: وانظر «لسان العرب»: و ف ر.

(٢) هو المهلب بن أبي صفرة القائد المعروف.

(٣) أي النعاس والنوم: وانظر «لسان العرب»: كرا.

(٤) السُرى: سير عامة الليل: وانظر «لسان العرب»: سرى.

فيها والناس كارهون، وسهرت فيها والعيون هاجعة، وهذه الأيام التي ينادى فيها: يا خيل الله اركبي، وهذه الساعات التي تزرع الشيب في الرؤوس، هي نعمة الله عليك، وغراسك في الجنة: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾⁽¹⁾ وهي مُجَوِّزاتك على الصراط، وهي مثقلات الميزان، وهي درجات الرضوان، فاشكر الله عليها كما تشكره على الفتوحات الجليلة، واعلم أن مثوبة الصبر فوق مثوبة الشكر.

من ربط جأش أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه قوله: «لو كان الصبر والشكر بعيرين ما باليت أيهما ركبت»، وبهذه العزائم سبقونا وتركونا لا نطمع في اللحاق بالغبار، وامتدت خطاهم ونعوذ بالله من العثار، ما استعمل الله في القيام بالحق إلا خير الخلق، وقد عرف ما جرى في سير الأوّلين، وفي أنباء النبيين، وأن الله ـ تعالى ـ حرض نبيه ﷺ على أن يهتدي بهداهم، ويسلك سبيلهم، ويقتدي بأولي العزم منهم.

وما ابتلى الله ـ سبحانه ـ من عباده إلا مَن يعلم أنه يصبر، وأمور الدنيا ينسخ بعضها بعضاً وكأنَّ ما قد كان لم يكن، ويذهب التعب ويبقى الأجر، وإنما يقظات العين كالحلم، وأهم الوصايا أن لا يحمل المولى هماً يضعف به جسمه، ويضر مزاجه، والأمّة بنيان وهو ـ أبقاه الله تعالى ـ قاعدته، والله يثبت تلك القاعدة القائمة في نصرة الحق.

ومما يستحسن من وصايا الفرس: «إن نزل بك ما فيه حيلة فلا تعجز، وإن نزل بك ما ليس لك فيه حيلة ـ والعياذ بالله ـ فلا تجزع»، ورب واقع في أمر لو اشتغل عن حمل الهم به بالتدبير فيه مع مقدور الله لانصرف همه، وما تشاؤون إلا أن يشاء الله.

[٤٦٣] هذا سلطان هو ـ بحول الله ـ أوثق منه بسلطانه، قاتلت الملوك بطمعها وقاتل هذا بإيمانه، وإذا نظر الله إلى قلب مولانا لم يجد فيه ثقة

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٣٠.

بغيره، ولا تعويلاً على قوة إلا على قوته فهنالك الفرج ميعاده، واللطف ميقاته، فلا يقنط من روح الله، ولا يقل متى نصر الله، وليصبر فإنما خلق للصبر، بل ليشكر فالشكر في موضع الصبر أعلى درجات الشكر، وليقل لمن ابتَلَى: أنت المعافي، وليرض عن الله ـ سبحانه ـ فإن الراضي عن الله هو المسلم الراضي».

[٤٦٤] وكتب السلطان إلى القاضي الفاضل كتاباً من بلاد الفرنج يخبره عما لاح له من أمارات النصر ويقول: ما أخاف إلا من ذنوبنا أن يأخذنا الله بها فكتب إليه الفاضل:

«فأما قول المولى: إننا نخاف أن نؤخذ بذنوبنا، فالذنوب كانت مثبتة قبل هذا المقام وفيه محيت، والآثام كانت مكتوبة ثم عفي عنها بهذه الساعات وعَفيت(١)، فيكفي مستغفراً لسان السيف الأحمر في الجهاد، ويكفي قارعاً لأبواب الجنة صوت مقارعة الأضداد، ولعَيْن الله موقفك، وفي سبيل الله مقامك ومنصرفك، وطوبى لقدم سعت في منهاجك، وطوبى لنفس بين يديك قَتلت وقُتلت، وإن الخواطر تشكر الله فيك وعن شكرها لك قد شُغلت»(٢).

فصل

[٤٦٥] كان بلغني أن السلطان ـ رحمه الله ـ لما اشتد أمر الفرنج على عكا أرسل إلى ملك المغرب يستنجد به عليهم ليقطع عنهم مادتهم من جهة البحر، وكنت أتطلب حقيقة ذلك وأبحث عن شرح الحال فيه، فإن العماد والقاضي لم يتعرضا له في كتبهما، غير أن العماد ذكر كتاباً كتبه القاضي الفاضل إلى رسولهم بالغرب يستنجز منه ما كان أرسل لأجله وسيأتي،

---

(١) أي زالت وذهبت: وانظر «لسان العرب»: ع ف ى.

(٢) أثبتُّ أكثر ما قاله القاضي الفاضل ـ رحمه الله تعالى ـ لما فيه من المعاني الرائعة المثبتة على الجهاد.

وغرضي كان الاطلاع على نفس كتاب الرسالة ومضمونها، ثم أراني بعض الشيوخ الصلحاء الثقاة بخطه ما كنت أرومه فنقلته على وجهه.

قال: نسخة كتاب كتبه القاضي الفاضل ونقلته من خطه لابن منقذ يأمر فيه بالسفر إلى المغرب بأمر الملك الناصر صلاح الدين ـ رحمه الله ـ يستنصر بملك المغرب يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن(١) لما حضر الفرنج ـ خذلهم الله ـ عكا بعد كسرة حطين وفتح بيت المقدس، والكتاب الذي سُيِّر إلى المغرب والهدية التي حملت، يأتي ذكر ذلك إن شاء الله.

فصل في نسخة الكتاب إلى ملك المغرب والهدية

صاحب ابن تومرت

العنوان: «بلاغ إلى محل التقوى الطاهر، ومستقر حزب الله الظاهر، من المغرب أعلى الله به كلمة الإيمان، ورفع به منار البر والإحسان».

بسم الله الرحمن الرحيم: من الفقير إلى رحمة ربه يوسف بن أيوب، أما بعد:

فالحمد لله الماضي المشيئة، الممضي القضية، البَر بالبَرِيّة، الحفي بالحنفية، الذي استعمل عليها من استعمر به الأرض، وأغنى من أهلها من سأله القرض، وأجزل أجر من أجرى على يده النافلة والفرض، وزان سماء الملة بدراري الذراري التي بعضها من بعض، وصلى الله على سيدنا محمد الذي أنزل عليه كتاباً فيه الشفاء والتبيان، وبنى الإسلام بأمّته التي شبهها صاحبها بالبنيان، وعلى آله وصحبه الذين اصطفاهم وطهرهم، فنصروه وظاهروا رسوله ﷺ فنصرهم وأظهرهم، ويسَّر بهم السبيل ثم السبيل يسرهم، وإن الله بهم لذو فضل على الناس ولكنَّ أكثرهم(٢): ﴿يَقُولُونَ

---

(١) أمير الموحدين، وقد توفي سنة ٥٩٥. وانظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ٣١١.

(٢) أي لا يشكرون، وإنما لم يأت بها لمناسبة السجع.

رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾.(١)

وهذه التحية الطيبة الكريمة، الواجبة الرد، الموجبة للقصد، العذبة الورد، المتنفسة عن العنبر والورد، وقّادة على دار الملك ومدار النُسُك(٢)، ورأس الرئاسة ونفس النفاسة، وحِكَم الحُكم، وعَلَم العلم، وقائم الدين وقيمه، ومقدّم الإسلام ومقدِّمه، ومثبت المتقين على اليقين، ومُعلي الموحدين على الملحدين، أدام الله له النصرة، وجهَّز به تيسير العسرة، وردّ له الكرَّة، وبسط له باع القدرة، وأوثق به حبل الألفة، ومهَّد له درجات الغُرفة(٣)، وعرَّفه في كل ما يتعزمه صنعاً جزيلاً جميلاً، ولطفاً حفياً جليلاً، ويسَّر عليه في سبيله كل ما هو أشدّ وطأ وأقوم قيلاً.

تحية أستنير منها الكتاب، وأستنيب عنها الجواب، وقد حفز لها حافزان أحدهما شوق قديم، والآخر مرام عظيم، وكان وقت المواصلة وموسمُ المكاتبة هناءةً بفتح البيت المقدّس، وما فتح الله للإسلام من الثغور، وما شرح لأهله من الصدور، وما أنزله عليهم من النور، ولم يَخْل المسلمون فيه من دعوات أسرار ذلك الصدر(٤)، وملاحظات أنوار ذلك البدر، ومطالعات تلك الجهة التي هي وإن كانت غربيةً فإن الغرب مستودع الأنوار، وكنز ديار الشمس ومصب أنهار النهار، ومن جانبه يأتي سكون الليل ومستروح الأسرار، وعنه: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾﴾(٥).

ولم تتأخر المكاتبة إلا ليتم الله ما بدأ من فضله، وليفتح بقية ما لم

---

(١) سورة الحشر: الآية ١٠.

(٢) أي الطاعة والعبادة: وانظر «لسان العرب»: ن س ك.

(٣) أي في الجنة.

(٤) هذا وما بعده في الثناء على المغرب وملكه.

(٥) سورة النور.

ينقطع بتقطع يد الشرك من حبله، والمفتتح بيد الله من الشام مدن وأمصار وبلاد كبار وصغار، وثغور وقلاع كانت للشرك معاقل، وللإسلام معاقر، ولبني الكفر مصانع⁽¹⁾، ولبني الإسلام مصارع، والباقي بيد الكفر منها ثغر أطْرابلس وصور ومدينة أنطاكية يسَّر الله أمرها، وفك من يد الكفر أسرها، وإذا أمَّن المؤمِّن⁽²⁾ على هذه الدعوة رُجي إيجابها، وما يتأخر من الله - سبحانه - جوابها، فالدعاء أحد السلاحين، ومع النية يطير إلى وكره من السماء بجناحين، بعد أن كُسر العدو الكسرة التي لم يجبر بعدها، والجيء إلى حصونه التي للحصر أعدها.

وكان يوماً كريماً، ولطف الله عظيماً، قضت كل حاجة في النفس، وأغنت المسلمين، فأما العدوّ بعد يومها فكأن لم يَغْنَ بالأمس، ولم يؤخِّر فتح البلاد بعدها إلا أن فزع الكفار بالشام استصرخ بأصل الكفار من الغرب فأجابوهم رجالاً وفرساناً، وشيباً وشباناً، وزرافات⁽³⁾ ووحداناً، وبراً وبحراً، ومركباً وظهراً، وركبوا إليهم سهلاً ووعراً، وبذلوا ماعوناً وذُخراً، وما احتاجوا ملوكاً ترتادهم، ولا أرساناً⁽⁴⁾ تقتادهم، بل خرج كلٌّ يلبي دعوة بُطْرُكه، ولا يحتاج إلى عزمة مَلِكه.

وخرجت لهم عدة ملوك أقفلت العجمة على أسمائها، وأتت العَزيمة - بحمد الله - على أشخاصها عند لقائها، ومنهم ملك الألمان خرج في جموع برية، من الله تعالى بريّة⁽⁵⁾، ملأت الفجاج وازدحمت، ومنهم من امتطى من البحر مِشية الرَجاج⁽⁶⁾، لينصر ديناً مُشبه الزجاج، يقبل الكسر، ولا يسرع إليه الجَبْر، وراكب ذلك الدِّين كراكب البحر بلا ساحل سلامة.

---

(1) أي قصور: وانظر «لسان العرب»: صنع.

(2) يحث القاضي الفاضل هنا الملك المغربي على الجهاد وإجابة الدعوة.

(3) أي جماعات: وانظر «لسان العرب»: زرف.

(4) الأرسان جمع رَسَن، وهو القيد: وانظر «المصدر السابق»: رسن.

(5) أي بريئة.

(6) الضعف والاضطراب: انظر «المصدر السابق»: رجج.

[٤٦٧] وجلب الكفار إلى المحصورين بالشام كل مجلوب، ما بين أقوات وأطعمة، وآلات وأسلحة، ونقدي ذهب وفضة إلى أن شحنوا بلادهم رجالاً مقاتلة، وذخائر للعاجلة من حربهم والآجلة، لا تشرق شارقة إلا طلعت على العدوّ من البحر طالعة تعوّض من الرجال مَن قتل، وتخلف من الزاد ما أكل، فهم كل يوم في حصول زيادة ووفور مادّة، وقد هان عليهم موقع الحصر وأعطاهم البحر ما منعهم البر، وبطروا لما كثروا، ونزلوا على عكا بحيث يمدهم البحر بأمداده، ويصل إلى المقاتل ما يحتاجه من أسلحته وأزواده، وبمن يكثر به من مقاتلته وأجناده، فانقطعت مادة عكا من البحر، وحصرنا منازلهم من العدوّ من جهة جانب البر، وعُقدت عدّتهم مائة ألف أو يزيدون، كلما أفناهم القتل أخلفتهم النجدة فكأنهم قبل الممات يعودون، واستمر مقام العدوّ محاصراً للثغر، محصوراً منا أشد الحصر، لا يستطيع قتال الثغر لأنا من خلفه ولا يستطيع الخروج إلينا خوفاً من حتفه، ولا نستطيع نحن الدخول إليه لأنه قد سوِّر وخندق.

ولما خرج ملك الألمان بحشده وسمعته التي هي منه أحشد، وعاد جيشه الملعون إلى الشام فكان العود لأمّة أحمد ﷺ أحمد، قويت به نفوسهم، وجمحت به رؤوسهم، وظنوا أنه يزعجنا من مخيمنا، ويخرجنا من خيمنا، فبعثنا إليه من يلقاه بعساكرنا الشمالية فسلك ذات الشمال متوعراً فيها، محتجزاً عن لقائها.

وكان أبوه الطاغية ملك الألمان شيبة اللعن اللعين، قائد جيشه إلى سجن سجّين، قد هلك في طريقه غرقاً، وخاض الماء فخاضه الماء شرَقاً، وبقي له ولد هو الآن المقدم المؤخر، وربما وصل إلى عكا في البحر تهيباً أن يسلك البر، ولو سبق أصحابنا إلى عساكر الألمان قبل دخولها إلى أنطاكية لأخذوه أخذاً سريعاً، ولكن لله المشيئة في البَريّة، والطاغية إنما يمشي إلى البلية، فإنه لولا احتجاز مقيمهم بالخنادق، واجتياز واصلهم بالمضائق لكان لنا ولهم شأن، وكان ليومنا في النصرة الكبرى بحول الله

ثان(١) لا يثنيه من العدوّ ثان(٢).

ولما كانت حضرة سلطان الإسلام(٣) وقائد المجاهدين إلى دار السلام أولى من توجه إليه الإسلام بشكواه وبثه، واستعان به على حماية نسله وحرثه، وكانت مساعيه ومساعي سلَفه في الجهاد الغرّ المحجلة الكاشفة لكل معضلة، الكاسفة لكل مشكلة، والأخبار بذلك سائرة، والآثار ظاهرة، لا يزال في سبيل الله غادياً ورائحاً، ومواجهاً، ومكافحاً، ومماسياً ومصابحاً، كان المتوقع من تلك الدولة الغالية مع القدرة الوافية والهمة المهدية الهادية أن يمد غربُ الإسلام المسلمين بأكثر مما أمد به غرب الكفار الكافرين، فيملأها عليهم جواري(٤) كالأعلام(٥)، تطلع علينا معشر الإسلام آمالاً، وتطلع على الكفار آجالاً، مسوَّمةً تمدها ملائكة مسوّمة ومُعَلَّمة، تعين أصحاب الميمنة على أصحاب المشأمة.

ولما استُبطئت ظُنَّ أنها توقفت على الاستدعاء فصرخنا به في هذه التحية، فقد تحفَّل(٦) السحاب ولا تمطر إلى أن تحركها أيدي الرياح، وقد تُترك النصرة فلا تظهر إلى أن تضرع إليها ألسنة الصفاح(٧)، وسُيِّرَ لحصن مجلسه الأطهر، ومحله الأنور، الأمير الأجلّ، المجاهد الأمين الأصيل، شمس الدين، نفير الإسلام والمسلمين، سفير الملوك والسلاطين، أبو الحزم عبد الرحمن بن منقذ، كتب الله سلامته، وأحسن صحابته، وما اختير للوفادة إلا من هو أهلها، ولا حمل الوديعة إلا من هو محلها، ولأداء الأمانة إلا من هو قفلها.

---

(١) أي يوم آخر.

(٢) أي أحد يثني عن القصد، أي يُبعد.

(٣) أي ملك المغرب.

(٤) أي سفناً.

(٥) أي كالجبال.

(٦) أي تمتلأ بالماء: وانظر «لسان العرب»: حفل.

(٧) أي السيوف العريضة النُصال: وانظر «لسان العرب»: صفح.

ومهما استوضح منه وسئل عنه فإنه على نفسه بصيرة، ومن البيان ذو ذخيرة، وفي العربية ذو بيت وعشيرة، والمشاهدة له أوصف، وما أجدره بأن يصادف بسطة على بساطه، ونظراً يأذن له في القول على اختصاره، وتوسطه وإفراطه، والله - تعالى - يجعل هذه العزمة منا في استنهاض العزمة منه بالغة مبلغاً يسر أهل دينه، ويُوزِعهم بها اقتضاء ديونه من الذين اتخذوا إلهاً من دونه.

والسلام الصادر عن القلب السليم، والودّ الصميم، والعهد الكريم، على حضرة الكرم العلية وسُدّة السيادة الجلية، سلام مودّة ما وفد الغرب قبلها مثلها، ورسالة ما خطرت إلى أن أنفذت وراءها المحبة رسلها، وليصل السلامَ رحمةُ الله وبركاته، ورضوانه وتحياته إن شاء الله - تعالى - وكتب في شعبان سنة ست وثمان وخمسمائة، والحمد لله وحده، وصلاته على سيدنا محمد نبيه وآله وسلامه».

الهدية: ختمة كريمة في رَبْعة(١) مَخيشة بمسك، ثلثمائة مثقال عنبر، عشر قلائد عددها ستمائة حبة، عود في سَفَط(٢) عشر أمناء(٣)، دهان بلسان مائة درهم وواحد، قِسِيٌّ بأوتارها مائة وقوسان، سروج عشرون، نصول سيوف هندية عشرون، نُشّاب(٤) كبير ومتوسط ضمن صندوقي خشب مجلدة، سبعمائة سهم.

وكان إقلاعه من الإسكندرية في شيني(٥) عمارته مائة وعشرون، في ثالث عشر رمضان سنة ست وثمانين وخمسمائة، ووصل إلى أطرابلس(٦)

---

(١) الربعة: صندوق أجزاء المصحف: «ترتيب القاموس المحيط»: ربع.

(٢) السفط: القفة: «المصدر السابق»: س ف ط.

(٣) المن: رطلان: «مختار الصحاح»: منن.

(٤) النبل: «لسان العرب»: ن ش ب.

(٥) أي سفينة كبيرة.

(٦) أي طرابلس الغرب في ليبيا.

أول البلاد في الخامس والعشرين من شوّال، وأقام بها إلى ثامن ذي القعدة، وتوجه إلى البلاد وكان الاجتماع بالوزير أبي يحيى بن أبي بكر بن محمد بن الشيخ أبي حفص، ودفع كتاب السلطان إليه يوم الخميس سابع ذي الحجة، وكان الدخول على يعقوبَ والسلام عليه في العشرين من ذي الحجة، وفي هذا النهار حملت هدية السلطان إلى خزانته، وكان انفصاله من مَرّاكُش عاشر المحرّم سنة ثمان وثمانين وخمسمائة، ووصل إلى الإسكندرية في الثامن والعشرين من جمادى الآخرة سنة ثمان وثمانين.

[٤٦٨] ولم يحصل من جهة سلطان الغرب ما التُمس منه من النجدة، وبلغني أنه عزَّ عليهم كونُه لم يخاطَب بأمير المؤمنين على جاري عادتهم(١)، وقد كان سلطاناً عادلاً مظهراً للشريعة غازياً، توفي سنة خمس وتسعين.

فصل في وقعة الكمين وغيرها ودخول البَدَل(٢) إلى عكا

[٤٦٩] قال العماد:

لما كان يوم الجمعة الثاني والعشرون من شوّال انتخب السلطان من أجناده عدّة، وكثَّر لهم العدّة، وأمرهم أن يكمنوا في سفح تل هو شمالي

---

(١) سبحان الله، ما أقبح هذا العذر ـ إن صح ـ فإنه قد خوطب بغاية الأدب، وبألفاظ معظمة كثيرة قد حذفت بعضها للاختصار، وكيف يخاطَب بأمير المؤمنين والخليفة العباسي قائم في بغداد، نعوذ بالله من هوى النفس، على أن هذا الملك المغربي موصوف بالصلاح والجهاد.
هذا وقد أرسل القاضي الفاضل رسالة إلى صلاح الدين ينبئه فيها عدم جدوى إرسال الرسالة لملك المغرب إن لم يخاطب بأمير المؤمنين، وقد بين القاضي الفاضل وهو منشئ الرسالة أنه قد خاطب ملك المغرب بما لا يمكن أن يخاطب مخلوق بأكثر منه، وذكر القاضي ما يُفهم منه أنه كاره لهذه السفارة إلى ملك المغرب لعدم جدواها، انظر «الروضتين»: ٢/ ١٧٤ ـ ١٧٦.

(٢) أي إدخال عساكر بدلاً من العساكر الموجودين في عكا، لطول الحصار على من بداخلها.

عكا بعيد من عسكر العدوّ فكمنوا تلك الليلة، فلما أصبح الصباح ركب منهم عدّة يسيرة وساروا نحو الفرنج، وصالوا عليهم، وأغاروا، فاستقبلهم الفرنج فخرج إليهم زهاء أربعمائة فارس ـ هكذا قال العماد، وقال ابن شدّاد: مائتا فارس ـ وطمعوا في المسلمين فتأخروا قدامهم قليلاً قليلاً حتى أوصلوهم إلى الكمين فخرج عليهم أسْد العرين، وقتلوا وأسروا واستولوا عليهم بأسرهم فلم ينج منهم ناج، ووقع في الأسر مقدّمون أكابر منهم خازن الملك وجماعة من الإفرنسيسية، وركب السلطان فرحاً بهذه البشارة، ووقف على تل كيسان وقد توافت إليه الأسرى والأسلاب، فترك الأسلاب والخيول لآخذيها، وكانت مُقوَّمةً بأموال عظيمة فما أعارها طرفاً ولا تردد أمره فيها، وجلس وأحضر الأسرى وباسطهم وأطعمهم وكساهم وأذن لهم في أن يُسيّروا غلمانهم لإحضار ما يريدون إحضاره، ثم نقلهم إلى دمشق للاعتقال، وحفظهم بالقيود الثقال.

قال القاضي ابن شدّاد:

ولما هجم الشتاء وهاج البحر وأمن العدوّ من أن يضرب مصاف وأن يبالغ في طلب البلد وحصاره من شدّة الأمطار وتواترها أذن السلطان للعساكر في العود إلى بلادها ليأخذوا نصيباً من الراحة، فسار عماد الدين صاحب سنجار خامس عشري شوّال، وعُقيبه ابن أخيه صاحب الجزيرة بعد أن أفيض عليهما من التشريف والإنعام والتحف ما لم يُنعم به على غيرهما، وسار علاء الدين ابن صاحب المَوْصل في أوّل ذي القعدة مشرفاً مكرماً، وسار الظاهر في المحرّم سنة سبع، وتقيّ الدين في صفر منها، ولم يبق عند السلطان إلا نفر يسير من الأمراء.

قال العماد:

واشتغل السلطان بإدخال البَدَل إلى عكا وحمل المير والذخائر، وأخرج من كان بها من الأمراء لعِظَم شكايتهم من طول المقام بها ومعاناة التعب والسهر وملازمة القتال ليلاً ونهاراً، وكان مقدّم البَدَل الداخل من

الأمراء سيف الدين المشطوب دخل في سادس عشر المحرّم سنة سبع، وفي ذلك اليوم خرج المقدّم الذي كان بها وهو الأمير حسام الدين أبو الهيجاء وأصحابه ومن كان بها من الأمراء، ودخل مع المشطوب خلق من الأمراء وأعيان من الخلق، وتقدّم إلى كل واحد أن يصحب معه ميرة سنة كاملة.

وانتقل العادل بعسكره إلى حيفا على شاطىء النهر وهو الموضع الذي تحمل منه المراكب وتدخل إلى البلد، وإذا خرجت تخرج إليه فأقام ثَمَّ يحث الناس على الدخول وتحرس المير والذخائر لئلا يتطرّق إليها من العدوّ من يتعرضها، وكان مما دخل إليها سبع بُطُس مملوءة ميرة وذخائر ونفقات كانت وصلت من مصر، وكان دخولها يوم الاثنين ثاني ذي الحجة فانكسر منها مركب على الصخر الذي هو قريب الميناء فانقلب كل من في البلد من المقاتلة إلى جانب البحر ليلقى البطس وأخذ ما فيها، ولما علم العدوّ انقلاب المقاتلة إلى جانب البحر اجتمعوا في خلق عظيم، وزحفوا على البلد من جانب البر زحفة عظيمة، وقاربوا الأسوار وصعدوا في سلم واحد فاندق بهم السلم ـ كما شاء الله تعالى ـ وأدركهم أهل البلد فقتلوا منهم خلقاً عظيماً، وعادوا خائبين خاسرين.

وأما البُطُس فإن البحر هاج هياجاً عظيماً، وضرب بعضها ببعض على الصخر فهلكت وهلك جميع ما كان فيها وهلك فيها خلق عظيم، قيل: كان عددهم ستين نفراً، وكان فيها ميرة عظيمة لو سلمت لكفت البلد سنة كاملة، ودخل على المسلمين من ذلك وهن عظيم، وحرج السلطان لذلك حرجاً شديداً، وكان ذلك أوّل علائم أخذ البلد.

وقال العماد:

لما دخل الشتاء وعصفت الأهواء، ووقع في سفن الفرنج الكسر أنفذوها إلى الجزائر للاحتياط، وخافوا عليها من اختباط البحر.

ونقل الفرنج سفنهم خوفاً عليها إلى صور فربطوها بها، فخلا وجه البحر من مراكبهم، وحصل الأمن فيه من جانبهم.

[٤٧٠] وكان أصحابنا في البلد قد ملوا فشكوا ضررهم وضجرهم، وكانوا زهاء عشرين ألف رجل من أمير ومقدّم وجندي وأسطولي وبحري، ومتعيش وتاجر وبطّال، وغلمان ونوّاب وعمال، وقد تعذر عليهم الخروج فرأى السلطان أن يفسح لهم فيه رفقاً بهم ورأفة، وما أفكر أن في ذلك مخافة وآفة، وأشير على السلطان بترتيب البَدَل، وتكفل العادل بذلك وانتقل بمخيمه إلى سفح جبل حيفا.

وكان الرأي إزاحة علة المقيمين فإنهم قد جرّبوا وصبروا وخبروا وهم كنفس واحدة وكانوا في ثروة وكرم ونخوة وفيهم أبو الهيجاء السمين وله أتباع وأشياع، وله في شرع السماحة اقتداء بالسلطان وأوضاع، ولعله أنفق من ماله في تلك السنة خمسين ألف دينار، فلما فُسح لهم في الانتقال لأجل الاستبدال انتشر ذلك الضم، وانتثر ذلك النظم، ودخل إلى عكا من لم يجرّب حصارها، ولم يخبر منافعها ومضارها، وما ثبت ممن كان مقيماً بها إلا الأمير بهاء الدين قراقوش.

ودخل عشرون مقدماً وأميراً شبه المكرهين، عوض ستين، واستخدمت الرجال، وأنفقت الأموال، وتفاوت الداخلون والخارجون فلا جرم وقع الوهن وقضي الأمر، وتكفل بالداخلين المشطوب وضاع الزمان وتعذر الإمكان بعود مراكب العدوّ فلم يستتم البلد ما كان يحتاج إليه من الرجال والأموال، فإن كل من عُيّن للدخول كرهه وصار يتوسل في أن يُعفى ويبذل في نفسه الفداء، ثم لمّا حقت كلمة الدخول على من تعيّن له استُمهلوا زماناً يتهيأون فيه للدخول، ولإنفاذ قضاء الله ـ تعالى ـ أسباب لا بدّ من وقوعها.

قال العماد:

وفي ليلة سابع ذي الحجة وقعت قطعة عظيمة من سور عكا فانثلم الثغر، وبادر الفرنج إليها فجاء أهل البلد وسدّوها بصدورهم وقاتلوا عنها

إلى أن بنوها وعادت أقوى مما كانت. وفي ثاني ذي الحجة هلك ابن ملك الألمان، وصار يموت من الفرنج كل يوم المائة والمائتان، وحزن الفرنج على ابن ملك الألمان حزناً عظيماً، وأشعلوا نيراناً هائلة بحيث لم تبقَ خَيمة إلا اشتعل فيها الناران والثلاثة بحيث بقي عسكرهم كله ناراً تقد.

[٤٧١] وحصل للمسلمين غنائم أخَر كثيرة، وكان قد استأمن من الفِرَنج خلق عظيم أخرجهم الجوع إلينا وقالوا للسلطان: نحن نخوض البحر في براكس ونكسب من العدوّ ويكون الكسب بيننا وبين المسلمين فأذن لهم في ذلك وأعطاهم بركوساً ـ وهو المركب الصغير ـ فركبوا فيه وظفروا بمراكبَ لتجار العدوّ بضائعهم معظمها فضة مصوغة وغير مصوغة، فأسروهم وكبسوهم وأحضروهم بين يدي السلطان فأعطاهم السلطان جميع ما غنموه.

قال العماد: فلما أكرموا بهذه المكرمة أثنوا على اليد المنعمة، وأسلم منهم شطرهم، وأحضروا مائدة فضة عظيمة وعليها مكبة(١) عالية، ومعها طبق يماثلها في الوزن ولو وزنت تلك الفضيات لقاربت قنطاراً، فما أعارها السلطان طرفه احتقاراً.

[٤٧٢] قال: واستشهد في عكا سبعة من الأمراء منهم الأمير سوار، والتقى في هذه السنة شواني(٢) المسلمين بشواني الفرنج في البحر فأحرقت للكفر شواني برجالها، وكان عند العود تأخر لنا شينيّ مقدمه الأمير جمال الدين محمد بن أركز فأحاطت به مراكب العدوّ فتواقع ملاحوه إلى الماء وسلموه إلى البلاء، فقاتل وصبر فعرضوا عليه الأمان فقال: ما أضع يدي إلا في يد مقدمكم الكبير، فلا يخاطر الخطير إلا مع الخطير، فجاء إليه المقدم الكبير وظن أنه قد حصل له الأسير فعاقره وعانقه وقوي عليه وما

---

(١) المكبة هي ما يكون فوق بعض الموائد والسرر ونحوهما ويغطى بالستائر.

(٢) أي مراكب.

فارقه، ووقعا في البحر وغرقا، وترافقا في الحمام(١) واتفقا، وعلى طريقي الجنة والنار افترقا.

[٤٧٣] قال: ووصل القاضي الفاضل من مصر إلى المعسكر المنصور في ذي الحجة، وكان السلطان متشوقاً لقدومه، وطالت مدة البَيْن(٢)، لغيبته عنه سنتين، على أن أمور الممالك بمصر كانت بحضوره مستتبة، وكان السلطان شديدَ الوثوق بمكانه، دائم الاعتماد والاستناد على إحسانه وإلى أركانه، فإن استقدمه خاف على ما وراءه من المهام، وإن تركه نال وحشة التفرد بالقضايا والأحكام، وكان يكاتبه بشرح الأحوال يستشيره، ثم وصل في ذي الحجة واجتمع الشمل، واستأنس الملك بصاحب تدبيره، وتأسس ركنه برأي مشيره.

ثم دخلت سنة سبع وثمانين وخمسمائة

[٤٧٤] ففيها وصل إلى الفرنج ملك إفرنسيس(٣) وملك إنكلتيرة(٤) وغيرهما وأخذت عكا يسرّ الله فتحها.

قال العماد:

وفي ثالث صفر رحل تقيّ الدين(٥) لتسلم البلاد التي أضيفت إليه شرقي الفرات، وكان له بالشام المعرة وحمادة وسَلَمية وجبلة واللاذقية، وبالجزيرة ديار بكر وحران والرها والموزر وسُمَيْساط وضياعها، ومَيَّا فارقين وحصونها وأعمالها وقلاعها، وسار على أنه يرجع عن قريب، فأبطأ وتشوّف إلى افتتاح ما يجاوره من البلاد، وسار إلى مَيّافارقين، فكان

---

(١) أي الموت.

(٢) أي الفراق.

(٣) هو فيليب.

(٤) هو ريتشارد قلب الأسد.

(٥) هو تقيّ الدين عمر ابن أخي صلاح الدين.

السلطان ينسب ما جرى من استيلاء الكفار على عكا ـ بعد قضاء الله تعالى ـ إلى غيبته، فإنه تأخرت عساكر تلك البلاد الشرقية لخوف مضرته وجَوْر مجاورته.

[٤٧٦] وفي تاسع ربيع الأول وصل خمسة وأربعون أسيراً من الفرنج أخذوا في بيروت فيهم شيخ كبير هَرِم لم يبق في فمه ضرس، ولم يبق فيه قوة إلا مقدار ما يتحرك فسأله عن مجيئه فقال: للحج إلى قمامة(١)، وبيني وبين بلادي مسيرة أشهر فرقّ له وأطلقه، وأعاده إلى العدوّ راكباً على فرس.

[٤٧٧] وطلب أولاده الصغار أن يأذن لهم في قتل أسير فلم يأذن، وسُئل عن ذلك فقال: لئلا يعتادوا من الصغر سفك الدم ويهون عليهم، وهم الآن لا يفرقون بين المسلم والكافر.

[٤٧٨] ثم لما أقبل الربيع توافت العساكر وفاءً بموعدها، وفي كل يوم يقدم أمير بعد أمير، والله ـ تعالى ـ يتولى التدبير.

[٤٧٩] وكان قد شاع الخبر بأن ملوك الفرنج واصلون، وهم حاشدون حافلون، فوصل ملك إفرنسيس فيليب، في عدة من عبدة الصليب، ثاني عشر ربيع الأول في ست بُطُس(٢) عظام مملوءة بفوارس ذوي إقدام، فقلنا ما حمل الماء إلا أهل النار، وكان عظيماً عندهم من كبار ملوكهم ينقادون له بحيث إذا حضر حَكَم على الجميع، وما زالوا يتواعدونا به حتى قدم، وصحبه من بلاده باز(٣) عظيم عنده هائل الخَلق أبيض اللون نادر الجنس، وكان يعزه ويحبه حباً عظيماً فطار من يده، حتى سقط على سور عكا فاصطاده أصحابنا وأنفذوه إلى السلطان، وبذل الفرنج فيه ألف دينار فلم يجابوا.

---

(١) يعني كنيستهم التي في القدس ويسمونها كنيسة القيامة.

(٢) أي سفن.

(٣) طائر من جنس الصقور.

قال العماد:

كان عز الدين سامة متولي بيروت، ولم يكن لمراكب العدو بدٌّ من الجَواز بها أو بقربها، وإذا عبرت أخذت وإن كانت مستعدة لحربها، فغنم هو ورجاله مغانم خلدت له ادّخار الغنى، وكثرت في البحر غزواته، ووصل ملك الإنكلتيرة إلى قبرس في السادس والعشرين من ربيع الآخر واشتغل بها عن الوصول إلى عكا حتى أخذها عنوة من صاحبها، وكانت مقدّمات سفنه قد وصلت فاستولى سامة على خمس منها مملوءة رجالاً ونساءً وأموالاً وخيلاً.

[٤٨٠] وكان في الزيب ـ وهو شمالي عكا ـ طائفة من المسلمين يجهزون السفن الداخلة إلى عكا ويقطعون الطريق على الفرنج، قال القاضي: وكان للمسلمين لصوص يدخلون إلى خيام العدوّ فيسرقون منهم حتى الرجال ويخرجون، فأخذوا ذات ليلة طفلاً رضيعاً له ثلاثة أشهر، فلما فقدته أمه باتت مستغيثة بالويل والثبور في طول تلك الليلة حتى وصل خبرها إلى ملوكهم فقالوا لها: إن السلطان رحيم القلب، وقد أذنا لك في الخروج إليه فاخرجي واطلبيه منه فإنه يرده عليك.

فخرجت تستغيث إلى اليَزَك(١) الإسلامي وأخبرتهم بواقعتها فأطلقوها وأنفذوها إلى السلطان، فأتته وهو راكب على تل الخروبة وأنا في خدمته وفي خدمته خلق عظيم، فبكت بكاءً شديداً، ومَرَّغت وجهها في التراب، فسأل عن قصتها فأخبروه فرق لها ودمعت عينه وأمر بإحضار الرضيع فمضوا ووجدوه قد بيع في السوق، فأمر بدفع ثمنه إلى المشتري وأخذه منه ولم يزل واقفاً ـ رحمة الله عليه ـ حتى أحضر الطفل وسُلم إليها، فأخذته وبكت بكاءً شديداً، وضمته إلى صدرها والناس ينظرون إليها ويبكون، وأنا واقف في جملتهم فأرضعته ساعة ثم أمر بها فحملت على فرس وألحقت

---

(١) اليزك: طليعة الجيش.

بمعسكرهم مع طفلها، قال: فانظر إلى هذه الرحمة الشاملة لجنس الإنس، اللهم إنك خلقته رحيماً فارحمه رحمةً واسعة آمين.

[٤٨١] فصل في مضايقة العدو ـــ خذله الله ـــ لعكا يسّر الله فتحها واستيلائهم عليها

قال العماد:

لما كان يوم الخميس رابع جمادى الأولى زحف الفرنج إلى عكا ونصبوا عليها سبعة مجانيق، ووصلت كتب من عكا إلى السلطان بالأستنفار العظيم والتماس شغل العدوّ عنهم، فركب السلطان بعسكره وكان هذا دأبه معهم كلما نابوا البلد نابهم، فإذا زحف إليهم رجعوا عن الحصر، وإذا رجع عنهم عاودوه.

قال القاضي: ولقد بلغ من مضايقتهم البلد ومبالغتهم في طم خندقه أنهم كانوا يلقون فيه موتى دوابهم، وكانوا إذا جُرح منهم واحد جراحة مثخنة ميئسة ألقوه فيه.

وانقسم أهل البلد أقساماً: قسم ينزلون إلى الخندق ويقطعون الموتى والدواب التي يلقونها فيه قطعاً ليسهل نقلها، وقسم ينقلون ما يقطعه ذلك القسم ليلقوه في البحر، وقسم يذبون عنهم ويدافعون حتى يتمكنوا من ذلك، وقسم في المنجنيقات وحراسة الأسوار، وأخذ منهم التعب والنصب، وتواترت شكايتهم من ذلك.

قال: وهذا ابتلاء لم يُبتلَ به أحد، هذا والسلطان ـ رحمه الله ـ يقطع الزحف عنهم والمضايقة لهم(١) على خنادقهم بنفسه وخواصه وأولاده ليلاً ونهاراً حتى يشغلهم عن البلد، وصوبّوا منجنيقاتهم إلى برج عين البقر وتواترت عليه أحجار المنجنيقات ليلاً ونهاراً حتى أثرت فيه الأثر البيّن،

---

(١) في السياق قلق ظاهر لكن المعنى مفهوم.

وكلما ازدادوا في قتال البلد ازداد السلطان في قتالهم وكَبس خنادقهم والهجوم عليهم، ودام ذلك حتى وصل ملك الإنكلتيرة(١).

[٤٨٢] قال: وفي سادس عشر جمادى وصلت بُطْسة من بيروت عظيمة هائلة مشحونة بالآلات والمير والرجال والأبطال المقاتلة، وكان السلطان قد أمر بتعبيتها في بيروت وتسييرها ووضع فيها من المقاتلة خلقاً عظيماً حتى تدخل إلى البلد مراغمة للعدوّ وكان عدة رجالها المقاتلة ستمائة وخمسين رجلاً فاعترضها ملك الإنكلتيرة الملعون في عدة شواني قيل إنها كانت أربعين قطعة، فاحتاطوا بها من جميع جوانبها واشتدوا في قتالها، وجرى القضاء بأن وقف الهواء فقاتلوها قتالاً شديداً وقتل من العدوّ عليها خلق عظيم، وأحرقوا على العدوّ شانياً كبيراً فيه خلق كثير فهلكوا عن آخرهم وتكاثروا على أهل البطسة وكان مقدّمهم رجلاً جيداً شجاعاً مجرّباً في الحرب اسمه يعقوب من أهل حلب، فلما رأى أمارات الغلبة عليهم قال: والله لا نُقتل إلا عن عزّ، ولا نسلم إليهم من هذه البطسة شيئاً فوقعوا في البطسة من جوانبها بالمعاول يهدمونها حتى فتحوها من جانب أبواباً فامتلأت ماءً، وغرق جميع من فيها وما فيها من الآلات والمِيَر، ولم يظفر العدوّ منها بشيء أصلاً، وتلقف العدوّ بعض من كان فيها وأخذوه إلى الشواني من البحر وخلصوه من الغَرق ومثّلوا به وأنفذوه إلى البلد ليخبرهم بالواقعة، وحزن الناس لذلك حزناً شديداً، والسلطان يتلقى ذلك بيد الاحتساب في سبيل الله ـ تعالى ـ والصبر على بلائه.

[٤٨٣] قال: وكان العدوّ المخذول قد صنع دبابة عظيمة هائلة أربع طبقات: الأولى من الخشب، والثانية من الرصاص، والثالثة من الحديد، والرابعة من النحاس، وكانت تعلو على السور ويركب فيها المقاتلة، وخاف أهل البلد منها خوفاً عظيماً، وحدثتهم نفوسهم بطلب الأمان من العدوّ

---

(١) هو رتشارد قلب الأسد.

وكانوا قد قرّبوها من السور بحيث لم يبق بينها وبين السور إلا مقدار خمسة أذرع على ما نشاهد، وأخذ أهل البلد في تواتر ضربها بالنفْط ليلاً ونهاراً حتى قدَّر الله ـ تعالى ـ حريقها واشتعال النار فيها، واشتدت الأصوات بالتكبير والتهليل، ورأى الناس ذلك جبراً لذلك الوهن(١) ومحواً لذلك الأثر ونعمة بعد نقمة، وإيناساً بعد بأس، وكان ذلك في يوم غرق البطسة، قال العماد: فكان ذلك تشميتاً لتلك العطسة.

ثم جرى بعد ذلك عدة وقعات في هذا الشهر وهو جمادى الأول، وهجم المسلمون خيم العدوّ ونهبوها، ولم تزل الأخبار تتواصل من أهل البلد باستفحال أمر العدوّ والشكوى من ملازمتهم قتالهم ليلاً ونهاراً، وذكر ما ينالهم من التعب العظيم من تواتر الأعمال المختلفة عليهم من حين قدوم الإنكلتيري الملعون، ثم مرض مرضاً شديداً أشفى فيه على الهلاك وجرح الإفرنسيس ولا يزيدهم ذلك إلا إصراراً وعتواً، وهرب إلى السلطان خادمان ذكرا أنهما لأخت ملك الإنكلتيرة وأنهما كانا يكتمان إيمانهما فقبلهما السلطان وأكرمهما، وهرب أيضاً المركيس منهم إلى صور وكان قد استشعر منهم أن يخرجوا مُلكها عن يده.

[٤٨٤] قال العماد:

ووصل في آخر جمادى الأول من العساكر الإسلامية مجاهد الدين برتقش ومعه عسكر سنْجار، وفي ثاني جمادى الآخرة ابن صاحب الموصل وجماعة من أمراء مصر والقاهرة، وأما عساكر ديار بكر فإنهم تأخروا واعتذروا بالخوف من جوار تقي الدين(٢)، وكان قد تعرض للسويداء وغيرها، وصعب ذلك على السلطان وقال: هذا من عمل الشيطان، وفي مثل هذا الوقت يتعرض لهذا المقت، وإني أخاف عليه في هذه السنة، حيث أساء عند إمكان الحسنة.

---

(١) أي الذي حصل بغرق سفينة المؤن.

(٢) هو تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين.

واشتد مرض الإنكلتيري بحيث شُغل الإفرنج بمرضه عن الزحف، وكان ذلك خيرة من الله عظيمة، فإن البلد كان قد ضعف من فيه ضعفاً عظيماً، وهدمت المنجنيقات من السور مقدار قامة الرجل فكان في هذه الفترة للبلد بقاء رَمَق، وزوال فَرَق(١)، وانتعاش عثرة، وانجبار كسرة.

قال القاضي:

ثم تكررت الرسائل من الفرنج إلى السلطان شغلاً للوقت بما لا طائل تحته، وكان غرضهم من ذلك تفتير العَزَمات، وتضييع الأوقات على المسلمين وهم مشتغلون بالحصر وموالاة الرمي والجدّ في الزحف حتى تبدلت قوة البلد بالضعف، وتخلخل السور وأنهك التعب والسهر أهل البلد لقلة عددهم وكثرة الأعمال عليهم حتى أن جماعة منهم بقوا ليالي عدّة لا ينامون أصلاً ليلاً ولا نهاراً، والعدوّ عدد كثير يتناوبون على قتالهم، واشتد ذلك عليهم سابع جمادى الآخرة.

[٤٨٥] فركب السلطان بالعسكر الإسلامي ورغَّبهم ونخّاهم، وزحف على خنادق القوم حتى دخل فيها العسكر وجرى قتال عظيم وهو كالوالدة الثكلى يحرك فرسه من طلب إلى طلب، ويحث الناس على الجهاد وينادي بنفسه: يا للإسلام، وعيناه قد فارت بالدمع، وكلما نظر إلى عكا وما حل بها من البلاء، وما يجري على مَن بها من المصاب العظيم اشتد في الزحف والحث على القتال، ولم يطعم في ذلك اليوم طعاماً ألبتة، وإنما شرب شيئاً أشار به الطبيب، ولما هجم الليل عاد إلى الخيم وقد أخذ منه التعب والكآبة والحزن، ثم ركب سحراً وصبحوا على ما أمسوا عليه.

وفي ذلك اليوم وصلت مطالعة من البلد يقولون فيها: إنا قد بلغ بنا العجز إلى غاية ما بعدها إلا التسليم، ونحن في الغد إن لم تعملوا معنا شيئاً نطلب الأمان، ونُسلِّم ونشتري مجرد رقابنا، وكان هذا أعظم خبر ورد

---

(١) الفَرَق: الخوف.

على المسلمين وأنكاه في قلوبهم، فإن عكا كانت قد احتوت على جميع سلاح الساحل والقدس ودمشق وحلب ومصر أيضاً، فرأى السلطان مهاجمة العدوّ فلم يساعده العسكر فإن الرجّالة من الفرنج وقفوا كالسور المحكم البناء بالسلاح من وراء أسوارهم وهجم عليهم بعض الناس من بعض أطرافهم فثبتوا وذبوا غاية الذّب.

وحكى بعض مَن دخل عليهم أسوارهم أنه كان هناك واحد من الفرنج صعد سور خندقهم وجماعة يناولونه الحجارة وهو يرميها على المسلمين، ووقع فيه زهاء خمسين سهماً وحجراً وهو يتلقاها ولم يمنعه ذلك عما هو بصدده من الذب حتى ضربه زراق⁽¹⁾ بنفط فأحرقه.

[٤٨٦] ورُؤيت امرأة ترمي بقوس من خشب حتى جرحت جماعة، ثم قُتلت وحملت إلى السلطان فعجب من ذلك، ولم يزل الحرب إلى الليل، وضعفت نفوس أهل البلد وتمكن العدو من الخنادق فملؤوها، ونقبوا سور البلد وحشوه وأحرقوه.

[٤٨٧] ومن كتاب إلى صاحب إزبل مظفر الدين:

«لما عاين أصحابنا بالبلد ما هم عليه من الخطر، فرَّ جماعة من الأمراء ممن قل بالله وثوقه، وأعمى قلبه فجوره وفسوقه، ولقد خانوا المسلمين في ثغرهم، وباؤوا بوبال غدرهم، وما قوّى طمع العدو في البلد إلا هربهم، وما أرهب قلوب الباقين من مقاتلتهم إلا رهبهم، والمقيمين من أصحابنا الكرام قد استحلوا مُرَّ الحمام، وأجمعوا أنهم لا يسلمون حتى يقتلوا من الأعداء أضعاف أعدادهم، وأنهم يبذلون في صون ثغرهم غاية اجتهادهم، وكانوا تحدّثوا مع الفرنج في التسليم فاشتطوا واشترطوا، فصبروا بعد ذلك وصابروا، ومدّوا أيديهم في القوم وبسطوا».

قال القاضي:

---

(١) هو المعالج للنفط.

وفي سحر تلك الليلة ركب السلطان مُشعراً أنه يريد كبس القوم ومعه المساحي وآلات طم الخنادق، فما ساعده العسكر على ذلك وتخاذلوا، وقالوا: نخاطر بالإسلام كله.

وفي ذلك اليوم خرج من عند ملك الإنكلتيرة رسل ثلاثة طلبوا فاكهة وثلجاً، وذكروا أن مقدّم الإسبتارية يخرج في الغد يعني يوم الجمعة يتحدث ويتحدثون معه في معنى الصلح، فأكرمهم السلطان ودخلوا سوق العسكر وتفرجوا فيه وعادوا تلك الليلة إلى عسكرهم.

وفي ذلك اليوم تقدّم إلى⁽¹⁾ قايماز النجمي حتى يدخل هو وأصحابه إلى أسوارهم عليهم، وترجّل جماعة من أمراء الأكراد، وزحفوا حتى بلغوا أسوار الفرنج، ونصب قايماز علمه بنفسه على سورهم، وقاتل عن العلم قطعة من النهار.

وفي ذلك اليوم وصل عز الدين جُرْديك النوريّ، وسوق الزحف قائمة فترجل هو وجماعته وقاتل قتالاً شديداً واجتهد الناس في ذلك اليوم اجتهاداً عظيماً.

قال العماد: وبات العسكر تلك الليلة على الخيل تحت الحديد منتظراً لنجح الأمل البعيد، ولما عرف السلطان أنه لا سلامة، وأن عكا عدمت الاستقامة نفذ إلى جماعة عكّا سراً وقال لهم: خذوا من العدوّ حذراً، واتفقوا واخرجوا ليلاً من البلد يداً واحدة، وسيروا إلى جانب البحر، وصادموا العدوّ بالقهر، وخلوا البلد بما فيه، واتركوه بما يحويه، فشرعوا في ذلك واشتغل كل منهم باستصحاب ما يملكه ولم يعلم أن التهاءه به يهلكه، فما تمكنوا من المراد حتى أسفر الصباح، ولم يصح ذلك في الليلة الثانية لمصير السر إلى العلانية.

---

(١) أي أرسل السلطان إلى ذلك الأمير.

قال: ولو صح ذلك لنجح المقصد لكن الفرنج اطّلعوا على هذا السر فحرسوا الجوانب والأبواب، وكان سبب علمهم اثنين من غلمان الهاربين خرجا إلى الملاعين وأخبراهم بجَليَّة الحال، وعزيمة الرجال.

قال: وخرج يوم الجمعة العاشر من الشهر جماعة من رسل الفرنج ونحن على الحرب، ومحاولة الطعن والضرب - وفيهم صاحب صيدا، فطُلب نجيب الدين العدل وكان السلطان يقذف به في رسالات الفرنج وتردد العدل مراراً في الخطاب والجواب، فلم ينفصل الأمر على الصواب، وبذلنا لهم عكا على ما فيها دون من فيها: وأنا نطلق لهم أسرى بعدد العدة التي يحويها، فأبوا غير الاشتطاط، فزدناهم صليب الصَلَبوت فلم يحصل لهم به كمال الاغتباط.

قال: وتصرَّم نهار السبت ولم ينفصل أمر، قال: ولما كان يوم الأحد ثاني عشر الشهر وصل من البلد كتب يقول فيها: إنا قد تبايعنا على الموت فإياكم أن تخضعوا لهذا العدوّ وتلينوا له، فأما نحن فقد فات أمرنا، وذكر العوَّام الواصل بهذه الكتب أنه وقع في الليل صوت انزعج منه الطائفتان، وظن الفرنج أن عسكراً عظيماً قد عبر إلى عكا، واندفع كيد العدوّ في تلك الأيام بعد أن كان قد أشفى البلد على الأخذ.

ووصل من عساكر الإسلام صاحب شَيْزر سابق الدين، وبدر الدين دلدرم ومعه تركمان كثير كان السلطان أنفذ إليهم ذهباً أنفقه فيهم، وصاحب حمص، واشتدّ ضعف البلد وكثرت ثغور سوره، فبنوا عِوَض الثلمة سوراً من داخلها حتى إذا تم انهدامها قاتلوا عليه، وثبت الفرنج على أنهم لا يصالحون ولا يعطون الذينَ في البلد أماناً حتى تطلق جميع الأسرى الذين في أيدي المسلمين، وتعاد البلاد الساحلية إليهم.

وفي يوم الجمعة سابع عشر الشهر خرج العوّام وفي كتبه أن أهل البلد ضاق بهم الأمر وتيقنوا أنه متى أُخذ البلد عنوة ضربت رقابهم عن آخرهم وأخذ جميع ما فيه من العُدد والأسلحة والمراكب وغير ذلك،

فصالحوهم على أنهم يسلمون إليهم البلد وجميع ما فيه من الآلات والعُدد والمراكب، ومائتي ألف دينار، وألفاً وخمسمائة أسير مجاهيل الأحوال، مائة أسير معينين من جانبهم يختارونهم، وصليب الصلبوت على أنهم يخرجون بأنفسهم سالمين، وما معهم من الأموال والأقمشة المختصة بهم وذراريهم ونساؤهم، وضمنوا للمركيس الملعون عشرة آلاف دينار لأنه كان واسطة، ولأصحابه أربعة آلاف دينار، واستقرت القاعدة على ذلك بينهم وبين الفرنج.

ولما وقف السلطان على ذلك أنكره وأعظمه وعزم على أن يكتب إليهم في إنكار ذلك عليهم فهو في مثل هذه الحال وقد جمع أمراءه وأصحاب مشورته، فما أحس المسلمون إلا وقد ارتفعت أعلام الكفر وصلبانه وشعاره وناره على أسوار البلد، وذلك ظهيرة نهار الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة، وصاح الفرنج صيحة واحدة، وعظمت المصيبة على المسلمين، واشتدّ حزن الموحّدين، وانحصر كلام العقلاء من الناس في إنا لله وإنا إليه راجعون، وغَشيَ الناس بهتةٌ عظيمة، وحيرة شديدة، ووقع في العسكر الصياح والعويل، والبكاء والنحيب، وكان لكل قلب حظ في ذلك على قدر إيمانه، ولكل إنسان نصيب من هذا الحظ على مقدار ديانته ونخوته.

وأقشعت الحال على أن المركيس ـ لعنه الله ـ دخل البلد ومعه أربعة أعلام للملوك فنصب علماً على القلعة، وعلماً على مئذنة الجامع في يوم الجمعة، وعلماً على برج الداوية، وعلماً على برج القتال عوضاً عن علم الإسلام، وحيزَ المسلمون إلى بعض أطراف البلد، وجرى على أهل الإسلام المشاهدين لتلك الحال ما كثر التعجب من الحياة معه.

[٤٨٩] قال: ومثلت بخدمة السلطان ـ رحمه الله ـ عشية ذلك اليوم وهو أشد حالة من الوالدة الثّكلى، فسلّيته بما تيسّر من التسلية، وأذكرته الفكر فيما قد استقبله من الأمر في معنى البلاد الساحلية والقدس الشريف

وكيفية الحال في ذلك، وإعمال الفكر في خلاص المسلمين المأسورين في البلد، وانفصل الحال على أن رأى التأخر عن تلك المنزلة مصلحة فإنه لم يبق غرض في المضايقة.

قال العماد:

وعزم ملك الإفرنسيس على المسير إلى بلاده لأمر اختل عليه، فأخذ قسماً من الأسارى وسلمهم إلى المركيس، ووكله في قبض نصيبه، ورضي بتدبيره وترتيبه، وخرج الفرنج يوم الخميس انسلاخ الشهر من جانب البحر، وانتشروا بالمرج ووصلوا إلى الآبار التي حفرها اليَزَك(١)، وتواقعوا مع اليَزك، وأمدّهم السلطان ففلُّوا العدو، وصُرع منهم خمسون فارساً، قال القاضي: وخرج خلق عظيم ولم يزل السيف فيهم حتى دخلوا خنادقهم.

[٤٩٠] قال: ولم تزل الرسل تتردّد بين الطائفتين حتى كان يوم الجمعة تاسع رجب فخرج حسام الدين حسين بن تاريك المهراني ومعه اثنان من أصحاب الإنكلتيري فأخبر أن ملك الإفرنسيس صار إلى صور، وذكروا أشياء من تحرير أمر الأسارى، وطلبوا أن يشاهدوا صليب الصلبوت وأنه هل هو في العسكر أو حُمل إلى بغداد، فأحضر صليب الصلبوت وشاهدوه وعظموه ورموا أنفسهم إلى الأرض ومرّغوا وجوههم على التراب، وخضعوا خضوعاً عظيماً لم يُرَ مثله، وذكروا أن الملوك قد أجابوا السلطان إلى أن يكون ما وقع عليه القرار يدفع في تُروم ثلاثة أي نجوم(٢): كل ترم شهر.

ولم تزل الرسل تتواتر في تحرير القاعدة وتنجيزها حتى حصل لهم ما التمسوه من الأسارى والمال المختص بذلك الترم وهو الصليب ومائة ألف دينار وستمائة أسير وأنفذوا نقباءهم وشاهدوا الجميع ما عدا الأسارى المعينين من جانبهم فإنهم لم يكونوا فرغوا من تعيينهم، ولم يكملوهم حتى

---

(١) أي طليعة الجيش الإسلامي.

(٢) أي أقساط: وانظر «لسان العرب»: ن ج م.

يحصلوا، ولم يزالوا يطاولون ويقضون الزمان حتى انقضى الترم الأوّل في ثامن عشر رجب.

ثم أنفذوا في ذلك اليوم يطلبون ذلك فقال لهم السلطان: إما أن تنفذوا إلينا أصحابنا وتتسلموا الذي عُين لكم في هذا الترم ونعطيكم رهائن على الباقي يصل إليكم في ترومكم الباقية، وإما أن تعطونا رهائن على ما نسلمه إليكم حتى تخرجوا إلينا أصحابنا، فقالوا: لا نفعل شيئاً من ذلك بل تسلمون ما نقبضه بهذا الترم وتقنعون بأمانتنا حتى نسلم إليكم أصحابكم، فأبى السلطان ذلك لعلمه أنهم إن تسلموا المال والصليب والأسرى وأصحابنا عندهم لا يؤمن غدرهم.

فلما رأوه قد امتنع من ذلك أخرجوا خيامهم إلى ظاهر خنادقهم، وركبوا في وقت العصر السابع والعشرين من رجب، وساروا حتى أتوا إلى الآبار التي تحت تل العياضية، ثم أحضروا من الأسارى المسلمين مَن كتب الله شهادته، وكانوا زهاء ثلاثة آلاف مسلم في الحبال، ووقفوهم وحملوا عليهم حملة الرَّجل الواحد فقتلوهم صبراً طعناً وضرباً بالسيف ـ رحمة الله عليهم ـ واليَزَك الإسلامي يشاهدهم ولا يعلم ماذا يصنعون لبعده عنهم.

وكان اليَزَك قد أنفذ إلى السلطان وأعلمه بركوب القوم ووقوفهم، فأنفذ إلى اليزك مَن قواه، وبعد أن فرغوا منهم حمل المسلمون عليهم وجرت بينهم حرب عظيمة جرى فيها قتل وجرح من الجانبين ودام القتال إلى أن فصل الليل بين الطائفتين، وأصبح المسلمون يكشفون الحال فوجدوا المسلمين الشهداء في مصارعهم، وعرفوا مَن عرفوا منهم، وغشي المسلمين بذلك حزن عظيم، ولم يُبقوا من المسلمين إلا رجلاً معروفاً مقدَّماً، أو قوياً أعدّ للعمل في عمائرهم.

قال العماد:

وطلب السلطان منهم أن يضمنهم الداوية في قبض المال، فقال

الداوية: ما ندخل في الضمان، فاقنعوا منهم بالقول والأمان، فظهر من فحوى كلامهم الخُلف، ثم ذكر قتل الأسارى قال: فشاهدناهم مستشهدين، بالعراء عرايا مجرّدين، ولا شك أن الله كساهم من سندس النعيم، ونقلهم إلى دار المقامة في العز المقيم، وتصرف السلطان حينئذ في المال، وفرّق مجموعة في رجاء الرجال وأعاد الأسارى إلى أربابها، واحتوت عليها بدمشق أيدي أصحابها، وحفظ الصليب السليب، وردّه إلى مكانه لا لعزه بل لهوانه، فإنه لا مصاب عندهم أعظم من استيلائنا عليه، وامتداد أيدينا إليه، وقد بذل فيه الروم ثم الكُرْج(١) بذولاً، وأنفذوا بعد رسول رسولاً، فما وجدوا قَبولاً.

فصل فيما جرى بعد انفصال أمر عكا

قال العماد:

ثم إن الفرنج رحلت صوب عسقلان مستهل شعبان، وسار السلطان والمسلمون يخطفونهم ويقتلون منهم ويأسرون، ويجرحون ويسلبون ويسرقون، وكل أسير أُتي به السلطان أمر بقتله، ووصلوا إلى حيفا فأقاموا بها.

قال العماد:

ورحل السلطان ونزل بظاهر عسقلان بعد العصر، وشرع فيما عزم عليه من الأمر، وكان لما نزل بالرملة أحضر عنده أخاه العادل وأكابر الأمراء وشاور في أمر عسقلان ذوي الآراء، فأشار علم الدين بن سليمان بن جندر بخرابها، للعجز عن حفظها على ما بها، ووافقه الجماعة، وقالوا: قد ضاق عن صونها الاستطاعة، فإن هذه يافا قد نزلوا بها وسكنوا فيها، وهي مدينة بين القدس وعسقلان متوسطة، ولا سبيل إلى حفظ المدينتين فاعمد إلى أشرف الموضعين فحصنه وحكمه فاقتضت الآراء إقامة

---

(١) قوم من النصارى كانت لهم مملكة بالجبال عاصمتها تَفْليس، وهي في جورجيا اليوم، وانظر «معجم البلدان»: ٤/٤٤٦.

العادل بقرب يافا مع عشرة من الأمراء حتى إذا تحرك العدوّ كانوا منه على علم.

قال القاضي:

أشار عليه بتخريب عسقلان خشية أن يستولي عليها الفرنج وهي عامرة فيتلفوا مَن بها من المسلمين، ويأخذوا بها القدس الشريف ويقطعوا طريق مصر، وخشي السلطان من ذلك، وعلم عجز المسلمين عن حفظها لقرب عهدهم من عكا وما جرى على مَن كان مقيماً بها، فسار حتى أتى عسقلان وقد ضربت خيمته شماليها فبات هناك مهموماً بسبب خراب عسقلان وما نام تلك الليلة إلا قليلاً، ولقد دعاني إلى خدمته سحراً وكنت فارقته بعد مضي نصف الليل فحضرت، وبدأ بالحديث في معنى خرابها وأحضر ولده الأفضل وشاوره في ذلك وطال الحديث.

ولقد قال ـ رحمه الله ـ: والله لأن أفقد أولادي بأسرهم أحب إليّ من أن أهدم منها حجراً واحداً، ولكن إذا قضى الله بذلك وعينه لحفظ مصلحة المسلمين طريقاً فكيف أصنع، قال: ثم استخار الله فأوقع في نفسه أن المصلحة في خرابها، فاستحضر الوالي وأمره بذلك في تاسع عشر شعبان، ولقد رأيته وقد اجتاز بالسوق والوطاق(١) بنفسه يستنفر الناس للخراب، وقسم السور على الناس، ودخل الناس إلى البلد ووقع فيه الضجيج والبكاء وكان بلداً نضراً خفيفاً على القلب، محكم الأسوار عظيم البناء مرغوباً في سكناه، فلحق الناسَ عليه حزن عظيم، وكان هو بنفسه وولده الأفضل يستعملان الناس في الخراب خشية أن يسمع العدوّ فيحضر ولا يمكن من خرابها.

وأباح الناسَ الهُرْيَ(٢) الذي كان ذخيرة في البلد للعجز عن نقله

---

(١) الوِطاق هنا المعسكر من الخيام: انظر «تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل»: ١٩٨.

(٢) مكان لحفظ الحبوب: وانظر «لسان العرب»: هرى.

وضيق الوقت والخوف من هجوم الفرنج، وأمر بحريق البلد فأضرمت النار فيه، والأخبار تتواتر من جانب العدوّ بعمارة يافا، وخرب من سور عسقلان معظمه وكان عظيم البناء بحيث إنه كان في موضع تسع أذرع وفي موضع عشراً، وذكر بعض الحجّارين للسلطان وأنا حاضر أن عرض البرج الذي ينقبون فيه مقدار رمح، فلم يزل الخراب والحريق يعملان في البلد وأسواره إلى سلخ شعبان، وعند ذلك وصل من جُرْديك كتاب يذكر فيه أن القوم قد تفسحوا وصاروا يخرجون من يافا يغيرون على البلاد القريبة منها، فلو تحرك السلطان لعله يبلغ منهم غرضاً في غرتهم، فعزم على الرحيل وعلى أن يخلف في عسقلان حجارين ومعهم خيل تحميهم يستقصون في الخراب، ثم رأى أن يتأخر بحيث يحرق البرج المعروف بالاسبتار وكان برجاً عظيماً مشرفاً على البحر كالقلعة المنيعة، ولقد دخلته وطفته فرأيت بناءه أحكم بناء لا تعمل فيه المعاول، وإنما أحرق ليبقى بالحريق قابلاً للخراب، وبقيت النار تُشعل فيه يومين بليلتيهما.

قال العماد:

ونُقض منها الأبراج التي على ساحل البحر، ودخلتها فرأيتها أحسن مدينة، منيعة حصينة، فطال بكائي على رسومها، وقبض أرواحها من جسومها، وحلول الدوائر بدورها، ونزول السوء بسورها، فما برح السلطان منها حتى رأينا طلولها دوارس(١)، ورسومها طوامس، والرؤوس حياءً من معاهدها نواكس.

قال: ولو حُفظت لكان حفظها متعيناً، وصونها ممكناً، لكن وجد(٢) كُلاً له متجنباً مُتجبناً، وقد راعتهم نوبة عكا وحفظها ثلاث سنين، وعادت بعد ذلك بمضرة المسلمين، فحينئذ لم يجد بداً من نقض أسوارها، وسكانها كانوا في رفاهية فانتقلوا عنها على كراهية.

---

(١) أي بالية.

(٢) أي السلطان.

فصل فيما جرى بعد خراب عسقلان

وقال ابن شدّاد:

ثم بعث ملك الإنكلتيرة راغباً في المصالحة والمسالمة إلى العادل، وزعم أن له أختاً عزيزة عليه كبيرة القدر، وأنها كانت زوجة ملك كبير من ملوكهم وهو صاحب صقلية توفي عنها، ورغب أن يتزوّجها العادل(١)، ويجعل له الحكم على بلاد الساحل ينفذ فيها أمره، وهو يقطع الداوية والإسبتار من البلاد والقرى دون الحصون، وتكون أخته مقيمة بالقدس ومعها فيه قسيسون ورهبان حافظة لها من آفة الزمان، فرأى العادل في ذلك عين الصواب، وشاور السلطان فوافقه فيما أجاب، فنفَّذ الرسول إلى الإنكلتيري بالإجابة، فدخل الفرنج على المرأة وخوّفوها، واتهموها في دينها وعنفوها، وقالوا لها ما معناه: هذه فضيحة فظيعة، وسُبة شنيعة، وقطع على النصرانية وقطيعة، وأنت عاصية للمسيح لا مطيعة، فرجعت عن ذلك وما أجابت، فاعتذر الإنكلتيري بعدم موافقتها إلا أن يدخل العادل في دينها، فعرف أنها خديعة كانت من الإنكلتيري.

قال القاضي:

ووصل رسول من المركيس يذكر أنه يصالح الإسلام بشرط أن يُعطى صيدا وبيروت على أن يجاهر الفرنج بالعداوة، ويقصد عكا ويحاصرها ويأخذها منهم، فأجيب إلى ذلك على أن يطلق من بها وبصور من الأسارى، ولما سمع الإنكلتيري بذلك رجع إلى عكا لفسخ هذه المصالحة واسترجاع المركيس إليه.

قال القاضي:

[٤٩١] وأرسل الإنكلتيري إلى السلطان أن المسلمين والفرنج قد هلكوا، وخربت البلاد وتلفت الأموال والأرواح، وقد أخذ هذا الأمر حقه،

---

(١) أخو السلطان صلاح الدين.

وليس هناك حديث سوى القدس والصليب والبلاد، والقدس متعبدنا ما ننزل عنه ولو لم يبق منا واحد، وأما البلاد فيعاد إلينا ما هو قاطع الأردن، وأما الصليب فهو خشبة عندكم لا مقدار له وهو عندنا عظيم فيمنّ به السلطان علينا ونستريح من هذا العناء الدائم.

فأرسل السلطان في جوابه: القدس لنا كما هو لكم، وهو عندنا أعظم مما هو عندكم، فإنه مسرى نبينا ومجتمع الملائكة، فلا يُتصور أن ننزل عنه ولا نقدر على التلفظ بذلك بين المسلمين، وأما البلاد فهي أيضاً لنا في الأصل واستيلاؤكم كان طارئاً عليها لضعف مَن كان بها من المسلمين ذلك الوقت، وأما الصليب فهلاكه عندنا قربة عظيمة لا يجوز أن نفرط فيه إلا لمصلحة راجعة إلى الإسلام هي أوفى منها.

القدس
البلاد
الصلي

ثم تواتر الخبر أن الفرنج على عزم النهوض، فسار السلطان من المخيم بالنطرون إلى الرملة سابع شوال وأقام بها عشرين يوماً فجرت وقعات.

وفي ثامن عشر شوال اجتمع العادل والإنكلتيري على طعام ومحادثة، وانفصلا عن توادد ومطايبة، وطلب منه الاجتماع بخدمة السلطان فامتنع ـ رحمه الله ـ وقال: الملوك إذا اجتمعوا تقبح بينهم المخاصمة بعد ذلك، وإذا انتظم أمرٌ حسن الاجتماع، ورحل الفرنج ثالث ذي القعدة إلى الرملة، وأظهروا قصد القدس بتلك الرّحلة، ودامت الوقعات بين المسلمين وبينهم، ورحل السلطان إلى القدس بنية المقام في الثالث والعشرين من ذي القعدة، وكان الشتاء قد دخل، والغيث قد اتصل.

[٤٩٢] وفي ثالث ذي الحجة وصل من المَوْصل خمسون رجلاً برسم قطع الصخور من الخندق، فإن السلطان شرع في تحصين القدس وعمارة أبراجه وأسواره وحفر خنادقه، وأرسل إلى البلاد في جمع رجال هذه الأعمال، وتقبل الأمراء فيه العمل، وعمل فيه السلطان بنفسه بنقل الحجارة هو وأولاده وأمراؤه وأجناده ومعهم القضاة والعلماء والولاة والأمراء.

ثم دخلت سنة ثمان وثمانين وخمسمائة

قال العماد:

وفي ثالث عشر ربيع الآخر قتل المركيس ـ لعنه الله ـ بصور وذلك أن رجلين دخلا صور وتنصرا، وأظهرا الترهب والتعبد، ولزما الكنيسة وشكرهما الأقسّاء والرهبان، وأحبهما المركيس ولم يكن يصبر عنهما.

ففي بعض الأيام وثبا عليه وقتلاه فأخذا وقتلا وعُرف أنهما كانا من الحشيشية(١)، فجلس مكانه الكندهري(٢) بأمر الإنكلتيري، وسُر الإنكلتيري بمصاب المركيس فإنه كان يضاده ويراسل السلطان في الإعانة عليه، فلما قتل سكن روعه وذهب عنه ضره، وتزوج الكندهري بالملكة زوجة المركيس في ليلته ودخل بها وهي حامل، وما الحمل في ملة الفرنج عن النكاح حائل، ويكون الولد منسوباً إلى الملكة زوجة المركيس، هذه قاعدة هذه الطائفة المشركة، وهذا الكندهري ابن أخت ملك إفرنسيس من أبيه وملك إنكلتيرة من أمه، ودخل الفرنج في حكمه، وعاش إلى آخر سنة أربع وتسعين وتولاهم دون سبع سنين.

وقال العماد:

أضافه الأسقف(٣) بصور فاستوفى رزقه وتعدى، وما درى أنه يتردّى، وأكل وشرب، وشبع وطرب، وخرج وركب، فوثب عليه رجلان، وسكّنا حركته بالسكاكين، ودكاه عند تلك الدكاكين، وهرب أحدهما ودخل الكنيسة، وقد أخرج تلك النفس الخسيسة، فقال المركيس وهو مجروح وفيه روح: احملوني إلى الكنيسة فحملوه، فلما أبصره أحد الجارحين وثب إليه وزاده جرحاً على جرح، وقرحاً على قرح، فأخذ الفرنج الرفيقين

---

(١) أي الباطنية.

(٢) هو الملك.

(٣) أي أضاف الأسقف المركيس.

فألفوهما من الإسماعيلية مرتدين، فسألوهما من وضعهما على تدبير هذا التدمير؟ فقالا: ملك الإنكلتيرة، فقُتلا شرَّ قتلة، فيالله من كافرين سفكا دمَ كافر، وفاجرين فتكا بفاجر، قال: ولم يعجبنا قتل المركيس في هذه الحالة وإن كان من طواغيت الضلالة لأنه كان عدوَّ ملك الإنكلتيرة ومنازعه على الملك والسرير، ومناقشه على القليل والكثير.

قال: وفي تاسع جمادى الأولى استولى الفرنج على قلعة الداروم ثم خربوها، ورحلوا عنها وأسروا مَن فيها، ثم نزلوا تل الصافية، ثم إلى النطرون، ثم إلى بيت نوبة، وهي بين جبال، بينها وبين القدس مرحلة، وقد ألهبهم المسلمون بنهبهم وأضعفوهم بسلبهم، يتسلطون عليهم من كل ناحية، ويكمنون لهم تحت كل رابية، وقد قويت قلوبهم بثبات السلطان بالقدس.

وفي انسلاخ الشهر التقى الجمعان وقد وصل العدوّ إلى قلونية وهي من القدس على فرسخين، فلما رأى العدوّ ما لا يدان له به رجع ناكصاً على عقبيه والمسلمون في أثرهم يكمنون لهم وينالون منهم.

قال العماد:

وجرى هذا كله والملكان العادل والأفضل غائبان، وعساكر الموصل وسنجار وديار بكر متباطئة في الإتيان، وسببه ما كان من تقي الدين وموته وتشرط ولده في بقاء بلاد أبيه عليه.

[٤٩٣] فصل في عزم الفرنج على قصد القدس وسببه

قال القاضي ابن شدّاد:

وكان تقدم السلطان إلى عسكر مصر بالمسير، وأوصاهم بالاحتراز عند مقاربة العدوّ، فأقاموا بنابلس أياماً حتى اجتمعت القوافل إليهم واتصل خبرهم بالعدوّ، ثم ساروا طالبي البلاد والعدوّ يترقب أخبارهم ويتوصل إليهم بالعرب المفسدين. ولما تحقق العدوّ أمْرَ القَفَل(١) أمر عسكره

---

(١) هي القافلة العائدة، كما مرّ.

بالانحياز إلى سفح الجبل وركب في ألف راكب مردفين ألف راجل، فأنفذ السلطان إلى القافلة نذره بنهوض العدوّ وأمرهم أن يُبعدوا في البرية.

وركب الإنكلتيري الملعون مع العرب بجمع يسير، وسار حتى أتى القفل وطاف حوله في صورة عربي ورآهم ساكنين قد غشيهم النعاس فعاد واستركب عسكره وكانت الكبسة قريبة الصباح، فبعث الناسَ ووقع عليهم بخيله ورَجْله، فكان الشجاع الأيّد القيم الذي ركب فرسه ونجا بنفسه.

وانقسم القفل ثلاثة أقسام: قسم قصدوا الكَرَك مع جماعة من العرب، وقسم أوغلوا في البرية مع جماعة من العرب، وقسم استولى العدوّ عليهم فساقهم بجمالهم وأحمالهم وجميع ما معهم، وكانت وقعة شنعاء لم يصب الإسلام بمثلها من مدّة مديدة، وتبدّد الناس في البرية ورموا أموالهم، وكان السعيد منهم من نجا بنفسه، وجمع العدوّ ما أمكنه جمعه من الخيل والبغال والأقمشة وسائر أنواع الأموال، وسار يطلب عسكره.

ولقد حَكى من كان أسيراً معهم أنه في تلك الليلة وقع فيهم الصوت أن العسكر السلطاني قد لحقهم فتركوا الغنيمة وانهزموا وبعدوا عنها زماناً، ثم انكشف الأمر فعادوا وقد هرب جمع من الأسرى، وكان الحاكي منهم وأخبر أن الأسارى خمسمائة، والجمال تناهز ثلاثة آلاف جمل.

ووصل العدوّ إلى مخيمه سادس عشر جمادى الآخرة وكان يوماً عظيماً عندهم، وصح عزمهم على القدس وقويت نفوسهم بما حصلوا عليه من الأموال والجمال التي تثقل الميرة والأزواد، وأنفذوا الكندهري إلى صور وأطرابلس وعكا يستحضر مَن فيها من المقاتلة ليصعدوا إلى القدس - حرسه الله تعالى - ولما عرف السلطان ذلك منهم عمد إلى الأسوار فقسمها على الأمراء، وتقدم إليهم بتهيئة أسباب الحصار، وأخذ في إفساد المياه ظاهر القدس بحيث لم يبقَ حول القدس ماء يشرب أصلاً، وأرض القدس لا يُطمع في حفر بئر فيها لأنها جبل عظيم وحجر صلب، وسير إلى العساكر يطلبها من الجوانب والبلاد.

[٤٩٤] قال: ولما كان ليلة الخميس تاسع عشر جمادى الآخرة أحضر السلطان الأمراء عنده، فحضر الأمير أبو الهيجاء السمين بمشقة عظيمة وجلس على كرسي في خدمة السلطان، وحضر المشطوب والأسدية بأسرهم وجماعة الأمراء، ثم أمرني أن أكلمهم وأحثهم على الجهاد، فذكرت ما يسّر الله من ذلك.

وكان مما قلته: إن النبي ﷺ لما اشتدّ به الأمر بايعه الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ على الموت في لقاء العدوّ، ونحن أولى من تأسى به ﷺ، والمصلحة الاجتماع عند الصخرة والتحالف على الموت، فلعل ببركة هذه النية يندفع هذا العدوّ فاستحسن الجماعة ذلك ووافقوا عليه.

ثم شرع السلطان بعد أن سكت زماناً والناس سكوت كأن على رؤوسهم الطير، ثم شرع وقال: الحمد لله والصلاة على رسول الله: اعلموا أنكم جند الإسلام اليوم ومَنَعَتُه، وأنتم تعلمون أن دماء المسلمين وأموالهم وذراريهم معلقة في ذممكم، وأن هذا العدوّ ليس له من المسلمين من يلقاه إلا أنتم، فإن لويتم أعنتكم ـ والعياذ بالله ـ طوى البلاد كطي السجل للكتاب، وكان ذلك في ذمتكم فإنكم أنتم الذين تصديتم لهذا كله، وأكلتم مال بيت مال المسلمين، فالمسلمون في سائر البلاد متعلقون بكم والسلام.

فانتدب لجوابه سيف الدين المشطوب وقال: يا مولانا، نحن مماليكك وعبيدك، وأنت الذي أنعمت علينا وكبرتنا، وعظمتنا وأعطيتنا وأغنيتنا، وليس لنا إلا رقابنا وهي بين يديك، والله ما يرجع أحد منا عن نصرتك إلى أن يموت، فقال الجماعة مثل ما قال، وانبسطت نفس السلطان بذلك المجلس وطاب قلبه، وأطعمهم ثم انصرفوا.

ثم انقضى يوم الخميس على أشد حال في التأهب والاهتمام، حتى إذا كان العشاء الآخرة اجتمعنا في خدمته على العادة وسمرنا حتى مضى هزيع من الليل وهو غير منبسط على عادته، ثم صلينا العشاء وكانت الصلاة

هي الدستور العام(١)، فصلينا وأخذنا في الانصراف، فدعاني ـ رحمه الله ـ وقال: أعَلمت ما الذي تجدد؟ قلت: لا، قال: إن أبا الهيجاء السمين أنفذ إليّ اليوم وقال: إنه اجتمع عندي جماعة المماليك الأمراء وأنكروا علينا موافقتنا لك على الحصار والتأهب له، وقالوا: لا مصلحة في ذلك فإنا نخاف أن نُحصر ويجري علينا مثل ما جرى على أهل عكا، وعند ذلك تؤخذ بلاد الإسلام جمعاً، والرأي أن نلقى مصاف(٢)، فإن قدَّر الله أن نهزمهم ملكنا بقية بلادهم، وإن تكن الأخرى سَلِم العسكر ومضى [إلى] القدس وقد انحفظت بلاد الإسلام بعساكرها، وكان ـ رحمه الله ـ عنده من القدس أمر عظيم لا تحمله الجبال، فشق عليه هذه الرسالة، وأقمت تلك الليلة في خدمته حتى الصباح وهي من الليالي التي أحياها في سبيل الله ـ رحمه الله ـ.

وكان مما قالوه في الرسالة: إنك إن أردتنا نقيم فتكون معنا أو بعض أهلك، وإلا فالأكراد لا يدينون للأتراك، والأتراك لا يدينون للأكراد، وانفصل الحال على أن يقيم من أهله مجد الدين بن فَرُّخشاه صاحب بعلبك.

[٤٩٥] وكان ـ رحمه الله ـ يحدِّث نفسه بالمقام ثم منعه رأيه عنه لما فيه من خطر الإسلام، فلما قارب الصبح أشفقتُ عليه وخاطبته في أن يستريح ساعة لعل العين تأخذ حظها من النوم وانصرفت عنه إلى داري فما وصلت إلا والمؤذن قد أذن، فأخذت في أسباب الوضوء فما فرغت إلا والصبح قد طلع، وكنت أصلي الصبح معه في غالب الأحوال فعدت إلى خدمته وهو يجدد الوضوء فصلينا، ثم قلت له: قد وقع لي واقع أعرضه، فأذن لي فيه.

فقلت: المولى في اهتمامه وما قد حمل نفسه من هذا الأمر مجتهد

---

(١) أي الإذن بالانصراف.

(٢) أي نخرج إلى العدو لنصافقهم في معركة.

فيما هو فيه، وقد عجزت أسبابه الأرضية فينبغي أن يرجع إلى الله ـ تعالى ـ وهذا يوم الجمعة وهو أبرك أيام الأسبوع، وفيه دعوة مستجابة في صحيح الأحاديث، ونحن في أبرك موضع يُقدر أن يكون فيه في يومنا هذا، فالسلطان يغتسل للجمعة ويتصدق بشيء خفية بحيث لا يُشعر أنه منك، وتصلي بين الأذان والإقامة ركعتين تناجي فيهما ربك، وتفوّض مقاليد أمورك إليه، وتعترف بعجزك عما تصديت له فلعل الله يرحمك ويستجيب دعاك.

قال: وكان ـ رحمه الله ـ حسن العقيدة، تام الإيمان، يتلقى الأمور الشرعية بأكمل انقياد وقَبول، ثم انفصلنا فلما كان وقت الجمعة صليت إلى جانبه في الأقصى وصلى ركعتين ورأيته ساجداً وهو يذكر كلمات ودموعه تتقاطر على مصلاه ـ رحمه الله ـ.

ثم انقضت الجمعة بخير، فلما كان عشيتها ونحن في خدمته على العادة وصلت رقعة جُرْديك وكان في اليَزَك[1] يقول فيها: إن القوم ركبوا بأسرهم، ووقفوا في البر على ظهر ثم عادوا إلى خيامهم، وقد سيرنا جواسيس تكشف أخبارهم.

ولما كان صبيحة السبت وصلت رقعة أخرى يخبر فيها أن الجواسيس رجعوا وأخبروا أن القوم اختلفوا في الصعود إلى القدس والرحيل إلى بلادهم فذهب الفرنسيسية إلى الصعود إلى القدس، وقالوا: نحن إنما جئنا من بلادنا بسبب القدس، ولا نرجع دونه، وقال الإنكلتيري: إن هذا الموضع قد أفسدت مياهه، ولم يبق حوله ماء أصلاً، فمن أين نشرب؟

قالوا له: نشرب من نهر نقوع، وبينه وبين القدس مقدار فرسخ،

---

(١) أي في طليعة الجيش.

فقال: كيف نذهب إلى السقي؟ فقالوا: ننقسم قسمين قسم يذهب إلى السقي مع الدواب، وقسم يبقى على البلد في اليزك، ويكون الشرب في اليوم مرة، فقال الإنكلتيري: إذاً يؤخذ العسكر البراني الذي يذهب مع الدواب ويخرج عسكر البلد على الباقين ويذهب دين النصرانية، فانفصل الحال على أنهم حكَّموا ثلاثمائة من أعيانهم، وحكم الثلاثمائة اثني عشر من أعيانهم، وحكم الاثنا عشر ثلاثة منهم وقد باتوا على حكم الثلاثة فما يأمرونهم به يُفعل.

فلما أصبحوا حكموا عليهم بالرحيل، فلم تمكن المخالفة، وأصبحوا في بكرة الحادي والعشرين من جمادى الآخرة راحلين إلى نحو الرملة ناكصين على أعقابهم ـ ولله الحمد ـ ووقف عسكرهم إلى أن لم يبقَ في المنزلة إلا الآثار، ثم نزلوا بالرملة وتواتر الخبر بذلك، فركب السلطان ـ قدّس الله روحه ـ وركب الناس، وكان سرور وفرح.

[٤٩٦] فصل في تردد رسل الإنكلتيري في معنى الصلح وما جرى في أثناء ذلك إلى أن تم ولله الحمد

وقد ساق ذلك القاضي ابن شدّاد أحسن سياق واستقصى الأمر فيه بخلاف العماد فقال:

إن الإنكلتيري جاء منه رسول يقول: قد هلكنا نحن وأنتم، والأصلح حقن الدماء، ولا ينبغي أن يُعتقد أن ذلك عن ضعف مني بل للمصلحة، ولا تغتر بتأخيري عن منزلي فالكبش يتأخر لينطح.

ثم جاء رسوله يقول: لا يجوز لك أن تهلك المسلمين كلهم، ولا يجوز لي أن أهلك الفرنج كلهم، وهذا ابن أختي الكندهري قد ملكته هذه الديار وسلمته إليك يكون هو وعسكره بحكمك، ولو استدعيتهم إلى الشرق سمعوا وأطاعوا، وإن جماعة من الرهبان والمنقطعين قد طلبوا منك كنائس فما بخلت عليهم بها، وأنا أطلب منك كنيسة، وتلك الأمور التي كانت

تضيق صدرك(١) لما كانت تجري المراسلة مع الملك العادل قد قلت بتركها وأعرضت عنها، ولو أعطيتني مقرعة أو قربة قبلتها وقبّلتها.

فاستشار السلطان الأمراء في جوابه فأشاروا بالمحاسنة وعقد الصلح لما كان قد أخذ المسلمين من الضجر والتعب، وعلاهم من الديون، واستقرَ الحال على هذا الجواب: إنك إذا دخلت معنا هذا الدخول فما جزاء الإحسان إلا الإحسان، ابن أختك يكون عندي كبعض أولادي، وسيبلغك ما أفعل في حقه من الخير، وأنا أعطيك أكبر الكنائس وهي القمامة وبقية البلاد نقسمها، والساحلية التي بيدك تكون بيدك، والتي بأيدينا من القلاع الجبلية تكون لنا، وما بين العملين(٢) يكون مناصفة، وعسقلان وما وراءها تكون خراباً لا لنا ولا لكم، وإن أردتم قراها كانت لكم، والذي كنت أكرهه حديث عسقلان.

فانفصل الرسول طيب القلب، واتصل الخبر أنهم بعد وصول الرسول إليهم راحلون إلى جهة عسقلان طالبون جهة مصر.

ووصل رسول من جانب قطب الدين بن قليج أرسلان يقول: إن البابا قد وصل إلى قسطنطينية في خلق لا يعلم عددهم إلا الله ـ تعالى ـ وقال الرسول: إني قتلت في الطريق اثني عشر فرساً(٣)، ويقول: تقدم إليّ من يتسلم بلادي مني فإني قد عجزت عن حفظها، فلم يصدّق السلطان هذا الخبر ولا اكترث به.

ثم جاء رسول الإنكلتيري يطلب أن يكون في قلعة القدس عشرون نفراً، وأنَّ من سكن من النصارى الفرنج في البلد لا يتعرض لهم، وأما بقية البلاد فلنا منها الساحليات والوطأة(٤)، والبلاد الجبلية لكم، وأخبر

---

(١) أي ما طلبوه من أخذ القدس، وجزء من بلاد الشام، وصليب الصلبوت.

(٢) أي ما بين البلاد الساحلية والجبلية.

(٣) أي لشدة سرعته واهتمامه بتوصيل الرسالة.

(٤) أي البلاد الممهدة المنخفضة.

الرسول من عند نفسه مناصحة أنهم قد نزلوا عن حديث القدس ما عدا الزيارة، وأنهم يقولون هذا تصنعاً، وأنهم راغبون في الصلح، وأن ملك إنكلتيرة لا بد له من الرواح إلى بلده، فأجب بأن القدس ليس لكم فيه حديث سوى الزيارة، فقال الرسول: وليس على الزوّار شيء يؤخذ منهم، فعلم من هذا القول الموافقة.

وأما البلاد فعسقلان وما وراءها لا بد من خرابه، فقال الرسول: قد خسر الملك على سورها مالاً جزيلاً، فسأل المشطوب أن يجعل مزارعها وقراها له في مقابلة خسارته فأجاب السلطان، وأن الداروم وغيره يخرب وَيكون بلدها مناصفة، وأما باقي البلاد فيكون لهم من يافا إلى صور بأعمالها، ومهما اختلفنا في قرية كانت مناصفة.

ثم جاء الرسول يقول: الملك يسألك ويخضع لك في أن تترك له هذه الأماكن الثلاثة عامرة، وأي قدر لها عند ملكك وعظمتك، وما سبب إصراره عليها إلا أن الفرنج لم يسمحوا بها، وهو قد ترك القدس بالكلية لا يطلب أن يكون فيه لا رهبان ولا قسوس إلا في القمامة وحدها فتترك له أنت هذه البلاد، ويكون الصلح عاماً فيكون لهم كل ما في أيديهم من الداروم إلى أنطاكية، ولكم ما في أيديكم وينتظم الحال ويروح، وإن لم ينتظم الصلح فالفرنج ما يمكنونه من الرواح، ولا يمكنه مخالفته.

قال القاضي: فانظر إلى هذه الصناعة في استخلاص الغرض باللين تارة وبالخشونة أخرى، وكان ـ لعنه الله ـ مضطراً إلى الرواح، وهذا عمله مع اضطراره، والله المسؤول في أن يكفي المسلمين مكرَه فما بُلوا بأعظمَ حيلة ولا أشدّ إقداماً منه.

قال العماد:

وعقدت هدنة عامة في البر والبحر والسهل والوعر، وجُعل لهم من يافا إلى قيسارية إلى عكا إلى صور، وأدخلوا في الصلح أطرابلس وإنطاكية،

ووقعت المصالحة مدة ثلاث سنين وثلاثة أشهر أولها مبتدأ أيلول(١) الموافق للحادي والعشرين من شعبان، قال: وكان الفرنج قد ملؤوا يافا من الرجال والأسلحة والأقوات ليتقووا بها على فتح القدس لتكون لهم ظهراً وعوناً لقربها من البيت المقدس.

[٤٩٧] قلت: ومن الألفاظ الفاضلية(٢):

«وقد فعلت الأقدار في رياضة عرائكهم ما كان سببه هذه الحركات المباركة، وكيف تشنع ملك إنكلتيرة بالغدر وهو ـ لعنه الله ـ قد أتى بأقبح الغدر وأفحشه في أهل عكا نهاراً جهاراً، وشهد فيها بخزيه وفضيحته المسلمون والنصارى، وغدر الفرنج معلوم:

إذا غدرت حسناء أَوفت بعهدها ... ومن عهدها أن لا يدوم لها عهد

القوم هادنوا لما ضعفوا، ويفسخون إذا قووا، ونحن ننتظر في ملك إنكلتيرة ما تفصح عنه المقادير في أمره، إما الهلاك ولا بأس بها فيلقى الأحبة المركيس والدوك وملك الألمان، ويُؤنس في النار غربتهم، ويكثر عدتهم، وإما أن يُعافى فهو بين أمرين إما أن يرجع إلى لعنة الله وإلى مروءة البحر في تغريقه، وإما أن يقيم فهنالك قد أبدى الشر ناجذَيه، ونكص الملعون من الوفاء على عقبيه، وانتظر الفرصة لينتهز، والعورة ليثب».

فصل فيما جرى بعد الهدنة

قال القاضي:

أمر السلطان أن يُنادى في الأسواق ألا إن الصلح قد انتظم، فمن شاء من بلادهم يدخل بلادنا فليفعل، ومن شاء من بلادنا يدخل إلى بلادهم فليفعل، وأشاع ـ رحمه الله ـ أن طريق الحج قد فُتح من الشام ووقع له

---

(١) أي سبتمبر.

(٢) أي من رسائل القاضي الفاضل.

عزم الحج في ذلك المجلس، وكنت حاضر ذلك جميعه، وكان يوم الصلح يوماً مشهوداً، غشي الناس من الطائفتين من الفرح والسرور ما لا يعلمه إلا الله ـ تعالى ـ.

[٤٩٨] والله العالم أن الصلح لم يكن من إيثاره فإنه قال لي في بعض محاوراته في الصلح: أخاف أن أصالح وما أدري إيش يكون مني فيقوى هذا العدوّ وقد بقي لهم هذه البلاد فيخرجون لاستعادة بقية بلادهم، وترى كل واحد من هؤلاء الجماعة قد قعد في رأس حصنه وقال: لا أنزل، ويهلك المسلمون، فهذا كلامه، وكان كما قال رحمه الله لكنه رأى المصلحة في الصلح لسأم العسكر ومجاهرتهم بالمخالفة، وكان ذلك مصلحة علمها الله ـ تعالى ـ فإنه اتفقت وفاته بُعَيد الصلح، ولو كان اتفق ذلك في أثناء الوقعات لكان الإسلام على خطر، فما كان الصلح إلا توفيقاً وسعادة من الله، رحمة الله عليه.

ورحل السلطان إلى النَطَرون واختلط العسكران، وذهب جماعة من المسلمين إلى يافا في طلب التجارة، ووصل خلق عظيم من العدوّ إلى القدس للحج، وفتح لهم السلطان الباب في ذلك ونفذ معهم الخُفراء يحفظونهم حتى يردّوهم إلى يافا، وكان غرض السلطان بذلك أن يقضوا وطرهم من الزيارة ويرجعوا إلى بلادهم فيأمن المسلمون شرهم.

ولما علم الملك كثرة من يزور منهم صعب عليه ذلك وسير إلى السلطان يسأله منع الزوّار، واقترح أن لا يأذن لأحد إلا بعد حضور علامة من جانبه أو بكتابه، وعلمت الفرنجية ذلك فعظم عليها واهتموا في الحج، فكان يرد في كل يوم منهم جموع كثيرة مقدمون وأوساط وملوك متنكرون.

وشرع السلطان في إكرام من يرد، ومدّ الطعام لهم ومباسطتهم ومحادثتهم، وعرفهم إنكار الملك ذلك وأذن لهم السلطان في الحج وعرفهم أنه لم يلتفت إلى منع الملك من ذلك، واعتذر إلى الملك بأن قوماً قد وصلوا من ذلك البعد ويسر لهم زيارة هذا المكان الشريف لا

أستحل منعهم، ثم اشتدّ المرض بالملك فرحل ليلة الأربعاء التاسع والعشرين من شعبان، وقيل إنه مات، وسار هو والكندهري وسائر المقدّمين إلى جانب عكا ولم يبق في يافا إلا مريض أو عاجز ونفر يسير، ثم أعطى السلطان للناس دستوراً فسار عسكر أربل والموصل وسنجار والحصن.

[٤٩٩] وأشاع ـ رحمه الله ـ أمر الحج وقوّى عزمه على براءة الذمة منه.

قال القاضي: وكان هذا مما وقع لي، وبدأت بالإشارة به في يوم تتمة الصلح، ووقع منه ـ رحمة الله عليه ـ موقعاً عظيماً وأمر الديوان أن كل مَن عزم على الحج من العسكر يثبت اسمه حتى يحصى عدّة مَن يدخل معنا الطريق، وكتب جرائد[1] بما يحتاج إليه في الطريق من الخِلَع والأزواد وغير ذلك، وسيَّرها إلى البلاد ليعدّوها.

[٥٠٠] قلت: ولما بلغ القاضي الفاضل من قبل السلطان أنه عازم على الحج كتب إليه مشيراً بتبطيله:

«إن الفِرَنج لم يخرجوا بعد من الشام، ولا سَلوْا عن القدس، ولا وُثق بعهدهم في الصلح، فلا يؤمن مع بقاء الفِرَنج على حالهم وافتراق عسكرنا، وسفر سلاطيننا سفراً مقدراً معلوماً مدة الغيبة فيه أن يَسْروا ليلة فيصبِّحوا القدس على غفلة، فيدخلوا إليه والعياذ بالله، ويَفْرط منٍ يد الإسلام، ويصير الحج كبيرة من الكبائر التي لا تغفر ومن العثرات التي لا تقال».

ثم قال: «وحاج العراق وخراسان أليس هم مائتي ألف وثلاثمائة ألف أو أكثر، هل يُؤمَن أن يقال: قد سار السلطان لطلب ثأر، وسفك دم، وتشويش موسم؟ فاقعدوا وإلا فيكون تاريخَ سوء أعوذ بالله منه، ما هذه الشناعة ممتنعة الوقوع ولا مستبعدة من العقول السخيفة، فينعم المولى بتأملِ

---

(١) أي قوائم.

ما أنهاه المملوك مستوراً فإنه يسأل مولانا أن لا يشارك أحداً فيما يكتبه لا من مهم ولا من غير مهم، يا مولانا: مظالم الخلق كشفها أهم من كل ما يتقرب به إلى الله، وما هي بواحدة: في أعمال دمشق من المظالم من الفلاحين ما يُستغرب معه وقوع القَطْر(١)، وفي وادي بردى والزبداني من الفتنة القائمة والسيف الذي يقطر دماً ما لا زاجر له، وللمسلمين ثغور تريد التحصين والذخيرة، ومن المهمات إقامة وجوه الدخل وتقدير الخرج بحسبها، فمن المستحيل نفقة من غير حاصل، وفرع من غير أصل، وهذا أمر قد تقدم فيه حديث كثير، وعرضت للمولى شواغل دونه، ومشت الأحوال مشياً على ظِلَع(٢)، فلما خلت النُوَب(٣) ـ أعوذ بالله من عودها ـ كان خلو بيت المال أشدّ ما في الشدّة»(٤).

قلت: ولم يزل البيت المقدس ـ شرَّفه الله تعالى ـ ملحوظاً بالعمارة والتحصين من عهد السلطان ـ رحمه الله ـ إلى سنة ست عشرة وستمائة فإنه خرب في المحرم منها بسبب خروج الفرنج ـ لعنهم الله ـ وانتشارهم في البلاد، فخيف من استيلائهم عليه، وفي السنة التي قبلها توفي الملك العادل أبو بكر بن أيوب أخو السلطان، وتشتت الناس بعد خرابه، ورغبوا عن السكنى به.

وفي هذه السنة التي توفي فيها العادل قبل التي خرب فيها القدس هي السنة التي نزل فيها الفرنج ـ خذلهم الله ـ على ثغر دمياط، حرسه الله تعالى، وهي المرة الأولى في زماننا، وأقاموا عليه إلى أن استولوا بعد أن جرى لهم نحو مما جرى لهم على عكا، ثم أخذه المسلمون منهم وقتلوا وأسروا، ثم إن الفرنج استولوا عليه صلحاً في سنة خمس وعشرين وستمائة

---

(١) أي المطر.

(٢) أي على ميل: وانظر «لسان العرب»: ظلع.

(٣) أي لم يعد هناك تعد على البلاد وذلك بسبب وقوع الصلح.

(٤) تلك كانت نصيحة عظيمة من القاضي الفاضل تدل على تجربة وعقل.

وشرعوا في بناء طائفة منه، ثم أخرجوا منه عنوة مرتين، أخرجهم في إحدى المرتين الملك الناصر صلاح الدين داود بن المعظم شرف الدين عيسى بن العادل أبي بكر بن أيوب، وقال فيه حينئذ بعض شعراء العصر:

المسجد الأقصى له عادة سارت فصارت مثلاً سائرا
إذا غدا للكفر مستوطناً أن يبعث الله له ناصرا
فناصر طهره أوّلاً وناصر طهره آخرا

ثم استولى الفرنج أيضاً على طبرية وعسقلان، ثم أخذتا منهم عنوة في شهور سنة خمس وأربعين وستمائة في دولة الملك الصالح نجم الدين بن أيوب بن الملك الكامل ناصر الدين محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب، وقد استولوا أيضاً على الشُّقيف وصَفد، والله يسهل عودهما إلى أهل الإسلام، ويؤيد الدين الحنيفي على ممر الأيام(١).

فصل في مسير السلطان ــ رحمه الله ــ من القدس إلى دمشق

قال القاضي أبو المحاسن:

أقام السلطان بالقدس يُقطع الناس ويعطيهم دستوراً(٢)، ويتأهب للمسير إلى الدّيار المصرية، وانقطع تشوّفه إلى الحج، ولم يزل كذلك حتى صح عنده إقلاع مركب ملك الإنكلتيرة المخذول متوجهاً إلى بلاده في مستهل شوال، فعند ذلك حرّر السلطان عزمه على أن يدخل الساحل ويتفقد القلاع البحرية إلى بانياس، ويدخل دمشق يقيم بها أياماً قلائل، ويعود إلى القدس الشريف سائراً إلى الديار المصرية لتفقد أحوالها، وتقرير قواعدها والنظر في مصالحها.

---

(١) قد أخرج الصليبيون من بلاد الشام كلها بعد خروجهم من عكا سنة ٦٩٠ على يد الأشرف خليل، رحمه الله تعالى، وانظر «عيون الروضتين»: ٢/ ٢٥١ وما بعده.

(٢) أي إذناً بالرجوع إلى بلادهم.

قال: وأمرني بالمقام بالقدس إلى حين عوده لعمارة بيمارستان الشاه فيه، وإدارة المدرسة التي أنشأها فيه إلى حين عوده، وخرج من القدس، ثم ذكر إزالته للمظالم عن بلد نابلس.

قال: ولما وصل السلطان إلى بيروت وصل إلى خدمته البرنس صاحب أنطاكية مسترفداً فبالغ في إكرامه واحترامه ومباسطته، وأنعم عليه بالعمق(١) وأرزغان(٢) ومزارع تعمل خمسة عشر ألف دينار، ثم سار السلطان إلى دمشق بعد الفراغ من تصفح أحوال القلاع الساحلية بأسرها وإصلاح أجنادها وإشحانها بالرّجال، فدخل دمشق بكرة الأربعاء سادس عشري شوال وفيها أولاده الأفضل والظاهر والظافر وأولاده الصغار، وكان يحب البلد ويؤثر فيه الإقامة على سائر البلاد، وجلس للناس في بكرة الخميس، وحضر عنده الناس وبلوا شوقهم من رؤيته، وأنشده الشعراء وعم ذلك المجلس الخاص والعام، وأقام ينشر جناح عدله ويهطل سحاب إنعامه وفضله، ويكشف مظالم الرعايا في الأوقات المعتادة.

وكان العادل قد استأذن السلطان في أواخر رمضان في القدس بالمضي إلى الكرك لتفقدها فمضى، وأمر بإصلاح ما قصد إصلاحه، وعاد طالباً للمضي إلى البلاد الفراتية التي أعطاه السلطان إياها، فوصل دمشق سابع عشري ذي القعدة وخرج السلطان إلى لقائه وسارا جميعاً يتصيدان، وكان دخولهما إلى دمشق في الحادي والعشرين منه.

وأقام السلطان بدمشق يتصيد هو وأخوه وأولاده ويتفرّجون في أراضي دمشق ومواطن الصِّبى، وكأنه وجد به راحة مما كان فيه من ملازمة التعب والنصب وسهر الليل ونصب النهار، وما كان ذلك إلا كالوداع لأولاده ومرابع نزهه وهو لا يشعر ـ رحمة الله عليه ـ ووصلني كتابه إلى القدس يستدعيني إلى خدمته، وكان شتاء شديداً ووحلاً عظيماً.

---

(١)(٢) لم أستطع معرفة هذين المكانين.

ثم دخلت سنة تسع وثمانين وخمسمائة

قال العماد:

والسلطان مقيم بدمشق في داره، وممالك الآفاق في انتظاره، والأنام مشرقة بمطالع أنواره، ورسل الأمصار مجتمعون على بابه، منتظرون لجوابه، والضيوف في فيوض إنعامه غانمون، والفقراء في رياض صدقته راتعون، ويجلس في كل يوم وليلة لإسداء الجود، وإبداء السعود، وبث المكارم، وكشف المظالم، وبرز إلى الصيد شرقي دمشق بزاد خمسة عشر يوماً، واستصحب معه أخاه، وأبعد في البرية، ثم عاد يوم الاثنين حادي عشر صفر، ووافق ذلك عود الحاج الشامي فخرج للتلقي، ولما لقي الحجاج استعبرت عيناه كيف فاته من الحج ما تمناه، وسألهم عن أحوال مكة وأميرها وأهلها وخصبها ومحلها، وكم وصلهم من غلات مصر وصدقاتها، والفقراء والمجاورين ورواتبها وإداراتها، وسر بسلامة الحاج.

[٥٠١] فصل في مرض السلطان ووفاته، أحله الله بحبوحة جناته

قال القاضي:

لما كانت ليلة السبت وجد كسلاً عظيماً، فما انتصف الليل حتى غشيته حمى صفراوية كانت في باطنه أكثر منها في ظاهره، وأصبح يوم السبت سادس عشر صفر عليه أثر الحمى ولم يُظهر ذلك للناس، لكن حضرت عنده أنا والقاضي الفاضل، ودخل ولده الأفضل وطال جلوسنا عنده، وأخذ يشكو من قلقه بالليل وطاب له الحديث إلى قريب الظهر.

ثم انصرفنا والقلوب عنده، فتقدّم إلينا بالحضور على الطعام في خدمة ولده الأفضل ولم يكن للقاضي عادة بذلك فانصرف، ودخلت إلى الإيوان القبليّ وقد مدّ الطعام وولده الأفضل قد جلس في موضعه فانصرفت وما كان لي قوة للجلوس استيحاشاً.

ويكى في ذلك اليوم جماعة تفاؤلاً بجلوس ولده موضعه، ثم أخذ المرض في تزايد من حينئذ ونحن نلازم التردد في طرفي النهار، وأدخل إليه أنا والقاضي الفاضل في النهار مراراً، ويعطي الطريق في بعض الأيام التي يجد فيها خفة، وكان مرضه في رأسه.

وكان من أمارات انتهاء العمر غيبة طبيبه الذي كان قد ألف مزاجه سفراً وحضراً، ورأى الأطباء فصده ففصدوه في الرابع فاشتد مرضه، وقلت رطوبات بدنه، وكان يغلبه النفَس غلبة عظيمة، ولم يزل المرض في تزايد حتى انتهى إلى غاية الضعف.

[٥٠٢] ولقد أجلسناه في السادس من مرضه وأسندنا ظهره إلى مخدة، وأحضر ماء فاتر ليشربه عقيب شراب يلين الطبع، فشربه فوجده شديد الحرارة فشكا من شدّة حرّه فغُيِّر وعرض عليه ثانياً فشكا من برده، ولم يغضب ولم يصخب ـ رحمه الله ـ ولم يقل سوى هذه الكلمات: سبحان الله، ألا يمكن تعديل الماء.

فخرجت أنا والقاضي من عنده وقد اشتدّ منا البكاء، والقاضي الفاضل يقول: انظر هذه الأخلاق التي قد أشرف المسلمون على مفارقتها، والله لو أن هذا بعض الناس كان قد ضرب بالقدح رأس من أحضره.

واشتد مرضه في السادس والسابع والثامن ولم يزل متزايداً، وتغيب ذهنه، ولما كان التاسع حدثت به رعشة وامتنع من تناول المشروب واشتدّ الإرجاف في البلد، وغشي الناس من الكآبة ما لا يمكن حكايته.

ولقد كنت أنا والقاضي الفاضل نقعد كل ليلة إلى أن يمضي من الليل ثلثه أو قريب منه، ثم نحضر في باب الدار فإن وجدنا طريقاً دخلنا وشاهدناه وانصرفنا، وإلا تعرفنا أحواله وانصرفنا، وكنا نجد الناس يرتقبون خروجنا إلى بيوتنا حتى يقرأوا أحواله من صفحات وجوهنا.

ولما كان العاشر من يوم مرضه حُقن دفعتين، وحصل من الحقنة

راحة، وحصل بعض الخفة، وتناول من ماء الشعير مقداراً صالحاً، وفرح الناس فرحاً شديداً.

ثم أصبحنا فأُخبرنا أن العرق أفرط حتى نفذ في الفرش وتأثرت به الأرض، وأن اليبس قد تزايد به تزايداً عظيماً، وخارت القوة.

ولما رأى الملك الأفضل ما حل بوالده وتحقق اليأس منه شرع في تحليف الناس، وجلس في دار رضوان المعروفة بسكنه، واستحضر القضاة، وعمل له نسخة يمين مختصرة محصلة للمقاصد تتضمن الحلف للسلطان مدة حياته وله من بعد وفاته، واعتذر إلى الناس بأن المرض قد اشتدّ وما نعلم ما يكون، وما نفعل هذا إلا احتياطاً على جاري عادة الملوك.

ولما كانت ليلة الأربعاء السابع والعشرين من صفر - وهي ليلة الثاني عشر من مرضه - اشتد مرضه وضعفت قوته، واستُحضرت أنا والقاضي الفاضل في تلك الليلة وابن الزكيّ، وعرض علينا الملك الأفضل أن نبيت عنده، فلم يرَ الفاضل ذلك رأياً، فإن الناس كانوا في كل ليلة ينتظرون نزولنا من القلعة، فخاف أن لا ننزل فيقع الصوت في البلد، وربما نهب الناس بعضهم بعضاً، فرأى المصلحة في نزولنا واستحضار الشيخ أبي جعفر إمام الكلاسة(١) - وهو رجل صالح - حتى إن احتضر بالليل حضر عنده، وحال بينه وبين النساء، وذكّره بالشهادة، وذكر الله - تعالى - والشيخ أبو جعفر يقرأ عنده القرآن ويذكّره بالله - تعالى - وكان ذهنه غائباً من ليلة التاسع لا يكاد يفيق إلا في بعض الأحيان.

[٥٠٣] وذكر الشيخ أبو جعفر أنه لما انتهى إلى قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾(٢) سمعه وهو يقول:

---

(١) مدرسة بجوار الجامع الأموي، وأبو جعفر هو أحمد بن علي القرطبي، توفي سنة ٥٩٦. انظر «عيون الروضتين»: ٢/ ٢٨٥.

(٢) سورة الحشر: الآية ٢٢.

«صحيح»، وهذه يقظة في وقت الحاجة، وعناية من الله ـ تعالى ـ به، فلله الحمد على ذلك.

وكانت وفاته ـ رحمة الله عليه ـ يوم الأربعاء السابع والعشرين من صفر، سنة تسع وثمانين وخمسمائة، وبادر القاضي الفاضل بعد طلوع الصبح فحضر وفاته، ووصلت أنا وقد مات وانتقل إلى رضوان الله ومحل كرامته.

[٥٠٤] ولقد حُكي لي أنه لما بلغ الشيخ أبو جعفر إلى قوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ﴾(١) تبسم وتهلل وجهه وسلمها(٢) إلى ربه.

وكان يوماً لم يُصب الإسلام والمسلمون بمثله منذ فُقد الخلفاء الراشدون، وغشي القلعة والبلد والدنيا من الوحشة ما لا يعلمه إلا الله ـ تعالى ـ وكان يوماً عظيماً قد شغل كل إنسان ما عنده من الحزن والأسف والبكاء والاستغاثة عن أن ينظر إلى غيره.

ثم اشتُغل بتغسيله وتكفينه فما مُكّنا أن نُدخل في تجهيزه ما قيمته حبة واحدة إلا بالقرض.

وأُخرج بعد صلاة الظهر في تابوت مسجًّى بثوب ـ وكان ذلك وجميع ما احتاج إليه من الثياب في تكفينه قد أحضره الفاضل من وجه حل عرفه ـ وارتفعت الأصوات عند مشاهدته، وعظم الضجيج حتى أن الغافل يتخيل أن الدنيا كلها تصيح صوتاً واحداً، وغشي الناس من البكاء والعويل ما شغلهم عن الصلاة، وصلى الناس عليه أرسالا(٣).

وكان أوّل من أمّ بالناس القاضي محيي الدين بن الزكي ثم أعيد ـ رحمة الله عليه ـ إلى الدار ـ في البستان ـ الذي كان متمرضاً بها، ودفن في

---

(١) سورة التوبة: الآية ١٢٩.

(٢) أي سلم روحه.

(٣) أي جماعات تلو جماعات.

الضفة الغربية منها، وكان نزوله في حفرته قريباً من صلاة العصر، ثم نزل في أثناء النهار ولده الظافر وعزّى الناس فيه وسكّن قلوب الناس.

وكان الناس قد شغلهم الحزن والبكاء عن الاشتغال بالنهب والفساد فما يوجد قلب إلا حزيناً، ولا عين إلا باكية إلا من شاء الله، ثم رجع الناس إلى بيوتهم أقبح رجوع، ولم يَعُدْ منا أحد في تلك الليلة إلا أنّا حضرنا وقرأنا وجدّدنا حالاً من الحزن، واشتغل ذلك اليوم الملك الأفضل بكتب الكتب إلى إخوانه وعمه يخبرهم بهذا الحادث، وفي اليوم الثاني جلس للعزاء جلوساً عاماً، وأطلق باب القلعة للفقهاء والعلماء، وتكلم المتكلمون ولم ينشد شاعر، ثم انفض المجلس في ظهيرة ذلك اليوم، واستمرّ الحال في حضور الناس بكرة وعشية لقراءة القرآن والدعاء له ـ رحمة الله عليه ـ.

قال محمد بن القادسي:

وفي يوم السبت ثالث عشر من ربيع الأول شاعت الأخبار ـ يعني ببغداد ـ بوفاة صلاح الدين يوسف بن أيوب، وذكر أنه دفن معه سيفه الذي كان معه في الجهاد، وكان ذلك برأي الفاضل، وقيل عنه: هذا يتوكأ عليه إلى الجنة، وأن الفاضل كفنه من ماله، وتولى غسله الفاضل وخطيب دمشق.

[٥٠٥] قلت: وحُكي له أنه رأى النبي ﷺ في جماعة من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ زاروا قبر صلاح الدين ـ رحمه الله ـ وأنهم لما صاروا عند الشباك سجدوا.

ووجدت في بعض الكتب الفاضلية: «أن رجلاً رأى ليلة وفاة السلطان كأن قائلاً يقول له: قد خرج الليلة يوسف من السجن، وهو من الأثر النبوي: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»(١). قال: وما كان يوسفنا ـ

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في كتاب الزهد: ١٨/ ٣٩٥.

رحمة الله عليه ـ في الدنيا بالإضافة إلى ما صار إليه في الآخرة إلا في سجن، رضي الله عن تلك الروح، وفتح له باب الجنة فهو آخر ما كان يرجوه من الفتوح».

فصل في تركة السلطان
ووصف أخلاقه ــ رحمه الله ــ

[٥٠٦] ذكر القاضي ابن شدّاد: أنه لما مات لم يخلف في خزائنه من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعين درهماً ناصرية، وديناراً واحداً ذهباً صورياً، ولم يخلف ملكاً لا داراً ولا عقاراً، ولا بستاناً ولا مزرعة، يعني في البلد، ولا مسقفاً ولا ظاهراً مستغلاً من أنواع الأملاك.

[٥٠٧] وقال العماد:

خلّف السلطان ـ رحمه الله ـ سبعة عشر ولداً ذكراً وابنة صغيرة، وأبقى له مآثر أثيرة، ومحاسن كثيرة، ولم يخلف في خزانته سوى ديناراً واحداً وستة وثلاثين درهماً، فإنه كان بإخراج ما يدخل من الأموال في المكرمات والغرامات مُغرماً، ولا جَبَه أحداً بالرد إذا سأله بل تلطف له كأنه استمهله فإنه يقول: ما عندنا شيء الساعة، ومفهومه أنه يعطي وإن كان يبطي، وأنه يصيبه بالنوال ولا يخطي، وكان مشغوفاً في سبيل الله بالإنفاق، موقوفاً عزمه في الأعداء بإدناء الآجال(١)، وفي الأولياء بإجراء الأرزاق، وما عُقر في سبيل الله فرس أو جرح إلا وعوض مالكه مثله.

وحُسب ما وهبه من الخيل العراب والأكاديش(٢) الجياد للحاضرين معه في صف الجهاد مدّة ثلاث سنين وشهر مذ نزل الفرنج على عكا في رجب سنة خمس وثمانين إلى يوم انفصالهم بالسلم في شعبان سنة ثمان

---

(١) أي القتل.

(٢) جمع كديش، وهو ابن الفرس الذي ليس أصيل الأبوين، كما في «عيون الروضتين»: ٢٩٧ هامش(١).

وثمانين فكان تقديره اثني عشر ألف رأس من حصان وكديش، وذلك غير ما أطلقه من المال في أثمان الخيل المصابة في القتال، ولم يكن له فرس يركبه إلا وهو موهوب أو موعود به، وصاحبه ملازم في طلبه، وما حضر اللقاء إلا استعار فرساً فركبه، وهجر جياده، فإذا نزل جاء صاحبه واستعاده فكلهم يركب خيله، ويطلب خيره.

وحضرت بعده عند بعض الملوك وقد قُيدت إليه عراب(١) فقيل له: كان السلطان يضيع هذه وما عنده لها حساب، ونسبوا جوده بها إلى السرف، وعدّوه من معايبه، وأعرضوا عن ذكر مفاخره ومناقبه، وبمثل ذلك استتبت له الفتوح وخلصت له طاعة كتائبه.

[٥٠٨] قال: لا يلبس إلا ما يحل لبسه وتطيب به نفسه، كالكتان والقطن والصوف وكسوته يخرجها في إسداء المعروف، وكانت خلواته مقدّسة بالطهر، ومجالسه منزهة عن الهزء والهزل، ومحافله حافلة آهلة بأهل الفضل، وما سمعت له قط كلمة تسقط، ولا لفظة فظة تسخط، ويغلظ على الكافرين الفاجرين، ويلين للمؤمنين المتقين، ويؤثر سماع الأحاديث بالأسانيد، ويكلم العلماء عنده في العلم الشرعي المفيد، وكان ـ لمداومة الكلام مع الفقهاء ومشاركة القضاة في القضاء ـ أعلمَ منهم بالأحكام الشرعية.

وكان مَن جالسه لا يعلم أنه مجالس السلطان، بل يعتقد أنه مجالس أخ من الإخوان، وكان حليماً مقيلاً للعثرات، متجاوزاً عن الهفوات، تقياً نقياً، وفياً صفياً، يُغضي ولا يغضب، ويبشر ولا يتقطب، ما ردَّ سائلاً ولا صدَّ نائلاً، ولا أخجل قائلاً، ولا خيَّب آملاً.

[٥٠٩] قال: ومن جملة مناقبه أنه تأخر عنه في بعض سفراته الأمير

---

(١) أي الخيل المنسوبة للعرب ليس فيها عِرق هَجِين. وانظر «لسان العرب»: ع ر ب.

أيوب بن كنان، فلما وصل سأله عن سبب تخلفه فذكر ديناً، فأحضر غرماءه وتقبل بالدين وكان اثني عشر ألف دينار مصرية وكسراً.

[٥١٠] قال: ومما أذكره له في أول سفرتي معه إلى مصر سنة اثنتين وسبعين أنه حوسب صاحب ديوانه عما تولاه في زمانه فكانت سياقة الحساب عليه سبعين ألف دينار باقية عليه، فما طلبها ولا ذكرها، وأراه أنه ما عرفها على أن صاحب الديوان ما أنكرها، ثم لم يرض له بالعطلة فولاه ديوان جيشه.

[٥١١] قال: ولما كنا بظاهر حَرَّان عم بصدقاته الفقراء والمساكين، وكتب إلى نوَّابه في الولايات بإخراج الصدقات.

[٥١٢] وكان يغضب للكبائر، و يُغضي عن الصغائر، ويرشد إلى الهدى، ويهدي إلى الرشاد، ويسدّد الأمر ويأمر بالسداد، فكل مماليكه وخواصه بل أمراؤه وأجناده أعف من الزهاد والعباد، قال: ورأى لي يوماً دواة محلاة بالفضة فأنكرها، فقلت له: إن الشيخ أبا محمد والد أبي المعالي⁽¹⁾ قد ذكر وجهاً في جوازها، ثم لم أكتب بها عنده بعدها.

[٥١٣] وكان محافظاً على الصلوات الخمس في أوائل أوقاتها، مواظباً على أداء مفروضاتها ومسنوناتها، فما رأيته صلى إلا في جماعة، ولم يؤخر له صلاة من ساعة إلى ساعة، وكان له إمام راتب ملازم مواظب، فإن غاب يوماً صلى به من حضره من أهل العلم إذا عرفه متقياً متجنباً للإثم.

[٥١٤] وكان يأخذ بالشرع ولا يعطي به، ولم يكن إلى المنجم مصغياً، ولم يزل لقوله ملغياً، ولا يتعيف⁽²⁾ ولا يتطير ولا يتحير بل إذا

---

(١) أي أبي المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني إمام الحرمين، وأبوه كان عالماً كبيراً أيضاً، رحمهما الله تعالى.

(٢) من العيافة وهي التكهن بالطيور أو غيرها: وانظر «ترتيب القاموس المحيط»: ع ي ف.

عزم توكل على الله فلا يُفضل يوماً على يوم، ولا زماناً على زمان إلا بتفضيل الشرع.

ما زال ناصراً للتوحيد، وقامعاً جَمْعَ أهل البدع بالتبديد، شافعي المذهب أصولاً وفروعاً، يدني أهل التنزيه، ويُقصي أهل التشبيه، ويديم استفادة فقه الفقيه، واستزادة نباهة النبيه، ووجاهة الوجيه، فالعالَمون في عدله، والعالِمون في فضله، والبلاد في أمنه، والعباد في مَنِّه.

فصل

[٥١٥] ثم قال: ذكر ما شاهدناه من مواظبته على القواعد الدينية وملاحظته للأمور الشرعية

كان - رحمه الله - حسن العقيدة، كثير الذكر لله تعالى، قد أخذ عقيدته عن الدليل بواسطة البحث مع مشايخ أهل العلم وأكابر الفقهاء، ويتفهم من ذلك ما يحتاج إلى تفهمه بحيث كان إذا جرى الكلام بين يديه يقول فيه قولاً حسناً، وإن لم يكن بعبارة الفقهاء، فتحصل من ذلك سلامة عقيدته عن كدر التشبيه والتعطيل، جارية على نمط الاستقامة.

وكان قد جمع له الشيخ الإمام قطب الدين النيسابوريّ(١) - رحمه الله - عقيدة تجمع جميع ما يحتاج إليه في هذا الباب، وكان من شدة حرصه عليها يعلمها الصغار من أولاده حتى ترسخ في أذهانهم من الصغر، ورأيته وهو يأخذها عليهم وهم يقرأونها من حفظهم عليه.

[٥١٦] وأما الصلاة فإنه كان شديد المواظبة عليها بالجماعة، حتى أنه ذكر - رحمه الله - أن له سنين ما صلى إلا جماعة، وكان إذا مرض يستدعي الإمام وحده ويكلف نفسه القيام ويصلي جماعة، وكان يواظب على السنن الرواتب، وكان له ركعات يصليها إن استيقظ بوقت من الليل

---

(١) هو الإمام مسعود بن محمد بن مسعود النيسابوري الشافعي تعلم بنيسابور ومَرْو، ودخل دمشق سنة ٥٤٠، وتوفي بها سنة ٥٧٨. انظر «الأعلام»: ٧/ ٢٢٠.

وإلا أتى بها قبل صلاة الصبح، وما كان يترك الصلاة ما دام عقله عليه، ولقد رأيته يصلي في مرضه الذي مات فيه قائماً، وما ترك الصلاة إلا في الأيام الثلاثة التي تغيب فيها ذهنه، وكان إذا أدركته الصلاة وهو سائر نزل وصلى، وأما الزكاة فإنه مات ـ رضي الله عنه ـ ولم يحفظ ما وجبت عليه به الزكاة.

[٥١٧] وأما صدقة النفل فإنها استنفدت جميع ما ملكه من الأموال، وأما صوم رمضان فإنه كان عليه فيه فوائت بسبب أمراض تواترت عليه في رمضانات متعددة.

وكان القاضي الفاضل قد تولى ثبت تلك الأيام، وشرع ـ رحمه الله ـ في قضاء فوائت ذلك في القدس الشريف في السنة التي توفي فيها، وواظب على الصوم مقداراً زائداً على شهر فإنه كان عليه فوائت رمضانين شغلته الأمراض وملازمة الجهاد عن قضائها.

وكان الصوم لا يوافق مزاجه، فألهمه الله الصوم لقضاء الفوائت، فكان يصوم وأنا أثبت الأيام التي يصومها فإن القاضي كان غائباً والطبيب يلومه وهو لا يسمع ويقول: ما أعلم ما يكون، فكأنه كان ملهماً براءةَ ذمته، ولم يزل حتى قضى ما عليه رحمه الله.

وأما الحج فإنه لم يزل عازماً عليه وناوياً له لا سيما في العام الذي توفي فيه فإنه صمم العزم عليه، وأمر بالتأهب ولم يبق إلا المسير فاعتاق عن ذلك بسبب ضيق الوقت وفراغ اليد عما يليق بأمثاله فأخَّره إلى العام المستقبل فقضى الله ما قضى، قال: وهذا شيء اشترك في العلم به الخاص والعام.

[٥١٨] وكان ـ رحمه الله ـ يحب سماع القرآن العظيم حتى أنه كان يستَخْبر إمامه ويشترط عليه أن يكون عالماً بعلوم القرآن العظيم، متقناً لحفظه، وكان يستقرىء مَن يحضره في الليل وهو في برجه الحزبين والثلاثة والأربعة وهو يسمع، وكان يستقرئ في مجلسه العام مَن جرت عادته بذلك

الآية والعشرين والزائد على ذلك، ولقد اجتاز على صغير بين يدي أبيه وهو يقرأ القرآن فاستحسن قراءته فقرّبه وجعل له حظاً من خاص طعامه، ووقف عليه وعلى أبيه جزءاً من مزرعة.

[٥١٩] وكان ـ رحمه الله ـ خاشع القلب، رقيق الدمعة، إذا سمع القرآن العزيز يخشع قلبه وتدمع عينه في معظم أوقاته.

[٥٢٠] وكان شديدَ الرغبة في سماع الحديث، ومتى سمع عن شيخ ذي رواية عالية وسماع كثير فإن كان ممن كان يحضر عنده استحضره وسمع عليه وأسمع من يَحضره في ذلك المكان من أولاده ومماليكه والمختصين به، وكان يأمر الناس بالجلوس عند سماع الحديث إجلالاً له، وإن كان الشيخ ممن لا يَطرق أبواب السلاطين ويتحامى عن الحضور في مجالسهم سعى إليه وسمع عليه، تردّد إلى الحافظ السِّلَفيّ(١) بالإسكندرية وروى عنه أحاديثَ كثيرة، وكان يحب أن يقرأ الحديثَ بنفسه، فكان يستحضرني في خلوته ويحضر شيئاً من كتب الحديث، ويقرأ هو فإذا مرَّ بحديث فيه عبرة رق قلبه ودمعت عينه.

[٥٢١] وكان كثيرَ التعظيم لشعائر الدين، قائلاً ببعث الأجسام ونشورها، ومجازاة المحسن بالجنة، والمسيء بالنار، مصدّقاً بجميع ما وردت به الشرائع، منشرحاً بذلك صدره، مبغضاً للفلاسفة والمعطّلة والدهرية ومن يعاند الشريعة المطهرة، ولقد أمر ولده الظاهر صاحب حلب بقتل شاب كان نشأ يقال له السُهرَوَرْدي(٢) قيل عنه إنه كان معانداً للشرائع مبطلاً، وكان قد قبض عليه ولده المذكور لما بلغه من خبره وعرّف السلطان به فأمر بقتله وصلبه أياماً فقتله.

---

(١) هو الإمام أحمد بن محمد السِّلفي، وقد سبق ذكره.

(٢) يحيى بن حبش، شهاب الدين السُهرَوَرْدي، فيلسوف، ولد في السُهرَوَرْد قرية في عراق العجم، وسافر إلى حلب فنسب إلى انحلال العقيدة فأفتى العلماء بإباحة دمه فخنق في سجنه بحلب سنة ٥٨٧. انظر: «الأعلام» ٨/ ١٤٠.

[٥٢٢] وكان حسنَ الظن بالله، كثيرَ الاعتماد عليه، عظيم الإنابة إليه، ولقد شاهدت من آثار ذلك ما أحكيه، فحكى التجاءه إلى الله ـ تعالى ـ عند خوفه من قصد الفرنج بيتَ المقدس وامتناع أصحابه من دخوله للحصر فصلى ودعا فكُفي ذلك، وقد تقدم ذكره.

[٥٢٣] ثم قال: وكان ـ رحمه الله ـ عادلاً رؤوفاً رحيماً، ناصراً للضعيف على القوي، وكان يجلس للعدل في كل يوم اثنين وخميس في مجلس عام يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء، ويفتح الباب للمتحاكمين حتى يصل إليه كل أحد من كبير وصغير وعجوز وهرمة وشيخ كبير، وكان يفعل ذلك سفراً وحضراً على أنه كان في جميع زمانه قابلاً لما يُعرض عليه من القَصص(١) كاشفاً لما يُنهى إليه من المظالم، وكان يجمع القصص في كل يوم ثم يجلس مع الكاتب ساعة في الليل أو في النهار ويوقّع(٢) على كل قصة بما يطلق الله على قلبه، وما استغاث إليه أحد إلا وقف وسمع ظلامته، وأخذ قصته وكشف قضيته.

ولقد رأيته وقد استغاث إليه إنسان من أهل دمشق يقال له ابن زهير على تقي الدين ابن أخيه وأنفذ إليه ليحضره في مجلس الحكم فما خلصه إلا أن أشهد عليه شاهدين أنه وكل القاضي أمين الدين أبا القاسم قاضي حماة في المخاصمة، فأقاما الشهادة عندي في مجلسه، فأمرت أبا القاسم بمساواة الخصم فساواه، وكان من خواص جلساء السلطان، ثم جرت المحاكمة بينهما واتجهت اليمين على تقي الدين، وكان تقي الدين من أعز الناس عليه وأعظمهم عنده ولم يحابه في الحق.

[٥٢٤] قال: وكنت يوماً في مجلس الحكم بالقدس الشريف إذ دخل عليَّ شيخ حسن تاجر معروف يسمى عمر الخلاطي، وقال: خصمي السلطان وهذا بساط الشرع وقد سمعنا أنك لا تحابي.

---

(١) أي التي تسمى اليوم بالعرائض.

(٢) أي يُعَلق ويكتب.

فقلت: وفي أي قضية هو خصمك؟ فقال: إن سُنْقُر الخلاطيّ كان مملوكي ولم يزل على ملكي إلى أن مات، وكان في يده أموال عظيمة كلها لي ومات عنها واستولى عليها السلطان وأنا مطالبه.

فقلت: يا شيخ: وما الذي أقعدك إلى هذه الغاية؟ فقال: الحقوق لا تبطل بالتأخير، وهذا الكتاب ينطق بأنه لم يزل في ملكي إلى أن مات فأخذت الكتاب منه وتصفحت مضمونه فوجدته يتضمن حلية سُنْقُر الخلاطي وأنه قد اشترط من فلان التاجر في اليوم الفلاني من شهر كذا من سنة كذا، وأنه لم يزل في ملكه إلى أن شذ عن يده في سنة كذا، وما عرف شهود هذا الكتاب خروجه عن ملكه بوجه، وتمم الشرط إلى آخره.

فتعجبت من هذه القصة، وأعلمت السلطان بذلك فأحضره واستدناه حتى جلس بين يدي وكنت إلى جانبه ثم انفرك من طرّاحته حتى ساواه ـ رحمه الله تعالى ـ ثم ادّعى الرجل وفتح كتابه وقرىء تاريخه، فقال السلطان: إن لي من يشهد أن سُنْقُر هذا كان في ملكي وفي يدي بمصر، وإني اشتريته مع ثمانية أنفس في تاريخ متقدّم على هذا التاريخ بسنة، وأنه لم يزل في يدي وملكي إلى أن أعتقته.

ثم استحضر جماعة من أعيان الأمراء المجاهدين فشهدوا بذلك وحكوا القضية كما ذكرها وذكروا التاريخ كما ادّعاه، فأبلس⁽¹⁾ الرجل، فقلت له: يا مولانا هذا الرجل ما فعل ذلك إلا طلباً لمراحم السلطان، وقد حضر بين يدي المولى وما يحسن أن يرجع خائب القصد، فقال: هذا باب آخر، وتقدم له بخلعة ونفقة بالغة، قال: فانظر إلى ما في طي هذه القضية من المعاني الغريبة العجيبة من التواضع والانقياد إلى الحق وإرغام النفس، والكرم في موضع المؤاخذة مع القدرة التامة ـ رحمة الله عليه ـ.

[٥٢٥] قال: وكرمه كان أظهر من أن يُسَطّر، كان ـ رحمه الله ـ يهب

---

(١) أبلس: سكت غماً ويأساً وتحيراً: وانظر «ترتيب القاموس المحيط»: بلس.

الأقاليم، وفتح آمد فطلبها منه ابن قرا أرسلان فأعطاه إياها، ورأيته وقد اجتمع عنده وفود بالقدس ولم يكن في الخزانة ما نعطيهم فباع قرية من بيت المال وخصصنا ثمنها عليهم، ولم يفضل منه درهم واحد، وكان يعطي في وقت الضائقة كما يعطي في حال السعة، وكان نواب خزانته يخفون عنه شيئاً من المال حذر أن يفجأهم مهم لعلمهم أنه متى علم به أخرجه.

وسمعته يوماً يقول: يمكن في الناس مَن ينظر إلى المال كما ينظر إلى التراب فكأنه أراد بذلك نفسه، وكان يعطي فوق ما يؤمل الطالب، وما سمعته يقول: أعطينا لفلان، وكان يعطي الكثير ويبسط وجهه للمعطي بسطَ من لم يعطه شيئاً، وكان الناس يستزيدونه في كل وقت، وما سمعته قطُّ يقول: قد زدت مراراً فكم أزيد؟

وأكثر الرسائل في ذلك كان يكون على لساني ويدي، وكنت أخجل من كثرة ما يطلبون، وما خدمه قط أحد إلا وأغناه عن سؤال غيره، وأما تعدد عطاياه فقال: حضرنا عدد ما وهب من الخيل بمرج عكا لا غير فكان عشرة آلاف رأس، ومن شاهد مواهبه يستقل هذا القدر: اللهم إنك ألهمته الكرم وأنت أكرم الأكرمين، فتكرَّم عليه برحمتك ورضوانك يا أرحم الراحمين.

[٥٢٦] قال: وكان رحمه الله من عظماء الشجعان، قويَّ النفس، شديد البأس، عظيم الثبات، لا يهوله أمر، ولقد رأيته مرابطاً في مقابلة عدة عظيمة من الفرنج ونجدتهم تتواصل، وعساكرهم تتواتر، وهو لا يزداد إلا قوّة نفس وصبراً.

ولقد وصل في ليلة واحدة منهم نيف وسبعون مركباً على عكّا وأنا أعدّها من بعد صلاة العصر إلى غروب الشمس وهو لا يزداد إلا قوة نفس.

ولقد كان يعطي دستوراً(١) في أوائل الشتاء، ويبقى في شرذمة يسيرة

---

(١) إذناً للعكسر بالإنصراف.

في مقابلة عدّتهم الكثيرة، ولقد سألت باليان بن بارزان وهو من كبار ملوك الساحل وهو جالس بين يديه يوم انعقاد الصلح عن عدّتهم فقال الترجمان عنه: إنه يقول كنت أنا وصاحب صيدا ـ وكان أيضاً من ملوكهم وعقلائهم ـ قاصدين عسكرنا من صور، فلما أشرفنا عليه تجاوزناه فحزره هو بخمسمائة ألف وحزرته أنا بستمائة ألف أو قال عكس ذلك، فقلت: فكم هلك منهم فقال: أما بالقتل فقريب من مائة ألف، وأما بالموت والغرق فلا يُعلم، وما رجع من هذا العالم إلا الأقل.

[٥٢٧] قال: وكان لا بدّ له من أن يطوف حول العدوّ كل يوم مرة أو مرتين إذا كنا قريباً منهم، وكان إذا اشتدّ الحرب يطوف بين الصفين ومعه صبي واحد ويخرق العساكر من الميمنة إلى الميسرة، ويأمرهم بالتقدم والوقوف في مواضع يراها، وكان يشارف العدوّ ويجاوره.

[٥٢٨] ولقد قُرىء عليه جزء من الحديث بين الصفين وذلك أني قلت له: قد سُمع الحديث في جميع المواطن الشريفة وما نُقل أنه سُمع بين الصفين فإن رأى المولى أن يُؤثَر عنه ذلك كان حسناً، فأذن في ذلك فأحضر جزءاً هناك من له بسماع فقُرىء عليه ونحن على ظهور الدواب بين الصفين، يمشي تارة ويقف أخرى.

[٥٢٩] وما رأيته استكثر العدو أصلاً، ولا استعظم أمرهم قطّ، وكان مع ذلك في حال الفكر والتدبير يُذكر بين يديه الأقسام كلها ويرتب على كل قسم مقتضاه من غير حدّة ولا غضب يعتريه، ولقد انهزم المسلمون في يوم المصاف الأكبر بمرج عكا حتى القلب ورجاله وهو ثابت القدم في نفر يسير، وقد انحاز إلى الجبل بجميع الناس ويردّهم ويخجلهم حتى يرجعوا، ولم يزل كذلك حتى عكس المسلمون على العدوّ في ذلك اليوم وقتل منهم زهاء سبعة آلاف ما بين راجل وفارس.

ولم يزل مصابراً لهم وهم في العدّة الوافرة إلى أن ظهر له ضعف المسلمين فصالح، وهو مسؤول من جانبهم، فإن الضعف والهلاك كان فيهم

أكثر ولكنهم كانوا يتوقعون النجدة ونحن لا نتوقعها، وكانت المصلحة في الصلح.

وكان ـ رحمه الله ـ يمرض ويصح ويعتريه أحوال مهولة وهو مصابر مرابط، وتتراءى الناران ويسمع منهم صوت الناقوس ويسمعون منا صوت الأذان إلى أن قضي الأمر.

[٥٣٠] قال: وكان ـ رحمه الله ـ شديدَ المواظبة على الجهاد عظيم الاهتمام به، ولو حلف حالف أنه ما أنفق بعد خروجه إلى الجهاد ديناراً ولا درهماً إلا في الجهاد وفي الإرفاد(١) لصدق وبَرَّ في يمينه عظيماً.

ولقد كان الجهاد وحبه في الشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاءً عظيماً بحيث ما كان له حديث إلا فيه، ولا نظر إلا في آلته ولا اهتمام إلا برجاله، ولا ميل إلا إلى مَن يذكره ويحث عليه، ولقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله أهله وأولاده ووطنه، وسكنه وسائر ملاذه، وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح يمنة ويسرة، ولقد وقعت عليه الخيمة في ليلة على مرج عكا، فلو لم يكن في البرج لقتلته ولا يزيده ذلك إلا رغبة ومصابرة واهتماماً.

[٥٣١] قال القاضي:

وكان الرجل إذا أراد أن يتقّرب إليه يحثه على الجهاد، أو يذكر شيئاً من أخبار الجهاد، ولقد ألف له كتب عدة في الجهاد وأنا ممن جمع له فيه كتاباً جمعت فيه آدابه وكل آية وردت فيه وكل حديث رُوي فيه، وشرحت غريبًها، وكان ـ رحمه الله ـ كثيراً ما يطالعه حتى أخذه منه ولده الأفضل.

[٥٣٢] قال: ولأحكين عنه ما سمعت منه في ذلك، وذلك أنه كان قد أخذ كوكب(٢) في ذي القعدة سنة أربع وثمانين، وأعطى العساكر

---

(١) أي العطاء: وانظر «لسان العرب»: ر ف د.

(٢) قلعة على جبل مطل على طبرية. انظر «معجم البلدان»: ٤/ ٤٩٤.

دستوراً، وأخذ عسكر مصر في العود إلى مصر، وكان مقدّمه أخاه العادل فسار معه ليودعه ويحظى بصلاة العيد في القدس ففعل ووقع له أنه يمضي معهم إلى عسقلان ويوذعهم ثم يعود على طريق الساحل ويتفقد البلاد الساحلية إلى عكا ويرتب أحوالها، فأشاروا عليه أن لا يفعل فإن العساكر إذا فارقتنا نبقى في عدّة يسيرة والفرنج كلهم بصور وهذه مخاطرة عظيمة فلم يلتفت.

وودّع أخاه والعسكر بعسقلان ثم سرنا على الساحل طالبي عكا، وكان الزمان شتاءً عظيماً والبحر هائجاً هيجاناً عظيماً، وموجه كالجبال، كما قال الله تعالى.

وكنت حديثَ عهد برؤية البحر فعظم أمر البحر عندي حتى خيل لي أنني لو قال لي قادر: لو جزت في البحر ميلاً واحداً ملكتك الدنيا لما كنت أفعل، واستخففت رأي من يركب البحر رجاء كسب دينار أو درهم، واستحسنت رأي من لا يقبل شهادة راكب البحر، هذا كله خطر لي لعظم الهول الذي شاهدته من حركة البحر وتموّجه.

فبينا أنا في ذلك إذ التفت إليَّ وقال: إنه متى يسّر الله ـ تعالى ـ فتح بقية الساحل قسّمت البلاد وأوصيت وودّعت وركبت هذا البحر إلى جزائرهم أتبعهم فيها حتى لا أبقي على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت، فعظم وقع هذا الكلام عندي حيث ناقض ما كان يخطر لي، وقلت له: ليس في الأرض أشجع نفساً من المولى، ولا أقوى نية منه في نصرة دين الله، وحكيت له ما خطر لي، ثم قلت: ما هذه إلا نية جميلة ولكن المولى يُسَيِّر في البحر العساكر، وهو سور الإسلام ولا ينبغي أن يخاطر بنفسه.

فقال: أنا أستفتيك: ما أشرف الميتات؟ فقلت: الموت في سبيل الله، فقال: غاية ما في الباب أن أموت أشرف الميتات.

قال: فانظر إلى هذه الطَوِيّة ما أطهرها، وإلى هذه النفس ما أشجعها

وأجسرها، اللهم إنك تعلم أنه بذل جهده في نصرة دينك رجاءَ رحمتك فارحمه.

[٥٣٣] قال: وأما صبره فلقد رأيته بمرج عكا وهو على غاية من مرض اعتراه بسبب كثرة دماميل كانت ظهرت عليه من وسطه إلى ركبته بحيث لا يستطيع الجلوس، وإنما يكون متكئاً على جانبه إذا كان في الخيمة، وامتنع من مدّ الطعام بين يديه لعجزه عن الجلوس وكان يأمر أن يفرق على الناس، وكان مع ذلك كله يركب من بكرة النهار إلى صلاة الظهر يطوف على الأطلاب(١)، ومن العصر إلى صلاة المغرب وهو صابر على شدة الألم وقوة ضربان الدمامل، وكان يعجب من ذلك فيقول ـ رحمه الله ـ: إذا ركبت يزول عني ألمها حتى أنزل، وهذه عناية ربانية.

ولقد مرض ونحن على الخرّوبة(٢) فبلغ الفرنج ذلك فخرجوا طمعاً في أن ينالوا من المسلمين شيئاً بسبب مرضه، فخرجوا في مرحلة إلى الآبار التي تحت التل، ثم رحل العدوّ في اليوم الثاني يطلبنا، فركب ـ رحمه الله ـ على مضض(٣)، ورتب العساكر للحرب وجعل أولاده في القلب، وهو ـ رحمه الله ـ يسير ساعة ثم ينزل يستريح، ويُظلَّل بمنديل على رأسه من شدّة وقع الشمس، ولا ينصب له خيمة حتى لا يرى العدوّ ضعفاً، ولم يزل كذلك حتى نزل العدوّ برأس النهر، ونزل هو على تل قبالتهم مطل عليهم إلى أن دخل الليل، ثم أمر العساكر أن تعود إلى محل المصابرة وأن يبيتوا تحت السلاح، وتأخر هو إلى قمة الجبل وضربت له خيمة لطيفة، وبت تلك الليلة أجمع أنا والطبيب نمرضه ونشاغله وهو ينام تارة ويستيقظ أخرى حتى لاح الصباح، ثم ضرب البوق وركب ـ رحمه الله ـ وركبت العساكر

---

(١) سبق ذكر معناها وأنها القطعة من الجيش تبلغ في حدها الأعلى ٥٠٠ جندي.

(٢) حصن مُشرف على عكا. وانظر «معجم البلدان»: ٢/ ٣٦٢.

(٣) المضض: وجع المصيبة، وانظر «ترتيب القاموس المحيط»: مضض.

وأحدقت بالعدوّ، ورحل العدوّ عائداً إلى خيمه من الجانب الغربي للنهر وضايقه المسلمون مضايقة شديدة.

وفي ذلك اليوم قدَّم أولاده بين يديه احتساباً: الأفضل والظاهر والظافر وجميع من حضره منهم، ولم يزل يبعث من عنده حتى لم يبق عنده إلا أنا وطبيب وعارض الجيش والغلمان بأيديهم الأعلام والبيارق لا غير، فيظن الرائي لها عن بُعد أن تحتها خَلقاً كثيراً، وليس تحتها إلا واحد يُعَدّ بخَلق عظيم ـ رحمه الله ـ وبقي في موضعه والعساكر على ظهور الخيل قبالة العدوِ إلى آخر النهار، ثم أمرهم أن يبيتوا على مثل ما باتوا عليه بارحتهم، وبتنا على ما بتنا عليه إلى الصباح، وعاد العسكر إلى ما كان عليه بالأمس من مضايقه العدوّ.

[٥٢٤] قال: ولقد رأيته ليلة على صَفَد وهو يحاصرها وقال: لا ننام الليلة حتى ينصب لنا خمسة مجانيق، ورتب لكل منجنيق قوماً يتولون نصبه، وكنّا طول الليل في خدمته في ألذ فكاهة وأرغد عيشة، والرسل تتواصل مخبرة بأنه نصب من المنجنيق الفلاني كذا ومن الآخر كذا حتى أتى الصباح وقد فرغ منها، وكانت من أطول الليالي وأشدها برداً ومطراً.

[٥٢٥] قال: ولقد رأيته وقد جاء خبر وفاة ولد له بالغ أو مراهق يسمى إسماعيل، فوقف على الكتاب ولم يُعرِّف أحداً ولم نعرف حتى سمعناه من غيره ولم يظهر عليه شيء من ذلك سوى أنه لما قرأ الكتاب دمعت عينه، رحمه الله.

[٥٢٦] قال: ولقد رأيته وقد وصله خبر وفاة تقيّ الدين(١) ونحن في مقابلة الفرنج على الرملة، فأحضر العادل(٢) وابن جندر وابن المقدّم وابن الداية سابق الدين، وأمر بالناس فأبعدوا عن الخيمة بحيث لم يبق حولها

---

(١) هو ابن أخي صلاح الدين.

(٢) هو أخو صلاح الدين.

أحد عن غَلْوَة سهم⁽¹⁾، ثم أظهر الكتاب ووقف عليه وبكى بكاءً شديداً حتى أبكانا من غير أن نعلم السبب.

ثم قال ـ رحمه الله ـ والعَبرة تخنقه: توفي تقي الدين، فاشتد بكاؤه وبكاء الجماعة، ثم عدت إلى نفسي فقلت: استغفروا الله من هذه الحالة، وانظروا أين أنتم وأعرضوا عما سواه، فقال ـ رحمه الله ـ: نعم، استغفروا الله، وأخذ يكررها، ثم قال: لا يعلم هذا أحد.

[٥٣٧] قال: وكان ـ رحمه الله ـ شديدَ الشوق والشغف بأولاده الصغار وهو صابر على مفارقتهم راض ببعدهم عنه، وكان صابراً على مرِّ العيش وخشونته مع القدرة التامة على غير ذلك احتساباً لله ـ تعالى ـ اللهم إنه ترك ذلك كله ابتغاءً لمرضاتك فارض عنه.

[٥٣٨] قال: ولقد كان ـ رحمه الله ـ حليماً متجاوزاً، قليل الغضب، ولقد كنت بخدمته بمرج عيون⁽²⁾ قبل خروج الفرنج إلى عكا ـ يسر الله فتحها ـ وكان من عادته أنه يركب في وقت الركوب ثم ينزل فيمدّ الطعام ويأكل مع الناس، ثم ينهض إلى خيمة خاصة له ينام فيها ثم يستيقظ من منامه ويصلي ويجلس خلوة وأنا في خدمته يقرأ شيئاً من الحديث أو شيئاً من الفقه.

فنزل يوماً على عادته ومُدَّ الطعام بين يديه، ثم عزم على النهوض فقيل له: إن وقت الصلاة قد قرب فعاد إلى الجلوس وقال: نصلي وننام.

ثم جلس يتحدث حديث متضجر وقد أخلى المكان إلا عمن لزم، فتقدّم إليه مملوك كبير محترم عنده وعرض عليه قصة لبعض المجاهدين فقال له: أنا الآن ضجر أخِّرها ساعة، فلم يفعل وقدّمها إلى قريب من وجهه الكريم بيده وفتحها بحيث يقرؤها فوقف على الاسم المكتوب في

---

(1) أي قدر رمية بسهم: انظر «لسان العرب»: غ ل ا.

(2) بلدة في جنوب لبنان اليوم.

رأسها فعرفه وقال: رجل مستحق، فقال: يوقع له المولى، فقال: ليست الدواة حاضرة الآن، وكان ـ رحمه الله ـ جالساً في باب الخَرْكاه[1] بحيث لا يستطيع أحد الدخول إليها، والدواة في صدر الخَرْكاه، فقال له المخاطب: ها هي الدواة في صدر الخَرْكاه، قال القاضي: فليس لهذا معنى إلا أمره إياه بإحضار الدواة لا غير، فالتفت ـ رحمه الله ـ فرأى الدواة فقال: والله صدق، ثم استند على يده اليسرى ومد يده اليمنى وأحضرها ووقَّع له.

فقلت: قال الله ـ تعالى ـ في حق نبيه ﷺ ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝﴾[2] وما أرى المولى إلا قد شاركه في هذا الخلق، فقال: ما ضرّنا شيء، قضينا حاجته وحصل الثواب.

قال القاضي: ولو وقعت هذه الواقعة لآحاد الناس لقام وقعد، ومن الذي يقدر أن يخاطب أحداً هو تحت حكمه بمثل ذلك، وهذا غاية الإحسان والحلم، والله لا يضيع أجر المحسنين.

[٥٣٩] قال: ولقد كانت طراحته تداس عند التزاحم عليه لعرض القصص وهو لا يتأثر لذلك، ولقد نَفَرت يوماً بغلتي من الجمال وأنا راكب في خدمته فرجمت وركه حتى آلمته وهو يبتسم، ولقد دخلت بين يديه في يوم ريح مطير إلى القدس كثير الوحل فنضحت البغلة عليه من الطين حتى أهلكت جميع ما كان عليه وهو يبتسم، وأردت التأخر عنه بسبب ذلك فما تركني، ولقد كان يسمع من المستغيثين إليه والمتظلمين أغلظ ما يمكن أن يسمع، ويلقى ذلك بالبشر والقَبول.

قال: وكان ـ رحمه الله ـ كثير المروءة كثير الحياء منبسطاً لمن يرد

---

[1] الخيمة الكبيرة، وهي لفظة فارسية الأصل، انظر «معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي»: ٦٧.

[2] سورة القلم.

عليه من الضيوف، يكرم الوافد عليه وإن كان كافراً، ولقد وفد عليه البرنس صاحب أنطاكية فما أحس به إلا وهو واقف على باب خيمته بعد وقوع الصلح في شوّال عند منصرفه من القدس إلى دمشق، وقد تقدّم ذلك، وعرض له في الطريق وطلب منه شيئاً فأعطاه العمق وهي بلاد كان أخذها منه عام فتح الساحل سنة أربع وثمانين، ولقد رأيته وقد دخل إليه صاحب صيدا فاحترمه وأكرمه وأكل معه وعرض عليه الإسلام وذكر له طرفاً من محاسنه وحثه عليه.

[٥٤٠] وكان يكرم من يرد عليه من المشايخ وأرباب العلم والفضل وذوي الأقدار، وكان يوصينا لئلا نغفل عمن يجتاز بالخيم من المشايخ المعروفين، حتى نحضرهم عنده وينالهم من إحسانه.

ولقد مر بنا سنة أربع وثمانين رجل جمع بين العلم والتصوّف وكان من ذوي الأقدار، وكان أبوه صاحب تَوْريز(١)، فأعرض هو عن فن أبيه واشتغل بالعلم والعمل، وحج ووصل زائراً لبيت الله المقدّس، ولما قضى لُبانته(٢) منه ورأى آثار السلطان فيه وقع له زيارته فوصل إلينا إلى العسكر فلقيته، ورحبت به وعرفت السلطان وصوله فاستحضره وشكره عن الإسلام وحثه على الخير وانصرف وبات عندي في الخيمة.

فلما صلينا الصبح أخذ يودّعني فقبحت له المسير بدون وداع السلطان فلم يلتفت ولم يَلْوِ على ذلك، وقال: قضيت حاجتي منه ولا غرض لي فيما عدا رؤيته وزيارته، ثم انصرف من ساعته ومضى على ذلك ليال، فسأل السلطان عنه فأخبرته بفعله فظهر عليه آثار العتب كيف لم نخبره برواحه، وقال: كيف يطرقنا مثل هذا الرجل وينصرف عنا من غير إحسان يمسه منا؟

---

(١) بلدة في عراق العجم، وفي «عيون الروضتين»: ٢/١٨٦، ٣١٨ توزين: بلدة من أعمال حلب، وهي أقرب إلى السياق من توريز.

(٢) وطره ومراده، وانظر «لسان العرب»: ل ب ن.

وشدد النكير عليَّ في ذلك فما وجدت بُدّاً من أن كتبت كتاباً إلى محيي الدين قاضي دمشق كلفته فيه السؤال عن حال الرجل وإيصال رقعة كتبتها إليه طي كتابي أخبرته فيها بإنكار السلطان رواحه من غير اجتماع به، وحسنت له فيها العود، وكان بيني وبينه صداقة تقتضي مثل ذلك، فعاد واجتمع بالسلطان فرحب به وانبسط معه واستوحش له وأمسكه أياماً ثم خلع عليه خلْعة حسنة، وأعطاه مركوباً لائقاً، وثياباً كثيرة ليحملها إلى أهل بيته وأتباعه وجيرانه، ونفقة يرتفق بها، وانصرف عنه وهو أشكر الناس له وأخلصهم دعاءً لأيامه.

[٥٤١] قال: ولقد رأيته ـ رحمه الله ـ وقد مثل بين يديه أسير إفرنجي وقد هابه بحيث ظهر عليه أمارات الخوف والجزع، فقال له الترجمان: من أي شيء تخاف؟ فأجرى الله على لسانه أن قال: كنت أخاف قبل أن أرى هذا الوجهَ، فبعد رؤيتي له وحضوري بين يديه أيقنت أني ما أرى إلى الخير، فمنَّ عليه وأطلقه ورقّ له.

[٥٤٢] قال: وكان ـ رحمه الله ـ لا يرى الإساءة إلى من صحبه وإن أفرط في الجناية، ولقد بُدل في خزانته كيسان من الذهب المصري بكيسين من الفلوس فما عمل بالنوّاب شيئاً سوى أنه صرفهم من عملهم لا غير.

[٥٤٣] وكان ـ رحمه الله ـ حسن العشرة، لطيف الأخلاق، طيب الفكاهة، حافظاً لأنساب العرب ووقائعهم، عارفاً بسيرهم وأحوالهم، حافظاً لأنساب خيلهم، عالماً بعجائب الدنيا ونوادرها بحيث كنا نستفيد محاضرة منه ما لا نسمعه من غيره، وكان يسأل الواحد منا عن مرضه ومداواته ومطعمه ومشربه وتقلبات أحواله، وكان طاهرَ المجلس لا يُذكر بين يديه أحد إلا بالخير، وطاهرَ السمع فلا يحب أن يسمع عن أحد إلا بالخير، وطاهرَ اللسان فما رأيته أُولعَ بشتم قط، وطاهرَ القلم فما كتب بقلمه الذل لمسلم قط.

[٥٤٤] وكان حسنَ العهد والوفاء فما أُحضر بين يديه يتيم إلا وترحم

على مُخلّفه، وجبر قلبه، وأعطاه خبز مُخلّفه(١) إن كان له من أهله كبير يعتمد عليه سلمه إليه، وإلا أبقى له من الخبز ما يكفي حاجته وسلمه إلى من يكفله ويعتني بتربيته، وكان ما يرى شيخاً إلا ويرق له ويعطيه ويحسن إليه، ولم يزل على هذه الأخلاق إلى أن توفاه الله ـ عز وجل ـ إلى مقر رحمته ومحل رضوانه.

[٥٤٥] فصل في انقسام ممالكه بين أولاده وإخوته وبعض ما جرى بعد وفاته

قال العماد:

تولى الملك الأفضل دمشق والساحل وما يجري مع ذلك من البلاد، وهو الذي حضر وفاة والده وقام بسنة العزاء، وخلع على الأماثل والأمراء والأفاضل والعلماء، وآوى إليه إخوته، وضم جماعته.

وكانت حمص والمناظر والرحبة وبعلبك وما يجري معها من المملكة الأفضلية داخلة، وقَدم عليه سلطاناهما الملكان المجاهد والأمجد(٢) إلى دمشق فتأكدت بينهم القرابة والألفة، وقصد مداراة إخوته.

قال: وتولى ولده الملك العزيز أبو الفتح عثمان مصر وجميع أعمالها، وأبقاها على اعتدالها، ونقاها من شوائب اختلالها واعتلالها، وأحيا سنتي الجود والبأس، وثبت القواعد من حسن السياسة على الأساس، وأطلق كل ما كان يؤخذ من التجار وغيرهم باسم الزكاة، وقدم أمر بيت الله المقدّس، وعجّل له عشرة آلاف دينار مصرية لتصرف في وجوه ضرورية، وأفاض عليه من الفضل، وقرّر واليه عز الدين جُرْديك على ولايته، وقوى يده برعايته، ووالى حمل الغلات من مصر إلى القدس، وأبدل وحشته بوفاة السلطان من وفاته بالأنس، ثم أشفق من غدر الفرنج في فسخ الهدنة، فأتى من تجهيز العساكر إلى البيت المقدس بكل ما فيه المكنة.

---

(١) أي نصيب ولي أمره الذي توفي.

(٢) ابنا صلاح الدين.

قال: وتولى حلبَ وأعمالها، وحصونها ومعاقلها، الملك الظاهر غازي وملك مملكة أقطارها واسعة، وأمصارها شاسعة، فحماها وحواها، وبماء العدل روّاها وقوّاها، وأقر البيرة وأعمالها وما يجري معها على أخيه الملك الزاهر مجير الدين داود، ودخل في أمره صاحب حماه ابن تقي الدين فأعزه وحماه.

قلت: وهو مأوى ذرّية والده، وبقي الملك منهم في عقبه، وانحاز كل من إخوته وأولادهم إليه، وعوّلوا في تمشية أمورهم عليه، والأمر مستمر على ذلك في عقبه إلى الآن، والله ـ تعالى ـ ولي الإحسان، ثم زال ملك هذا البيت في صفر سنة ثمان وخمسين وستمائة بسبب غلبة التتار الكفرة على البلاد، والله بصير بالعباد.

[٥٤٦] فصل في وفاة القاضي الفاضل ــ رحمه الله ــ

قال العماد:

وفي هذه السنة تمت الرزية الكبرى، والبلية العظمى، وفجيعة أهل الفضل بالدين والدنيا، وذلك بانتقال القاضي الفاضل من دار الفناء إلى دار البقاء، في داره بالقاهرة سادس ربيع الآخر يوم الثلاثاء.

وإن تردى عن رداء العمر فله من حُلل البقاء في علّيّين كسوة، ولأنه لم يبق في مدة حياته عملاً صالحاً إلا وقدمه، ولا عهداً في الجنة إلا أحكمه، ولا عقداً في البر إلا أبرمه، فإن صنائعه في الرقاب، وأوقافه على سبل الخيرات متجاوزة عن الخراب، لا سيما أوقافه لفكاك أسرى المسلمين إلى يوم الحساب.

وأعان طلبة الشافعية والمالكية عند داره بالمدرسة والأيتام بالكتاب، والخيرات الدارة على الأيام، فكانت حياة ثانية إلى يوم البعث، وإعادة حياة الأنام.

وكان ـ رحمه الله ـ للحقوق قاضياً، وفى الحقائق ماضياً، سلطانه

مطاع، والسلطان له مطيع، وفضله جامع، وشمل الفضل به جميع، وهو واحد الزمان وصاحب القرآن، قد خصه الله بالمكانة والإمكان.

[٥٤٧] والسلطان ـ رحمه الله ـ من مفتتحات فتوحه ومختتماتها، ومبادي أمور دولته وغاياتها، ما افتتح الأقاليم إلا بأقاليد آرائه ومقاليد غناه وغنائه، وكنت من حسناته محسوباً، وإلى مناسب آلائه منسوباً، أعرف صناعته ويعرف صناعتي، وأعارض بضاعته الثمينة بمزجاة بضاعتي، ولم يزل يجذب بضَبْعي(١) ويجلب نفعي.

[٥٤٨] وكانت كتابته كتائب النصر، ويَراعته(٢) رائعة الدهر، وبراعته بارئة للبرية، وعبارته نافثة في عقد السحر، وكانت بلاغته للدولة مجملة، وللمملكة مكملة، وللعصر الصلاحي على سائر الأعصار مفضلة، ومفتتحاته في الفتوحات البديعة بديعة، ومخترعاته في الصنائع المخترعة صنيعة، وإنما نسجت على منواله، ورويت بزلاله.

وهو الذي نسخ أساليب القدماء بما أقدمه من الأساليب، وأغربه من الإبداع، وأبدعه من الغريب، وما ألفيته كرر دعاء ذكره في مكاتبته، ولا ردّد لفظاً في مخاطبته، بل تأتي فصوله مبتكرة مبتدعة، مبتدهة(٣) لا مفتكرة، بالعرف والعرفان معرفة لا نكرة، وكانت الدولة بإدالته تدال، والزلة بإزالته تزال، والكرام في ظله يقيلون، ومن عثرات النوائب بفضله يستقيلون.

فإلى مَن الوفادة بعده، وممن الإفادة، وفيمن السيادة، ولمن السعادة، والحمد لله الذي له الغيب والشهادة، وإنا لله وإنا إليه راجعون، ولأمره منقادون.

---

(١) الضبع: العضد، أو الإبط، أو ما بين الإبط إلى نصف العَضُد: انظر «ترتيب القاموس المحيط»: ض ب ع.

(٢) اليَراعة: القلم: وانظر «المصدر السابق»: يرع.

(٣) أي على البديهة.

[٥٤٩] وللتاج أبي الفتح البلطيّ فيه:

لله عبدٌ رحيم   يُدعى بعبد الرحيم
على صراط سوي   من الهدى مستقيم
يَنْمِي إلى شرف في   ذرى المعالي صميم
مهذب حاز ما شتـ   ـت من تقى وعلوم
نسك ابن مريم عيسى   وهدى موسى الكليم
يرى التهجد أنساً   في جنح ليل بهيم
مُسَهَّدَ الطرف يتلو   آيَ القرآن العظيم(١)

ودفن ـ رحمه الله ـ بمقبرته بالقرافة.

وقرأت في تاريخ أبي علي حسن بن محمد بن إسماعيل القليوبيّ الذي ذيّله على تاريخ أبي القاسم السمناني قال: حدثني الملك المحسن أحمد بن السلطان صلاح الدين أن يوم موت الفاضل اتفق دخول الملك العادل إلى مصر وأخذها من ابن أخيه الأفضل، قال: دخل العادل من باب وخرجنا نسرع بالجنازة من باب آخر.

قال: وأكثر أهل مصر يذكرون أن كتبه التي جمعها مقدار مائة ألف مجلد، وكان يجمعها من سائر البلاد.

[٥٥٠] قال: وسمعت قاضي القضاة ضياء الدين القاسم بن يحيى الشهرزوريّ ببغداد أيام ولايته يحدث أن القاضي الفاضل لما سمع أن العادل أخذ الديار المصرية دعا على نفسه بالموت خشية أن يستدعيه وزيره صفي الدين ابن شكر(٢) إليه أو يجري في حقه إهانة، وكان بينهما مقارصة، فأصبح ميتاً.

---

(١) السُّهد: الأرق: وانظر «ترتيب القاموس المحيط»: س هـ د.

(٢) صفي الدين عبد الله بن علي حسن الدُميري المالكيّ، ويعرف بابن شُكر، توفي سنة ٦٢٢، وانظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٢٢/ ٢٩٤ ـ ٢٩٥.

وكانت له معاملة حسنة مع الله - تعالى - وصلاة بالليل كما ذكروا عنه، رحمه الله.

قلت: وأخبرني القاضي الشهيد ضياء الدين بن أبي الحجاج صاحب ديوان الجيش - رحمه الله - أن القاضي الفاضل بعد صلاح الدين لم يخدم أحداً من أولاده، وكانت الدولة بأسرها تأتي إلى خدمته إلى أن توفي.

قال: ولما قدم العادل مصر وملكها بات وأصبح فزار قبر الشافعيّ - رضي الله عنه - وجاء إلى قبر الفاضل فزاره.

تم الكتاب والحمد لله

فهارس الكتاب

١ ـ فهرس المصادر والمراجع.

٢ ـ فهرس الفوائد.

٣ ـ فهرس الموضوعات.

٤ ـ فهرس الفهارس.

فهرس المصادر والمراجع

* القرآن الكريم.

١ ـ «الأعلام»: الأستاذ خير الدين الزركلي. نشر دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة، سنة ١٩٨٠م.

٢ ـ «الألفاظ الفارسية المعربة»: الأستاذ أدّي شير. نشر دار العرب، القاهرة، الطبعة الثانية، سنة ١٩٨٧ ـ ١٩٨٨م.

٣ ـ «تاج العروس من جواهر القاموس»: الشيخ محمد مرتضى الزبيدي (ت١٢٠٥). تحقيق مجموعة من الأساتذة، مطبعة حكومة الكويت.

٤ ـ «التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية»: الإمام ابن الأثير الجزري = علي بن محمد بن عبد الكريم (ت٦٣٠). تحقيق الأستاذ عبد القادر طليمات، نشر دار الكتب الحديثة بالقاهرة، ومكتبة المثنى ببغداد ١٣٨٣هـ.

٥ ـ «تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل»: د. أحمد السعيد سليمان. نشر دار المعارف، القاهرة.

٦ ـ «ترتيب القاموس المحيط»، الأستاذ الطاهر الزاوي. نشر دار الكتب العلمية، بيروت، سنة ١٣٩٩هـ.

٧ ـ «تفسير الألفاظ الدخيلة في اللغة العربية مع ذكر أصلها بحروفه»: الأستاذ طوبيا العنيسي. نشر دار العرب، القاهرة سنة ١٩٦٤ ـ ١٩٦٥م.

٨ ـ «تقريب التهذيب»: الحافظ شهاب الدين ابن حجر العسقلاني = أحمد بن علي (ت٨٥٢). تحقيق الأستاذ محمد عوامة، نشر دار الرشيد، حلب، سنة ١٤٠٦هـ.

٩ ـ «خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب»: «العلامة عبد القادر بن عمر البغدادي (ت١٠٩٣). تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون، نشر مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى.

١٠ ـ «سير أعلام النبلاء»: الحافظ شمس الدين الذهبي = محمد بن أحمد

(ت٧٤٨). تحقيق مجموعة من الأساتذة، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى.

١١ ـ «صحيح البخاري»: الإمام محمد بن إسماعيل (ت٢٥٦). نشر دار الجيل، بيروت.

١٢ ـ «صحيح مسلم»: الإمام مسلم بن الحجاج (ت٢٧٦). إعداد مجموعة من الأساتذة، نشر دار الخير، بيروت، دمشق، الطبعة الأولى سنة ١٤١٤هـ.

١٣ ـ «عيون الروضتين في أخبار الدولتين: النورية والصلاحية»: الإمام شهاب الدين أبو شامة = عبد الرحمن بن إسماعيل (ت٦٦٥). تحقيق الأستاذ أحمد البيسومي، نشر وزارة الثقافة، سوريا، سنة ١٩٩١م.

١٤ ـ «فوات الوفيات»: الشيخ محمد بن شاكر الكتبي (ت٧٦٤). تحقيق د. وداد القاضي، ونعيم كساب، وصالح آغا، وطريف بزي، نشر دار الثقافة، بيروت.

١٥ ـ «لسان العرب»: العلامة ابن منظور الإفريقي = محمد بن مكرم (ت٧١١). نشر دار صادر، بيروت.

١٦ ـ «مجمع الفوائد ومنبع الفوائد»: الحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي (ت٧٠٨). نشر مؤسسة المعارف، بيروت، سنة ١٤٠٦هـ.

١٧ ـ «مختار الصحاح»: الإمام محمد بن أبي بكر الرازي. نشر مؤسسة علوم القرآن، بيروت، ومكتبة النوري بدمشق سنة ١٣٩٨هـ.

١٨ ـ «معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكيّ»: الأستاذ محمد أحمد دهمان. نشر دار الفكر المعاصر ببيروت، ودار الفكر بدمشق سنة ١٤١٠هـ.

١٩ ـ «معجم البلدان»: العلامة ياقوت الحموي. نشر دار الفكر ودار صادر، بيروت.

٢٠ ـ «المعجم المفصل في الأدب»: د. محمد التونجي. نشر دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى سنة ١٤١٣هـ.

٢١ ـ «المعجم الوسيط»: تأليف مجموعة من الأساتذة. نشر مجمع اللغة العربية، القاهرة، الطبعة الثالثة.

٢٢ ـ «الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة». نشر قسم البحوث بالندوة العالمية للشباب الإسلامي، الرياض، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٩هـ.

٢٣ ـ «الوافي بالوفيات»: العلامة صلاح الدين خليل بن أيبَك الصَّفَديّ (ت٧٦٤). اعتناء س. رينغ. نشر دار درانز شتاينر، فيسبادن (ألمانيا)، الطبعة الثانية.

٢٤ ـ «وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان»: شمس الدين ابن خلكان = أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت٦٨١). تحقيق د. إحسان عباس، نشر دار الثقافة، بيروت.

فهرس الفوائد

الناظر في هذا الفهرس يجد بغيته من الكتاب بسهولة ويسر - إن شاء الله تعالى - ذلك لأنه أتى على ما في الكتاب، تقريباً، مرتباً مبوباً.

وقد قسمت نصّ الكتاب إلى فقرات مرقمة متتابعة من الفقرة رقم [١] إلى الفقرة رقم [٥٥٠]، وسوف أشير في فهرس الفوائد إلى أرقام الفقرات لا غير، وذلك لاستغنائها عن ذكر غيرها معها.

هذا وإنه ليحسن بمراجع هذا الفهرس أن ينظر في فهرس الفهارس الموجود آخر الكتاب ليسهل عليه استخراج ما يريد، والله المستعان.

* * *

أ ـ علم التاريخ

- أهميته: [٣].
- ورود أحداث تاريخية جمة في كتاب الله ـ تبارك وتعالى ـ وفي حديث الرسول ﷺ، وقد تناقل السلف أخبار مَن مضى: [١]، [٢].
- حادثة تبين جهل عدد من العلماء وطلبة العلم بعضَ الأحداث التاريخية: [٤].
- سبب تصنيف «كتاب الروضتين»: [٨].
- مصادر «كتاب الروضتين»: [٨].

البيت النوري

* البيت النوري بيت مبارك: [٢١٥].
* قبل ظهور البيت النوري كان المسلمون في ذل مع الصليبيين: [٩٥]، [١٣٥].
* أصل البيت النوري هو آق سنقر، جد نور الدين.
- أخبار آق سنقر: [٧٦].

ذكر سيرته الحسنة في بلده: [٧٨].

مقتله: [٧٧].
- أخبار زنكي، والد نور الدين.

كيفية توليه الإمارة: [٧٩]، [٨٠]، [٨٣]، [٨٤]، [٩٢]، [٩٤].

ذكر سيرته الحسنة في رعيته: [١٠٦].

تأصل عقيدة الولاء والبراء في نفسه: [٩٩].

عدله حتى مع أهل الذمة: [١٠٧].

غيرته على نساء الأجناد: [١٠٩]، [١١٠].

هيبته: [١١١].

صدقاته: [١١١]، [١١٢].

اختياره الرجال وإكرامه لهم: [٩٩]، [١١٣]، [١٦٦]، [١٦٧]، [١٦٨].

مقتله: [١٠٤].
- أخبار وزيره جمال الدين الأصفهاني، وكان من أحسن الوزراء: [١٦٦]، [١٦٩]، [١٧٠]، [١٧١]، [١٧٢]، [١٧٣].

سبب نكبته: [١٧٥].

ضابط في إدارته: [١٧٦].

- تملك نور الدين وسيف الدين بعد مقتل أبيهما: [١١٤].
- وفاة سيف الدين غازي أخي نور الدين: [١٢٣].
- وفاة صاحب الموصل، قطب الدين مَوْدود بن زنكي: [٢١٠].
- ذكر شيء من سيرته الحسنة: [٢١٣]، [٢١٤]، [٢١٥]، [٢١٦].
- وفاة صاحب الموصل غازي بن مَوْدود: [٣٣٦].
- ذكر شيء من سيرته الحسنة: [٣٣٨].
- وفاة نور الدين رحمه الله تعالى: [٢٨٠].
- مرضه في المرة الأولى، وما أحدثه من أثر سيء: [١٤٩].
- بيان اتساع ملكه: [٢٨٥].
- تولي ولده ـ الصالح إسماعيل ـ بعده: [٢٩١].
- توتر العلاقة بين صلاح الدين وأمراء البيت النوري بعد وفاة نور الدين: [٢٩١]، [٢٩٢]، [٢٩٣]، [٢٩٤]، [٢٩٧]، [٣٠٠]، [٣٠٢]، [٣٠٣]، [٣٠٩]، [٣١٠]، [٣١١]، [٣٤٣]، [٣٤٥]، [٣٤٦]، [٣٤٧]، [٣٤٨]، [٣٥٩].
- مراسلة أمراء نور الدين الباطنية لقتل صلاح الدين: [٣٠٢]، [٣١٠].
- إعادة شعائر الرافضة في حلب بعد وفاة نور الدين: [٣٠١].
- الحرب بين صلاح الدين والموصليين أتباع البيت النوري: [٣٠٥].
- وفاة إسماعيل بن نور الدين: [٣٣٩].
- ذكر شيء من سيرته الحسنة: [٣٤٠]، [٣٤١].

اخلاق وصفات
نور الدين، رحمه الله تعالى

* أهمية إبراز سير الصالحين خاصة أولي المناصب حتى تصير قدوة لمن بعدهم: [٦]، [٢٤].
* نور الدين وصلاح الدين من أعظم سلاطين الإسلام المتأخرين، إلا أن نور الدين، رحمه الله تعالى، أعظم فضلاً وأحسن مناقب: [٧]، [١٥]، [٣٠]، [٥١].
* جملة من مناقبه: [٩]، [١٠]، [١٤]، [٢٣]، [٦٦]، [٢٨٦].
  ١ ـ اتباع السنة: [٥٥].
  ٢ ـ الانقياد للشرع: [٧٤].
  ٣ ـ الانقياد للوعظ: [٥٩]، [٧٥].

٤ ـ اهتمامه بأمر المسلمين وخوفه على الإسلام: [١٩١]، [١٩٢]، [٢٠٥]، [٢٨٧].
٥ ـ تخير الرجال الأكفاء: [٢٥٨]، [٢٨٧].
٦ ـ تصوره الصحيح للعبودية: [٣٤].
٧ ـ تصوره الصحيح للدنيا: [١٩]، [٢١].
٨ ـ التواضع لأهل الصلاح والعلم: [٤٥]، [٥٠]، [٥٩]، [٢٨٧].
٩ ـ حب الجهاد: [٢١٧]، [٢٢٢]، [٢٥٩].
١٠ ـ حرصه على أموال المسلمين: [١٨]، [٢٩].
١١ ـ حرصه على العلم: [٢٨٦].
١٢ ـ حفظه مجلسه: [٥١]، [٦٧].
١٣ ـ خوفه من الله تعالى: [٦٢].
١٤ ـ ذكاؤه وفطنته: [٢٣٥]، [٣٦]، [٣٧]، [٣٩]، [٢٥٥].
١٥ ـ رقته: [٧٢].
١٦ ـ زهده: [٢٠]، [٦٣].
لا يتنافى زهده مع كونه سلطاناً: [٢٥].
١٧ ـ شجاعته: [٣٢].
١٨ ـ صلته بالله: [٤٢]، [٥٨]، [٦٠]، [٦٨]، [٦٩]، [١٥٣]، [١٦٤]، [١٦٥]، [٣٤٠].
١٩ ـ عبادته: [٢٢].
٢٠ ـ عدله: [٢٦]، [٢٧]، [٢٨]، [٣٠]، [٣١]، [٦٢]، [٦٥]، [٧٠]، [٧٣].
٢١ ـ عدم سماع الوشاية: [٤٦]، [٦١].
٢٢ ـ عقيدته الصحيحة: [٢٦٤].
٢٣ ـ فهمه لأحكام الإسلام ومقاصده: [٦٤]، [٧١]، [٢٦٤].
٢٤ ـ قبوله الشفاعة: [٢٢١].
٢٥ ـ قصر أمله: [٢٨٠].
٢٦ ـ مداراته: [٣٥].
٢٧ ـ مروءته: [٢١٢]، [٢١٣]، [٢٦٢]، [٢٨٧].
٢٨ ـ ورعه: [٢٩]، [٥٤]، [٥٦]، [٥٨]، [٦٠]، [٦٣].

إصلاحات نور الدين رحمه الله

* إصلاحاته الدينية:

١ ـ إحياؤه بلاد الشام بتطبيق الشرع: [٦٦].

٢ - إبطاله شعار الرافضة: [٩]، [١٣]، [١٢٠].
٣ - الأخذ على أيدي المبتدعة: [٥٢].
٤ - منع الخمور: [١٧].
٥ - بناء دار الحديث: [٤٧].
٦ - بناء المساجد والوقف عليها: [٣٩]، [٤٠]، [٤٩]، [٥٤]، [٢١٧]، [٢١٩].
٧ - إصلاح طرق الحاج، وإكمال سور المدينة: [١١].
٨ - كف العرب البادية عن الحجاج: [١١].

* إصلاحاته الاجتماعية:

١ - مجموعة من الإصلاحات الاجتماعية: [١١].
٢ - إسقاطه الضرائب وكل ما عدا الزكاة والخراج: [٢٦]، [٥٣]، [٥٧]، [٥٨]، [٧٤]، [٧٥]، [٢١٧]، [٢١٨]، [٢٥٧].
سبب هذا الفعل: [٥٧]، [٧٥].
٣ - بناء المدارس: [٣٦]، [٤٨].
٤ - بناء المستشفيات والوقف عليها: [٤١].
٥ - بناء الخانات والوقف عليها: [٤٣]، [٤٥].
٦ - تتبع أمرائه وضبطهم: [٢٨٧].

* إصلاحاته العسكرية:

١ - إقطاع الأجناد مع الورثة: [٣٦].
٢ - الحرص على أموال الجند: [٣٧].
٣ - تحصين الأسوار والقلاع: [٣٨]، [٢٠٩].
٤ - إنشاء أبراج الحمام الزاجل: [٤٤].
٥ - معاركه الجانبية:
- من عادة نور الدين أنه لا يدخل بلداً لمسلمين إلا لمصلحة: [٢٦٣]، [٢٦٤].
- احتل نور الدين دمشق لأن أهلها كانوا يراسلون الفرنجة، ولأنها مفتاح النصر ضد الصليبيين: [١٢٥]، [١٢٩]، [١٣٢]، [١٣٥]، [١٣٦]، [١٣٧].
- دخوله الموصل ليبعد وزيراً نصرانياً أسلم لكن كان فيه ظلم: [٢١١]، [٢١٢]، [٢١٣]، [٢١٤]، [٢١٥]، [٢١٦]، [٢٢٠]، [٢٢١].

أخبار الأيوبيين

* مبدأ أمر أسد الدين شِيرْكوه عم صلاح الدين، ونجم الدين أيوب: والد صلاح الدين: [١٥٧].
شجاعة شِيرْكوه الفائقة: [١٦٠].
معاركه مع الصليبيين بمصر: [١٥٩]، [١٨٥]، [١٨٦].
توليه وزارة الفاطميين: [١٩٤].
موته: [١٩٥]، [١٩٦].
- موت نجم الدين أيوب والد صلاح الدين: [٢٦٠].
- كان نجم الدين قد تشاءم بمولد ابنه صلاح الدين لكن الله أراد به خيراً: [٢٦١].
* مبدأ أمر صلاح الدين: [١٣٣]، [١٣٨].
توليه الوزارة بعد موت أسد الدين شِيرْكُوه: [١٩٥]، [١٩٨].
مساعدة نور الدين له في توليه الوزارة: [١٩٩].
توبته: [١٩٧].
إزالته الدولة الفاطمية الخبيثة الملحدة بمساعدة نور الدين: [١٥٨]، [١٨٣]، [١٨٨]، [١٩٢]، [١٩٣]، [٢٠٨]، [٢٢٣]، [٢٢٤]، [٢٢٥]، [٢٣١]، [٢٣٣].
بعض ما قيل من المدائح في هذا الصنيع: [٢٥٢].
- غدر وزير الفاطميين شاوَر: [١٥٨].
استعانته بالصليبيين ضد نور الدين والأيوبيين: [١٥٩]، [١٨٤]، [١٨٧]، [١٨٩]، [١٩٠].
مقتله: [١٩٣].
- مقتل الشاعر عمارة اليمني وأصحابه الذين حاولوا قلب الدولة: [٢٦٦]، [٢٦٧]، [٢٦٨]، [٢٦٩]، [٢٧٠]، [٢٧٢].
- اتفاقهم مع الباطنيين على قتل صلاح الدين: [٢٧٠].
- أخبار عمارة: [٢٧٧]، [٢٧٨].
* توتر العلاقة بين نور الدين وصلاح الدين ـ رحمهما الله تعالى ـ وبيان سبب ذلك: [٢٠٠]، [٢٠١]، [٢٥٤]، [٢٨٢]، [٢٨٣]، [٢٨٤].
بعض المؤرخين من القدامى والمحدثين غالى في هذا الأمر، والحق خلاف ما ذهبوا إليه: [٢٠٢].

ـ وفاء صلاح الدين لنور الدين: [٣٠]، [٣١٣]، [٣١٤].
* فتح اليمن: [٢٦٥].
* انتقال مملكة نور الدين إلى صلاح الدين: [٢٩٧]، [٢٩٩]، [٣٠٤]، [٣٠٧]، [٣٤٣]، [٣٤٤]، [٣٥٩].
تجديد صلاح الدين آثار نور الدين التي طُمست بعد وفاته وتولي أمرائه: [٢٩٨].
* معارك صلاح الدين مع غير الصليبيين:
آمد: [٣٥٧]، الموصل: [٣٠٥]، [٣٦٩].
* مرض صلاح الدين ووفاته: [٥٠١].
حسن خاتمته: [٥٠٣]، [٥٠٤].
منام حسن رُؤي فيه: [٥٠٥].
تركته: [٥٠٦].
تفرق مملكته بين أولاده: [٥٤٥].

صفات وأخلاق صلاح الدين

* جملة متنوعة من مناقبه: [٥٠٢]، [٥٠٨]، [٥٤٣].
١ ـ إغضاؤه عن الأخطاء: [٥١٠]، [٥٤٢].
٢ ـ إكرام أهل العلم: [٥٤٠].
٣ ـ تضرعه والتجاؤه إلى الله: [٤٤٦]، [٤٩٥]، [٥٢٢].
٤ ـ ثباته: [٤٤٤]، [٤٨٢]، [٥٢٦]، [٥٢٩]، [٥٣٣].
٥ ـ حب الجهاد: [٥٣١]، [٥٣٢].
٦ ـ حب العدل، ونصرة المظلوم ولو على نفسه: [٥٢٣]، [٥٢٤].
٧ ـ حب العلم، وسماعه الحديث حتى بين الصفين في الجهاد: [٣٥٠]، [٥٢٠]، [٥٢٨].
٨ ـ حب القرآن: [٥١٨].
٩ ـ حسن صلاته: [٥١٣]، [٥١٦].
١٠ ـ حلمه: [٥٣٨]، [٥٣٩].
١١ ـ خوفه على الإسلام: [٤٣٧]، [٤٤٦]، [٤٨٥]، [٤٨٩]، [٤٩٥].
١٢ ـ رقة القلب: [٤٨٠]، [٥١٩].
١٣ ـ شجاعته: [٥٢٦].

١٤ ـ شكر النعم: [٣٦١]، [٣٦٢].
١٥ ـ صبره على ما يكره: [٥٣٥]، [٥٣٦].
١٦ ـ صدقاته: [٥١١].
١٧ ـ العفو: [٣١٢]، [٤٧٦]، [٥٤١].
١٨ ـ غيرته على الإسلام، واهتمامه بالشرع والتزامه به: [٣٧٤]، [٥١٢]، [٥١٤]، [٥١٥]، [٥١٧]، [٥٢١].
١٩ ـ الكرم: [٣١٩]، [٣٥٨]، [٣٧١]، [٤٠١]، [٤٠٢]، [٤٧١]، [٥٠٧]، [٥٠٩]، [٥٢٥].
٢٠ ـ المشورة: [٤١٧].
٢١ ـ الوفاء: [٣٠]، [٣١٣]، [٣١٤]، [٥٤٤].

إصلاحات صلاح الدين

*** إصلاحاته العسكرية:**
- بناء الأسوار: [٣٢٠]، [٣٤٩].
- مشاركته فيها بنفسه وأولاده وإخوانه: [٤٩٢].

*** إصلاحاته الاجتماعية:**
١ ـ إلغاء الضرائب: [٣٢٢]، [٣٢٤].
٢ ـ بناء المدارس: [٣٢١].
٣ ـ بناء المستشفيات: [٣٢٢].
٤ ـ العمل على راحة الحجيج: [٣٢٤].

أخبار الدولة الفاطمية العُبيدية الخبيثة

* إغواء الناس بادعاء النسب الشريف والتستر بالتشيع والرفض: [٢٣٤]، [٢٣٥]، [٢٥٣].
* كانوا يكشفون للناس أصول دعوتهم بقدر أفهام المخاطبين وعلومهم: [٢٣٦]، [٢٣٨].
* كشف العلماء أعمالهم الخبيثة، ونفوا نسبتهم إلى بيت النبوة الطاهر: [٢٣٤]، [٢٣٧]، [٢٤٩]، [٢٥١].
* سرد أخبار ملوكها: [٢٣٤]، [٢٣٥]، [٢٣٦].
* ما صنعه هؤلاء من الخبائث:

١ ـ إفساد عقائد الناس: [٢٣٦]، [٢٣٩]، [٢٤٢]، [٢٤٤].
٢ ـ سب الأنبياء: [٢٣٩]
٣ ـ سب الصحابة: [٢٣٩]، [٢٤٦].
٤ ـ إيذاء من يرفع شعار السنة: [٢٤٨].
٥ ـ سرورهم بما نزل على المسلمين من مصائب: [٢٤٣].
٦ ـ قتل العلماء والصالحين: [٢٣٥]، [٢٣٨]، [٢٤١]، [٢٤٥]، [٢٤٧].

- كان يجب الاجتماع على إزالة هذه الدولة الفاسدة: [٢٥٠].
- زوال هذه الدولة الخبيثة على يد نور الدين وصلاح الدين، رحمهما الله تعالى: [١٥٨]، [١٨٣]، [١٨٨]، [١٩٢]، [١٩٣]، [٢٠٨]، [٢٢٣]، [٢٢٤]، [٢٢٥]، [٢٢٦]، [٢٣١]، [٢٣٣].
- عز المسلمين بزوال هذه الدولة: [٢٢٧].
- كان العاضد ـ آخر خلفائهم ـ أمثلهم: [١٩١]، [٢٠٤].
- محاولات إعادتها: [٢٦٦]، [٢٦٧]، [٢٦٨]، [٢٦٩]، [٢٧٠]، [٢٧٢]، [٢٩٦].

من أخبار السلاطين والأمراء السلاجقة

- جملة من أخبارهم: [٧٦]، [٧٧]، [٧٩]، [٨٠]، [٨١]، [٨٢]، [٨٣]، [٨٤]، [٨٧]، [٨٨]، [٩٠]، [٩١]، [٩٣].
كان بعضهم عادلاً حسن السيرة: [٨٧]، [٨٨]، [٨٩]، [٩٣].
تواني بعضهم عن الجهاد: [٩٩].

من أخبار آل منقذ أمراء شَيْزر

- من أخبارهم: [١٥٠].
شجاعة أسامة بن منقذ: [١٥١].
إرسال أحدهم سفيراً إلى ملك المغرب لحثه على الجهاد ومساعدة صلاح الدين: [٤٦٥].

ب ـ أخبار الجهاد

- الرسائل المحرضة على الجهاد: [٣٧٧]، [٣٨٧]، [٤٠٨]، [٤١٨]، [٤٢٠]، [٤٣٥]، [٤٤٧]، [٤٥٤]، [٤٥٥]، [٤٥٦]، [٤٦٤]، [٤٦٦]، [٤٨٧]، [٤٩٧]، [٥٠٠].

وانظر فهرس العلماء، وفهرس الأدب ففيهما جملة من رسائل الجهاد الجميلة.

* أثر الصالحين في الجهاد: [١٦٢].
* أسباب النصر في الجهاد:

١ - الدعاء والتضرع: [٦٩]، [١٥٣]، [١٥٦]، [١٦٢]، [١٦٤]، [١٦٥]، [٤٤٤].

٢ - الإخلاص والتجرد: [٤٣١]، [٤٥٥]، [٤٦٣].

* لم يكن بعض أفراد الجيش الإسلامي - آنذاك - متجرداً لله، وهذا معروف في الجيوش المتأخرة: [٤١٢]، [٤٢١]، [٤٢٢].

٣ - الشجاعة والتعرض للشهادة: [١٠]، [٣٤].

٤ - الاستعداد: [١٩]، [٣٣]، [٣٨]، [٤٤]، [٢٠٩].

٥ - تثبيت الجنود وتشجيعهم: [١٧٨]، [٤١٤]، [٤١٥]، [٤٨٥]، [٤٩٤]، [٥٢٨].

٦ - مداراة الجنود: [١٥٥]، [٤٧٠].

- عدم مساعدة العسكر لقائدهم سبب أساس في عدم النصر: [٤٧٠]، [٤٨٧].

٧ - تأمين رزق الجنود: [٣٦]، [٣٧].

٨ - مداراة العدو في بعض الأحيان: [٣٥].

٩ - استعمال الخدع: [٩٩]، [١٦٢]، [٤٤٥]، [٤٧٢].

* جهاد الصليبيين في بلاد الشام والرافدين:

- الأمراء الأرتقيون كانوا من أوائل من ناوش الصليبيين: [٣٦٨].
- ذل المسلمين في بلاد الشام على يد الصليبيين قبل ظهور البيت النوري: [٩٥]، [١٣٥].
- البيت النوري ومن بعده صلاح الدين كادا ينفردان بالجهاد، وباقي العالم الإسلامي غارق في سلبية مدهشة إلا استثناءات يسيرة: [٩٩]، [٢١٥]، [٤٠٨]، [٤١٨]، [٤٥٠]، [٤٦٥]، [٤٦٦]، [٤٦٨]، [٤٧٥]، [٤٧٨]، [٤٨٤].
- من مشاركة الآخرين في الجهاد: [١٣٠]، [٤١٩]، [٤٢٩]، [٤٣٠]، [٤٥٩].
- خيانة بعض أمراء المسلمين: [١٨١]، [٣٤٥]، [٣٤٨]، [٣٠٢]، [٣٠٣]، [٣١٠].
- تأنيب نور الدين بعض القاعدين عن الجهاد: [٢١٥].
- الصليبيون أمم كثيرة يساند بعضهم بعضاً: [٤٠٨]، [٤١٨]، [٤٢٠]، [٤٢٥]، [٤٣٢]، [٤٤٠]، [٤٦٧]، [٤٧٤]، [٤٧٩].

- حتى النساء يحاربن معهم: [٤٢٣]، [٤٣٨]، [٤٣٩]، [٤٤٨]، [٤٨٦].
- وجود نساء معهم للزنا والترفيه عن الجنود، بزعمهم: [٤٢١]، [٤٢٢].
- حماس الفرنجة وتحريض بعضهم بعضاً لقتال المسلمين، خاصة باباهم: [٤٣٣]، [٤٣٤]، [٤٣٥]، [٤٤٣]، [٤٤٧]، [٤٤٩].
- مقابل ذلك انظر تخاذل المسلمين وتكاسلهم عن الجهاد في الفقرة الماضية، وانظر كذلك الفقرات التالية: [٤٥٠]، [٤٥٣]، [٤٥٨]، [٤٥٩].
- فرقتان نصرانيتان شديدتان على المسلمين: الداوية والإسبتارية وتسميان عند الفرنجة: فرسان الهيكل، وفرسان القديس يوحنا: [٣٣٠]، [٣٣١].
- من مبتكرات النصارى في حروبهم مع المسلمين: [٤٢٨]، [٤٣١]، [٤٥١]، [٤٨٣].

* صور على عز الإسلام وقهره الصليبيين:

١ ـ أسر ملوكهم: [١٢٧]، [١٦١]، [١٦٣].

قد فُكّ أسر عدد منهم بعد وفاة نور الدين نكاية في صلاح الدين: [٣٠٩].

٢ ـ أسر المقاتلة وسبي الذرية: [٣٧٥].

٣ ـ بيع أسير بنعل: [٣٧٦].

٤ ـ ما حدث في الأقصى بعد الفتح: [٣٩٩].

* دعاء الصالحين بالشهادة، وتعرضهم لها: [١٠]، [٣٤].
* من قصص استشهاد الصالحين: [١١٨]، [١١٩].
* فرحة بعض الناس بشهدائهم: [٤١٦].
* الاستبشار بالغزو يوم الجمعة: [٣٧٣].

البيت النوري وأثره في الجهاد

* بدايات جهاد البيت النوري للصليبيين: [٨١].

- معارك جرت بين عماد الدين زَنْكي ـ والد نور الدين ـ وبين الصليبيين: [٩]، [٨١]، [٩٦]، [٩٧]، [٩٨]، [١٠٠].

جودة رأيه في الجهاد: [١٠٨].

- معارك جرت بين نور الدين والصليبيين:

١ ـ حارم: [١٢]، [١٦١].

٢ ـ الرها: [١١٥].

٣ ـ دمشق: [١١٧]، [١٢٥].

٤ ـ فامية: [١٢٢].
٥ ـ عَزاز: [١٢٦].
٦ ـ بانياس: [١٤٨]، [١٧٧].
٧ ـ المُنَيْطرة: [١٨٢].
٨ ـ معارك متفرقة: [١٣٤]، [١٤٦]، [١٤٧]، [١٥٢]، [١٥٤].

اثر صلاح الدين في الجهاد

ـ دأبه في الجهاد، وعدم الالتفات إلى راحته ولذائذه: [٤٠٦]، [٤١١]، [٤٨٥]، [٥٣٠]، [٥٣٤]، [٥٣٧].
ـ حثّه أمراء المسلمين على الجهاد: [٤٠٨]، [٤١٨]، [٤١٩]، [٤٢٤]، [٤٢٦]، [٤٢٧].

معارك صلاح الدين مع الصليبيين

١ ـ دمياط: [٢٠٣].
٢ ـ الرملة: [٣٢٣].
٣ ـ حصن الأحزان: [٣٢٨]، [٣٣٢].
٤ ـ مرج عيون: [٣٣٠].
٥ ـ معركة بين المسلمين والصليبيين السائرين إلى المدينة: [٣٥٤].
٦ ـ حطين: [٣٧٢].
٧ ـ نابلس: [٣٨٠].
٨ ـ تِبنين وصيدا وصور: [٣٨١].
٩ ـ عسقلان وغزة: [٣٨٢].
١٠ ـ مجموعة فتوح: [٣٢٩]، [٣٨٠].
١١ ـ فتح بيت المقدس:
ـ عجيبة في الإخبار بفتح بيت المقدس: [٣٦٣]، [٣٩٧].
ـ مرض السلطان فنذر إن عافاه الله ليوجهنّ جهوده إلى فتح بيت المقدس: [٣٧٠]، [٣٧١].
ـ فتح بيت المقدس: [٣٨٣].
ـ شهد الفتح عددٌ كبير من العلماء والصالحين: [٣٨٤].
ـ صفة يوم الفتح: [٣٨٦].
ـ صفة إقامة الجمعة في الأقصى: [٣٩٢].

- نص الخطبة الأولى: [٣٩٣].
- نقل المنبر الذي صنعه نور الدين من حلب إلى بيت المقدس: [٣٩٤].
- تطهير الصخرة المقدسة: [٣٩٨].
- سماحة الإسلام سبب في عدم هدم كنيسة القيامة: [٤٠٠].
- كان السلطان صلاح الدين يريد استباحة من في بيت المقدس لكونهم صنعوا ذلك قبل تسعين سنة لكن لم يتيسر هذا الأمر: [٣٨٥].

١٢ ـ اللاذقية: [٤٠٣].
١٣ ـ أنطاكية: [٤٠٤].
١٤ ـ الكَرَك: [٤٠٥].
١٥ ـ صَفَد: [٤٠٦].
١٦ ـ شقيف أرنون: [٤٠٩].
١٧ ـ عكّا، وكانت معركتين، الثانية منهما استغرقت ثلاث سنوات: [٣٧٩]، [٤١٠]، [٤١٣]، [٤٢٧]، [٤٣٦]، [٤٦٩]، [٤٨١].

- من الأخطاء التي حدثت في حصار عكا: [٤٧٠].
- عدم الاتفاق على الصلح أدت إلى حدوث مأساة: [٤٩٠].

* تحصين أسوار القدس: [٤٩٢].
* عزم النصارى على حصار القدس ثم انصرافهم عن هذه العزيمة: [٤٩٣].
* الصلح بين صلاح الدين والصليبيين: [٤٩١]، [٤٩٦].
  - كان في ذلك الصلح مصلحة: [٤٩٨].
* موقف جيد لملك القسطنطينية أثناء حروب صلاح الدين مع الصليبيين: [٤٤١]، [٤٤٢].

ج ـ العقيدة

* كرامات الصالحين: [١٠١]، [١٦٨]، [٢٠٦]، [٢٢٢]، [٣٤٠]، [٣٩٥]، [٣٩٦].
* صور على حسن الولاء والبراء: [٩٩]، [١٩٣].
* اهتزاز الولاء والبراء: [١٥٩]، [١٨٤]، [١٨٧]، [١٨٩]، [١٩٠]، [٣٠٣].
* من المبتدعة أصحاب العقائد الباطلة:

١ ـ انظر فهرس الدولة الفاطمية.
٢ ـ قديد القفاص: [٢٧١].

٣ ـ فرقة الباطنية الحشاشين:
ـ قتلهم المجاهدين والصالحين:
أ ـ مقتل الأمير مَوْدود السلجوقي: [٨٢].
ب ـ مقتل الأمير آق سنقر السلجوقي: [٩٣].
ـ محاولات قتل الصالحين التي جرت من قِبَلهم: [٢٧٠]، [٣٠٢]، [٣١٠].
ـ محاصرة صلاح الدين لقلعة الباطنية: [٣١٥]، [٣١٧].

د ـ الصلة بالله تعالى

رحمة الله عباده بعدما قنطوا: [٣٢٧].
العامة يفهمون أن الرحمة طريقها إزالة المعاصي: [٣٣٧].
صور على حسن الصلة بالله تعالى: [٤٢]، [٥٨]، [٦٠]، [٦٨]، [٦٩]، [١٥٣]، [١٦٤]، [١٦٥]، [٣٤٠]، [٤٩٥]، [٥٢٢].

هـ ـ العلماء

* ينبغي أن تكون مجالسهم موقَّرة: [٥١].
* اختلافهم ـ أمام العامّة ـ مفسدة: [١٢١].
* يجب ألا تُسمع فيهم الوشايات: [٤٦]، [١٦٧].
* عملهم في توجيه العامة لما فيه الحق: [٩٩].
* علاقتهم بالسلطان:
١ ـ معاونتهم السلاطين على الحق وتثبيتهم: [٣٩]، [٦٤]، [١٦٢]، [٢١٩]، [٤٥٤]، [٤٥٥]، [٤٥٦]، [٤٥٧]، [٤٥٩]، [٤٦٠]، [٤٦١]، [٤٦٢]، [٤٦٣]، [٤٦٤]، [٤٩٩]، [٥٠٠]، [٥٤٧]، [٥٤٨].
٢ ـ وعظ السلطان بشجاعة: [٥٩]، [٧٥].
٣ ـ نصح السلطان: [١٩].
٤ ـ قد يزل العالم ويوفق السلطان للحق: [٣٤]، [٦٤].
٥ ـ الدعاء له، وكيفية ذلك: [٦٠].
* نماذج من العلماء الصالحين:
١ ـ الشيخ عمر المَلاّ: [٦٣]، [٦٤]، [٢١٩]، [٢٢١].
٢ ـ الإمام أبو البركات الأنباري النحوي: [٣٥١].
٣ ـ القاضي الفاضل: [٣٣٤]، [٣٣٥]، [٤٧٣].
وفاته، وذكر شيء من مناقبه العظيمة: [٥٤٦].

استجابة الله دعاءه: [٥٥٠].
أهمية رسائله وشوراه: [٥٤٧]، [٥٤٨].
تثبيته صلاح الدين: [٤٥٤]، [٤٦٠].
طلبه منه أن يتجرد لله: [٤٥٥]، [٤٦٣].
جعله يرى نعمة الله عليه في الجهاد: [٤٥٧].
تطييب خاطره على جيشه: [٤٥٦].
بيان أن صلاح الدين بقي منفرداً في المعركة: [٤٥٩].
طلبه منه ألا يشتكي إلا لله: [٤٦١].
بيان عظم ثوابه: [٤٦٢].
بيان أن ذنوبه مغفورة بالرباط: [٤٦٤].
ثنيه عن الحج بعد صلحه مع الصليبيين: [٤٩٩]، [٥٠٠].

و ـ الأخلاق والصفات

هناك جملة كبيرة من الأخلاق والصفات الحسنة في فهرسي أخلاق وصفات نور الدين، ومناقب صلاح الدين، رحمهما الله تعالى، فارجع إليهما، وإنما ذكرت هنا ما اتفق لغيرهما:

* جملة من الأخلاق والصفات الحسنة:

١ ـ الأدب:
الأدب مع الوالد: [٢٠٧].
٢ ـ الأمانة:
مَن برأه الله بعد موته: [٤٥٢].
٣ ـ التفاؤل والاستبشار: [٢٦١].
٤ ـ الذكاء وحسن التخلص: [٢٥٤]، [٣٤٢].
٥ ـ الشجاعة: [١٦٠].
٦ ـ الغيرة: [١٠٩]، [١١٠].
٧ ـ المروءة: [١٧٤]، [٢٦٢].
٨ ـ الورع: [٣٤١].

* أفعال حميدة:

ـ الصدقة:
صور عليها: [١٧٠]، [١٧٢]، [١٧٣].

من تصدق حتى نكب من قبل السلطان بسبب كثرة صدقاته: [١٧٥].

- جملة من الأخلاق والصفات السيئة:

١ ـ الحقد: الحقد قد ينشأ من فقد النعمة: [٢٧٣]، [٢٧٤].

٢ ـ الظلم:

عاقبته الوخيمة: [٣٣٧].

٣ ـ عدم اللباقة: [٣٥٢]، [٣٥٣].

٤ ـ الوشاية: [١٦٧].

ز ـ الشعر والأدب

ينبغي للشاعر أن يكون ملتزماً بآداب الإسلام: [٢٧٩].

أشعار متنوعة في:

١ ـ الجهاد: [٣٣٣]، [٣٥٥]، [٣٨٨]، [٣٩٠]، [٣٩١].

٢ ـ الوعظ: [٥٩].

٣ ـ الرثاء: [١٤٥]، [٢٨١]، [٥٤٩].

٤ ـ التحسر: [٢٧٤]، [٢٧٥]، [٢٧٦].

٥ ـ التشفي: [٢٦٧]، [٢٧٢].

٦ ـ المدح: [١٥٨]، [٣٣٥]، [٣٥٥]، وانظر الفصل الذي بعد فقرة: [٧٥].

٧ ـ التاريخ: [٢].

- عدم اهتمام نور الدين بأشعار المدح، وعدم إجازته الشعراء، وسبب كل ذلك: [٢٨٨]، [٢٨٩]، [٢٩٠].

الأدب

رسائل أدبية: [٣٣٤]، [٣٦٦].

وانظر كذلك «رسائل الجهاد» في فهرس الجهاد، ورسائل تثبيت القاضي الفاضل صلاح الدين في فهرس العلماء الصالحين.

المناشير السلطانية أيام نور الدين وصلاح الدين كانت رسائل أدبية: [٢١٨]، [٢٢٨]، [٢٥٦]، [٢٩٤]، [٢٩٥]، [٣٢٥]، [٣٤٥]، [٣٥٦]، [٣٦٠].

مفاضلة أدبية بين الشام ومصر: [٣٦٥]، [٣٦٧].

وصف دمشق: [٣٦٦].

ح ـ الحرمان الشريفان وأخبار الحجاج

- الإصلاحات في الحرمين:

تيسير طرق الحاج في المشاعر: [١٦٩].

بناء سور المدينة المنورة: [١٧٠].

إسقاط الضرائب عن الحجاج: [٣٢٤].

التصدق على أهل الحرمين: [١٧٣]، [٣٢٤].

- صعوبة الحج في الزمن الماضي وخطورته: [١٢٨]، [٣٣٤].

حال الحجاج مع الأعراب: [١٢٨]، [٣٣٤].

ط ـ متفرقات

- الطرائف: [١١٦]، [٣٦٤]، [٤١٢].
- العجائب والغرائب: [٨٥]، [١٠٥]، [١١٦]، [١٢٤]، [١٤٤]، [١٨٠]، [٢٢٩]، [٢٣٠]، [٢٣٢]، [٢٦٦]، [٢٦٧]، [٣٠٨]، [٣٢٧]، [٣٦٣].

فائدة العامة والأوباش في إقرار الحق لكثرتهم وقوتهم: [٩٩]، [٣٣٧].

- الكوارث:

١ ـ الغرق: [٨٥].

٢ ـ الزلازل: [٨٦]، [١٣٩]، [١٤٠]، [١٤١]، [١٤٢]، [١٤٣]، [١٤٤]، [٢٠٩].

٣ ـ قتل الحجاج: [١٢٨].

٤ ـ المجاعات: [١٣١]، [٣٢٦]، [٣٢٧].

- مكتبات وكتب:

مكتبة آمد: [٣٥٨].

مكتبة الفاطميين بمصر: [٢٣٠]، [٣١٨].

- منامات ورؤى حسنة: [١٠٢]، [١٠٣]، [١١٩]، [٢٠٦]، [٢٢٢]، [٢٢٩]، [٣٧٨]، [٣٨٩]، [٥٠٥].
- تأويل الرؤيا: [٢٢٩].

فهرس الموضوعات

الموضوع الصفحة

الإهداء ٥
مقدمة الناشر ٧
مقدمة المختصر ٩
مقدمة المصنف ١٩
ترجمة المصنف ١٥
أهمية علم التاريخ ٢١
سبب تصنيف الكتاب ٢٢
الكتب المصنفة في تاريخ الدولتين النورية والصلاحية قبل هذا الكتاب ٢٥
مناقب نور الدين محمود بن زنكي، رحمهما الله ٢٧
أصل بيت نور الدين ٥٣
ذكر أخبار آق سنقر، جد نور الدين ٥٣
ذكر أخبار زنكي، والد نور الدين ٥٥
ولاية زنكي على الموصل وغيرها ٦٠
جهاد زنكي للفرنج ٦٢
فتح الرُّها ٦٧
وفاة زنكي مقتولاً ٦٩
سيرة زنكي ٧١
ما جرى بعد وفاته من تملك ولديه سيف الدين ونور الدين ٧٤
نزول الفرنج على دمشق ٧٧
أخبار سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ٧٧

الموضوع **الصفحة**

إبطال شعار الشيعة بحلب ٨٠
أخبار سنة أربع وأربعين وخمسمائة ٨٠
وفاة سيف الدين غازي أخو نور الدين ٨١
أخبار سنة خمس وأربعين وخمسمائة ٨٥
فتح عزاز ٨٥
أخبار سنة ست وأربعين وخمسمائة ٨٧
أخبار سنة سبع وأربعين وخمسمائة ٩٠
أخبار سنة تسع وأربعين وخمسمائة ٩١
فتح دمشق ٩٢
أخبار سنة إحدى وخمسين وخمسمائة ٩٤
أخبار سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة ٩٥
ذكر حصن شَيْزر وولاية بني منقذ ١٠٣
وقعة بين نور الدين والفرنج كادوا يسطون بنور الدين فيها ١٠٤
أخبار سنة ثمان وخمسين وخمسمائة ١٠٧
أخبار سنة تسع وخمسين وخمسمائة ١٠٨
إرسال نور الدين العساكر إلى مصر للمرة الأولى ١١٠
فتح حارم في موقعة عظيمة بين نور الدين والفرنج ١١٤
تذلل نور الدين لله ـ سبحانه وتعالى ـ في تلك الموقعة ١١٧
وفاة الوزير جمال الدين الأصفهاني، وذكر شيء من سيرته ١١٧
أخبار سنة ستين وخمسمائة ١٢٤
فتح بانياس ١٢٤
أخبار سنة إحدى وستين وخمسمائة ١٢٥
فتح المُنَيْطرة ١٢٥
أخبار سنة اثنتين وستين وخمسمائة ١٢٦
مسير الجيش النوري إلى مصر مرة ثانية ١٢٦
أخبار سنة أربع وستين وخمسمائة ١٢٩
مسير الجيش النوري إلى مصر مرة ثالثة، وفتحها ١٢٩
قتل شاوَر ١٣٤
وزارة أسد الدين شِيرْكُوه ١٣٥

الموضوع الصفحة

وفاة شيرْكُوه وتولي صلاح الدين الوزارة في مصر ١٣٦
تفنيدٌ حسنٌ لتوتر العلاقة بين نور الدين وصلاح الدين، رحمهما الله ١٣٧
أخبار سنة خمس وستين وخمسمائة ١٣٨
نزول الفرنج على دمياط ١٣٨
رؤيا عظيمة مبشرة لنور الدين ١٤٠
مسير نجم الدين أيوب والد صلاح الدين إلى مصر بأهله وأولاده للقاء صلاح الدين ١٤٠
وفاة مَوْدود بن زَنكي صاحب الموصل ١٤٣
أخبار سنة ست وستين وخمسمائة ١٤٥
دخول نور الدين إلى المَوْصل ١٤٥
أخبار سنة سبع وستين وخمسمائة ١٥٠
نهاية الدولة العُبيدية الفاطمية الباطنية الملحدة، ومصادرة قصورها وأموالها ... ١٥٦
أخبار تلك الدولة الخبيثة وقبائحها ١٥٧
توتر العلاقة بين نور الدين وصلاح الدين مرة أخرى ١٦٢
اتخاذ الحمام الهوادي ١٦٤
إسقاط الضرائب ١٦٦
أخبار سنة ثمان وستين وخمسمائة ١٦٦
وفاة نجم الدين أيوب والد صلاح الدين، وذكر شيء من سيرته ١٦٧
فتح اليمن ١٧٠
صلب عمارة الشاعر اليمني وأصحابه ١٧١
وفاة نور الدين، رحمه الله تعالى، وذكر شيء من سيرته زيادة على ما تقدم في أول الكتاب ١٧٧
سببٌ لتوتر العلاقة بين نور الدين وصلاح الدين، رحمهما الله تعالى ١٧٨
ولاية إسماعيل بن نور الدين ١٨١
أخبار سنة سبعين وخمسمائة ١٨٣
دخول صلاح الدين دمشق ١٨٤
فتح حمص وحماة، وحصار حلب ١٨٥
محاولة الباطنية الحشيشية قتل صلاح الدين للمرة الأولى ١٨٨
فتح بعلبك ١٨٩

الموضوع الصفحة

محاولة الباطنية الحشيشية قتل صلاح الدين للمرة الثانية ١٩١
أخبار سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة ١٩٣
حصار صلاح الدين حصن الباطنية ليدرك ثأره منهم ١٩٣
رجوع صلاح الدين إلى مصر ١٩٥
أخبار سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة ١٩٧
كسرة الرملة، وهي وقعة بين صلاح الدين والصليبيين ١٩٧
أخبار سنة أربع وسبعين وخمسمائة ١٩٧
إسقاط الضرائب عن الحجاج ١٩٧
وقعة مع الصليبيين، ومقتل ملكهم ٢٠٠
وقعة مرج عيون مع الصليبيين ٢٠٠
أخبار سنة خمس وسبعين وخمسمائة ٢٠١
تخريب حصن حصين للصليبيين ٢٠٢
أخبار سنة ست وسبعين وخمسمائة ٢٠٥
وفاة صاحب الموصل ٢٠٥
وفاة الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين ٢٠٧
أخبار سنة ثمان وسبعين وخمسمائة ٢١٣
وقعة مع الصليبيين القاصدين المدينة المنورة، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ٢١٣
فتح آمد ٢١٦
أخبار سنة تسع وسبعين وخمسمائة ٢١٦
فتح حلب ٢١٧
عجيبة في تاريخ فتح حلب متعلقة بفتح بيت المقدس ٢١٩
أخبار سنة ثمانين ٢٢١
مفاضلة أدبية بين مصر والشام ٢٢١
أخبار سنة إحدى وثمانين وخمسمائة ٢٢٧
صلح السلطان مع أهل الموصل، ومرض السلطان ٢٢٨
أخبار سنة اثنتين وثمانين، وشفاء السلطان فيها ٢٣٠
أخبار سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ٢٣٠
معركة حطين، وفتح طبرية ٢٣٠

الموضوع	الصفحة
فتح نابلس، وجملة من بلاد الساحل	٢٣٧
فتح صيدا وبيروت وغيرها	٢٣٨
فتح عسقلان وغزة	٢٤٠
فتح بيت المقدس، عجّل الله ردّه	٢٤١
صفة إقامة الجمعة بالمسجد الأقصى، وذكر الخطبة الأولى كاملة	٢٥٥
نقل المنبر النوري من حلب إلى بيت المقدس	٢٦٤
خروج كثير من النصارى من بيت المقدس، وبقاء بعضهم عبيداً	٢٦٨
أخبار سنة أربع وثمانين وخمسمائة	٢٧١
فتح اللاذقية	٢٧١
الهدنة مع صاحب أنطاكية	٢٧٣
فتح الكَرَك	٢٧٤
فتح صَفَد	٢٧٤
فتح حصن كوكب	٢٧٥
أخبار سنة خمس وثمانين وخمسمائة	٢٧٧
فتح شقيف أرنون	٢٧٧
نزول الفرنج على عكّا	٢٧٩
المصاف الأعظم على عكّا	٢٨٢
خروج ملك الألمان	٢٩٠
أخبار سنة ست وثمانين	٢٩٢
قدوم ملوك الصليبيين على عكّا	٢٩٢
أخبار ملك الألمان	٢٩٦
وقعة بين صلاح الدين والصليبيين على عكّا	٣٠١
إدخال السفن إلى عكا	٣٠٧
إحراق أبراج الصليبيين المحاصرة عكّا	٣١٢
مراسلات رائعة بين القاضي الفاضل وصلاح الدين	٣١٥
مراسلة سلطان المغرب وحثه على نصرة المسلمين، واعتذاره بعذر بارد	٣٢٢
استبدال الجنود المسلمين المرابطين بعكّا	٣٢٩
أخبار سنة سبع وثمانين	٣٣٤
أخذُ الصليبيين عكّا وقتل من فيها من أسرى المسلمين	٣٣٧

الموضوع الصفحة

تخريب صلاح الدين عسقلان لئلا يظهر عليها الصليبيون ٣٤٧
تردد رسل الصلح بين صلاح الدين والصليبيين ٣٥٠
أخبار سنة ثمان وثمانين ٣٥٢
عزم الفرنج على حصار القدس، ثم رجوعهم عنه ٣٥٣
عقد الصلح بين صلاح الدين وملك إنكلترا ٣٥٨
وفود النصارى تحج بيت المقدس بعد الصلح ٣٦١
عزم صلاح الدين على الحج، وإشارة القاضي الفاضل بعدمه تحقيقاً للمصلحة ٣٦٣
انتقال صلاح الدين من القدس إلى دمشق ٣٦٥
أخبار سنة تسع وثمانين ٣٦٧
مرض صلاح الدين، ووفاته، رحمه الله تعالى ٣٦٧
تركة السلطان، ووصف أخلاقه ٣٧٢
مواظبته على القواعد الدينية وملاحظته الأمور الشرعية ٣٧٥
انقسام ممالك صلاح الدين بين أولاده وإخوته ٣٩٠
وفاة القاضي الفاضل، رحمه الله تعالى ٣٩١

فهرس الفهارس

الفهرس **الصفحة**

١ ـ فهرس المصادر والمراجع ٣٩٧

٢ ـ فهرس الفوائد، ويحوي:

أ ـ فهرس علم التاريخ، وفيه: ٤٠٠
١ ـ مقدمة عن أهمية علم التاريخ عامة و «كتاب الروضتين» خاصة ٤٠٠
٢ ـ البيت النوري ٤٠٠
٣ ـ أخلاق وصفات نور الدين ٤٠١
٤ ـ إصلاحات نور الدين ٤٠٢
٥ ـ أخبار الأيوبيين ٤٠٤
٦ ـ صفات وأخلاق صلاح الدين ٤٠٥
٧ ـ إصلاحات صلاح الدين ٤٠٦
٨ ـ أخبار الدولة الفاطمية العُبيدية الخبيثة ٤٠٦
٩ ـ أخبار السلاطين والأمراء السلاجقة ٤٠٧
١٠ ـ أخبار آل منقذ ٤٠٧
ب ـ فهرس أخبار الجهاد، ويحوي: ٤٠٧
١ ـ مقدمة وأخبار عن الجهاد وفضائله، وأسباب النصر ٤٠٨
٢ ـ جهاد الصليبيين في بلاد الشام والرافدين ٤٠٨
٣ ـ صور على عز الإسلام وقهره الصليبيين ٤٠٩
٤ ـ من أخبار المجاهدين ٤٠٩
٥ ـ البيت النوري وأثره في الجهاد، ومعاركهم مع الصليبيين ٤٠٩
٦ ـ أثر صلاح الدين في الجهاد، ومعاركه مع الصليبيين ٤١٠
جـ ـ العقيدة ٤١١
د ـ الصلة بالله تعالى ٤١٢

هـ ـ العلماء ٤١٢
و ـ الأخلاق والصفات ٤١٣
ز ـ الشعر والأدب ٤١٤
ح ـ الحرمان الشريفان وأخبار الحجاج ٤١٥
ط ـ متفرقات، فيها طرائف، وعجائب وغرائب، وكوارث، ومكتبات وكتب، ومنامات ورؤى ٤١٥
٣ ـ فهرس الموضوعات ٤١٩

التآكل الفلسطيني

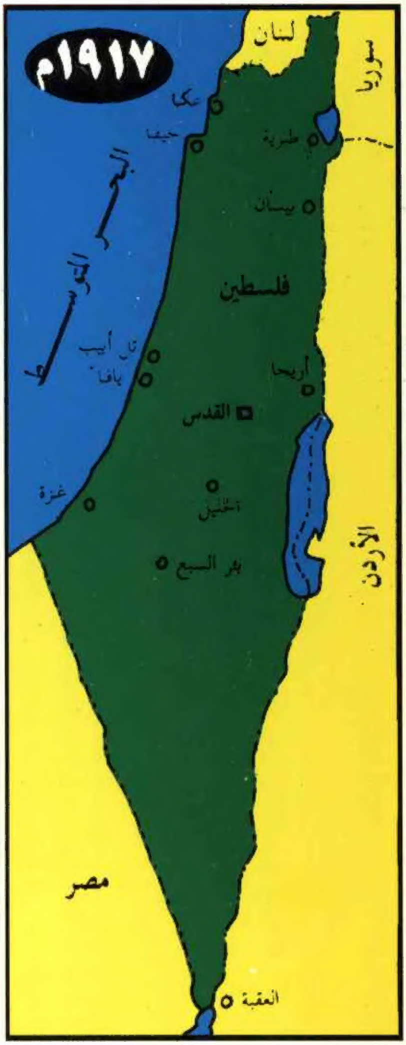
١٩١٧م
لبنان
سوريا
عكا
حيفا
طبرية
بيسان
البحر المتوسط
فلسطين
تل أبيب
يافا
أريحا
القدس
غزة
الخليل
بئر السبع
الأردن
مصر
العقبة

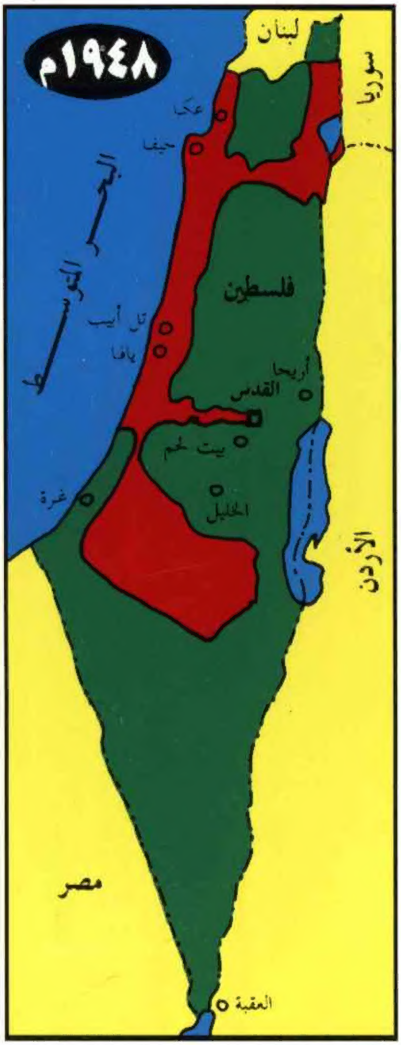
١٩٤٨م
لبنان
سوريا
عكا
حيفا
البحر المتوسط
فلسطين
تل أبيب
يافا
أريحا
القدس
بيت لحم
غزة
الخليل
الأردن
مصر
العقبة

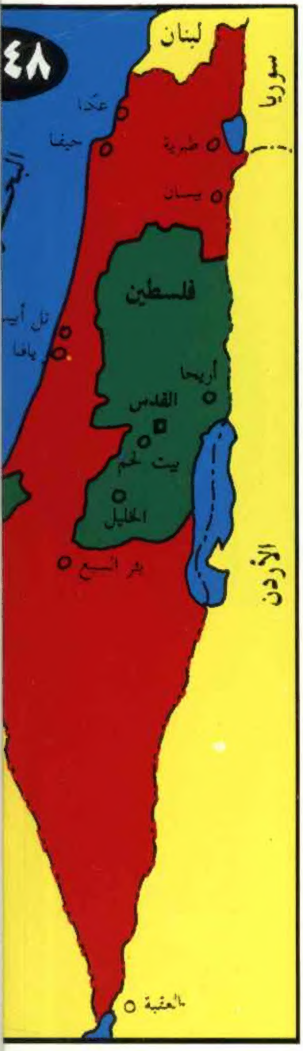
٤٨
لبنان
سوريا
عكا
حيفا
طبرية
بيسان
فلسطين
تل أبيب
يافا
أريحا
القدس
بيت لحم
الخليل
بئر السبع
الأردن
العقبة

قبيل الاحتلال البريطاني

● لم يكن عدد اليهود في فلسطين يتجاوز ٥٦ ألفا مقابل ٦٤٤ ألف فلسطيني ، أي بنسبة ٨٪ إلى ٩٢٪، ولم تتعد نسبة الأراضي التي يملكها اليهود ٢٪ من أرض فلسطين.

● بدأت أول موجة هجرة يهودية إلى فلسطين عام ١٨٨٢، وبلغ عدد المهاجرين اليهود حتى عام ١٩٠٣ حوالي ٢٠ ألفاً.

● بعد احتلال بريطانيا لفلسطين في تشرين الأول / أكتوبر ١٩١٧ أعطى بلفور في ١٩١٧/١١/٢ وعده لليهود بإنشاء وطن قومي لهم في فلسطين.

من الاحتلال حتى عشية الحرب

● أصدرت الأمم المتحدة قرارها بتقسيم فلسطين في ١٩٤٧/١١/٢٩ إلى دولتين: فلسطينية ويهودية اقتطع لها ٥٤٪ من أرض فلسطين.

● عشية حرب ١٩٤٨ بلغ عدد الفلسطينيين ٢،٠٦٥ مليون نسمة مقابل ٦٥٠ ألف يهودي ، أي بنسبة ٦٩٪ إلى ٣١٪، ونشأت معظم الزيادة اليهودية بسبب الهجرة المحمية من قوات الاحتلال البريطاني (الانتداب) ، وأصبح اليهود يمتلكون بموجب عقود ملكية ٥،٦٦٪ فقط من مساحة فلسطين إلا أنهم استولوا بالقوة خلال فترة الانتداب على ما مجموعه ١١٪ منها، بما في ذلك ١٩١ قرية و٧ مدن ، وطردوا نصف لاجئي ١٩٤٨

بعد حرب ١٩٤٨

● أعلن الصهاينة قيام دولتهم (إسرائيل)
فلسطين في ١٩٤٨/٥/١٥ بعد سويعات
البريطانيين إنهاء إنتدابهم عليها ، وبدأت
العصابات الصهيونية وبين الفلسطينيين والج
التي لم تكن مستعدة لهذه الحرب ، مما س

● بفعل الحرب سيطر الصهاينة على
أراضي فلسطين. وأدى قيام الكيان الصهيو
الصهيونية التي ارتكبت ضد الفلسطينيين ،
حركة نزوح ضخمة أبقت على ٦٠٠٠٠
فقط في الاراضي المحتلة عام ٤٨، مقابل أك
يهودي كما هاجر إلى فلسطين خلال ال
الأولى لقيام الكيان الصهيوني ١٠١٨٢٨

والتوسع الصهيوني

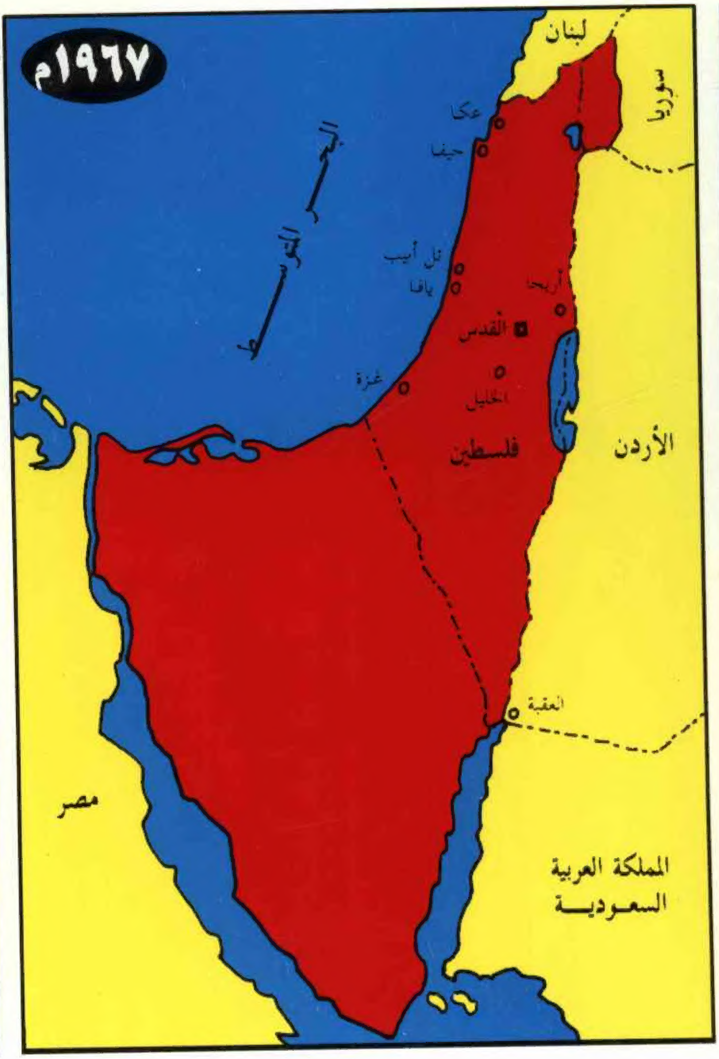
١٩٦٧م
لبنان
سوريا
عكا
حيفا
البحر المتوسط
تل أبيب
يافا
أريحا
القدس
غزة
الخليل
فلسطين
الأردن
العقبة
مصر
المملكة العربية السعودية

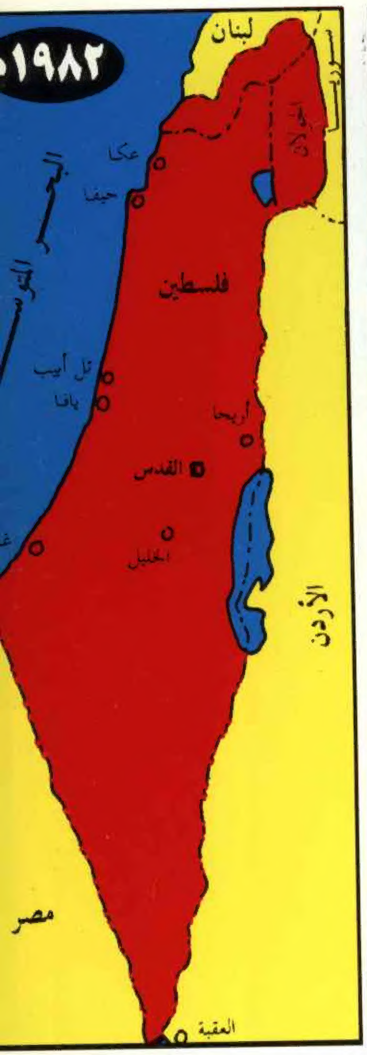
١٩٨٢
لبنان
سوريا
الجولان
عكا
حيفا
البحر المتوسط
فلسطين
تل أبيب
يافا
أريحا
القدس
الخليل
الأردن
مصر
العقبة

على أرض
من اعلان
الحرب بين
وش العربية
ب هزيمتها.
٧٧٪ من
ي والمذابح
ى إحداث
فلسطيني
من مليون
شهر الستة
هودياً.

بعد حرب ١٩٦٧

- احتل الصهاينة في حرب حزيران / يونيو ١٩٦٧ ما تبقى من فلسطين بالاضافة لشبه جزيرة سيناء المصرية وهضبة الجولان السورية ، وبلغ مجموع الأراضي العربية الخاضعة لسيطرة الصهاينة ٨٩٣٥٩ كم٢ أي ما يزيد على اربعة أمثال الأراضي المحتلة قبل الحرب.
- كان عدد الفلسطينيين المتواجدين في الأراضي الفلسطينية عشية الحرب ٢،٢٥ مليون فلسطيني ، يمثلون ما نسبته ٧٠٪ مقابل ٣٠٪ من اليهود .
- فر خلال الحرب وبعيدها أكثر من ٤١٠ آلاف فلسطيني بسبب المذابح الصهيونية وبدافع الخوف .
- بدأ الاستيطان الصهيوني في الضفة وغزة بانشاء أول مستوطنة صهيونية هي (مستوطنة كفار عتصيون) بالضفة في ١٩٦٧/١١/٢٥، وفي العام الأول للإحتلال أقيمت ١٤ مستوطنة . ووصل إلى فلسطين ١٢٢٧٠ مهاجراً يهودياً.

غزو لبنان

- غزا الصهاينة لبنان في أيار / مايو ١٩٨٢
ما أسموه بعملية (سلامة الجليل)، معلنين
الهدف هو تأمين سلامة ٦٣ مستعمرة وم
صهيونية في شمال فلسطين ، من هجم
المقاومة الصاروخية في جنوب لبنان ، ثم ت
الهدف المعلن إلى إنهاء تواجد المقا
الفلسطينية، وانسحب الصهاينة من لبنان
١٩٨٥ محتفظين بشريط في الجنوب يتر
عرضه بين ١٠ و ٢٠ كم.
- وفقاً لاتفاقية كامب ديفد أكمل الصهاينة
أيار/مايو ١٩٨٢ انسحابهم من سيناء بشر
جعلتها منقوصة السيادة.

الندوة العالمية للشباب الإسلامي
World Assembly of Muslim Youth
لجنة شباب فلسطين

🟥 مناطق الاحتلال والتوسع الصهيوني

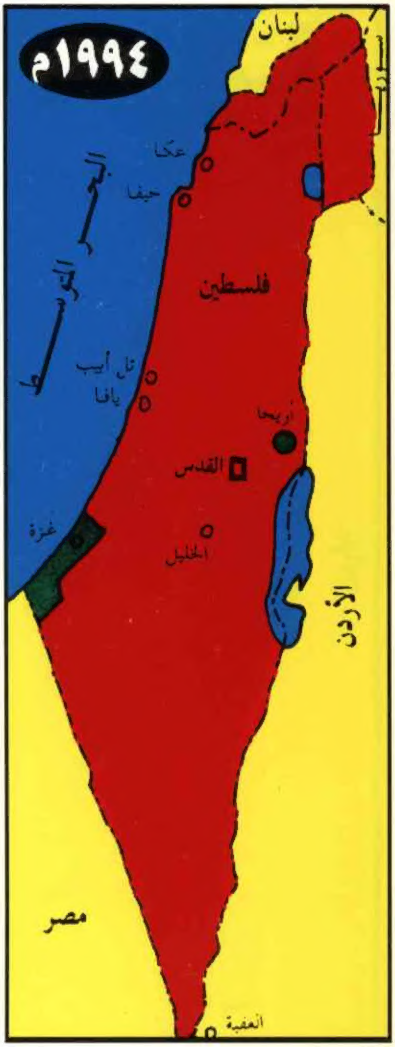
١٩٩٤م
لبنان
البحر المتوسط
عكا
حيفا
فلسطين
تل أبيب
يافا
أريحا
القدس
غزة
الخليل
الأردن
مصر
العقبة

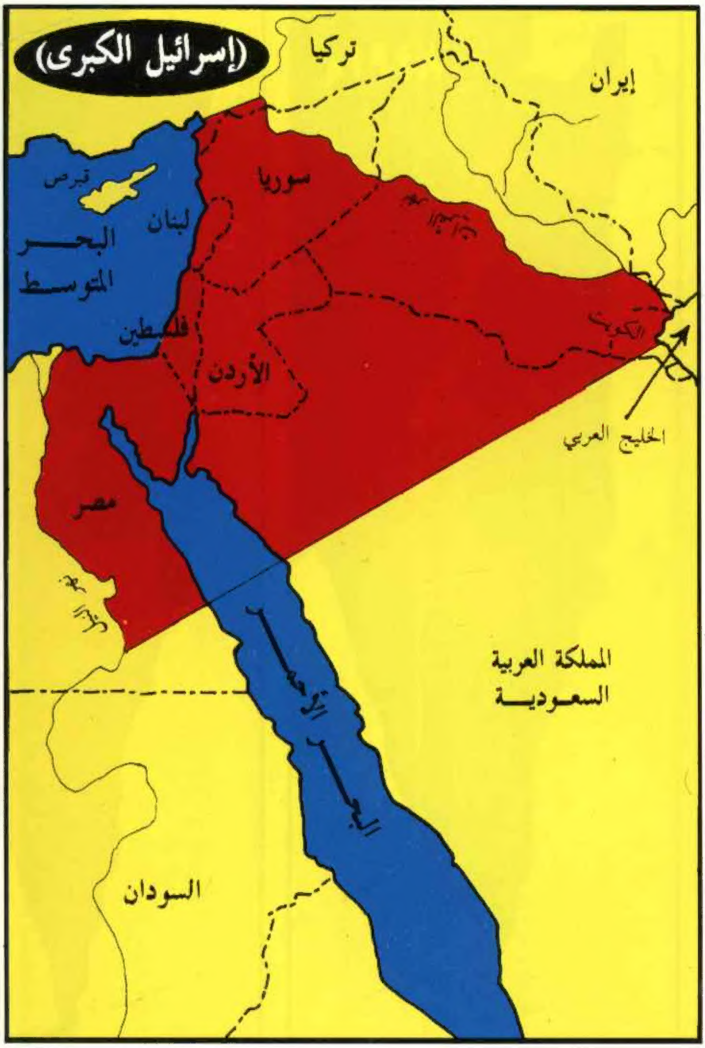
(إسرائيل الكبرى)
تركيا
إيران
قبرص
سوريا
لبنان
البحر المتوسط
نهر الفرات
فلسطين
الأردن
الكويت
الخليج العربي
مصر
نهر النيل
البحر الأحمر
المملكة العربية السعودية
السودان

بعد اتفاق غزة / أريحا

- في أيلول / سبتمبر ١٩٩٣ وقع اتفاق أوسلو الذي أعطى حكما ذاتيا محدود الصلاحيات لمنطقتي غزة وأريحا اللتين تشكلان ١,٥٪ من الأراضي الفلسطينية ، إذ تبلغ مساحة غزة ٣٦٣كم٢ ، وعدد سكانها حوالي ٨٠٠ ألف نسمة، ويقطنها ٥ آلاف مستوطن صهيوني . وتبلغ مساحة اريحا ٦٠كم٢ ، ويسكن المدينة والمناطق التابعة لها ٢٥ ألف نسمة .
- قبيل اتفاق أوسلو كانت (اسرائيل) تسيطر على ٦٥٪ من أراضي الضفة ، وتسيطر الان على ٧٣٪ منها بعد أن صادرت ٦٧ ألف دونم بعد الاتفاق.
- يسكن في فلسطين الآن ٧,٢ ملايين منهم ٤,٤ ملايين يهودي مقابل ٢,٨ مليون فلسطيني .

(إسرائيل الكبرى)

- في سنة ١٨٩٧ انعقد مؤتمر صهيوني كبير في مدينة بال بسويسرا ضم زعماء اليهود في أنحاء العالم ، وأقر فكرة ثيودور هرتزل مؤسس الصهيونية بإقامة دولة صهيونية في فلسطين ، وتشجيع الهجرة لها لتتطور هذه الدولة إلى دولة صهيونية كبرى تمتد من النيل إلى الفرات وفقاً لما ينسب للتوراة في سفر التكوين (١٨/١٥) الذي يقول : (في ذلك اليوم قطع الرب مع إبرام ميثاقا قائلاً : لنسلك أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات) ، ويطلق اسم أرض إسرائيل (ايرتس – يسرائيل) – كما تزعم التعاليم اليهودية – على الجزء الواقع جنوب غربي آسيا والذي يضم فلسطين إضافة للبنان والأردن وأجزاء كبيرة من مصر وسوريا والعراق والسعودية والكويت وحتى تركيا ، ولا تزال خريطة (إسرائيل الكبرى) معلقة في مبنى البرلمان الإسرائلي (الكنيست) حتى هذه اللحظة .

المرجع : مجلة قضايا دولية – العدد (٢٦١)